فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

427-426

تشرين الثاني 2021

ملف في وداع الدكتور كاظم حبيب

ملف في الذكرى الثانية لـ(انتفاضة تشرين)
لؤي حمزة عباس
علي العرار
احمد محمد الموسوي
نائل الزامل
علي حسين جابر
عمار المسعودي

مقالات
كاظم حبيب
صالح ياسر
رياض البلداوي
حيدر عبدالامير الغريباوي
حميد الهاشمي

نصوص قديمة
حول انهيار الاتحاد السوفييتي

نصوص مترجمة
بوب جيسوب

حوارات
حوار مع جاسم الحلفي

أدب وفن
حسب الله يحيى
قاسم حسين صالح
ياسين النصير
ناجح المعموري
صباح محسن جاسم
سحر الشامي
محمد سيف
عدنان حسين
ناظم علاوي
الاء الخيرو
كريم ده شتى
جواد وادي
معتز عناد غزوان
طلال سالم الحديثي
سوران محمد

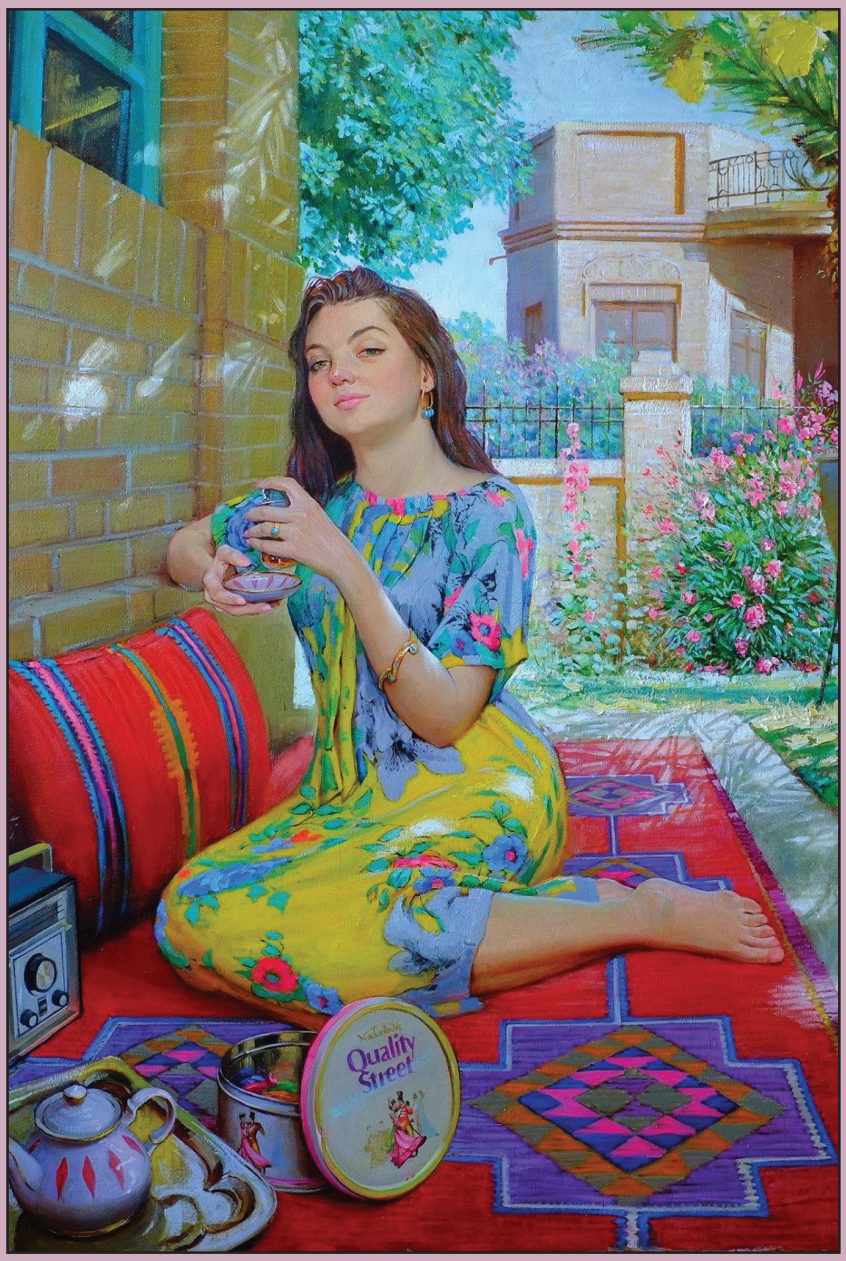

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 426-427
تشرين الثاني: 2021

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
hassab1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف في وداع الدكتور كاظم حبيب

8- الاستاذ الدكتور كاظم حبيب (أبو سامر).. وداعا ..... هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)
11- الدكتور كاظم حبيب.. وداعا ..... المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي
12- الدكتور كاظم حبيب.. وداعا ..... مظهر محمد صالح
15- كاظم حبيب: المثابر على العلم والمعرفة ..... عقيل الناصري
22- كاظم حبيب..أستاذ جامعي وباحث أكاديمي ونصير في كردستان ..... سناء عبد القادرمصطفى
26- في صحبة الرفيق البرليني الكبير ..... حامد فضل الله
26- إنسان غمرني بكرمه ..... حسن عبد الله بدر

ملف في الذكرى الثانية لـ(انتفاضة تشرين)

30- ضوء تشرين/ ولادة فن الغرافيتي في العراق ..... لؤي حمزة عباس
38- مخاضات الهويَّة الوطنية.. وآمال تشرين ..... علي العرار
46- قراءة في أدبيات الاحتجاج في النجف 2015 – 2020 ..... احمد محمد الموسوي
57- ((تشرين)): مساق الثورة والتغيير ..... نائل الزامل
67- انتفاضة تشرين /انعطافة هامة في الكفاح الوطني نحو التغيير ..... علي حسين جابر
75- قراءة في مجموعة " مناسك تشرين " للشاعر أجود مجبل ..... عمار المسعودي

مقالات

80- في الذكرى السنوية الثالثة والستين لثورة 14 تموز 1958 (2-2) ..... كاظم حبيب
85- اشكالية السلطة السياسية،الدولة، الطبقات الاجتماعية - مقاربة نيكوس بولنتزاس .... صالح ياسر
95- علم النفس السياسي /نحو فهم أعمق للأحداث السياسية ..... رياض البلداوي
106- نموذج مقترح لقيام مجلس الحبوب العراقي"دراسة تحليلية" ..... حيدر عبدالامير الغريباوي
117- طابع الحزن في الأغنية العراقية/نحو فرضية تفسيرية مغايرة ..... حميد الهاشمي

نصوص قديمة

128- حول انهيار الاتحاد السوفييتي ..... الحزب الشيوعي البريطاني

نصوص مترجمة

134- مقاربات ماركسية عن السلطة.. لـ بوب جيسوب ..... ترجمة: سوران قحطان

حوارات

150- (الثقافة الجديدة) تحاور الناشط المدني والباحث في الحركات الاحتجاجية / جاسم الحلفي

أدب وفن

164- الانتفاضة وخصومها ..ثقافياً ..... حسب الله يحيى
166- اهداف تظاهرات انتفاضة تشرين ..... قاسم حسين صالح
171- الثقافة - المعرفة - السلطة ..... ياسين النصيِّر
180- الروائي فلاح رحيم: (القرد هد حيلي) ..... ناجح المعموري
188- "خلو" فن التعبئة المضادة للقبح ..... صباح محسن جاسم
196- مسرحية النساء والحروب ..... سحر الشامي
205- أيها الناس ...أنا أكتبُ، برأس مجنونٍ.. فخذوني على عقلي! ..... محمد سيف
210- كارلوس غصن في الرحلة الأخيرة ..... عدنان حسين أحمد
212- يقظة وبعض حلم ..... ناظم علاوي
216- محاولة لتطويق الكائن اللامرئي ..... آلاء الخيرو
219- نصوص كردية من كريم دەشتی ..... ترجمة الاديب الراحل :سعدي المالح
226- مختارات من شعر الهايكو ..... جواد وادي
230- قراءة في كتاب "الدولة العقيمة" لحسن الجنابي ..... معتز عناد غزوان
235- (أفعى أم القرابين): وجها الافعى.. هل يتحكمان بمصير الناس ..... طلال سالم الحديثي
238- الشاعر الذي تنبأ بهيمنة الحاسوب .. ريتشارد بروتيغان ..... ترجمة : سوران محمد

لوحتا غلافي العدد للفنان محمود فهمي

كلمة العدد

عامان على انتفاضة تشرين المجيدة ما زالت الرايات ترفرف!

مع الشروع بكتابة سطور كلمة هذا العدد، يكون قد انقضى عامان على قيام انتفاضة تشرين. ذلك الحدث المفصلي في تاريخ العراق المعاصر، والذي لا يقل مكانة عن وثبة كانون 1948 او انتفاضة آذار 1991 والوثبات الاخرى. بل وربما وبسبب من الإمكانيات التي اشتملت عليها، يمكن لانتفاضة تشرين أن ترتقي الى مستوى الاحداث المؤسِسة في تاريخ الدولة العراقية الحديثة، سواء ثورة العشرين او ثورة 14 تموز 1958.

ففي تلك الأيام من عام 2019 -التي استطالت بعد ذلك لتمتد شهورا- امتلأت سوح الاحتجاج، في بغداد والناصرية والبصرة، في الكوت والنجف وكربلاء، وغيرها من المحافظات والمدن والقصبات، بمحتشدات بشرية كبيرة، وضجت الشوارع بهتافاتها المدوية ورايتها الخفاقة. لقد كانت القضية ببساطة، قضية شعب. فالناس نزلت الى الساحات والشوارع، تريد حقوقها وتطالب بوطنها المسلوب عبر شعارها العتيد (نريد وطن). كانوا «جماعات» حقيقية، بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى. جمعتهم أساسا أهدافهم المشتركة، وخصم واحد مكشوف، وهوية وطنية. ثم وحدتهم الضحايا التي سقطت والدماء التي نزفت، والمآثر التي سُطرت. فيما وثق الرصاص والدخانيات من أواصر علاقاتهم. هناك ارتبط الجميع بعلاقات إنسانية راقية، بمشاعر يتعذر وصفها، ولا يمكن رسم ملامحها بسهولة، وذلك لرونقها وحتى غرائبيتها أحيانا، ولنكران الذات والتسامح الذي اتسم به الجميع، ولكن يتذكرها كل من انغمسوا في نضالات الانتفاضة وعاشوا ايامها المجيدة.

سواسية كأسنان المشط، كان المنتفضون، رجالا ونساء من مختلف الاعمار. ما فرقتهم الأديان ولا المذاهب ولا القوميات. الجميع، أساتذة وطلبة، فنانون ومثقفون، كادحون وكسبة، كلهم كان يعمل، كخلية نحل. فهم يناقشون السياسة وتكتيكات الحركة و مآلات الانتفاضة، وبعضهم يرسم على الجدران. او هم يطبخون او ينقلون المؤون والطعام والأدوية، او يجمعون القمامة وبقايا الدخانيات، او ينظفون الخيم والشوارع. وعندما يتعبون يجلسون على الرصيف، او يفترشون الأرض، وقد يلتئمون على مأدبة بسيطة. وفي وقت الراحة، كانوا يستذكرون الضحايا، ويتفاخرون ببطولاتهم، او كانوا يتداولون بأسماء الجرحى والمصابين وبكيفية زيارتهم، ويضعون الخطط لجمع المال من اجل دعمهم ماديا هم وعوائلهم.

هذه وغيرها، كانت ببساطة يوميات الانتفاضة. أيام ليست كباقي الأيام. أيام غيرت النفوس قبل ان تغير العالم.

*****

ان الحركات الاحتجاجية والمطلبية السابقة لتشرين، والتي انطلقت منذ 2011، على الرغم من جدتها وريعانها، لم تملك كل هذا الوهج والوضوح والعنفوان، ولم تكتسب تلك الأهمية التي اتسمت

بها انتفاضة تشرين. وذلك لأسباب مختلفة، أكبر بكثير من الإنجازات التي حققتها الانتفاضة على عظمها. يقع في مقدمتهاعمق وسعة موضوعة التغيير الذي تبنته الانتفاضة منذ البداية. وأيضا، بسبب الإمكانيات المتعددة التي اشتملت عليها، والتي أصبحت الآن، بعد خفوت صوت الانتفاضة، جزءا مركزيا من مشروع التغيير السياسي والاجتماعي الوطني العام. وبالتالي، ليس من قبيل البطر او حتى التباهي اذا تم تصنيف انتفاضة تشرين على انها ثورة، وان كانت ثورة غير مكتملة الشروط. فهي وان لم تمتلك ناصية شروط واشتراطات الارتقاء الضرورية الى مصاف الثورات، هي بالتأكيد، أكبر بكثير من ان تكون مجرد هبة شعب مظلوم.

ان انتفاضة تشرين، مثلها مثل غالبية احداث التاريخ الكبرى مركزية الانفجار. انبثقت بعد تراكم طويل للشحن والتوتر والضغط، وهي وان لم تؤدِ الى انهيار منظومة السلطة، فإن لأمواجها الزلزالية العديد من الارتدادات والتأثيرات. وفي مقدمتها، إنها أعادت الحياة والدلالة للمساهمة الجماهيرية في المجال السياسي، كي تنتزع بذاتها حقوقها المسلوبة، بعيدا عن مشاعر الاستكانة والإحباط، او التواكل بانتظار الخلاص أو «المنقذ». كما ان انتفاضة تشرين، إعادت الثقة بثقافة الاحتجاج والثورة، التي ضن البعض انها ثقافة، كانت قد اندرست، ولا وجود لها الا ضمن احفوريات الوعي الجمعي العراقي.

وبهذا الخصوص، ومن جهة ثانية لا تقل أهمية، نرى ان انتفاضة تشرين ساهمت في غرس العديد من المعاني والسلوكيات جديدة في الوعي الجمعي والمجتمعي العراقي، واغنت القاموس النضالي بالعديد من المفاهيم والشعارات. بل وأكثر من ذلك، كان أثر الانتفاضة كبيرا الى درجة انها ساهمت في ادراج الكثير من المفردات والدلالات في الخطاب الشفهي و/او المدون. وهذا ما بدا واضحا، من الجمل والكلمات التي أضيفت الى معجم الحديث اليومي الشعبي، والسياسي، وحتى الأكاديمي. ان كل هذا مؤشر مهم على ان الانتفاضة شكلت سرديتها الخاصة، وهي سردية عراقية كبرى لجهة آثارها ومضامينها العميقة. وبالتالي هذه السردية واجبة النقد والتحليل، كي نستخلص منها الدروس والعبر في نضالنا اللاحق.

وبغض النظر عنما يمكن تأشيره من نواحي القصور او النواقص بشأن الانتفاضة، سواء من ناحية ضعف في التنظيم وغياب للقيادة الموحدة، او من ناحية التوجه نحو بعض التكتيكات الاحتجاجية التي جاءت خارج السياق، او في غير محلها او وقتها؛ فإن واحدة من اهم ثغرات الانتفاضة هو التعامل المثالي مع مسألة السلطة. في حين ان الأهداف والشعارات التي وضعتها أمامها، بل وحتى التكتيكات التي اتبعتها تحتم عليها ان تجعل من مسألة السلطة بؤرة عملها المركزية.

*****

الآن، وبعد مضي عامين كاملين على قيامها، امست انتفاضة تشرين، بمنجزاتها وآثارها، بمعانيها ودلالاتها، حدثا مفصليا في التاريخي النضالي العراقي، كما أشرنا في المقدمة. لكن الأهم من ذلك، ان انتفاضة تشرين، وهي تلك اللحظة التاريخية التي عبرت من خلالها الجماهير عن أهدافها وتطلعاتها وآمالها، قد ذابت مرة أخرى بمشروع التغيير الشامل للشعب العراقي، مضيفة إليه الإمكانيات التي شرعتها والطرق التي عبدتها امام الثوار والمحتجين. حيث اكدت الانتفاضة مرة أخرى، ان لا تغيير ولا خلاص من منظومة المحاصصة والفساد إلا عبر الضغط والجماهيري السلمي. فالاحتجاج بحد ذاته يعد ممارسة سياسية ديمقراطية. كما يمثل استفتاءاً شعبيا يعبر عن مدى جماهيرية السلطة، وواحدا من اهم اشكال تطبيق الديمقراطية المباشرة. بل وإذا احسنت عملية ادارته يمكن ان يكون احد آليات التأثير في عملية تداول السلطة. وهذا يمتلك أهميته الكبرى على وجه الخصوص اذا كان باب التمثيل الحقيقي مغلقا، بسبب تشوه الديمقراطية التمثيلية.

وقد جاءت محصلة انتخابات العاشر من تشرين الأول 2021، حتى لحظة الانتهاء من كتابة هذه السطور، كي تؤكد الكثير من الحقائق التي أشرت عليها انتفاضة تشرين. وللحديث بهذا الخصوص تتمة.

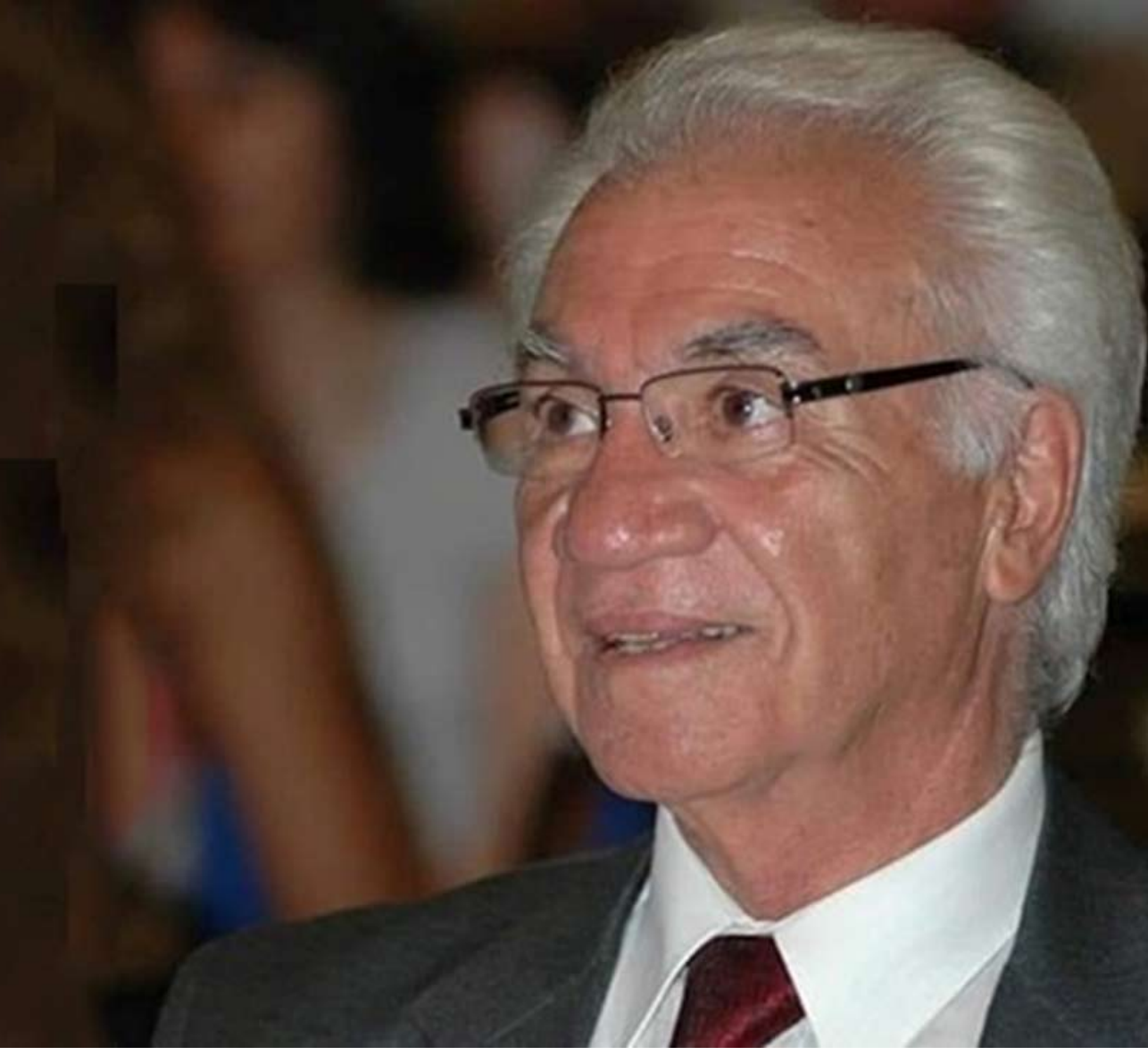

ملف (الثقافة الجديدة) في وداع

الدكتور كاظم حبيب

الاستاذ الدكتور كاظم حبيب (أبو سامر)..
وداعا
..نم مغردا في سماء الفكر !

قائمة الخسارات تتكاثر في هذا العام، 2021، حيث ماكنة الموت شغالة. في صباح يوم 31 /8 /2021 حيث وببالغ الحزن والأسى واللوعة، تلقينا نبأ الرحيل الابدي للشخصية الوطنية والاجتماعية والديمقراطية والمناضل اليساري المرموق، والباحث والاكاديمي والاقتصادي البارز، والمساهم النشيط والفاعل في الدفاع عن حقوق الانسان العزيز الدكتور كاظم حبيب (ابو سامر)، في احد مستشفيات برلين، بعد مرض مفاجئ لم يمهله طويلا.

هكذا اذن وبعد 86 عاما (1935 - 2021) حافلة بالكثير من العطاء غادرنا (ابا سامر) في رحلته الأبدية. هكذا إذن رحل علمٌ كبيرٌ من أعلام الماركسية واليسار والحداثة والديمقراطية .

لقد كان د.كاظم حبيب مفكرا اقتصاديا أصيلا يعرف صنعته، فلم يرتكن الى «المسلمات» والأجوبة الجاهزة، بل كان على الدوام – كمفكر اقتصادي ماركسي وناشط سياسي ومناضل أممي - يعيش قلق الأفكار ويطرح الأسئلة باحثا عن المزيد من المعرفة. وكان لعادة البحث الدائمة عنده لاكتشاف مناطق جديدة من المعرفة الاقتصادية والسياسية والفكرية، في مختلف الحقول التي مرّ عليها، أن قدم مساهمات جدية في مجال نشاطه البحثي وسجالاته التي لا تنتهي. وقد ظلت تلك الأطروحات تثير المزيد من الحوار والنقد والاختلاف أيضا، لجديتها وأهميتها، لهذا يتعين وضعها في إطارها الصحيح.

إن (الثقافة الجديدة) تتذكر على الدوام الفترة التي قضاها العزيز د.كاظم في العمل ضمن قوامها وما بذله من جهود مثابرة لتطوير عملها والارتقاء به الى ذرى جديدة، كي تظلّ أمينة لشعارها المركزي العتيد: فكر علمي .... ثقافة تقدمية، وأن تكون في مقدمة المنابر التنويرية في المشهد الثقافي والإبداعي

العراقي عموما، من خلال ما قدمه من أفكار واقتراحات لتطويرها ورفدها بالكثير من الابحاث والدراسات والمقالات الاقتصادية والسياسية الرصينة.

وبرحيل د.كاظم ينكس الابداع قامته، وبفقده نودع احد ألمع النجوم المتلألئة في سماء الثقافة والسياسة والنضال.

لقد كانت حياة العزيز د.كاظم، على امتدادها لما يقارب التسعة عقود، درسا كبيرا لأجيال عديدة من رفاقه وأحبته. وعزاؤنا ان الفقيد الكبير ترك لنا ولهؤلاء، وغيرهم أيضا وهم كُثر، إرثا كبيرا من المواقف الأصيلة والألفة الطاغية والذكريات الطيبة التي ستظل تتحدث عنه، وتذكّر به، وتبقيه حياً دائم الحضور بيننا.

لقد عاش د.كاظم حبيب حياة خصبة دفاعا عن القضية الكبيرة للكادحين وبسطاء الناس، دفاعا عن الفكر الحر النقدي ...لذا كانت حياته على امتدادها الواسع درسا كبيرا لكي يعيش المفكر والمناضل والإنسان حياته كما يجب ان تعاش.

مرة قال المفكر المصري الراحل محمود أمين العالم ما معناه أن الذين يحتفظون بشموخ القامة الإنسانية في وجه العواصف والمحن، وينسجون الدفء والطمأنينة والاستمرار المضيء في تاريخ الإنسان، بتواضعهم ونزيفهم الصامت هؤلاء هم صناع الحياة بحق، بهم يتحرك المجتمع متطلعا إلى العدالة والسعادة والمحبة والحرية والسلام. ومن المؤكد ان هذا الوصف ينطبق أيضا على فقيدنا الكبير د.كاظم حبيب. فهو احدى القامات الأصيلة التي لم تنحن أمام العواصف والمحن ولم تساوم.

إن رحيل الاستاذ الدكتور كاظم حبيب خسارة فادحة لنا جميعا، ولقضية شعبنا التي منحها الراحل الكبير كل ما يملك من طاقات ابداعية.

أمام هذا المصاب الجلل، لا يمكن لنا نحن الذين تناثرت أشلاء أرواحنا بفقدان د.كاظم، إلا ان نحني هاماتنا تحية الوداع الواجبة له، لهذه القامة المديدة التي ظلت باسقة كنخيل العراق الممتد من زاخو حتى الفاو، ومن الرمادي حتى خانقين، شامخة كشموخ جباله، نقية كنقاوة نهريه العظيمين، مرفوعة تعانق سماء الحقيقة، تتحدى الطغاة والقتلة، لا تصافح الأيدي الخشب ولا تساوم.

وما عسانا ان نقول الآن بعد صدمة الرحيل سوى: أبا سامر .. لقد خسر معك الموت هذه المرة لعبة المفاجأة... ولكن مع ذلك باق أنت بين أجمل

قامات وطننا الثقافية المسكون بـ ''جنون'' الحرية والعدالة والمساواة والكرامة، وسيبقى منجزك النضالي والثقافي، على مختلف الصُعد، محفورا في الذاكرة الجمعية.

وإذ رحل د.كاظم، بعد هذا العمر المديد، الحافل بالعطاء في ميادين المعرفة وفي النضال، فإنه ترك لنا تراثاً ثريا سيظل يتحدث عنه، ويذكر به، ويبقيه حياً دائم الحضور بيننا.

لقد رحل د.كاظم جسدا، بعد هذا العمر المديد، الحافل بالعطاء في ميادين المعرفة الاقتصادية وفي النضال الوطني والتقدمي عموما، ولكن منجزه الابداعي الثري سيظل محفورا في الذاكرة الجمعية، باق يشاركننا جلساتنا وصخبنا وأحلامنا وآمالنا واختلافاتنا حول الطرق الجديدة غير المطروقة.

ختاما.. لكافة افراد عائلة فقيدنا الكبير (أبي سامر) ولكل اصدقائه ورفاقه وكل محبيه وهم كُثر سواء داخل الوطن أم خارجه، خالص مشاعر المواساة وجميل الصبر مقرونة بالتضامن الحار معهم في هذا المصاب الجلل.. آملين ان يكون هذا خاتمة الاحزان. وللدكتور كاظم مجد المثقف العضوي الكبير وسحر كلماته وذكراه المتوقدة دوما.

وداعاً (أبا سامر)!... ستظل حاضرا على الدوام... فكرا وممارسة وسلوكا اخلاقيا ونضاليا رفيعا... وفوق ذلك كله مناضلا راقيا ظل وفيا لأفكاره ومُثله، ولم ينحنِ أبدا امام العواصف وما اكثرها!

باق أنت بين أجمل مثقفي العراق الديمقراطي ... لا عراق الحروب والقيامات ومتاريس المتحاربين.

لن ننساك يا ''أبا سامر'' لأنّ الورد يظلّ يعبق برائحة الحياة ولا يشيخ.

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

2021/ 09/ 01

الدكتور كاظم حبيب.. وداعا

بقلوب يعتصرها الألم والحزن العميقان، تلقينا اليوم خبر رحيل الرفيق العزيز الدكتور كاظم حبيب (أبو سامر) في احد مستشفيات برلين، بعد مرض مفاجئ لم يمهله طويلا.

كبيرة هي الخسارة برحيل أبو سامر، الشخصية الشيوعية القيادية المقدامة والمناضلة، والباحث والاكاديمي والاقتصادي البارز، والمساهم النشيط والفاعل في الدفاع عن حقوق الانسان.

كرس الفقيد الكبير جُلّ حياته، ومنذ نعومة اظفاره، لخدمة الشعب والكادحين والفقراء، وللدفاع عن حقوق الجماهير وقضاياها العادلة، مشاركا اياهم ومساهما في النضال والعمل من اجل قيم الديمقراطية والحرية والاستقلال الناجز والعدالة الاجتماعية.

انخرط أبو سامر مبكرا في صفوف حزبنا، ونهض شجاعا بالكثير من المهام الحزبية، وفي مختلف المواقع واللجان الحزبية، وكان عضوا في لجنة الحزب المركزية ومكتبها السياسي لسنوات عدة. كما شارك بنشاط وفاعلية في حركة الأنصار الشيوعية، مقارعا بالسلاح مع رفاقه النظام الدكتاتوري البغيض.

وجراء نضاله وانحيازه لقضايا الشعب باطيافه المتآخية، تعرض للملاحقة والاعتقال ودخل السجون وعاش حياة الغربة، ونال مثل غيره من رفاق دربه الكثير من الأذى والعسف والتنكيل.

وكان الفقيد مناصرا ثابتا للشعب الكردي، ولمختلف القوميات والأديان في بلادنا، ولنيلها حقوقها كاملة وتمتعها بحياة آمنة كريمة.

كذلك كان الراحل الكبير مناضلا باسلا ومناصرا للشعوب وحقوقها المشروعة في الحياة والتقدم والرقي والديمقراطية الحقة والعدالة والسلم الوطيد.

اننا اليوم نودّع شخصية شيوعية وديمقراطية ووطنية مرموقة، تتمتع بخلق رفيع وعلاقات واسعة، وباحترام كبير وحضور اجتماعي متميز. وقد ترك لنا ارثا كبيرا غنيا من كتبه ومؤلفاته ومقالاته في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة وغيرها.

في مناسبة هذه الخسارة المؤلمة، نتقدم بخالص التعازي ومشاعر المواساة الى ام سامر وسامر وياسمين وعائلة الفقيد الكبيرة جميعا، والى رفاقه وأصدقائه، راجين للجميع الصبر والسلوان.

ولأبي سامر العزيز طيب الذكر على الدوام.

المكتب السياسي
للحزب الشيوعي العراقي
2021 - 8 - 30

الدكتور كاظم حبيب.. وداعا

د .مظهر محمد صالح

كان صيف العام ١٩٧٥ الفرصة الذهبية التي جمعت طلبة الجامعة المستنصرية بأساتذتهم في مهرجان التخرج السنوي الذي ازدان بالأشرطة الملونة وامتزج المكان بالخطب في تشكيل انساني بات هيابا لكل جديد. فالكل قد اخذ مكانه دون عزوف عن الحركة وكأنما الحياة قد دبت كي يلبث فيها الجميع ودون ان يفتر الامل في التدبر والتفكير نحو مستقبل البلاد وهي تمسك بميثاق ظل اسمه: ميثاق العمل الوطني. كان الميثاق الوطني بمثابة دستور العمل الايديولوجي الذي تمسك به الشيوعيون بإخلاص قبل غيرهم، في بلاد ظلت مكائدها تسير في عالم منطوي على همسة ظالمة هنا وهمهمة قاتلة هناك.

افتتح مهرجان التخرج الكبير من احد الزعامات الحكومية النافذة وقت ذاك وقبل ان يأخذ مقعده في المقدمة التفت الزعيم الحكومي بشيء من الريبة الى جهة اليمين وحدق نحو الشمال دون ان يفلح احد في فك الغاز جبينه والجميع يتنفس بضيق ليطلق مقولته بصوت عالي: ارى ان قيادة الحزب الشيوعي العراقي قد دقت مسمارًا قويا في صرح هذه الجامعة!!!! وكان يقصد تحديدا المفكر الراحل الدكتور كاظم حبيب والراحل المفكر الدكتور مهدي الحافظ والشهيد الراحل الدكتور صباح الدرة وعدد من الكوادر التدريسية اليسارية كالعالم الراحل ابراهيم كبة وغيرهم. ثم اخذ ذلك الزعيم الحكومي المتغطرس مجلسه في المقدمة متوسطاً الحفل جمدا كتمثال لا يبتسم كانه في دنيا وحده، وليس له من مطارح المجد إلا هو نفسه. قلت في سري ماذا يجول في خاطر الضيف الكبير وهو يتفرس في وجوه الحاضرين كأنما جاء ليمتحن ندمه بنفسه على صدور ميثاق العمل الوطني في عام 1971.

انتهى حفل التخرج وبلغت رسالة الزعيم الحكومي الى مسامع الدكتور كاظم حبيب بأن اركان النظام الحاكم لا يسرهم ذلك الحشد الوطني الاكاديمي اليساري في مكان تعليمي كان اسمه الجامعة المستنصرية.

ادرك المفكر الراحل الدكتور كاظم حبيب حينها وفي تلك اللحظات التي حدثني عنها لاحقا بشيء من القلق، بان فرص السلام والتقدم والاستقرار في بلادنا لا تقوى الا بالركون الى ميثاق العمل الوطني ومبادئه قبل ان تغط الأمة في سبات الدكتاتورية وفردية الحزب الواحد لكي تزج الحركة التقدمية في غلبة الغيظ او البحث عن السعادة بلا كرامة ويجهض مشروعها الوطني في التواءات نظام الحكم وتفرده المطلق.

ثم مضت الايام والاسابيع انشغل فيها الراحل بتحليل الميثاق الوطني والايديولوجيا الاقتصادية للبلاد، مسطراً بقلمه ديباجة بناء

التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العراق بكتاب كان عنوانه (الميثاق والتنمية). وهي المتلازمة syndrome التي خاطب فيها كاظم حبيب الامة بابتسامته الوطنية العريضة ونظرته الفاحصة مستقبل البلاد التي نوّه فيها انه ما لم يتمسك بالميثاق الوطني بكونه فلسفة تؤازرها جبهة وطنية عريضة تشترك في بناء الانسان، فلا يمكن لاحد الامساك في مسارب التنمية في العراق. وهكذا كانت موازين القوى السياسية داخل العراق وقت ذاك هي بأمس الحاجة الى معرفة ما يجب ان تكون عليه تركيبة الجبهة الوطنية وأهمية الحفاظ عليها، وديمومتها والأهم من كل ذلك تحديد برنامجها ومهماتها كما يقول الدكتور ابراهيم العلاف في اطروحته في تقييم ميثاق العمل الوطني، ومن ثم تحديد البرنامج الكلي الذي كان لا بد ان يتم الاتفاق عليه بما فيه البرنامج الوطني للتنمية.

وهكذا انتهت ((متلازمة)) كاظم حبيب بين الميثاق الوطني والتنمية بالفناء بعد عشر سنوات من الكفاح بغية انقاذ مشروع الميثاق الوطني نفسه من التطبيقات الهشة وضياعه دون ان ينجو بأية اعجوبة يوم موته نهائياً في حمام اسمه: الدم قبل العام 1980 بقليل!!! . اذ باتت البلاد كلها أسيرة الدكتاتورية والاحساس العنيف الذي تلهف خوفاً على الغلبة والقهر والتحول الى مجاهيل جعلت من الانسان في بلاده يبكي اساريره بعد موت الجبهة الوطنية التي سحقت اعلامها ورجالاتها واجهض ميثاقها في دهاليز ضللها النسيان في حروب، غدت موروثة التقاليد كبديل لمتلازمة ((كاظم حبيب)) في بناء ايديولوجيا التنمية في ميثاق السلام والانسان.

ختاماً، فارقتُ المفكر الدكتور كاظم حبيب قبل ان يغادر البلاد الى منفاه وتصادر الجبهة الوطنية تطلعاتها في الديمقراطية، عندما اوصلني بسيارته الشخصية الصغيرة الى جمعية الاقتصاديين العراقيين في حي المنصور لحضوري اجتماع اللجنة الثقافية التي كنت عضواً فيها وقت ذاك وهو يحدثني بأسى عن عدم قدرته على تحصيل المجموعة الفلسفية والفكرية الكاملة للزعيم الشيوعي لينين الصادرة عن دار التقدم باللغة العربية، والتي وزعت مجانا وقتها بسبب نفادها بين كوادر الشيوعيين العراقيين وقت ذاك. ومرت العقود ولم يجمعني بالمفكر الراحل كاظم حبيب بعد مرور اربعين عاما الا مقالة نقدية رصينة رد فيها على دراستي حول تطور الراسمالية المركزية مابعد COVID19 والتي نشرتها جريدة "طريق الشعب" بعددها الصادر في 24 نيسان/ ابريل 2020 وكان عنوانها: النظام الراسمالي ما بعد (كورونا) هل من جديد؟

وقد ختم المفكر الراحل كاظم حبيب مقاله النقدي على دراستي بالقول:

((إن الاستنتاج الذي خلص إليه الدكتور مظهر يشير إلى تفاؤل كبير في أن يترك الصراع الطبقي مكانه للرأسمالية الاجتماعية، إذ يقول "وهنا تأتي التسوية التاريخية بغية استقرار التكاليف في القطاعات الاخرى المنتجة والقضاء على مظاهر الركود التضخمي وتحويل فوائض القطاع الصحي واعادة توزيعها الى مشاركة انتاجية في القطاعات الاخرى وهي بداية النهاية للنظام الرأسمالي الامبريالي الراهن برمته ونشوء الرأسمالية الاجتماعية social capitalism الاكثر استقراراً وازدهارا".

لا شك في أن الدكتور مظهر يشير إلى الرأسمالية على المستوى العالمي. إذ على مستوى الدول فالأمر لن يكون بالضرورة كذلك، كما أنه على الصعيد العالمي ما يزال بعيداً نسبياً، رغم العلل المريعة التي يعاني منها الاقتصاد الرأسمالي العالمي، لاسيما اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، إذ ترتبط المسألة بمجموعة من العوامل المهمة، ومنها الوعي الاجتماعي والسياسي لا في الدول النامية، بل وفي الدول الرأسمالية الأكثر تطوراً، ومنها العديد من الدول الأوروبية واليابان إضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فعلى سبيل المثال لا الحصر بدأت ألمانيا الاتحادية بالعمل على وفق نهج الرأسمالية الاجتماعية منذ أن تسلم الدكتور لودفيغ أيرهاد (1897 - 1977) مستشارية المانيا الاتحادية في عام 1963 تحدث عن هذا النهج وتحقق ما أُطلق عليه بالازدهار الاقتصادي وبدعم من مشروع مارشال قبل ذاك. ومنذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين بدأت المانيا وفي عهد هلموت كول (1933 - 2017)، الذي بدأ في عام 1982 الأخذ تدريجياً بنهج النيولبرالية وتفاقم في نهاية العقد التاسع وما زال مستمراً حتى اليوم. وبعد الوحدة الألمانية تخلت حكومتها عن المساومة النسبية بين العمل ورأس المال التي حصلت في فترة وجود الاتحاد السوفييتي وألمانيا الديمقراطية. ولم يترك الصراع الطبقي مكانه لتعايش سلمي، بل قاد إلى مسألتين بارزتين هما: تفاقم النهج النيولبرالي في السياستين الاقتصادية والاجتماعية الألمانية، والذي يتجلى في تنامي عدد أصحاب المليارات والملايين من جهة، وتنامي عدد الفقراء والمعدمين وتفاقم الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وتنامي البرودة في العلاقات الاجتماعية، إضافة إلى إضعاف دور وقدرات الطبقة العاملة ونقاباتها على خوض النضال لانتزاع حقوقها والدفاع عن مصالحها ومكاسبها. إن الدول التي ربما قد تأخذ بنظام اقتصاد السوق الاجتماعي لا يعني أوتوماتيكياً تراجع الصراع الطبقي فيها، بل سيبقى قائماً ما دامت الرأسمالية سائدة أولاً، وما دامت سياسات الدولة تسير على وفق النهج الاحتكاري النيولبرالي ثانياً. إن إمكانية الحصول على مكاسب لصالح المجتمع يتم من خلال تصعيد النضال الطبقي لانتزاع المزيد من الحقوق وإضعاف النهج النيولبرالي في سياسات النظم الرأسمالية وعلى الصعيد العالمي.

اعتقد إن الاستنتاج الأخير فيه كثير من التفاؤل، ولكن هل يتطابق مع احتمالات التطور بهذا الاتجاه؟ الرأسمالية الإمبريالية السائدة حالياً، والصراعات التي تعيشها تضعفها دوماً، لاسيما وأنها خلال العقود الثلاثة الأخيرة قد تلقت ضربات موجعة وفشلا ملموسا لسياساتها. ومع ذلك فهي، كما يبدو، ما تزال قادرة على المقاومة، وأنها يمكن أن تتجاوز الصيغة التي يجري التعامل بها الآن صوب الإعلان عن الرأسمالية الاجتماعية من جهة، مع ممارسة الرأسمالية النيولبرالية من جهة أخرى، كما يجري اليوم في ألمانيا وعدد آخر من البلدان الرأسمالية المتقدمة. إن من الضروري في التحليل الاقتصادي أخذ العامل السياسي وموازين القوى الاجتماعية والوعي الاجتماعي والسياسي بنظر الاعتبار، فهي الخلفية التي يفترض أن يستند إليها التحليل الاقتصادي)).

كاظم حبيب: المثابر على العلم والمعرفة (من بعض الملامح على نشوء فئة الانتلجنسيا)

د.عقيل الناصري

عاشت الانتلجينسيا العراقية منذ أن خطت سنوات فتوتها، بخاصة بعد تأسيس الدولة العراقية في العام 1921:

- في صراع مستديم مع واقعها ومحيطها الاجتماعي من جهة ؛

- ومع ذاتها الطامحة إلى تغيير ذلك الواقع من جهة ثانية. تجسد في صراع حول الافق لشكل الدولة السياسي ونظامها الاقتصادي،

- كما تجسدت مادياً في جملة من الصراعات الاجتصادية والسياسية والفكرية والاثنية.

- وساهمت بقوة في حرث تربة التغيير. ولما كان القمع والاستغلال والاستلاب وإسكات اصواتهم العادلة.

ينتمي رفيق الدرب والكلمة، دكتورنا الراحل الفاضل كاظم حبيب، إلى هذه الفئة من الانتلجنسيا العضوية (المثقفين العضويين) حيث ربطت مهامه الثقافية ضمن سسيولوجية وصيرورة التغيير الغائي المرغوب والمعبر عنه جمعياً واجتماعياً. إذ ساهم بقوة روحية وزخم فيزيائي، ليس في تهيئة تربة التغيير فحسب، بل كان مساهما ومدركاً، حسب الممكن والمتاح، في فعل البناء والتغيير، وبهذا كان واعيا لاستحداث تاريخ جديد لذاته ولحركته السياسية وانتمائه الحزبي، بالمفهوم الواسع، الطبقي والوطني فدخل عالم الابداع ونحت الأفكار وتنامت مكونات تركيبته المعرفية وتصلبت أبعادها النفسية وتعمقت مطالعاته لمعالجة نواحي الحياة المختلفة. فخلقت منه مَعلَماً ثقافياً/ اجتماعياً ذا نظرة جدلية متجذرة. فبالإضافة إلى هذه العوالم الابداعية وولوجه المبكر للحياة السياسية والتثقيف الذاتي والمسؤولية الحزبية بجدارة وثقة وابدع فيها، ينتمي رفيق الدرب والكلمة، إلى هذه العوالم الابداعية، ودخل السجون في مرات عديدة بالعهد الملكي وتصلب عوده في النضال والمثابرة وأبقى على صيرورة التغيير وسيروراته، كأحد الاهداف الواجبة التنفيذ.

انخرط الفقيد في العمل السياسي الوطني مبكراً للدفاع عن استقلال العراق وعدم تبعيته للقوى الاجنبية الطامعة بالعراق. كان الراحل ناشطاً مثابراً في الدفاع عن حقوق المواطن العراقي ومتميزاً في مجال الكتابة إلى آخر ايام من عمره، واصدر العشرات من الدراسات والكتب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مختلفة، دفاعاً عن الحرية والديمقراطية وحفظ سيادة البلد ومظلومية القوميات والاديان والمذاهب في العراق ومنطقة الشرق الاوسط.

"... كان كاظم حبيب – وسيبقى- معلماً من معلمي الثورية والوطنية والنزاهة والتفكير الناقد وجرأة الموقف واللطف الإنساني والحضور الاجتماعي البهي والعاطفة المتقدة نحو آلام المقهورين، اتفقنا أو اختلفنا مع منهجه الفكري. وستبقى سيرته العامة والخاصة –لمن يعرفه عن قرب- مصدراً لإلهام متجدد عن كيفية صياغة معنى فريد لحياةٍ طويلة لا تستسلم أبداً لليأس أو الإحباط أو الانزواء، إذ ظلت مكرسة كلياً للخير العام، ولحقوق المهمشين والمظلومين، ولمقاومة الاستبداد والفقر والفساد والقهر والحروب، ولصيانة الحلم بعالم لا يحكمه التافهون والساديون بأنظمة الاستِّغلال والقسوة والرثاثة... "

*****

وعودا على سمات النشوء، التي تميز بها الجيل الاول من سياسيي المعارضة الوطنية بفصائلها الثلاث: الوطني الديمقراطي التقدمي بشقيه:

- الراديكالي اليساري (الحركة الشيوعية)؛
- والمعتدل (كالحزب الوطني الديمقراطي)؛
- والتيار القومي.

حيث اغلب قادته الأرأسيين دخلوا العمل السياسي من خلال الصحافة والنشاطات الفكرية.. لان المنبت والتنشئة الاجتماعية ومستوى التعليم العام، سوف لا تضعهم كذات في مصاف عوائل القوى التقليدية والثرية. هذه الظروف دفعت بابناء الطبقة الوسطى النامية الى الارتقاء الاجتماعي من خلال الفكر وليس الانتماء الاجتماعي والطبقي، ما عدا قلة قليلة، حيث تلعب - كل من البيئة الاجتماعية دورا كبيرا في صياغة الفرد؛

- وكذلك الصحبة ونظام القربى دورا أرأسياً في الوعي الاجتماعي؛

- كما يلعب الموروث السوسيولوجي والمتغيرات في العائلة من حيث الطبقة الاجتماعية وتأثيرات البيئة الحضرية والتواصل الاجتماعي وغيرها من العوامل بخاصة الجانب السيكولوجي للذات البشرية.

لذا أفرز الواقع الاجتماعي أفراداً يخرجون للحياة الاجتماسياسية وهم يحملون هموم طبقتهم وبيئتهم ويحاولون العمل على اجتثاث المسببات المعرقة لتطورها والإرتقاء بها، وبالتالي فهم ايجابيون وانبساطيون، وبالعكس هناك من يحاول احتقار هذه البيئة رغم انه خرج للحياة الاجتماعية من رحمها وكان من نتاجها.. ويسير في ذاته الانانية الى ابعد حد. وهؤلاء سلبيون ذوو طبيعة من سماتها الانطوائية وعدم المشاركة في التغيير المنتظر.

واعتقد أن هذه القوى التغييرية قد انطلقت من فئات أرأسية أربعة هي:

- الفئات المتعلمة اللبرالية المنطلقة من نبتات المدارس التعليمية الحديثة؛
- فئة الضباط الذين خدموا في الجيش العثماني منذ أواخر القرن التاسع عشر؛
- بعض من متعلمي الدراسة التقليدية المتنورين؛
- بعض من تجار المدن القرووسطية.

ولكن يمكن تقسيم هذه الفئات، حسب معيار الاستمرار في مساندة صيرورة فكرة التغيير كما معياره وسيرورته الاجتصادية السياسية والفكرية، إلى ثلاث فئات:

- مثقفين رافضين لفكرة التغيير.. ويقف على رأسهم الكثير من الفئات الثلاثة الاخيرة؛

- مثقفين مسايرين للتغيير، يتركزون في الفئة الأولى والجزء القليل من الفئات الثلاثة الأخرى؛

- مثقفين مؤيدين للتغيير وعاملين في حقوله.. ويتمثلون في المثقفين العضويين من الفئة الأولى.

هذا الظرف الموضوعي وعتلتهُ من مثقفي العراق العضويين (بعضهم من التقليديين والحداثويين) الذين لهم مكانتهم في الوسط الاجتماثقافي، دعوا لجملة من الغائيات التطورية من أهمها، كما اعتقد: اشاعة وتحبيذ الفكرة الاستقلالية؛ تحديد ماهية الهوية العراقية؛ مناصرة الحق الطبيعي والمكتسب للمرأة في المساواة؛ حق الأمة في اختيار نظامها الدنيوي على وفق نظرية العقد الاجتماعي؛ دخول الافكار الحديثة وبالاخص ذات البعد المساواتي؛ التمرد العقلاني ضد الشعوذة الدينية والقيم البالية وتفسيراتها للظواهر الاجتماطبيعية؛ المشاركة السياسية للقوى الاجتماعية الحديثة بخاصة العضوية منها والحراك المدني المسنود من قبل الاحزاب التقدمية؛ دعوة البعض منهم إلى الحرية الاقتصادية واللبرالية في الاقتصاد .

لقد ساهمت الانتلجنسيا الوليدة في بلورة الرؤى العلمية للظواهر الاجتصادية والسياسية بالنسبة للمجتمع العراقي رغم صيغها المتحدية، التي فرضتها ظروف كل من الاحتلال الأول (1914 - 1932) وتأسيس الدولة المركزية منذ مطلع عشرينيات القرن المنصرم، من بينهما: الاستقلال السياسي للعراق؛ تحديد الهوية الوطنية؛ فكرة العقد الاجتماعي؛ حرية الرأي والعقيدة؛ التوزيع العادل للثروة الوطنية؛ نبذ التفسيرات الدينية للظواهر الاجتماطبيعية؛ بروز المؤسسات السياسية (احزاب، جمعيات مهنية ونوادي اجتماثقافية) وأولوية عملها؛ الصراع بين الرؤى الحديثة والقديمة؛ الصراع بين المؤسسة التقليدية بما فيها الدينية والقوى المنظمة الحديثة بصدد محاربة الشعوذة؛ والمطالبة الخافتة في تبني النظام الجمهوري وبالأخص في خمسينيات القرن المنصرم؛

وغيرها من الاشكاليات المرتبطة بالكونية الرأسمالية وعلاقاتها السلعية - النقدية التي دخلت إلى الاقتصاد العراقي بقوة من خلال التجارة الخارجية وبخاصة النفط، وتأثيراتها التي خلخلت الوضع الاجتمافكري، بل وحتى النفسي حيث دبّ الرعب في نفوس الناس من هذا الحراك الكبير الذي باغتهم، بعدما عاشوا قرونا من السكونية المميتة، ما أثرت سلبا على تطلعاتهم المستقبلية وترددهم على تبني كل جديد. كما أنها قد أثمرت توترات واحتدامات حضارية، بالمعنى الواسع، داخل البنية الاجتماثقافية وبدايات تحلل الثقافة التقليدية شبه الجامدة ونظمها الميثولوجية الشفاهية هذا من جهة. ومن جهة ثانية والأكثر أهمية هو انتاج وتحديد ماهية الذاكرة التاريخية التي هي: التصورات الجماعية التي تشترك فيها مجموعة بشرية معينة بصدد أحداث وقعت في الماضي، الذي يدرك على أنه قد شكل هويتها ووضعها السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي المعاصرين.

لأنها تعكس بالنسبة للقوى الوطنية رد فعل إزاء الانقطاع وعدم التواصل... بماضٍ مجيد تتنكر له قوى رجعية غير أصيلة ثقافياً كالنخب المحلية الفاسدة والاستعماريين والأقليات غير الوطنية. ومن جهة ثالثة إن أهم من حمل لواء هذه المطاليب بالتغييرات، حسب معيارها التأثيري المثابر، هي القوى اللبرالية ومن ثم التقدمية، وبالأخص ذات البعد اليساري الجذري حتى وسمتها بسماتها، من الانتلجنسيا العراقية التي طرحتها ببعدها النقدي، وإلى حدٍ كبير الموضوعي، إذ بدأ النقد لقوى الاحتلال ومضامين مشاريعه؛ وللدولة العراقية المستحدثة ولطبيعة إدارتها.

تأسيسا على هذه الخلفية التاريخية المتحركة، وكل هذا الكم النوعي المتعدد الأوجه من المتغيرات توج ذاته، نسبياً، في إطار مشروع رباعي الأبعاد، كانت فكرة التسامح قرينته، من خلال اتساع منظمات المجتمع المدني، أغلب عناصره متكونة نسبياً من: وضعي- عقلاني- علماني - علمي.

وضمن تفاعل الأهداف التنويرية المنطلقة من: الإنسان- العقل- الطبيعة – العلم.

تبلورت هذه العناصر وتجسدت في الارتقاء بالوعي الاجتماعي وتجلياته لدى القطاعات المتنورة ذات التأثير الكبير في الواقع والافراد حتى وسمت العقد الأخير من المرحلة الملكية بوضوح بارز، فنرى جملة من الانتفاضات في الريف والمدينة شملت طبقات وفئات عديدة كما حدث في الأعوام 48، 52، 1956: التي شملت مساحة جغرافية واسعة من العراق بالاضافة الى الانتفاضات الجزئية في هذه المنطقة او تلك.

كما تجلى الوعي الاجتماعي في تجلياته السياسية في انبثاق جبهة الاتحاد الوطني المتحالفة مع فئة الانتلجنسيا العسكرية في التكتل الغائي (حركة الضباط الأحرار) فكانت عاقبتها التحرك العسكري الأول والنافي الطبيعي للنظام السياسي الملكي وبنيته الفكرية والتنظيمية واستراتيجيته السياسية وقاعدته الاجتماعية وعلاقته الدولية.

كاظم حبيب.. أستاذ جامعي وباحث أكاديمي ونصير في كردستان وناقد أدبي

أ.د. سناء عبد القادر مصطفى

قلما نجد انساناً يجمع بين الصفات الواردة أعلاه: أستاذاً جامعياً وباحثاً علمياً ونصيراً في جبال كردستان في ثمانينيات القرن الماضي والناشط في الدفاع عن حقوق الانسان والديمقراطية في العراق والبلاد العربية وناقداً أدبياً.

وعلى الرغم من كوني لم تسنح لي الفرصة من التعرف إلى الدكتور كاظم حبيب عن كثب، إلا أني سمعت عنه حينما كان يشرف على مكتب الدراسات الاقتصادية في سبعينيات القرن الماضي في شارع النضال في العاصمة بغداد، وكنت وقتذاك طالبا في كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد، حينها كانت هناك توجيهات من الحزب بعدم زيارة هذا المكتب لأسباب أمنية.

رأيته أول مرة في ندوة جمعية الاقتصاديين العراقيين ببغداد في ربيع العام 1974 حسبما أتذكر. كان موضوع الندوة هو مناقشة قرار الحكومة العراقية برفع رواتب الموظفين والعمال في قطاع الدولة بمقدار عشرة دنانير عراقية (كان سعر صرف الدينار العراقي الواحد آنذاك يعادل 3.3 دولار أمريكي) وذلك بعد أن أعلن أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية وقتذاك عن رفع رواتب جميع العاملين والموظفين في الدولة بمقدار عشرة دنانير لكل عامل وموظف، بعد أن حصل العراق على مداخيل عالية نتيجة لتأميم شركات النفط الأجنبية في العراق. كان من ضمن المناقشين في الندوة الدكتور محمد سلمان حسن من كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد (الذي عملت معه معيدا حينذاك وهو الذي أخبرني حول موعد انعقاد الندوة) والدكتور كاظم حبيب من الجامعة المستنصرية ببغداد أيضاً.

كانت مداخلة العالمين الجليلين محمد سلمان حسن وكاظم حبيب قد انصبت وركزت حول موضوع ارتفاع أسعار السلع والخدمات في العراق كتأثير متوقع لهذه الزيادة في رواتب وأجور الموظفين والعمال. كان اقتراحهم هو تخفيض أسعار السلع والخدمات بدلا من زيادة الرواتب التي سوف تؤدي الى ارتفاع أسعار السلع والخدمات والتهام الزيادة في الرواتب التي هي عشرة دنانير. وحدث الذي توقعاه، إذ ارتفعت الأسعار بنسبة حوالي 20% قبل استلام المواطنين الزيادة في رواتبهم بنحو شهرين، والتهمت الزيادة في الرواتب قبل استلامها.

غادر د.كاظم جامعة الجزائر بعد أن عمل فيها في الفترة الزمنية 1979 - 1981

وتوجه إلى كُردستان العراق للمشاركة في حركة الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي منذ نهاية العام 1981 حتى نهاية 1984، ثم شارك في الحركة مرة أخرى بين عامي 1987 - 1988.

قرأت للدكتور حبيب الكثير مما كان ينشره في مجلة (الثقافة الجديدة) ومواقع مختلفة مثل الحوار المتمدن والمثقف. فقد كتب الراحل في عدة مجالات: الاقتصاد والسياسة والديمقراطية والنقد الأدبي وركز بالدرجة الأولى على مصير الوطن والكادحين من الشعب العراقي. وتميز بأسلوب بسيط خاص به يهدف من خلاله الى ايصال أفكاره وآرائه الى القارئ.

التقيت به في الطاولة المستديرة التي أقامتها مجلة (الثقافة الجديدة) في شهر شباط العام 2021، حينما شاركت معه ومع باحثين ومختصين في الشأن العراقي في ندوة بعنوان "البنية الاجتماعية - الطبقية في العراق وتحولاتها منذ العام 2003".

تعتمد منهجية الدكتور كاظم حبيب ومدرسته في التحليل الاقتصادي والسياسي على الفلسفة الماركسية، التي طوّر بواسطتها مفاهيم يتمكن الناس البسطاء من استيعابها دون صعوبة ولهذا أصبح يتمتع بكثرة الذين يتابعون ما ينشره من كتب وأبحاث ومقالات ومداخلات في ندوات فكرية ذات مواضيع مختلفة، يطرح فيها وجهات نظره وآراءه. إذ لعبت مقالاته التي نشرها اثناء انتفاضة تشرين العام 2019 دورا مهما في بلورة شعارات الانتفاضة الشعبية. ومن المقالات التي نشرها في موقع الحوار المتمدن بتاريخ 26/10/2020 بعنوان: "لتُشل الايدي الخبيثة التي تريد اغتيال الانتفاضة السلمية!" عكس فيها مدى دعمه وتأييده لهذه الانتفاضة السلمية التي أرادت قوى الطغيان اخمادها. فقد ناصر ودعم انتفاضة تشرين الشعبية منذ بداية انطلاقها في الأول من تشرين الأول العام 2019 من خلال ما نشره من مقالات في موقع الحوار المتمدن. إذ كتب التالي: "لم تكتف الميليشيات الإيرانية - العراقية الولائية بارتكاب المزيد من الجرائم الوحشية بحق المحتجين والمتظاهرين وقوى الانتفاضة التشرينية في مختلف مدن الوسط والجنوب والعاصمة بغداد، سواء بالقتل أو الاختطاف والتغييب أو الابتزاز والتهديد والنهب والسلب، فحسب، بل امتدت جرائمها البشعة إلى مدينة أربيل، عاصمة إقليم كردستان العراق، في محاولة خبيثة لتقويض الأمن والاستقرار وإشاعة الفوضى والقلق في نفوس الناس".

وفي مجال النقد الأدبي استشهد بتقييم لرواية الأستاذ محمود سعيد الطائي (صيد البط البري، 2013، دار ضفاف للنشر، الشارقة – بغداد) الذي كان أستاذي لمادة اللغة العربية في متوسطة الناصرية للبنين في العام الدراسي 1962 – 1963؛ حيث كتب: "ما إن تقرأ عنوان هذه الرواية للكاتب والروائي المبدع الأستاذ محمود سعيد حتى يخيّل لك أنك ستقوم برحلة مع مجموعة من الأصدقاء لصيد البط البري في إحدى الغابات أو المناطق التي تعيش فيها هذه الطيور الجميلة. ولكن ما أن تبدأ بقراءتها حتى تفاجأ بمسألة أخرى بعيدة كل البعد عن رحلة ممتعة لصيد البط البري، بل يضع الكاتب القارئ والقارئة أمام فاجعة كبرى، أمام مأساة إنسانية مريعة، أمام عملية صيد وقتل مباشر وخارج القانون للبشر العراقي،

لأبناء وبنات الحضارة البابلية. إن الرواية باختصار جديرة بالقراءة والتفكير بما وقع للعراق خلال العقود الأخيرة وما يعاني منه اليوم. إنها شهادة مهمة لتلك الأحداث ولو لجزء مهم منها. لقد تمتعتُ بقراءة هذه الرواية ولم تكن الكتابة عنها سهلة، وتمتعت بالكتابة عنها وتعلمت منها، وسيطر عليَّ الحزن والكآبة، ولو لفترة، لأن الرواية تتسم بانتقالات بينية، تمنح فرصة التغيير بين الحزن والفرح، بين الجنس والكوابيس، تلك اللفتات الجميلة والحوارات المنعشة واللقاءات مع الطالبات والطلبة ومع حليمة وإليزابيث وسناء في بيت بكر والأيمن".

أصدر الراحل دكتور كاظم حبيب أكثر من 35 كتاباً وكراساً والكثير من الدراسات والبحوث وآلاف المقالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفي مجال حقوق الإنسان والمجتمع المدني باللغة العربية وبعضها باللغة الألمانية.

بلغ عدد المقالات السياسية والاجتماعية والمدنية وحول حقوق الإنسان وقضايا الاقتصاد والقوى الدينية المتطرفة أكثر من 2000 مقال وبحث منذ العام 2000 والبعض منها باللغة الألمانية. كما نشر الكثير من المقالات في الاقتصاد والمجتمع والسياسة في الستينيات والسبعينيات والثمانينات والتسعينيات من القرن الماضي في مجلات الثقافة الجديدة والطريق ودراسات عربية ومجلة الطليعة المصرية ومجلات الجامعة المستنصرية وجريدة طريق الشعب والمدى والزمان والعالم، وفي الكثير من المواقع ومنها الحوار المتمدن الذي بلغ فيه عدد المقالات المنشورة فيه 2507 واجمالي القراءات 11.196.440 وصوت العراق والناس وغيرهما.

ترك الفقيد مكتبة عامرة من الكتب والدراسات والابحاث في مواضيع مختلفة ومتشعبة: اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية وديمقراطية.

إن رحيل الأستاذ الدكتور كاظم حبيب، خسارة كبيرة لأوساط كثيرة من الشعب العراقي. لروحه السكينة والسلام، ولذويه وعائلته الصحة والعافية والصبر والسلوان. ولنا في منجزاته الثقافية والإبداعية، خير عطاء تركه لنا وللأجيال القادمة.

في صحبة الرفيق البرليني الكبير

حامد فضل الله* / برلين ــ السودان

لا أريد أن أتحدث عن أستاذ الاقتصاد الدكتور كاظم حبيب، ومن دون أي احساس بتواضع زائف لا أستطيع ذلك، فهذا مجال له فرسانه، وإنما أريد هنا أن اتحدث عن علاقة شخصية، امتدت إلى ثلاثين عاماً. لقد تعرّفت عليه عام 1989 بعد سقوط جدار برلين العتيد، فقد كنتُ أعيشُ في برلين الغربية "جنّة الرأسمالية"، وهو يعيش في برلين الشرقية "نار الاشتراكية".

جاءَ التّعارف بمناسبة اقتراح تكوين منظّمة عربيّة لحقوق الإنسان في ألمانيا، وهو اقتراح من بنات أفكار كاظم حبيب. وبحضورِ مجموعةٍ كبيرةٍ من العرب، غالبيتهم من العراق، أجيز النظام الأساسي للمنظمة في الرابع عشر من ديسمبر عام 1991، واختير كاظم رئيساً للهيئة الإدارية بالإجماع وتشرّفت أن أعمل معه أميناً للصندوق، بعد فوزي بعضوية الهيئة الإدارية بالضربة الأولى أيضاً، على الرغم من أنني برجوازي صغير وليس رفيقاً مناضلاً كالكثير منهم، كما شارك في اللجنة التنفيذية صديق عمره، العزيز مثنى محمود، وكانت المنظمة مدخلي للتعرف على أصدقائي العراقيين، وما أكثرهم وما أكرمهم.

تغير اسم المنظمة باقتراحٍ نيّر من كاظم، ليصبح منظمة حقوق الإنسان في الدول العربية، وبذلك تكون مفتوحةً لجميع مواطني البلدان العربية مثل كرد العراق وأبناء وبنات جنوب السودان. قررنا مباشرةً أن نقيم ندوةً كبيرةً كباكورةٍ لنشاطنا والتعريف بمنظمتنا الوليدةِ، وكنتُ حذراً ومتوجساً من ذلك، فالمنظمةُ لا تزال تحبو، ولكن كاظم كان مطمئناً للنجاح، واستطاع أن يؤمن لنا في فترةٍ وجيزةٍ التمويل اللازم رغم ضخامتهِ، عن طريق منظمات المجتمع المدنيّ الألمانيّة.

وشرعنا في التحضير وكتابةِ الرسائل، وأذكر أنّ كاظم تناولَ من المنضدةِ رزمةً كبيرةً من الرسائل وقال لي اذهب بها إلى مكتب البريد، قلت له يا أستاذ كاظم أنا لست ساعي البريد لحضرتك. ردّ عليَّ وقد ارتسمت الدهشة على جبينه قائلاً: يا أخ حامد – لاحظوا كلمة "يا أخ" لعله استشف بحاسته السياسية خلفيتي الفكرية قبل أن يحدث لي في ألمانيا الديمقراطية، غسيل مخّ أو نظافة مخّ، والله أعلم ـــ وهو لا يزال ممسكاً بالرسائل، وببسمةٍ صافيةٍ لا ساخرة ولا مفتعلة، لقد نسيت بأنّ مكتب البريد بالقرب من منزلي، وسأقوم بإرسال الخطابات من هناك. قلت لنفسي وفي طريقي إلى المنزل لماذا هذه الحنبليّة؟ والتي لا تتفق إطلاقا مع طبيعتي.

لم تؤثّر سحابة الصيف على علاقتي مع الصديق كاظم فحسب، بل صارت أكثر ترابطاً وازددنا تعارفاً واحتراما متبادلاً.

كنتُ معجباً بطريقة إدارته لاجتماعات الهيئة الإدارية، تصريف الأعمال وضبط النقاش والكلام في المليان واحترامه للمواعيد، صفة نادرةٌ وسط العرب، والسودانيين. لا أريد أن أتحدّث هنا عن ندوتنا في صالة المسرح الكبير في دار ثقافات العالم، وهي من أوائل الندوات إن لم تكن أولها في ذلك الزمان، والتي اتسمت بالحضور المكثّف، عربي وألماني ـ والمداخلات الرصينة والمداولات الثرية والقبول المُبهر، والتي تمّت تحت عنوان: (حالة حقوق الإنسان في الدول العربية، وحالة حقوق الإنسان من مواطني الدول العربية في ألمانيا).

توثّقت علاقتي مع كاظم أسرياً أيضاً، فكنّا نلتقي نحن الأربعة، هو ورفيقة دربه وأنا وحبيبة عمري، واكتشفتُ بأنّ العراقيّ يمزح، ويحكي النّكات ويضحك من القلب وليس الشخصيّة الصارمة المتجهّمة، كما تخيّلها بعضنا. وشاركتُ معه أكثر من مرّة تمثيلاً للمنظمة خارج ألمانيا.

وأودّ هنا فقط، أن أذكر الدعوة التي وصلتنا من المنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة للمشاركة في الاحتفال بالعيد الخامس والعشرين بتاريخ 17 ابريل / نيسان 2008 ولتكريم مؤسسي المنظمة الأوائل ورواد حركة حقوق الإنسان في العالم العربي، قررّنا في الهيئة الإداريّة بالإجماع أن يقوم كاظم بتمثيل منظّمتنا في هذا اللقاء الهام، وقد كان في الواقع تكريماً له بطريقة غير مباشرة (وقتها لم يكن كاظم عضواً في الهيئة الاداريّة) رافقته ممثلاً لمجلس الأمناء للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، وانضم إلينا في القاهرة الصديق د .غالب العاني قادماً من هامبورج. لقد كان احتفالاً مهيباً بحضور نُخبة من رجال الفكر والثقافة ومنظمات المجتمع المدني. تغيّب ممثل العراق بسبب الخلافات المعهودة. تشاورنا ثلاثتنا وقلنا لا يمكن تغييب صوت العراق. وأعلن كاظم على التوّ استعداده أن يتحدث عن العراق، في مداخلة مُحددة زمنياً، يستحيل معها الإحاطة الكاملة بتفاصيل المشهد السياسي العراقي المتشعب والبالغ التعقيد، على الرغم من ذلك استطاع كاظم، أن يقدّم تشخيصاً رائعاً للوضع المأسوي في العراق، وكان عرضه التنويري متماسكاً ومتوازناً ويكشف عن متابعة دقيقة للأحداث الجارية ووعياً بالتناقضات التي يعيش فيها العراق، اجتماعياً وسياسياً وإنسانياً، بحيث أنّ غالبيّة الحضور كانوا يعتقدون بأنّ كاظم يعيش في العراق وليس قادماً من برلين، وحتى الإمام السيد الصادق المهدي، والذي كان واحداً من المكرمين في الاحتفال المهيب، وهو أوّل رئيس وزراء سمح للمنظمة العربيّة لحقوق الإنسان أن تعقد جمعيّتها العمومية الأولى في الخرطوم، في فبراير عام 1987 بعد أن رفضت جميع الدول العربية، بما فيها مصر. والصادق من السياسيين النادرين في بلادنا الذين يتعاطون الفكر، لقد أشار الصادق في خطابه عدّة مرّات لمداخلة كاظم، فالصادق المهدي معروفٌ بأنّه مُعتد بنفسه ونادراً ما يستشهد أو يقتبس من أحد.

كنتُ ضمن دعوة العشاء الذي أقامها المناضلُ القياديّ في الحزب الشيوعيّ سابقاً نوري عبد الرزاق الذي يعيش ويعمل سكرتيراً عاماً لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية في القاهرة، تكريماً لكاظم وغالب. كنتُ صامتاً طيلة الوقت، أتابع باهتمام بالغ وهم يتبادلون الحديث عن العراق، ماضيهِ

وحاضره ويستعيدون ذكريات العُمر الجميلة وعطر الأحباب والأصدقاء والرفاق الذين استشهدوا والذين ينتظرون.

كتب كاظم عن سوداننا، عن مأساة دارفور وحقوق المرأة وحريّة الصّحافة ونشرت مقالاته في الصّحافة السودانية. ويعرف من رموزنا السياسيين، محمد إبراهيم نقد والأكاديمي الشريف الدشوني، والتقى مع جون قرنق في كوبا وأجرى معه لقاءً صحفياً، وقتها كان قرنق يتسربل بغطاء الماركسية.

لا تنحصر كتابات كاظم في مجال تخصصه (الاقتصاد) فحسب، بل تمتد إلى الفكر السياسي والدفاع عن حقوق الأقليات والديمقراطية والحريّة وحقوق الإنسان، قولاً وفعلاً، مما قاده إلى سجون العراق، فقد كان معارضاً شرساً لنظام صدام حسين الدموي. وكان قيادياً في الحزب الشيوعي العراقي، واستقال من اللجنة المركزية طوعا عام 1990، بسبب اختلاف في الرؤية والمسار وقضية الديمقراطية والموقف من عوامل انهيار الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية، ولم يتنكّر لتاريخه الحزبي، كما تنكّر كثيرٌ منهم، ممن عاشوا على حساب الحزب، ولم يلوذوا بالصمت فحسب، بل بعضهم انضّم إلى أقصى اليمين. ومنهم من التفّ حول الليبراليين الجُدد المتطرفين، الذين كانوا قد أحكموا قبضتهم على الرئيس الأمريكي بوش الابن. ومنهم القائل (كنعان مكيّة، واسمه المستعار سمير الخليل)، عندما كنت اسمع ضربات الصواريخ الأمريكية على بغداد، كانت أصواتها تصادف أذني، وكأنّها موسيقى بتهوفن.

فالمعروف لدى كثيرين أنّ كاظم لم يكن ضدّ الحرب الأمريكية على العراق فحسب، بل حذر من عواقبها المُدمرة، وكان هذا واضحاً ليس في أحاديثه ولقاءاته فحسب، بل مثبتاً ورقيّاً وفي ندوات تلفزيونية ألمانية.

القليل منّا يعرف فعل الخير الذي يقدّمه كاظم للذين تلم بهم النكبات والمصائب والمظالم. يفعل ذلك بصمت، يعطي بلا مقابل ويجود بلا حدود ولا يتباهى.

كنت أرسل له بعض مقالاتي وأبحاثي قبل النشر، ويرسل لي تكرما منه، مقالاته العديدة والمتواصلة عن طريق بريدي الإلكتروني في نفس الحظة التي يرسلها للنشر وكنت انظر إلى ساعة الإرسال أحيانا تكون الساعة الثانية أو الخامسة أو السادسة صباحا وأستغرب وأنا أعرف كطبيب وصديق مشاكله ومعاناته الصحية. إنّها هموم الوطن التي رافقته منذ نضاله السياسي المُبكر. إنّها ضريبة الغربة تاركة آثارها على الروح والجسد.

”إن تبعد عن وطنك
لا يبعد عنك
حتى في خدر النوم“.

كما يقول الشاعر المصري كمال نشأت. فكاظم يتأبط العراق ويستنشقه دوما.

أنني لا اكتب الشعر، فحاولته فأستعصى عليَّ فهجرته قبل أن يهجرني. بمناسبة الاحتفال في عيده الثمانين (16 ابريل/ نيسان 2015)، وضم مجموعة من أصدقائه المقربين، تفجرت هذه الكلمات دفقة واحدة، ولعل جلال المناسبة اوحى بها:

ثمانون عاماً يا حبيبْ
مَشَيْتَها على الشوكِ والنضالِ والمجدِ
يا رفيقْ
في حبِّ الوطنِ كم كانت روحُك تسمو، وتهفو، وتستجيبْ

ولك في الخيرِ سَبْقٌ، وفي المَكْرُماتِ نَسَبٌ
وأهلٌ وربيبْ
ولك في العزمِ مضاءٌ، وفي الفكرِ ومضةٌ،
وفي القلبِ حبٌّ ووجيبْ
القلبُ يَخْفِقُ،
الفكر يلتهبْ،
الوطنُ يضطربْ،
الأهواءُ تحتربْ،
ووِزْرُ الحربِ يَنْشَعِبْ
إنها دنيا العجبْ،
لا علمَ، لا أدبْ،
لا وترَ، لا طربْ
وكاد البدرُ حُزْناً يحتجبْ
والثَّكالى تنتحِبْ
لا أفقَ يقتربْ
ولا أملَ يُرتقبْ
(روحُك مُثقلةٌ بالغضبْ)
بعزيمةِ المشبوبْ
وصبرِ أيوبْ
وقفتَ ضد الفكر الخربْ
والدين المُغتربْ
وضد الرِّياءِ والكذبْ
أنتَ الساهرُ الحدِبْ،
لم تبغِ جاهاً ولم تكتسبْ،
لا جواهر لا ذهبْ،
لا القابَ لا رُتبْ،
فدنياك الكتبْ،
تبثها خطابَك طيلة الحِقبْ،
وما أسعدنا
لصحبتك ننتسبْ
ألفَ قبلة على جبينِك،
يا أعزَّ حبيبْ
وفي التسعين لنا عودةٌ،
يا وَدْ حبيبْ

ألا ولكل أمرئ أجلُ ثابتُ وكتابْ. لقد وفيت بالوعد وأكملت الرسالة، وسلمت الأمانة. والوطن حافظ للجميل. وأزفت ساعة الرحيل، فنمْ هانئاً. والسلام عليك إلى أبد الآبدين، صديقا عزيزا وإنسانا وفيا، يا كاظم حبيب.

*** طبيب اختصاص، عضو مجلس الأمناء في المنظمة العربية لحقوق الإنسان بالقاهرة، كاتب وقاص.**

إنسان غمرني بكرمه

د.حسن عبد الله بدر

رحيل المناضل الأستاذ الدكتور كاظم حبيب خسارة فادحة للشعب العراقي في مسعاه الطويل نحو الحرية والتطور.

لقد تشرفتُ بالتعرف على الفقيد الكبير سنة 1973، وكان آخر لقاء بيننا سنة 1978. ولكن علاقتنا لم تنقطع، بل استمرت، ونحن في الخارج، من خلال المراسلة، والأصدقاء المشتركين، ومتابعة الأعمال والتطورات الاقتصادية. وكان الفقيد، طوال هذه السنوات، بمنزلة الأخ الكبير بالنسبة لي: فلم يبخل عليَّ يوماً، ولا حتى مرة واحدة، في الاستجابة الكريمة لما كنتُ أطلب، وبكل صدق وسخاء.

1) لم يتردد الدكتور كاظم حبيب، كما عرفته، في تقديم الخدمة للغير بقدر ما استطاع، ودون انتظار شيء ما مقابل ذلك غير الإحسان، وربما الأمل في خدمة قضية ما عامة أو مشتركة:

- في وقت ما، لا أتذكر بالضبط، من عام 1978 كنتُ في حاجة ماسة لمساعدته في أمر يتعلق بعملي (وكنتُ، حينذاك، مدرساً مساعداً للاقتصاد في جامعة الموصل). فذهبت إلى مكان عمله في المجلس الزراعي الأعلى في بغداد، في المقر الجديد للمجلس في ساحة النسور، على طريق معرض بغداد الدولي، وعلى أمل أن أعود في اليوم نفسه إلى الموصل لأن عملي، كمدرس، لا يسمح بالغياب أو حلول مدرس آخر في تقديم المحاضرة المعنية. وكانت حيرتي كبيرة حين أخبرني سكرتيره (وربما كان اسمه عيسى، ماجستير إقتصاد زراعي من المانيا الديمقراطية؟) أنه غير موجود، مجاز إجازة مرضية، وربما لا يعود حتى في اليومين القادمين. صرتُ في وضع صعب، ولا أعرف بالضبط ما ينبغي عمله. ولكني سألتُ السكرتير، إنْ كان يستطيع التحدث معه هاتفياً، أن يقول له إنني هنا، وقد وصلتُ تواً من الموصل. فاستجاب الاخ عيسى لطلبي، وتحدثَ معه، ثم أعطاني ورقة صغيرة فيها عنوان بيت الدكتور، في حي الاقتصاديين على طريق مطار بغداد، قائلاً إن الدكتور يقول أنه في انتظارك في بيته، رغم مرضه وإجازته. وذهبتُ إليه بالفعل، واستمعَ لما أردت، وقدّم المساعدة المطلوبة، ثم عرفنّي على عائلته، زوجته أم سامر وولديه ياسمين وسامر، وعدتُ إلى الموصل في الحال.

- في مرة أخرى، ذهبتُ إليه في المقر العام للحزب، في الاندلس، عام 1977، فقالوا لي، في الاستعلامات، أنه خرج قبل ثوانٍ، مع الأسف. ولكن الدكتور عاد فجأةً قائلاً، في الاستعلامات، أنه رآني في مرآة السيارة الخلفية، ولا بد إنك تقصدني أنا شخصياً لأنك لا تعرف أحداً غيري في

المقر العام، فعدتُ لأراك ومعرفة ما تريد. وحين أخبرته أن الأمر يتعلق بتأخر مشروع الزمالة الدراسية في الاتحاد السوفيتي، ولسنة أخرى، أخذ مني نسخة من الأوراق. ثم أخبرني، فيما بعد، أنه سلّمَ الاوراق للسكرتير الأول للحزب شخصياً الذي كان، بالصدفة، في سفرة إلى موسكو. وبعد العام الدراسي 1980/1979، وبعد وصولي إلى موسكو للدراسة، أبلغني الرفاق هناك أن السكرتير الأول قدّم بالفعل الاوراق لهم، وقال أن د. كاظم حبيب شخصياً يوصي به (بيَّ).

- وعلى الطريق نفسه قدّم لي، وللمرحوم الصديق د. غانم حمدون (وكنا حينذاك نعمل كمدرسين في جامعة عدن في جمهورية اليمن الديمقراطي) المساعدة للعمل في الجزائر، حيث تهيأت لي الفرصة للعمل هناك.

2) وكان الدكتور كاظم حبيب باحثاً اقتصادياً غطّتْ اهتماماته كل أو معظم حقول الاقتصاد تقريباً، من الحقول النظرية إلى المجالات التطبيقية، ومن القطاع الزراعي، الذي يقع ضمنه تخصصه الدقيق، إلى القطاعات الأخرى من صناعة ونفط ومالية وتمويل وتخطيط وغير ذلك، مع إتجاهه، في السنوات الأخيرة، لإهتمامات خارج حقل الاقتصاد، مثل الاجتماع والسياسة والثقافة، وكذلك دراسة مكونات معينة من المجتمع العراقي، مثل الكرد والصابئة المندائيين والمسيحيين، وذلك بقصد تأكيد قيم الحرية والمواطنة والعدل الاجتماعي، تاركاً إرثاً كبيراً في كل هذه الحقول والاهتمامات.

ولا شك أن هذا الحمل الثقيل من شأنه إرهاق الباحث، وإستنزاف قواه الفكرية والبدنية وتشتيتها، ولا يمكّنه من بلوغ عمق المواد المدروسة بالدرجة الكافية والضرورية، وهو أمر لا أستبعدُ أن زملاء ورفاق الفقيد الكبير قد تداولوه فيما بينهم أو في دواخلهم. ولكن هذا هو ما كان. ومما قد يكون له صلة بهذا الأمر، أتذكر إنني كنت في زيارة له، عام 1977، في مقر عمله في المجلس الزراعي الأعلى، في شارع السعدون ببغداد، وأفادني بأن الرفاق يتصورون بأن كل سؤال في شؤون الاقتصاد لابد أنه مُحيط وعليم به!! مما قد يضطره لتوسيع نطاق بحوثه واهتماماته على النحو الموصوف أعلاه.

3) كان الدكتور كاظم حبيب يحاول، في النصف الأول من السبعينات، وبالارتباط مع إفتتاح أقسام للدراسات العليا (دبلوم عال وماجستير ودكتوراه) في عدد من التخصصات في جامعة بغداد، تشخيص مَنْ يأمل أو يتوسم فيهم قدرات واهتمامات معينة بقصد تمكينهم أكثر من دراساتهم، وربما المساهمة في إرشادهم على نحو أفضل باتجاه ما يناسب إمكاناتهم ورغباتهم ويخدم حاجات البلاد في الوقت نفسه. وعلى هذا الطريق:

- وضع الفقيد مكتبه للدراسات والاستشارات، الكائن في شارع النضال في بغداد (وهو مكتب أنيق، وفيه كتب ومجلات إقتصادية، وأجهزة حساب، ومكيَّف) في خدمة عدد من طلبة الدراسات العليا حينذاك، والذين كانوا يقضون فيه ساعات طوال كل يوم. وكنت أنا أحد هؤلاء الطلاب في السنتين 1973 و 1974 أثناء كتابة رسالتي الجامعية.

- مناقشة أو اقتراح الموضوعات التي

يمكن اختيارها للرسائل وما يدخل في ذلك من تفاصيل.

- التشجيع على الكتابة في المجلات الاقتصادية العلمية (وكانت كثيرة وبمستوى مرموق في فترة السبعينات مثل مجلة الاقتصادي، والنفط والتنمية، والاقتصاد، والصناعي، وغيرها)، أثناء فترة الدراسة وقبل اكتمال كتابة الرسائل، وإعتبار ذلك بمثابة تدريب على الكتابة العلمية اللاحقة. وكان الفقيد يحرص على الأمر نفسه في حقل الترجمة حيث كان يشجعني شخصياً على ترجمة مواد ترد في مجلة "العلوم الاجتماعية" التي كانت تصدر باللغة الانكليزية في موسكو في السبعينات.

- كان الفقيد يحرص على حضور الدفاع عن الرسائل الجامعية عند اكتمالها، وكنتُ ألمس وأحس بتأثير ذلك الكبير على معنويات الطلبة المعنيين. وكنت أنا من بين من حضر دفاعهم في شهر شباط 1975.

- وثمة لقطة، في هذا السياق، أحرصُ على ذكرها: في الثمانينات، وأثناء مرحلة الدكتوراه في موسكو، طلبَ مني أحد الزملاء أن أساعده في الطلب من الفقيد (وكان يعمل في الجزائر حينذاك)، أن يضع له خطة عمل لرسالته في الدكتوراه، التي كانت عن الزراعة. فقلتُ للزميل: أكتبْ أنت بنفسك طلبك، وسوف أرسله أنا للدكتور كاظم على عنواني وفي وجودك، وسأحملُ لك جوابه حين يأتي. ولم يتأخر الجواب الذي تضمنَ نقطتين: أن طالب الدكتوراه هو من يجب أن يضع الخطة لرسالته وذلك بعد أن يجمع ويطلع على المراجع ذات العلاقة، وهي متوفرة وغنية؛ وأن الاقتصاديين العراقيين الدارسين في الجامعات الأجنبية، انكبوا خلال فترة الخمسينات والستينات والسبعينات على كتابة العشرات (وربما المئات) من رسائل الماجستير والدكتوراه التي تتناول موضوعات اقتصادية عامة بقصد تكوين فرشة أو رصيد أو خزين من المعلومات الاقتصادية العامة هدفها تمكين طلبة الدراسات العليا فيما بعد من دراسة موضوعات أو مشاكل محددة. ما أقصده أن الفقيد الكبير كان، رغم روحه التعاونية، يحث الدارسين على الاعتماد على الذات في كتابة رسائلهم ذات الموضوعات المحددة والراهنة.

أستاذي الجليل الدكتور كاظم حبيب ... وداعاً.

ملف انتفاضة تشرين

ضوء تشرين
ولادة فن الغرافيتي في العراق

د .لؤي حمزة عبّاس
اكاديمي وناشط مدني/ البصرة

كانوا يبدون فريقاً منظماً من الفنانين الشباب، ببدلات العمل الموحدة برتقالية اللون، ومواد الرسم الاحترافية الموضوعة على الرصيف أسفل رسوماتهم غير المكتملة، الفرش وعلب الطلاء وقناني الرش، وهو ما أسعدني ومنحني شيئاً من الدفء في ليلتنا التشرينية وهم، فضلاً عن ذلك، مدركون أهمية ما يفعلون، سعداء بالنتائج الأولية لخيالاتهم، ذلك ما تقوله رسوماتهم تحت جسر منطقة الجزائر، وعلى جانبيه، بمفرداتها المحلية والعالمية وأساليب تنفيذها شديدة التميز والجرأة والمهارة، حروفية وصورية، لم أخف سعادتي بما يحدث، فاقتربت منهم لأحدثهم وأنا أواصل التقاط ما يمكنني من صور:

ـ شنو هالجمال، هاي وين جنتوا يابه؟

كانوا يضحكون، وبروح الشباب الساخرة أجاب أحدهم:

ـ جانت نايمه علينه الطابوگة..

نعم، هذه هي الكلمة الفصل، طوال ما يقرب من العشرين عاماً الماضية لم تنشغل السلطة في العراق بشيء غير أن تنييم الطابوقة على صدور العراقيين، خاصة الشباب منهم، فتجهد أرواحهم بالإهمال وتعطل قدراتهم

بالتجاهل والصدود، لكن الشباب بمواهبهم العظيمة، وإيمانهم المجيد بالحياة، وقدرتهم على الحلم، نفضوا عن صدورهم الأثقال، وها هم يبتهجون محتفلين ببرد الشتاء العراقي، شديد العذوبة والجمال..

إن سعي انتفاضة الشباب العراقي[1]، ابتداءً من الأول من أكتوبر/ تشرين الأول 2019، إلى استعادة إرادة وطن فتي، وجد تحققه الفعلي في ساحات التحرير في مدن وسط العراق وجنوبه، مثلما شكّل الصعود لأعلى عمارة المطعم التركي في قلب العاصمة العراقية بغداد، منذ انطلاق الحراك، ارتقاءً على اللحظة العراقية الراهنة في سبيل تغيير قوانينها وتعديل مجرياتها، وقد وضعت الشباب المنتفض أمام سبل تعبير لم تكن قد جُربت من قبل إلا في

أضيق الحدود، من هذه السبل، وفي مقدمتها، (فن الغرافيتي) الذي يهيئ مساحة واسعة للإفصاح والتعبير. إنه فن الاحتجاج الأمثل، لا بما يمثله من قوة تعبيرية عالية فحسب، بل لكونه (فن الشارع) المنبثق من ثقافة بقيت في الخفاء طويلاً، خارج قاعات العروض الفنية وحسابات الفنانين. ولأنه فن الشارع الأقرب إلى الانسان فقد تحرك بسرعة لافتة في بغداد وباقي المحافظات، كأن جموع الفنانين الشباب كانت تترقب الفرصة المناسبة، ليجد فن الغرافيتي في انتفاضة تشرين مقومات انبثاقه، معبّراً عن إرادة الهامش المستلب، بما هيأته الانتفاضة من فضاء جديد مقاوم للنسيان، مواجه للطغيان والفساد، ليحقق هذا الفن اسهامه الفاعل في الانتفاضة بوصفه "سلاح مقاومة فنية ذا بعد شعبي وجماهيري وعمومي أكثر من غيره من الفنون، التي يظل أثرها المباشر محدوداً. والفورة التي يعرفها هذا الفن تحرّر الفنون البصرية من الانغلاق وتستثمر مقوماتها البصرية والتشخيصية والخطابية كافة بهدف إنتاج أعمال قد تتعرض للزوال، غير أن آثارها الوجدانية والتحريضية والفكرية توسِّع من أفق الوعي وتفتح له سماوات لم يحلق فيها فن آخر من قبل"[2].

حينما نتحدث عن فن الغرافيتي في العراق فإننا نتحدث عن الشباب وقدراتهم الخلاقة التي اختارت الرسم وقيمه الجمالية أسلوباً من أساليب المواجهة، وطريقة مؤثرة من بين طرائق الاحتجاج، إن ما يسعى الغرافيتي للإعلان عنه والتصريح به من معلومات سياسية أو اجتماعية، وما يعمل على كشفه والتعبير عنه من عوامل نفسية، سطحية وعميقة، يتماشى مع روح الشباب وتطلعاتهم للتعبير بما يتناسب وتحولاتهم في النمو الجسماني والذكائي والانفعالي، كما تعبر إيما روسيل [3].

من هنا يمكن عدّ تاريخ انطلاق الانتفاضة العراقية في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول 2019، تاريخ ولادة فن الغرافيتي المعاصر في العراق، وهي اللحظة التي بدأت معها الظاهرة الغرافيتية تتشكل بقوة ومهارة بوصفها حدثاً غير عادي يمكن ملاحظته ومراقبته ووصفه، وقد حملت من الدلالات السياسية والإنسانية والاجتماعية ما جعل منها ظاهرة مركبة تستوجب الرصد والمعاينة والتوثيق، مقدمة لدراسة نماذجه والوقوف على خصائصه. إنها لحظة مؤثرة في تاريخ الفن العراقي المعاصر، غادر معها الغرافيتي خجله وتردده وخشيته من عدم تقبله في الحياة العراقية، ليدخل على أيدي فناني الانتفاضة، هواة ومحترفين، وبموجبات وعيهم مرحلة التحقق الشعبي. وقد يُنكَر على الكتاب تحديده العام 2019 تأريخاً لولادة فن الغرافيتي في العراق، ويُحتج بقدم الفن العراقي عامة، إذ أن ولادة الفن في العراق مقترنة بولادة الحضارة، وهو وجه سام من وجوهها، وقد قدّم للعالم، منذ فجر الحضارة الانسانية، الكثير من الروائع، النحتية خاصة. أما الرسم فقد سبق ولادة الدولة العراقية بعقود مع التجارب المبكرة للفنانين الرواد، ليتجاوز عمره المائة عام، فهل يصح، والحال هذه، أن تتأخر ولادة فن الغرافيتي حتى أواخر العقد الثاني من الألفية الثالثة؟ وهو إنكار مشروع وسؤال لا يخلو من منطق إذا ما قيس على فاعلية الفن العراقي القديم منه والحديث، باتجاهاته ومدارسه وأعلامه، لكن ولادة فن الغرافيتي

في العراق حُددت بناءً على ثلاث خصائص هي: الانتشار، التنوع، الابتكار.

فما كان شاخصاً على القليل من جدران المدن العراقية قبل العام 2019، لم يملك نصيباً من الحضور والانتشار، كما لم يكن متنوعاً ومبتكراً إلا في أضيق الحدود، بحيث لا يكاد يكون مرئياً أو مؤثراً. غير ان الانتفاضة، بروحها الشبابية وبُعد تطلعها، حققت لهذا الفن حضوراً فاعلاً، له من الانتشار، وتنوّع الثيمات، وتعدّد أساليب التنفيذ، ومن قوة الخيال ما رفع الكثير من نماذجه إلى منزلة الابتكار. ولأن انتفاضة تشرين الأول 2019 هي أوسع احتجاج جماهيري شهده العراق منذ تأسيسه، وقد شهد فن الغرافيتي خلالها أوسع استثمار له، فإن ذلك عزّز تحديد تاريخ الانتفاضة موعداً لولادة فن الغرافيتي في العراق، وذلك لا يتقاطع مع عراقة الفن على هذه البقعة من العالم، بل بقي بانتظار المناسبة التي تتحقق معها ولادته الطبيعية، الأمر الذي يبدو قريباً من ولادة قرينه فن الغرافيتي المصري الحديث الذي لم يشهد حضوراً واسعاً قبل العام 2009[4].

وإذا كان الرسم، على نحو عام، بتصور الكسندر بلوك "يعلّم النظر والرؤية، وهذان شيئان مختلفان، نادراً ما يتطابقان" [5]، فإن فن الغرافيتي يُعلي من شأنهما حالما يعلّمهما ويعوّل عليهما، بما يميّزه من مراقبة وتعليق. إنه يشحذ إمكاناته، بوصفه تعبيراً حرّاً عن حدث راهن، ليعبئ متلقيه من أجل القبض على اللحظة الزمنية وإنتاج موقف صريح منها. لذا كان هذا الفن قاسماً مشتركاً بين ثورات "الربيع العربي"، مغادراً كونه فن الاعلان وفن الحدث. الغرافيتي اعلان بالدرجة الأساس، بالطابع الاقتصادي ذي الأهداف التسويقية للأول، والطابع اليومي، لفن الموقف بحمولته الأيديولوجية. وقد استلهم خصائص فن الملصق متجاوزاً محدودية عناصره الشكلية واللونية، خارجاً من ضيق مساحته إلى سعة الفضاء العام. وإذا كان للديمقراطية أن تختار فناً واحداً للتعبير عن مفاهيمها وترجمة تطلعاتها، فسيكون فن الغرافيتي الأنموذج الأمثل لذلك منذ نشوئه أواخر ستينيات القرن الماضي، وقد وسع ميدان الرسم حتى أصبح بلا حدود، ومنح كلّ انسان حق المشاركة في الانتاج والتعبير، بصرف النظر عن موهبته وكفاءته ومستوى تعليمه، فقد كانت المهمة الأساس لفن الغرافيتي السياسي، التعبير عن رغبة فنانيه في النهوض بالمجتمع والارتقاء بقضايا الإنسان.

إن تزامن الولادة الحقيقية لفن الغرافيتي في العراق مع انتفاضة تشرين جعلته يُنجز مهمةً تقع في مركز الحدث الثوري، وهي العمل من أجل استعادة الفضاء العام، فعبر أعمال الغرافيتي، مختلفة الأنماط والأشكال والأحجام والتقنيات والمرجعيات، استطاع الفنان الشاب أن يحدّ من هيمنة السلطة على الفضاء العام ويسقط ادعاء ملكيته، فلم تعد صور رموز السلطة ومناسباتها متحكماً أوحد بفضاء المدينة العراقية، بعد أن عمل الشباب على تمثيل رؤاهم في ما متاح من المساحات، من أوسع الجدران حتى ركائز الجسور الكونكريتية. إن قوة التعبير في الكثير من نماذج الغرافيتي أنجزت مهمتها بكفاءة عالية، وأنتجت أيقوناتها بما يعمق سرديتها وينظم مروياتها، فقد تميزت انتفاضة تشرين عن كلّ ما سبقها من احتجاجات بثراء أيقوني، بعد أن حققت أيقوناتها المركزية عمومية

تكرّرت معها في مجمل ساحات الاعتصام في مدن العراق المنتفضة، إلى جوار أيقونات خاصة بكلٍ مدينة، شكّل الشهداء النمط الأهم بين أيقونات الانتفاضة. فقد تكرّر غرافيت صفاء السراي، والمطعم التركي، ونصب الحرية، والتكتك على جدران المدن العراقية، بما يضفي على غرافيتي الانتفاضة خاصيتي الوحدة والمشاركة، إلى جانب الايقونات الثقافية والفلوكلورية والاحتجاجية الخاصة بكلٍ مدينة. وذلك لم يمنع من ظهور إيقونات عالمية، لا سيما بعض أعمال بانسكي، فنان الغرافيتي البريطاني الأشهر الذي عُرف بأعماله المثيرة للجدل، المحوّرة عراقياً. وهي جوانب أضفت على غرافيتي الانتفاضة ملامح إبداعية عبّرت معها الحدود المحلية لتشتبك مع منجز غرافيتي الربيع العربي. إذ حضرت بعض من أشهر نماذج غرافيتي الثورة المصرية، والغرافيتي العالمي الذي يعلن مطالب إنسانية عامة بالحرية والعدالة والحدّ من اضطهاد الانسان، بأساليب تنفيذ مختلفة. يكتب الفنان صدام الجميلي على صفحته على الفيس بتاريخ 19/ 12/ 2019 معلّقاً على طبيعة أعمال غرافيتي الانتفاضة المتداولة وما يميزها من قدرات تعبيرية:

"لن أتحدّث عن قوة المعنى في أعمال الغرافيتي العراقي، فذلك لا يحتاج، بتصوري، إلى إيضاح، بل سأشير إلى قوة التعبير الفني فيها، فهي ليست بالبساطة المعهودة في فن الغرافيتي الذي تميل أعماله في الغالب إلى بُعد تصميمي من أجل إيصال الفكرة، إلا إن الكثير من نماذج غرافيتي الثورة ينتمي إلى فن الرسم المعاصر بكل عفويته وقيم التعبير الطازجة التي ميزته عن الرسم عموماً، ليكون العمل حياً، هشاً ولينا في الوقت ذاته بفعل حيويته المفرطة. تشير هذه الرسوم إلى روح طازجة، والى قوة الحياة ومعناها النابض، واصفة روح الشاب العراقي بالرقة والصلابة والأمل، وذلك ما سيغني الروح العراقية المنتفضة".

مقاصد غرافيتي الانتفاضة

إن اعتماد شباب الانتفاضة الفن الغرافيتي بوصفه أسلوب التعبير الأبرز، انتقل بهذا الفن من معاني الغربة والاغتراب التي يرتبط بها الغرافيتي عموماً، لمعاني المؤازرة والتكاتف المعبّرة عن روح التظاهر والاحتجاج السلميين. فما رسمه الفنان الشاب على جدران نفق التحرير في قلب العاصمة، سريعاً ما وجد صداه فيما رُسم على الجدران القريبة من ساحات التظاهر في مدن الوسط والجنوب، بابل والنجف والقادسية والبصرة وميسان والناصرية. إن حيوية الفعل الشاب انتقلت بالغرافيتي من كونه الوسيلة الفنية المتاحة للمغتربين للتعبير عن اغترابهم، إلى كونه وسيلة التلاحم والإتحاد لفئة بشرية تعرف نفسها مثلما تعرف مواطن السوء في المنظومة السياسية وتحتج على ممارساتها. إن هذا التعديل والانتقال في معنى الفن يصاحبه، بالضرورة، اختلاف في مقاصده، إذ تختلف مقاصد الغرافيتي وتتباين أهدافه، بناءً على المجموعة المستعمِلة لهذا الفن، المؤثرة أسلوبه على أساليب فنية أخرى، منها ما يخص التزيين أو الدعاية التجارية أو المجاهرة بالأفكار، أفكار الأقليات المهمشة والمضطهدة والمنبوذة. ومنها ما هو سياسي يعبّر تعبيراً مباشراً عن أفكار بمحمولات أيديولوجية ترتبط بثورات الجماهير واحتجاجاتها، وهذه التنوعات

تهدف باعتمادها فن الغرافيتي إلى عرض معتقداتها والتعبير عن طموحاتها عرضاً مختصراً بآليات تعبير صريحة موجزة، بلا إفاضة أو تعقيد، حمل غرافيتي الانتفاضة لإنجاز مهماته، إلى جانب عناصر الرسم، مكوّناً خطياً انتقل بالاحتجاج إلى منطقة أكثر صراحة ووضوحاً، أقرب إلى هتاف الجماهير، مثلما انتقل بشعارات الساحات إلى اللوحة بما وسع مساحة التظاهر خارج حدود الساحات التي عملت السلطة على محاصرته فيها. وهو بهذا فتح أفق التلقي والتأثير على عموم المجتمع العراقي. إن الفن الغرافيتي منح الانتفاضة فرصة للخروج من محدداتها العمرية والفئوية والاجتماعية، وجعل مجمل فضاءات المدن العراقية مساحة للاحتجاج.

يمكن الاشارة إلى تباين الأساليب المعتمدة في هذا الفن بحسب التصورات العامة للفنان ومقاصده الفكرية والفنية، وبحسب رؤيته الجمالية لموضوعه، والتقنيات المعتمدة في التنفيذ. منها ما ينجز باستعمال السنستيل، لينفذ بوساطة الطبع المباشر على الجدار، ويكون الناتج أقرب إلى العلامة منه للعمل التصويري، وهو الأسلوب الذي شاع استعماله خلال الثورة المصرية في العام 2011. وهناك المشاهد الواسعة التي تعتمد التعبير الكاليغرافيتي، وتتخذ من الحروف وتكويناتها مادتها الأساس، وهي التقنية التي شهدت حضوراً واسعاً بين أعمال غرافيتي الانتفاضة في بغداد والبصرة على نحو خاص. وثمة أساليب أخرى تمزج بين الكتابة بأنواع خطوط مختلفة وتركيب متداخل يعتمد التصميم المتكامل. والأسلوب الشائع في غرافيتي الانتفاضة العراقية معني بالتفصيل الجمالي والاهتمام بالأبعاد الفنية المقاربة للرسم الخام، وهو يعمل على تقديم نوع من التصوير الحيوي المعني بالفكرة أكثر من عنايته بتقنيات تنفيذها. وذلك ما أنجز على جدران نفق التحرير منذ الأيام الأولى للانتفاضة، قلب العاصمة العراقية الذي أخرجه الشباب من الاهمال لينجزوا على جانبيه الوجه الأهم في التعبير عن فاعلية الاحتجاج وجدارة مطالبه، بأيدي شبان موهوبين من طلبة الفن وعشاقه. هذا إلى جانب فنانين محترفين من مختلف مدن العراق، جمعتهم روح التحرير مثلما وحّدهم شغفهم العميق بفن الرسم، وذلك ما منح أعمالهم روحاً تقترب من عفوية الرسم المعاصر في تطلّعه إلى إنتاج المعنى، بعيداً عن العناية المفرطة بمهارة التنفيذ والتركيز على الأسلوب فرادةً وتميزاً. وثمة نوع آخر معني بالتصوير الدقيق الأقرب إلى فن الملصق بعناصره المتقشفة، ومساحاته اللونية، وفاعليته التصميمية. وقد فرضت أعمال غرافيتي الانتفاضة المتنوعة حضورها الجمالي مركزاً للحدث، ولم تكتف بكونها هامشاً من هوامشه أو صدى من أصدائه. فقد كان للوحات المرسومة على الجدران أثر لا يقل قيمة عن قيمة اعتصام الشباب في ساحات التحرير، ليبدو الاحتجاج غير مكتمل والانتفاضة ناقصة لو لم يعمل الشباب على تثبيت رؤاهم على الجدران عبر اظهارات فنية جريئة ملهمة تستعمل الوعي الفني استعمالاً حرّاً للتعبير عن إرادة الاحتجاج، وتتعامل مع مساحات غير تقليدية مثل الكتل الكونكريتية وسطوح الجدران المبنية من مادتي الطابوق والبلوك، وسطوح أخرى كالخشب والمعدن وأبواب الحديد وصفائح الجينكو المضلّعة. وهذه السطوح

غير المستوية في الغالب تفرض املاءات تصويرية تعامل معها فنان الغرافيتي الشاب بحيوية وحذق قاداه لاقتراح حلول جمالية مبتكرة.

التعبير عن الإرادة

إن الطبيعة التراكمية لأعمال الفن الغرافيتي المؤسسة على وجود مسبق تقدم بناء طبقاتياً يوسع مساحة التأمل والكشف عن الطبقات المندرسة بفعل الزمن أو بتأثير الانفعال الجمالي، بما يضع المتلقي بمواجهة سطوح معرضة للشطب والإضافة، وقائمة على الهدم والبناء بما يمنح أعمال الغرافيتي أداءً حيوياً يُثري ذاكرة اللوحة ويوطّد حضورها ضمن معطيات الأعمال الجمالية والتعبيرية. وهي تعمل على بلورة مدلولاتها التاريخية والاجتماعية التي تعلي من شأن الأعمال وتخرجها من أسر آنيتها إلى زمن شديد الوقع والتأثير، زمن الإرادة التي وجدت في انتفاضة تشرين خير تعبيراتها. إن طبقات السطح التصويري الكرافيتي تنتج سرديتها البصرية بأساليب متعدّدة ووعي مختلف يتمثل في وعي الرسامين الذين يؤمنون بديمقراطية الجدار وتقبّله لهم جميعاً، مثلما آمنوا بقدرته غير المحدودة على الكشف والإشهار والتوصيل، وهذا الإيمان دفعهم، على غير اتفاق، لتشكيل قصص متراكبة ومعاني متنوعة ورؤى تصويرية تتداخل مُشكّلةً محكيات بصرية لا نهائية، عمادها أشكال وألوان بانشاءات مبتكرة، قاد ذلك في النهاية إلى إنتاج قيم جمالية جديدة في فضاء المدينة العراقية، بما لا يتوفر عادة في العمل الفردي الاحترافي لكونه ينبثق من وعي فنان مفرد بأسلوب واحد. إن المعطى المتجدّد للعمل الغرافيتي يؤثر فرضيته الجمالية القائمة على التحول المستمر للعمل الفني، تحول فردي ومجتمعي، فضلاً عن خاصيته في الشيوع والمشاركة، وهي واحدة من فضائل هذا الفن، فالمتلقي لا يذهب لمشاهدة العمل الفني بل يقطع العمل الطريق عليه، وهذا بحد ذاته معطى جمالي صادم يتشكل ضمن فضاء عام. فالأجساد البشرية والدراجات والسيارات والحيوانات والنفايات وغيرها من عناصر الفضاء العام، تُسهم في إنتاج شعبية المشهد البصري وتمنحه سمات كرنفالية ذات بعد يومي توسع من آفاقه، وهي، بالنسبة للمتخصص التشكيلي، قيم بصرية مضافة يصعب حصرها والتحكم بها أو الحكم عليها، لأنها تُسهم بتبئير الفضاء العام جمالياً وتحرّكه حول مركز باث للقيم الجمالية. إن عناصر الفن الغرافيتي، بوصفها ركائز للخطاب البصري، أسهمت بتبسيط العمل الفني وتقريبه من الجمهور العام، فأمست خصائص هذا الفن من بين أهم قيمه التعبيرية والجمالية، ثمة تقنيات فنية احتجاجية ذوات جمالية عالية، على الرغم من بساطتها وعموميتها كالرش والتلطيخ والتبقيع والحزّ والطباعة فضلاً عن الكولاج (اللصق) والفرولاج (الحك)، رسخت من حضور هذا الفن في كثير من المدن العراقية ومنحته قيمة تعبيرية مضافة.

مرجعيات الغرافيتي العراقي

إن تعدّد المرجعيات التي استقى منها فنان الغرافيتي العراقي رموز أعماله، تاريخية ومعاصرة، وانفتاحه على مختلف حقول الإبداع، محلية وعالمية، أدبية، وتشكيلية، وموسيقية، وسينمائية، فضلاً عن رموز

الاحتجاج، الإنسانية، الشهداء خاصة، والمعمارية، عمارة المطعم التركي، والشيئية، التكتك، والأقنعة الواقية من الغازات وسواها، تشير إلى ثراء التجربة الشابة التي استثمرت الحدث بعناصره المختلفة في الارتقاء بقدرات المنجز الغرافيتي الجمالية والتعبيرية، وتعزيز وعي مبدعيها. إلى جانب ذلك، لا يمكن إغفال فاعلية الخيال في أعمال الغرافيتي، على الرغم من اعتماد هذا الفن على الواقع بحوادثه المتلاحقة. فالواقع بوجوهه المتعدّدة يشكّل مادة الغرافيتي الأولى، مثلما يشكّل تغييره نحو الأفضل هدف الغرافيتي الأساس، وهو مرويته التي يعمل من خلالها على تطوير أدواته والارتقاء بوسائله، فالغرافيتي الاحتجاجي من أكثر فنون الرسم واقعية، وهو اليوم مفردة مهمة من مفردات المدينة التي تصادفنا على غير توقع لتضعنا في قلب مشكلات عالمنا الراهن، لنكون في معترك تلك المشكلات بعد أن توهمنا أننا خارجها، في مأمن عن تأثيراتها. كما ينتج هذا الفن أعماله مستفيداً من سيل الحوادث اليومية التي سريعاً ما يجرفها النسيان، لكنه يعمل على رفعها من مجرى العدم ووضعها أمام الأنظار منتجاً بناءه الفني الذي تشدّ وحداته دينامية الخيال وتنظم صلته بمرجعه الواقعي بما ينهض بوعي الواقع ويحقق فهماً أعمق لقضاياه.

إن مناقشة دور الخيال في أعمال الغرافيتي تعيننا على إدراك طبيعة التمثيل الذي يعمل الغرافيتي على بلورته في صلته بمرجعه. فليس الخيال في هذا الفن تمثيلاً للغياب وتشخيصاً لآثاره وظلاله، بل هو إدراك لما في الحدث الراهن من غياب وعوز، ورؤية أعمق لطبيعة الخلل الذي يحكم عالمنا، ومثلما كان للخيال الدور الأبرز في ارتقاء الإنسان في مدارج حضارته. وقد ارتبط منذ بدء الخليقة، بالحركة لا بالسكون، وبالخلق والولادة والابتكار لا بالتحجر والموات، كان له الدور الفاعل في إنتاج روائع الغرافيتي في مختلف مدن العالم التي تُقرأ اليوم بوصفها نافذة المدينة المعاصرة لتحقيق أسطورتها وإنتاج مستوى جديد من المعرفة غير المعزولة عن المتعة، وهي المساحة الأكثر حرية التي يواجه الإنسان من خلالها نفسه ومعتقداته، في مواجهة تناقضات عالمنا الذي أصابه جفاف الروح.

الهوامش:

1- لمراجعة ما أصطُلح على الحراك التشريني، يُنظر:
- ثورة في العراق، لم لا؟، حيدر سعيد، موقع وصحيفة العربي الجديد 4/ 11/ 2019
- الانتفاضة التشرينية والإصلاح في العراق، قراءة تحليلية للظاهرة العراقية، د.علي عبد الهادي المرهج، كتاب: الخطاب الثائر، لسانيا ونقدياً، تحرير وتقديم خالد حوير الشمس، دار دجلة الأكاديمية، بغداد 2021: 27 - 66.

2- الغرافيتي، من الاحتجاج إلى مفارقة الاعتراف الفني، فريد الزاهي، مجلة الفيصل السعودية العددان 495 - 496 فبراير 2018: 20 - 23.

3- Emma Russel (2008) "Writing on the wall: The form, function and meaning of tagging", Journal of Occupational Science 15: 2, 87-97

4- ينظر: أرض أرض، حكاية ثورة الجرافيتي، شريف عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2012.

5- عن كتاب: فنانون، قسطنطين باوستوفسكي، ت: غائب طعمة فرمان، دار رادوغا، موسكو 1985.

مخاضات الهويَّة الوطنيـة.. وآمال تشرين

علي العرار
ناشط مدني – واسط

أولاً- الهويّة العمودية للعراق

نريد أن نبين متى بدأت ملامح الهوية الوطنية العراقية، وكيف تبلورت، وربّ سائل يسأل هل فعلاً أن العراق كان عنواناً وموقعاً ازلياً بلا شعب أم شعب بلا هوية؟ وهل يعد هذا الاعتبار منطقياً حين نفسر أن الهوية الوطنية هي الحدود الدنيا لمشتركات العيش في مكان مـــا؟ ربما يختلف معي الكثير بسبب الفكرة المغلوطة بين العراق كتاريخ أصيل وبين بداية الهوية وارتباطها بشعب يدرك انه مواطن اصليّ ينتمي لهذه الرقعة الجغرافية! لكن لو بسطنا الأمر وقرأنا التاريخ بتمعن هل نرى لكلمة "العراق" معـنى؟ أو هل كان يشعر المواطن العراقي على أنه ينتمى الى شعب واحد ودولة واحدة كما نتغنى بامتداد تاريخنا الطويل؟ فعلينا التركيز جيداً بين الهوية كمفهوم وانتماء وبين حجم وعمق وعمر المكان الذي صرنا عليه، ومن خلال اللمحات التاريخية نحاول أن نبين الهوية الوطنية وماهيتها؟

كان العراقُ معروفاً بلاد ما بين النهرين، موطناً لأقدم الحضارات في العالم، وله حضارة تاريخها طويل جداً، أما كلمة العراق فجاءت متأخرة من هذا التاريخ، إذ تمتد هويته (الجغرافية) بتمثيله الجزء الأكبر من دول الهلال الخصيب أو الشرق الأدنى

القديم، حكمت العراق الإمبراطوريات القديمة لآلاف السنين، حتى فتحه المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين ثم جاءت الدولة الاموية والعباسية ثم انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م، وبعد الغزو المغولي حكم العراق الجلائريون، وفي سنة 1401 غزا تيمورلنك العراق، ودمر بغداد بعد استسلامها له، ويعد سقوطاً فظيعاً ومؤلماً في تاريخ بغداد. ثم تمكنت قبائل الخروف الأسود من بسط سيطرتها على العراق، ثم سيطرت قبائل الخروف الأبيض. وانتهى حكم هذه القبائل بعد أن تمكن إسماعيل الصفوي من احتلال العراق. وصارت بغداد تحت الحكم الصفوي. ثم حكمت الإمبراطورية العثمانية، وتخلل هذه الحقبة حكم المماليك، وانتهى حكم الدولة العثمانية مع الحرب العالمية الأولى، واحتلت الإمبراطورية البريطانية العراق وأصبحت تحت ادارتها المباشرة وقيام المملكة العراقية

في 1921 ثم نيله استقلاله رسميا عام 1932م، وخروجه من الانتداب البريطاني، ثم انتهى العهد الملكي بقيام الجمهورية العراقية في أعقاب ثورة 14 تموز 1958 الخالدة، وقد توالى حكم الجمهورية عدة رؤساء بدءا من عبد الكريم قاسم والعارفان ثم البكر وآخرهم صدام حسين للفترة 1979 - 2003، وفي هذه المدة وقعت الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج الثانية، وخلع صدام حسين في أعقاب الغزو الذي قادته الولايات المتحدة للبلاد عام 2003، وفي أعقاب الغزو حصل تدهور سياسي للوضع واضطرابات طائفية وحرب أهلية في المدة (2005 - 2007).

وبدأ العراق بوصفه دولة ذات كيان مستقل بدءاً من 1921 قيام الدولة العراقية الحديثة. فلم يكن هناك دور واضح للهوية بالمفهوم الذي نبحث فيه (الهوية الوطنية). حيث توجد هناك هويات أخرى عوضاً عنها وأكثر وضوحاً، فلا توجد هوية جامعة فوق الاحتلالات ولا يوجد شعب يقترب الى الاخر من خلال هويته (الوطنية) فكانت الهوية التاريخية للعراق هوية بسيطة لم تتعدَ حدود الجغرافيا وتعد هوية ممتدة في هويات الالهة أو الملوك وبعد الاسلام صارت هوية الخلافة هي المعرف بين الشعوب، واستمر الحال لغاية الغزو المغولي 1258م، الذي فكك ودمر وشطب معالم الارث الحضاري وتفتيت الدولة الذهبية التي بناها العباسيون. ولكي نعرف ماهي مديات تاثير الاحتلالات المستعمرة والمستنزفة للشعوب وتاثيرها على الهوية، نرى أن تأثير الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وما هو تاثيره على الهوية الوطنية الفلسطينية التي تشكلت في خضم صراع مرير خاضه الشعب الفلسطيني لإثبات وجوده على الرغم من عدم استسلام الشعب، وحقه في تقرير مصيره.

ثانياً : مخاضات الهوية الوطنية للعراق الحديث

بدأت الهوية العراقية أو مفهوم المواطنة والاحساس بالوطن على أنهم عراقيون في بداية الاحتلال البريطاني للعراق فادركوا الحق بتقرير مصيرهم، إذ قبل هذا الوقت لا يوجد امتداد لتاريخ الهوية الوطنية الجامعة غير هوية الجغرافيا وهويات أخرى كالهوية القبلية والهوية العقدية، وعند نشأتها بدأت أزمتها، فولدت مصابة، لأنها دخلت مريضة منذ عقدها المتزامن مع فيصل الاول، ثم توترت في عهد غازي حتى تشظت تماماً في العهد الملكي الثالث، ثم حاول قاسم مُصراً على استعادتها لكن القوميين والبعثيين قتلوه، ثم انصهرت تماماً بقالب العروبة حتى سقوط صدام. أما النظام الديمقراطي الأخير فقد سادت الهويات الفرعية، فعملوا على طمسها حتى محوها نهائياً، ثم أخيراً حاولت تشرين المشرقة ولكن..!!

وإلى نهاية العهد العثماني يصفها الباحث عقيل عباس أننا لا نجد بروزاً واضحاً لفكرة الوطنية العراقوية أو الهوية الوطنية الجامعة لكنها شهدت بروزاً لانتماءين: الانتماء المناطقي في المدينة (المحلة)، والانتماء العشائري في الأرياف. وعند مجيء الاحتلال البريطاني يعد بمثابة نقطة بداية مهمة للعراقيين تضاف للفكر القومي العربي. فعندما جاؤوا تعاملوا مع العراقيين على أنهم عراقيون أصليون نتيجة الازمات التي تزامنت مع دخولهم ومنها ثورة العشرين الخالدة. فترجمت الهوية في بدايتها على

أرض الواقع بمثابة خروجهم من انتماءاتهم الفردية والمناطقية والقبلية المغلقة، وعند مجيء فيصل اتضح خطان للدولة: الاول يفترض مراعاة الوطنية العراقية ضمن الحس الوطني الذي سعى اليه الوطنيون عندما طالبوا باقامة دولة مستقلة. والثاني التخطيط البريطاني للانتداب الشامل. ربما كان جزء من طموحات فيصل صناعة هوية جديدة لهذه الأمة، لكنه واجه صعوبة بالغة لارضاء كافة الاطراف والكتل السياسية، وكان ممتعضاً ومستاءً ومتخوفاً طيلة فترة حكمه (1921 - 1932) وعبرّ عما بداخله في مذكرة صدرت بخط يديه في نهاية حكمه عام 1931 والتي اطلع عليها بعض السياسيين المقربين اليه.

جاء جزء من نصها "اقول وقلبي ملآن أسى أنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شـعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية، خالية من اي فكرة وطنية، مشبعة بتقاليد واباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سماعـون للسوء، ميالون للفـوضى، مستعدون دائما للانتقاض على اي حكومة كانت، فنحن نريد - والحالة هذه ان نشكل من هذه الكتل شعبا نهذبه، وندربه، ونعلمه، ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب ان يعلم ايضا أعظم الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين، وهذا التشكيل. هذا هو الشعب العراقي الذي اخذت مهمة تكوينه على عاتقي.. وإن كان العمل شاقاً ومتعباً الا أنه ليس مما يوجب اليأس والتخوف، اذا عولج بحكمة وسداد رأي واخلاص..". أما غازي فقد كان وطنياً متحمساً ووقف على مساوئ الانكليز وخداعهم ورفض التعاون معهم لكن كانت خطواته ضعيفة وغير جدية؛ ففي نهاية الثلاثينيات نتلمس ان مصطلح الامة العراقية بدأ بالتخفي وكأنه لم يعد هناك بداية لهذه الدولة، ما جعل العراقيين مدركين من أقرب لديهم غير مفهوم العروبة، فضلاً عن فكرة القومية التي كانت هي السائدة والمروج لها مع الفكرة "الوطنية العراقية" لان الملك كان امتداداً للثورة العربية. وأخيراً أن غازياً لم يكمل ما بدأ به والده، ولم تنتعش الهوية الوطنية العراقية الفتية أبداً، بل تراجعت وظلت ساكنة فلم يضف عليها شيء سوى الاضطرابات التي تزامنت مع عهده. فنلاحظ أن فكرة الوطنية أو العراقية بمجملها عادت الى التناقص في نهاية العهد الملكي الاخير، فكان النظام غير قادرٍ على معالجة اخطائه أو بالاحرى أنه فقد تلكَ الروح التي يمكن أن تصلح نفسها مما وصل الحد به أنه فقد النظام أن "يصلح نفسه"، وهذه أحد أهم أسباب مجيء عبد الكريم قاسم. ففي الخمسينيات تصدرت القضية الفلسطينية وكانت مسألة العروبة لم تنحسم بعد، فكان التيار الذي يمثل اليسارية والليبرالية العراقية الذي يهتم بالهموم الوطنية والمعاناة العراقية توافق عندما جاء عبد الكريم قاسم وفهم على إنه ممثل لهذا التيار..! وبدأ قاسم بشدة ليحسم أمره للشعب، واقتربت خطواته من خطوات فيصل الأول، فكان يختلف عن القوميين الذين كانوا مؤمنين بالوطنية الناتجة عن الامتزاج العروبي. وتأتي الوطنية نتيجة لذلك الانصهار. فكان يؤمن بالأولوية العراقية والعراق للعراقيين، وحاول أن يبدأ البناء من الداخل ثم يخرج عربياً، لكن انتهى هذا الخلاف بقتله عام 1963. ونفذ حزب البعث بالتعاون مع التيار القومي وشخصيات أخرى جريمتهم الكبرى، وانتهوا بترسيخ مفهوم العروبة والقضية الفلسطينية لدى الناشئة وعامة الناس على

انهما الايديولوجيتان الكبريان في حسم المعركة القُطرية السائدة في نظام البعث حتى سقوطه.

ثالثاً: حقبة الضياع.. وآمال تشرين

ففي 20 مارس 2003، بدأت الولايات المتحدة غزوها للعراق بدعم من قوات التحالف في العراق، وكانت الرغبة الأهم في تحرير العراق وإنهاء ورقة الدكتاتور الذي شكل خطراً واضحاً على المنطقة وعلى المصالح الأمريكية. أنشئت سلطة الائتلاف المؤقتة في العراق برئاسة بول بريمر الحاكم المدني في العراق. وتزامن مع الاحتلال السلب والنهب (الفرهود أو الحواسم) بشكل فظيع على نطاق بغداد والمحافظات العراقية. ويفترض من مهام وأولويات قوات التحالف (التي تحولت الى قوات احتلال بموجب قرار مجلس الامن الدولي رقم 1483 – المحرر) حماية الممتلكات العامة والخاصة وفرض الامن والسلم الاهلي وحماية الطرقات ومنع التخريب لكنها لم تقم بواجبها، فاكتفت بالمشاهدة والتصوير في بعض المؤسسات، وتخلت عن مهمتها وفق القانون الدولي، ومن المؤسسات التي نهبت تماماً، المتحف الوطني العراقي، وسرقة آلاف الأطنان من الذخيرة الحربية من المعسكرات، وسرقة مركز للأبحاث النووية في التويثة.

انسحق العراق تماماً، فالقتل أصبح على الهوية، فكانت الهوية الطائفية هي أبرز الهويات التي حلت بديلاً عن الهويات الاخرى، حيث أن الهوية الطائفية روجت كثيرا وصار الاقتتال (سني – شيعي)، الذي ذهب ضحيته آلاف المواطنين العزل. صار المالكي رئيساً للوزراء لدورتين متتاليتين (2006 - 2014) وبعدها سيطر تنظيم داعش على خمس محافظات عراقية، ثم تحررت جميع أراضي العراق في أواخر 2018، وحدثت أقوى وأشرس احتجاجات في تاريخ العراق، فأسقطت حكومة عادل عبد المهدي وحلت بدلا منها حكومة مصطفى الكاظمي لسنة 2020.

فكان تاريخ الاحتجاجات العراقية منذ 2011 نتيجة تردي الاوضاع الصحية وخدمات البنية التحتية وسوء التعليم والتربية وقلة تجهيز الطاقة الكهربائية وزيادة نسبة الفقر وارتفاع نسبة البطالة على المستوى العام ثم انتقلت البطالة الى الخريجين بصورة مخيفة، وعدم توفير الفرص اللازمة لتشغيلهم. أما عامة الناس فانشغلوا بالهويات الفرعية، واستغنوا عن فكرة الوطن، وصار لكل هوية زعيمها المقدس، بل حتى النخب المثقفة انصهروا داخل الجماعات، وصاروا يطالبون بتوفير الخدمات حصراً، واستفحل اليأس بدواخل العراقيين كثيراً، ورأوا أنه لا خلاص من هذه الطُغمة الفاسدة. استمرت التظاهرات لأيام ثم اضمحلت بعد تحقيق بعض الاصلاحات الترقيعية، وبعدها حدثت تظاهرات منظمة في المناطق الغربية لاسباب خاصة بهم، مما مولت خارجياً وصارت السبب الأول لسقوط الموصل بيد داعش، ثم تحول العراق نحو الحرب وانشغلت الناس بالتحرير فعادت التظاهرات اكثر تنظيماً في 2016. تأمل الشعب خيراً في انتخابات 2018 لكن السوء الفظيع الذي لاصق العراقيين لا حد له. انهار الاقتصاد ولم تستطع الحكومة الجديدة تقديم أي شيء سواء اصلاحات مبعثرة، وتعيينات عشوائية، مع حزمة من الوعود الكاذبة التي فهمها الشعب منذ 2011. انفجر الشعب برمته

وحدثت احتجاجات رهيبة في وسط وجنوب العراق في 1 تشرين 2019. قامت الحكومة والمليشيات الساندة لها بقتل واغتيال الشباب الابرياء، لكن الثورة الشعبية لم تتراجع حتى سقطت حكومة عبد المهدي، وحلت بدلا منها حكومة الكاظمي، وجاء الأخير بتوافق سياسي خارج رغبة المتظاهرين وطموحاتهم. كانت مطالب المتظاهرين هي إسقاط النظام الحاكم، وتشكيل حكومة مؤقتة، وإجراء انتخابات مبكرة وفق نظام جديد، مما واجهت المليشيات المسلحة الاحتجاجات الشعبية بعنف شديد واستهداف المتظاهرين بالرصاص الحي. وكان الأهم بكل المطالب للمحتجين "نريد وطن" الجملة الوحيدة التي ميزت تشرين عن سابقتها؛ فأول مطالبهم خصت "إعادة الهوية الوطنية" الهوية التي عانت الانسلاخ الكبير بعد 2003 فلم يكن نهائياً للصوت العراقي تأثير، ولا وجود للهوية الوطنية أبداً بل هناك هويات وزعامات وقيادات ومرجعيات دينية أهم من الوطن وتراب الوطن وهوية الوطن؛ فكانت الهوية الطائفية هي الأبرز. وفي احتجاجات تشرين 2019 برزت فئة شابة تطالب بالحس الوطني، وما زالوا يصارعون الفاسدين والقتلة. فعندما خرج في التظاهرات الخريج بلا وظيفة والذي يبحث عن حريته وسط أكوام السلاح المنفلت لم يكن في بال الجميع سوى فكرة "نريد وطن" فازدادوا تمسكاً واصراراً تاركين مطالبهم الشخصية، غير أن الاحتجاجات الواسعة التي شهدها العراق خصّت موضوعاً مهماً، يخص طريقة فهم العراقيين لبلادهم وعلاقتهم بالسلطة والسياسة والمجتمع، أي كالطريقة التي جاء بها العقد الاجتماعي، فعندما فتشوا في عقدهم المبرم بينهم وبين الحكومات لم يلحظوا كمواطنين أي تطبيق للعقد، لذا فإن العراقيين أدركوا الخطر وطالبوا باستعادة الوطن أولا، نتيجة لحجم الفساد المالي والاداري وسوء الخدمات، ما برز جيل مختلف يحمل نفساً طويلاً في مقارعة السلطة التي تُدار من الخارج، هذا جيل يرى السياسة خطيئة أو مجرد عنف يرتكبه السياسي تجاه وطنه لانه جيل ذاته الذي عاش تفتّت الهويّة الوطنية الجامعة، وانهيار منظومة القيم، وعاصر عسكرة المليشيات في العراق، فتجد أغلب المواطنين يرون جميع السياسيين شاركوا بسرقة المال العام، ومن يُشارك في السياسة، هو لص ومحتال، هكذا اصبحت السياسة بنظر الجميع، وعلى من يُفسّرها، محتكَرة من قبل مجموعة تسكن في المنطقة الخضراء المُحصنة بالجدران الكونكريتية، وتتصرّف بمعزل عن متطلبات مجتمعها. فعدّت تشرين الحلقة الأصعب بعد المجاميع العقدية كونهم شباب مختلفي الايدلوجية. وثانياً ولأوّل مرّة، بعد 2003 اعتمد هذا الجيل على نفسه وألغى التيارات والاحزاب المنظمة، كونهم الوحيدين القادرين على تحشيد تظاهرات مليونية وبمطالب موحدة.. كل هذا ولم يسقط النظام؟ إذ يعدّ هذا النظام نظاماً ضعيفاً في بنيته وتصدر شعار "إسقاط النظام" المشهد العراقي، لكن المعطيات لم تتوفر وحتى إذا توفرت لم يحدث سقوط أو انقلاب عسكري، كون سقوط الأنظمة كما عبر عنها الكاتب ربيع الحافظ أن النظام الملكي يسقط بإزاحة العائلة المالكة والنظام العسكري يسقط بإزالة الجنرال الحاكم، والنظام الديمقراطي يسقط عندما تحاصر الدبابات البرلمان، ففي جميع الحالات يسقط النظام بتفكيك مركز العصب فيه. وللنظام الذي يحكم العراق بعد

2003 برلمان وحكومة ووزارة دفاع وقناة تلفزيونية رسمية وقطعات عسكرية، لكن هذه لا تمثل عصب إدارته أو بناه التحتية (الأمنية) الحقيقية، وهي بالتالي ليست أهدافا لعملية التغيير أو مكاناً يتلى من شرفته البيان رقم واحد، كما يحدث في الطرق التقليدية. هذه المؤسسات هي واجهات لتفاهمات بين المليشيات السياسية التي اقتسمت الحكم، وتوجيه النقد إليها لا يحمل أي قيمة. لا يوجد في هذا النظام مكان حقيقي قابل للإسقاط ليتوجه إليه المتظاهرون. وما حدث ليس هو الا ارتداد على مفهوم الإصلاح الذي طالبت به زعامات دينية وسياسية، التي لم تطرح التغيير البنيوي لأي عملية راديكالية تؤدي الى إصلاح شامل، وبدوره قد يكون أجدى من الاحتجاجية التشرينية. برغم من أن نجاح تشرين كان نجاحاً مرحلياً كالانعطافات التي مرت بعد الطائفية المقيتة والحرب على داعش، لأن وجهها لم يكن كوجه الانقلابات التي مرّ بها العراق أو الربيع العربي، الذي غير أغلب السياسات وأنظمة الدول العربية، لكن النجاح المرحلي التي توشحت به تشرين عن غيرها من التظاهرات السابقة أو التمردات الجماهيرية، أنها انتجت جيلاً عنيداً باستطاعته أن ينتصر على الموروث المقدس المتمثل بالرموز الوهمية التي رسمها المجتمع، نتيجة لسياسات دينية - سياسية، وأنها ساهمت بصناعة قالب فكري - سياسي جديد للمواطن والسياسي العراقي، لأن الشباب أدركوا أننا بحاجة الى صناعة شعب ليقوّم الدولة، وأن هناك شعباً لا يكل ولا يمل من المطالبة بحقوقه المسلوبة علناً، نتيجة لسلب السيادة العراقية بسبب التدخلات والولاءات السياسية للدول الاقليمية والعالمية، فما زال الوطنيون يطالبون بالاستقلال الكامل للسياسة العراقية. ومازال الثاني يصنع خططاً ويخلق جيلاً ليبقى متمسكاً بدوره التعبوي - الجهوي – الولائي. وبرأيي أنها تأتي بالتسلسل تباعاً بعد عام الوثبة 1948 وانتفاضة 1952 على النظام الملكي، والتي تعدّ التظاهرة الثانية من نوعها بتأريخ العراق المعاصر للمطالبة باعادة رسم الهوية الوطنية، وتعريف مفاهيمها على أساس المواطنة.

ولبرهان تتشكل الهوية وأهميتها، فهي السمة الحضارية الكونية لنشوء الأمم، وهي المعيار الأول في ترجمة الانتماءات العامة والخاصة بالفرد والجماعة، وبالاخص الهوية الوطنية الجامعة للفرد كونه فرداً منتمياً الى مجتمع تربطهم عدة مشتركات موحدة منها اللغة والتراث والتاريخ والجغرافيا والدين والمعتقدات والعادات والتقاليد والموروثات الشعبية والمعمار والفلوكلورات. وبهذا تنعكس أهمية الهوية على مواطنيها مما تجعل الاستقرار الوطني تحت رعايتها وشكلها ومضمونها وأن حدث خلل فيها كالحدث الطائفي أو العنصري أو الهجرة ستفقد قيمتها المعنوية وتعطل وظيفتها الاولى، كونها هوية جامعة موحدة. تعد الهوية الوطنية من أهم العوامل التي تساعد على بناء مجتمع متماسك ومتوحّد بغض النظر عن الاختلافات العرقية والقومية والدينية وأي طارئ عليها سوف تضعف. ولنتعرف الى عدة مضامين تخط آمال الاحتجاجات التشرينية ومنها:

1 - ما الذي (نريده) من الهوية؟

• تطوير المفاهيم البشرية في صناعة الحس الذاتي - الأخلاقي لدى الأفراد. بكلامٍ آخر: إن الهوية الوطنية – الحضارية تسيطر على السلوكيات المنبعثة من أفراد المجتمع

على أساس المصلحة العامة، وبالتالي سوف يتم استثمار الطاقة البشرية في صنع التعايش في المعتقدات والأفكار والعادات والتقاليد للبيئة الواحدة، وخلق الحوكمة العامة، وانفتاح الأفراد بعضهم على بعض، وتقبُّل جماعة لجماعة أخرى، وتعايش طائفة مع طائفة أخرى وهكذا دواليك في إطار المحيط الواحد.

2 - ما الذي تريد (صنُعهُ) الهوية؟

• الوعي المرتبط بالمعتقدات الفكرية في صناعة العقل الفردي والجمعي.

• السلوكيات المفروضة على الفرد والجماعة من ناحيتين: شخصية، وتتصف بتعامل الفرد مع ذاته ومع الجماعة. ومؤسساتية، تخلق تعامل الفرد أو الجماعة مع الدولة. فالهوية تكون قادرة على صنع إنسان مؤمن بنفسه أولاً، وبالقدرة على الإحاطة بذاته من الناحية الشخصية ثم تصنعه شخصاً مخلصاً مع الجماعة والدولة الراعية له ثانياً. لذا تعدد الهويات داخل الفرد الواحد، ويكون لكل هوية دور مهم في صناعته، فمن الممكن لواحدةٍ أن تخلق منه رجلاً مثالياً أو وحشاً متطرفاً. بكلام آخر: إن لسلوك الفرد تأثيراً على القيام بأدائه وواجباته من كلتا الناحتين، وعلى مستوى تعددية الهوية.

3 - ما هي المفردات (الملتصقة) بتعريفها؟

• الارتقاء بالوعي والتفكير الجمعي• التعايش السلمي •الأمل والاحترام • الحضارة و الافتخار • تقبل الماضي • تغيير الحاضر • صنع المستقبل.

4 - (المُتحقق) عندما ترتبط العناصر مع المظاهر لتشكيل الهوية:

• الهوية ذات سمات تجمع الماضي والحاضر والمستقبل لتكون جزءاً كونياً منتظماً، لا يتأثر عبر الزمن.

• بالتعايش تتشكل الهوية على أهم مبدأ في أساساتها.

• الهوية لا تأتي من فراغ ولا تُفرض جبراً أو قسراً، كالذي يحدث في الأنظمة الدكتاتورية ولا يمكن ربطها بالحاكم أو النظام.

ولكي يصعب تفكيكها وتشظيها على المستويين الفردي والجماعي، لا بد أن نعرف المستويات التي تحيط بالهوية وماهي حدودها.. هل هي عابرة زمنياً أم لا؟ هل هي تتأثر بظرف معين أم أشمل من ذلك؟ فالهوية تبدأ من الفرد ثم تتأثر بنواة الأسرة، والتي تعتبر أصغر مكون مجتمعي منتظم، ثم ترتقي كالسلم صعوداً إلى آخر درجاته.

• الفرد والأسرة ثم القبيلة
• المؤسسة ثم الحزب
• المجتمع ثم الدولة

5 - المكونات الرئيسة والثانوية للهوية الوطنية:

أ - المكونات الرئيسة (نواة الهوية):

- حماية المعتقدات الفكرية والدينية - حماية القيم المجتمعية - حماية الإرث الحضاري - حماية اللغة الرسمية .

ب - المكونات الثانوية (الغلاف الخارجي للهوية):

- التأريخ - الجغرافيا - الانجازات الوطنية - العادات والتقاليد - العمارة والفلوكلورات الشعبية - علم الدولة والنشيد الوطني..ألخ.

وسايرنا إبراهيم رمضان الديب مما ذكره: أن تعريف الهوية صار سهلاً وممكناً من خلال المكونات الرئيسية والثانوية وما يتعلق بها من تأثيرات، مما نتلمس أن الهوية الوطنية

هي عبارة عن مزيج لكل ما ذكرناه للمكونات الاساسية والثانوية، فضلا عن عناصر الحداثة لكل جيل. وهنا نبين ان الهوية صناعة لا وراثة، ولا تخلق من العدم.

6 ـ كيف تعمل الهوية بوصفها غلافاً شاملاً للفرد والمجتمع؟

- السيطرة على سلوك الافراد من خلال القوانين العادلة.
- ايضاح حقوق وواجبات الافراد وتمييز الحرية الشخصية من العامة.
- الغاء الفوارق الطبقية والعنصرية والتمييزية والطائفية بين ابناء الجيل الواحد.
- الحث على العمل والعطاء والتحدي والاصرار من اجل خدمة الوطن.
- توحيد المجتمع تحت قيادة الدولة وتحجيم البنية التعددية والثيوقراطية والولائية والعملائية والسيطرة على الامن العام.
- دعم النظام الحلقي وضبط سلسلة مراجعات الدولة وتقديم الاولويات في دور الدولة ومؤسساتها.

رابعاً: الخاتمة

نستنتج مما ذكر أن الهوية سلوك مجتمعي موحد، يؤدي الى تقليل الجريمة المنظمة، وترفع مستوى الامن المجتمعي وفق معايير دولية مع ترسيخ مفاهيمها، وتعزيز التعاون بين افراده، وصناعة مخطط خاص للحياة مما ترفع الاداء والانجاز الوظيفي والمهني كماً ونوعاً ليكون حاضنة لكل مكونات المجتمع القوية الراسخة بما يمتلكه من معتقدات وقيم وافكار فتصبح بوصلة موحدة ومتجهة لكل افراد الدولة فيتعزز الوعي الديموقراطي في المشاركة السياسية، وتعزز الانتماء البيني وتخلق مسؤولية تضامنية مشتركة. فالهوية تمثل القوة الجبارة لإعادة الانبعاث الحضاري الانساني مما توفر مصدرا وحاكمية خاصة للضبط والتحشيد وصناعة وتحديد بوصلة المجتمع نحوها مع توفير مرجعية عليا من المفاهيم والقيم المشتركة والمتفق عليها، والتي تثمر في تنوعه، وتعزز وحدته، والأهم تمثل المحفز الحضاري الأكثر فاعلية في نفوس أبنائه ودفعهم للتحدي والإصرار والتضحية من اجل القيام بإنجازات واسهامات حضارية جديدة.

وبالتالي، أن صناعة "هوية جديدة" كان شكلاً إيجابياً أم سلبياً فهي بالتالي تؤدي بدورها الى "صناعة شعب"، وهذا ما تفتقر إليه الدول النامية وحديثة الاستقلال. وتشرين تكفلت بمشروعها العظيم "نريد وطن" ومازال شبابها يطمحون الى هوية وطنية جامعة، آملين بالجماعات الخروج من انتماءاتهم الفردية والعصبوية والعقدّية لنحقق هوية عابرة تحقق المواطنة والتعايش السلمي. فلا يصح الاتكال على المعطيات الحالية المتشظية لتشييد هوية وطنية عراقية موحدة، فلا بد من التنبه لأن ترسيخ الهوية الوطنية لدى الشعب والناشئة بالذات لم يعد مسألة ثانوية، بل الأساس الذي من خلاله تستقر كل جماعة وتثّبت وجودها. وما يجب على الدولة أن تعمل على "صناعة شعب" لتعزيز الوحدة الوطنية، والعمل على دستور يحفظ ويضمن التطلعات المستقبلية للبلاد، لأن دستورنا الحالي كتب بأيدي مأجورة وبثلاثة أشهر مستعجلة، ما غطى على التشظي وساهم في تفتيت الوحدة الوطنية، ما شعر العراقيون بأنهم مهددون، لذلك من الضروري إرساء قاعدة وطنية توحد هذه الروابط دون إفسادها.

قراءة في أدبيات الاحتجاج في النجف 2015 - 2020

أحمد محمد الموسوي
كاتب وناشط مدني - النجف

شكل سقوط الموصل وباقي المحافظات الغربية بيد داعش في حزيران 2014 وما تلاها من انكسارات وخسائر في الأرواح والممتلكات، لحظة ذهول عظيم أعقبتها لحظات ارتجاج كبرى طالت الضمير الشعبي العراقي وحفزته للتصدي والمواجهة باتجاهين؛ الأول باتجاه مقاومة التوسع الداعشي والتصدي له. والثاني باتجاه النظام الحاكم، المسؤول الأول عن كل ما جرى ويجري من خسارات وخراب متواصل. ومع تخبط السياسات التقشفية للحكومة التي أعقبت انهيار أسعار النفط الذي تزامن مع انهيار الدولة وخسارتها لثلث أراضيها، وعجزها الواضح عن محاسبة السراق والفاسدين وإرجاع الأموال المنهوبة من موازنات العراق طيلة أكثر من عقد من السنين، وهي أموال طائلة تقدر بالمليارات من الدولارات، إضافة إلى العقارات والأراضي المتجاوز عليها على طول وعرض البلاد، وعلى رؤوس الأشهاد، ازدادت النقمة الشعبية بين شرائح المجتمع المختلفة، واشتدت وتيرة التظاهرات الاحتجاجية بعد عام على الحادثة (في نهاية تموز 2015)، وكان فيما يبدو، عاماً لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب سلم الأولويات. وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة لا يمكن إغفالها في ذلك الظرف العصيب،

مفادها أن مطالب الشعب في الإصلاح لا يمكن تجزئتها، فحال العراقيين واحد، والطريق إلى الإصلاح واحد، وهو يمر عبر ساحات الاحتجاج.

واتخذ المتظاهرون الوسائل السلمية للتعبير عن مطالبهم، ورفعوا أصواتهم عالياً بها من خلال الهتاف والشعار والقصائد، فسطروا لذلك ارثاً أدبياً احتجاجياً ثراً امتد إلى يومنا هذا... ونستطيع أن نقرأ أدبيات الاحتجاج في ساحة تظاهرات النجف عبر: (اللافتات/ الهتافات/ الردّات والأهازيج/ البيانات).

- اللافتات والشعارات

وهنا سأكتفي بما رصدته عدسات الملاحظة المباشرة في ساحة مجسرات ثورة العشرين وساحة الاعتصام في النجف للمدة من نهاية تموز 2015 ولغاية نهاية العام 2020 الذي شهد انسحاب المعتصمين من

ساحة الاعتصام ورفع خيامهم.

● معظم الشعارات كانت تُخط على ورق كارتون صغير بخط بسيط يُنفّذ في أكثر الأحيان بيد المواطن رافع الشعار نفسه، فيما القليل من هذه الشعارات مكتوبٌ على لافتات فلكس كبيرة وصغيرة أو على قطع قماش بأحجام مختلفة. وهذا يؤكد فكرة عفوية التظاهر من جهة وعدم ارتباط معظم المتظاهرين بجهات حزبية أو مؤسساتية، من جهة أخرى، مع أن هذا لا يمنع بالتأكيد من وجود ممثلين لهذه الجهات، لكننا نتحدث عن الصفة الأغلب في ساحة التظاهر.

● هناك شعارات تتوجه إلى الشأن المحلي – فيما يخص المحافظة – وأخرى تتوجه إلى الشأن الوطني. ونستطيع أن نسجل في هذا الجانب غلبة واضحة للشعارات الوطنية على المحلية منها، ربما لأن العديد من القضايا المحلية قد يجدها المواطن متضمنة بالشأن الوطني العام، إضافة إلى أن الحركة الاحتجاجية ومنذ انطلاقتها كانت وطنية عامة، ومن الملاحظات على الشعارات المحلية أنها إشكالية ومتبناة -في معظمها وليس كلها- من مجاميع يحركها سياسيون محليون متخاصمون، وهي في مجملها؛ صراع كان بين مجلس المحافظة والأحزاب الممثلة فيه من جهة وبين المحافظ وكابينته من جهة أخرى، وكان السباب والتشهير واحداً من أبرز سمات هذه الشعارات.

● ومن بين اللافتات المميزة في الساحة تلك البوسترات التي كان يعدها بعض المتظاهرين بشكل فردي وعلى ورق (الكارتون) ويرسمونها فنياً على طريقة البوستر السياسي، ويجهدون أنفسهم أن يكون لهم في كل تظاهرة – وهي عادة ما كانت تقام يوم الجمعة - بوستر خاص بها، ومن بين المواظبين في هذا الشأن – على سبيل المثال لا الحصر- هما الأديب إبراهيم الخفاجي والفنان حميد الجمالي.

● إن الشعارات المرفوعة في اللافتات هي من الكثرة والتنوع بما لا يسمح المجال هنا لتعدادها أو ذكرها، ولكن بالإجمال نستطيع أن نصنف هذه الشعارات المرفوعة في الساحة إلى صنفين رئيسين يتدرجان بدورهما في طيف مختلف آخر من الألوان، هذان الصنفان هما:

- شعارات تطالب بالإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد؛ وهي الأغلب والأوضح، يرفعها جمهور المدنيين ونخبهم الثقافية، تنبذ الطائفية والمحاصصة وتدعو لبناء الدولة المدنية الديمقراطية وتحقيق العدالة الاجتماعية وإصلاح الجهاز القضائي، وكان أبرز هذه الشعارات وأكثرها تأثيراً في الجمهور شعار؛ (باسم الدين باكونه الحرامية) وشعار (خبز... حرية... دولة مدنية).

- شعارات راديكالية تطالب بقلب جوهر النظام، داعية لهدم مؤسسات الدولة، من قبيل المطالبة بحل مجالس المحافظات، وتعليق العمل بالدستور أو إلغائه، وحل البرلمان وتغيير النظام إلى رئاسي...الخ. وقامت مجاميع حزبية أو مدفوعة من أحزاب (موتورة) برفع قسم من هذه الشعارات والترويج لها بين المتظاهرين وفي وسائل الإعلام المختلفة. وتبنت هذه الطائفة من المتظاهرين بشكل محدود جداً شعارات انتقامية عنفية رفعت فيها حبال مشانق – بشكل محدود جداً - كرمز لعقوبة الإعدام، ولافتات طالبت به جزاءً للفاسدين.

ورغم أن الصنفين من الشعارات آنفي الذكر يشتركان بشعار محاربة الفساد إلا أن كلاً منهما تناول الموضوع من جهة أهدافه وغاياته وارتباط الأمر بمصالحه، أو بمن يريد التنكيل به، أو بوعيه وثقافته.

● **الهتافات**

بالرغم من تنوع الاستعراضات والفعاليات داخل ساحة الاحتجاج في النجف وتعددها من ناحية الشكل والمضمون، ومن ناحية الجهة والأشخاص، إلا أنها امتازت بنسق شبه ثابت على طول المدة من 2015 ولغاية انتفاضة تشرين 2019...

عادة ما تبدأ التظاهرة بعد تجمع الأعداد الكافية من المتظاهرين بهتافات يقوم بأدائها أشخاص معروفون ويردد الجمهور معهم تلك الهتافات، وتؤدى أيضاً بعض (الهوسات الشعبية) التي يرددها في كثير من الأحيان مهوال الساحة السيد عليوي الميالي، وفي هذه الأثناء يتم تحضير لوحات (الردّات) التي ستنتظم بعد قليل من هذه الفعاليات في كراديس من المتظاهرين، يقوم كل كردوس بتكرار مقطع من الردّات مكتوب ومرفوع على لافتة (عادة ما تكون سبورة بيضاء يكتب عليها المقطع الشعري، أو قطعة فلكس مطبوعة) وهي مرفوعة برأس سارية ترتفع أمام الكردوس بصورة واضحة ليرددها المتظاهرون بألحان متفق عليها... وتسير الكراديس بانتظام، كل كردوس يسلم الردّات للآخر بعد أداء المقطع الخاص به، وهم يدورون حول ساحة ثورة العشرين، ويتجمعون في النهاية تحت المجسرات ليرددوا المقاطع كلها مجتمعين، ومن ثم يعودون للهتافات الحماسية ليختموا التظاهرة بقراءة النشيد الوطني.

ولمزيد من التوضيح نستطيع أن نصنف الهتافات في ساحة احتجاج النجف إلى الآتي:

- هتافات نجفية، من ناحية النظم ومن ناحية المضمون، مثال على ذلك: (صوت النجف سِمْعَه... يصرخ بكل جمعة... منريدكم طِلْعُوا بعد) يردد فيها الجمهور مجتمعين المقطعين الأول والثاني بتكرارهما، ثم يعقبونها بالمقطع الثالث مكرراً أيضاً. وهناك هتاف آخر يتوجه فيه المتظاهرون صوب مرقد الإمام علي ليرددوا معاً: (صرخة يم أبو الحسن... بس للأشراف الوطن).

- هتافات ضد الفاسدين والنظام بشكل عام، وهي بالعموم هتافات تحشيدية غايتها حشد الجمهور من خلال فضح رموز النظام الفاسد والسخرية منهم، مثال على ذلك: (يَسلابه... يَسلابه... هذا الوطن مو غابة، يَسلابه)، و(برلماني... برلماني... كَعَد عَ الكرسي ونساني).

- هتافات يؤديها الهتّاف بصوته ويشاركه الجمهور بلازمة يرددها مع كل مقطع... وهناك قصائد اشتهرت على صعيد الوطن ورددها المتظاهرون في النجف مثل هتاف (باطل) لطيب الذكر الشاعر إبراهيم الخياط. كما كان للنجف هتافاتها أيضاً، وهي عديدة، منها على سبيل الأمثلة لا الحصر، هتاف (أعلنهه الشعب) وهو على ما أظن، الأول نجفياً على أقل تقدير في احتجاجات 2015 واشتهر وطنياً من خلال التواصل الاجتماعي، وقامت صحيفة "طريق الشعب" بنشره في وقتها... نقتبس منه: (ثورة عدل واصلاح... الصوت أقوى سلاح... ثورة على الإرهاب... وكل فاسد وكذاب... أعلنهه

الشعب). وهتاف (فاسدون... فاسدون) الذي اشتهر في احتجاجات العام 2018 التي سبقت انتفاضة تشرين وكانت فيه تحريضية عالية وتحدٍ كبير لقمع السلطة آنذاك، واستشراف واضح لحتمية انطلاق الانتفاضة، نقتبس منه: (امليتو بالسحت البطون... فاسدون فاسدون... بدمنا ليش اتاجرون... لا طلع بيكم نظيف... لا عراقي لا شريف...) إلى أن يصل (انتو أعداء الانسان... بجالكم ضاع الأمان/ ما تخوفنا الدروع... ولا مسيل للدموع/ ما يخوفنا الرصاص... هاي ساعات الخلاص... فاسدون فاسدون).

- هتافات حماسية وطنية اصطفت مع الجيش والقوات الأمنية في قتالها داعش الإرهابي، منها: (وبخيلنا المسروجة... تتحرر الفلوجة) و(نينوى يا محلاهه... بجيش وحشد جبناهه).

- هتافات راديكالية وحادة: وهي رغم قلتها إلا أنها موجودة وتظهر بين مدة وأخرى، وتنشط في ذروة الحماس الشعبي، مثال ذلك: (هاي الحكومة الفاسدة منريدها... والواحد وتسعين والله نعيدها) و(كراسيكم، كراسيكم... صارت حطب لأصواتنا، كراسيكم). والشعار الأخير سبق بوقت قصير تظاهرة اقتحام أسوار المنطقة الخضراء بما يجعله وكأنه استشراف لهذا الحدث أو تحريض عليه.

- إضافة إلى هتافات أخرى تحمل من السباب والعبارات النابية التي تستهدف بعض السياسيين أو الكتل والأحزاب السياسية، لا موجب لذكرها، وهي عادة ما يتقاذفها المتخاصمون، في ما بينهم، من جمهور الأحزاب ليسقط بعضهم البعض الآخر في الساحة، وكانت محدودة التداول.

● الردّات

علاوة على حضور الأهازيج الحماسية التقليدية والهتافات، كما ذكرنا سابقاً، امتازت التظاهرات في النجف منذ الموجة الثانية للاحتجاجات في تموز العام 2015 بأهازيجها التي جاءت على نسق (الردّات) وهي مقاطع شعرية يرددها المعزون بالتتابع على شكل كراديس في مواكب عاشوراء والمناسبات الدينية، مستلهمة القضية الحسينية كونها قضية ثورية موجهة بالأساس ضد الفساد والفاسدين وتستهدف الإصلاح في الأمة. ومن جانب آخر فهي تعد بشكل من الأشكال محاولة ذكية لاستعادة الحسين - باعتباره رمزاً دينياً شعبياً – بعد أن (سرقه) السياسيون الفاسدون في السلطة ووظفوه لخدمة مآربهم وغاياتهم لخداع الجمهور من أجل الحصول على الأصوات في الانتخابات وحشد الجمهور وتأييدهم في معارك طائفية شكلت غطاءً سميكاً حجب الرؤية عن مسرح جرائم نهب المال العام وتفكيك الدولة لصالح مافيات الفساد، ذلك إضافة لما تشكله هذه الردّات من خصوصية للهوية النجفية أسهمت في تقريب واشاعة الخطاب الاحتجاجي من عموم المجتمع النجفي. وكان للمنابر الحسينية المحتجة بعد ذلك حضور واضح وفاعل تنامى تدريجياً بالاتجاهين (أفقياً وعمودياً)، وذاعت قصائد الشاعر الكبير صباح أمين بصوت المنشد الشيخ ماهر الشبلي وأصوات منشدين آخرين، وتم تداولها في مواقع التواصل الاجتماعي بكثرة، لتشكل بذلك وجهاً آخر من وجوه الحركة الاحتجاجية المؤثرة وكانت عاملاً قوياً لاسترداد الشعائر الحسينية من الأجندات الحزبية للإسلام السياسي.

وبالعودة إلى الردات في التظاهرات التي شهدتها النجف منذ 2015 نستطيع أن نصنف قصائدها إلى: (قصائد محلية، عالجت قضايا ومشاكل نجفية) و(قصائد وطنية، بمعنى أنها تناولت القضايا الوطنية العامة) و(قصائد متنمرة) و(قصائد مطلبية) و(قصائد تدعو للإصلاح، وتستهدف بنية النظام السياسي بشكل عام) و(قصائد متضامنة وحماسية) و(قصائد مناسباتية) و(قصائد متحدية وتحريضية) و(قصائد نادبة لأهل البيت).

ومع ذلك من الممكن أن نجد في القصيدة الواحدة أكثر من مضمون وميزة... وسنحاول هنا أن نأتي عليها تباعاً من باب التوثيق مرة، وعلى سبيل التحليل مرة أخرى...

- القصائد المحلية: على قلتها كانت تلاقي تفاعلاً لافتاً من الجمهور، وهي قليلة بسبب هيمنة البعد الوطني على الحركة الاحتجاجية بشكل عام، من جهة، ووجودها ضمناً في القضايا الوطنية من جهة أخرى... من هذه القصائد قصيدة تناولت قضية الفساد في مطار النجف، لكنها مع ذلك تبدأ في مقطع منها: (الشاهد احوال المطار... بالفساد شلون صار/ بالنهب مديون بات... رغم أعلى الواردات/ صرخة تحتاج البلاد). وقصيدة أخرى فتحت ملف التعيينات في مطار النجف أيضاً، تقول في مستهلها الذي يندب الإمام علي مشتكياً له من محاصصة الأحزاب وارهابها: (تحاصصتنه أحزاب باسمك يا علي... نحچي نسكت نعترض هَمْ نبتلي/ مثل توظيف المطار... بين هذا وذاك صار/ والقتل والجوع حصراً بس إلي/ والبلد منهوبة كل أكتاره). وهناك نمط من الردات من يزاوج بين المحلي والوطني فيعالج القضية الوطنية بجملة محلية، مثال ذلك قصيدة الشاعر الحسيني عامر حرش، وكانت من أوائل الردات في التظاهرات 2015، يقول فيها: (يللي نهبتونا نهبْ... شعب النجف ما ينلعبْ// ثورة عراقية... صرخة حسينية/ إصلاحكم كلّه چذبْ).

- أما القصائد الوطنية: فهي السائدة كما لاحظنا وسنلاحظ لاحقاً، ونستطيع أن نحصي منها الكثير وهي مبثوثة في كل القصائد لذلك لن نشير إلى نموذج بعينه لوجودها في كل النماذج وبكل المضامين.

- قصائد متنمرة: وهي تمتاز بسخريتها وتهكمها، وهي أيضاً من القصائد التي كانت تستهوي الجمهور وترفع من فاعليته وتفاعله في التظاهرة، منها هذه القصيدة للشاعر فارس حرّام التي ذاع صيتها: (يابرلمان الصدفة خلتكم تجونه... يهل الحكومة الفاسدة من اليكلونه... يامدحت المحمد ربعك مرمرونه/ بس بوگ وصراعات... ضد شعب الحضارات/ والله والله والله فضحتونه)، وأخرى كان ختامها تنمراً واضحاً بعد أبيات هجومية طالت النظام السياسي، تقول: (لعبة صار الحكم بيد الفاسدين... عَالكراسي والنهب متكالبين// هذا يوم المحكمة... ولاتَ حين مندمة// وين ذاك الگال ماننطيهه... ساحة العشرين نهتف بيهه). وأخرى تناولت في أحد مقاصيرها ما شاع عن أحد الخطباء السياسيين حينما نصح العراقيين بعدم تبذير أموالهم على شراء النسنلة: (ياحكومة نسنلة... بالنهب متواصلة). وأخرى جاءت متزامنة مع هاشتاك (طلعت ريحتكم) الذي أطلقه المحتجون في ساحات لبنان والعراق معاً: (زمرة سراق وقتلة اهلكتونه... طلعت ريحتكم والله خنكتونه/ مجلس افساد النواب... باگ الدولة بلايه حساب/ للموت وداعش تالي تسلمونه).

- قصائد مطلبية: وهناك العديد منها لكون الحركة الاحتجاجية بشكل عام هي حامل لمطالب الجمهور، وهناك مطالب عامة وهي الشائعة، ومطالب خاصة محلية وهي نادرة، ومعظم المطالب تتركز في التغيير والإصلاح ومحاسبة الفاسدين. نقرأ منها: (مطلبنه التغيير الشامل مو ترقيع الحال... والفاسد مايصلح فاسد مضروبة الأمثال// الشعب بأطيافه ينادي... منكم يائس يعبادي// ياحل اتقدمونه وأنتم جزء من الإشكال).

- قصائد تستهدف بنية النظام السياسي: وهي عادة ما تشير لفساد بنية النظام وغياب دولة المؤسسات وابتلاعها من الأحزاب ومافيات الفساد، نقرأ منها هذه القصيدة التي تعقد مقارنة بين الدولة التي يريدها المحتجون وبين الدولة التي بناها الفاسدون ويريدون ترسيخها: (زمرة افساد وتهديد الدولة التردوهه... ودولة حريات نريد وما حققتوهه// مدنية وتحمي الإنسان... نريد نحقق هالعنوان// لا مانسكت لا مانسكت لا متخوفونه). وأخرى جاءت في ظرف استعصاء تشكيل الحكومة بعد انتخابات العام 2018، متحدية لنظام المحاصصة: (لا لا مَتشكلوها... للخارج بعتوها// هاي احكومة سلابة... بين الفاسد واحبابه/ دولة وضيعتوها). وفي قصيدة ثانية جاءت رداً على الخطاب الحكومي بعد تظاهرة دخول المنطقة الخضراء واقتحام بناية مجلس النواب واعتبارها انتهاكاً لهيبة الدولة: (يادولة وياهيبة العدكم وانتم كتلة شر... ياحكام الصدفة العمية والزمن الأغبر// بعتونه بأرخص الأثمان... بالدولار وبالتومان// ارهاب وموت وتهجير، والقادم أخطر/ الله... الله أكبر)

- قصائد تحريضية وحماسية: وكانت الأكثر تفاعلاً من الجمهور، وتمتاز بنبرة لحنية عالية وحادة ولغة تحريضية وتهكمية، منها هذه القصيدة التي تحرض الجمهور والمواطنين للخروج إلى الساحة والتظاهر: (هذا الشعب ثار ضد الحرامية... اطلع يَمحتار، لتكول شعليه// من حسين رافع رايته... اصلاح رايد غايته// لتكول شعليه). وأخرى تتهجم بشكل واضح على نظام الحكم وأحزابه المتنفذة، وترفع سقف المطالب من الإصلاح للتغيير: (غسّلنه ادينه من الحكم وأحزابه... بلوة ابتلينه بنواب سلابه// اصلاح ما ينفع بعد... تغيير رايد هالبلد// بالحكم وأحزابه)

- قصائد مناسباتية: وهي تأتي إما قصدياً، أي بمعنى أن التظاهرة مخصصة لهذه المناسبة، أو أنها لمجرد مصادفة قيام التظاهرة في ذكرى معينة أو مع حضور حدث معين، منها هذه القصيدة التي وثقت واحتفت في أحد مقاطعها بمناسبة دخول أهوار العراق على لائحة التراث العالمي: (من ماي الأهوار سمرة ملامحنه... من سومر أحرار بالحومه ماطحنه// من حسين رايتنا ترف... ثوار ضد المنحرف// بسلمية نتظاهر). وأخرى جاءت بمناسبة تحرير الفلوجة من داعش الإرهابي: (بالدم حررنا الفلوجة والموصل عالباب... داعش وجهين لفد عملة، الفاسد والإرهاب// ما نتنازل مهما يصير... اصلاح نريد وتحرير// شيب وشاب ومرأة وطالب، عامل وي فلاح/ مطلبنه الإصلاح). وقصيدة كانت بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك تكشف زيف تدين الفاسدين: (شيفيد الفاسد رمضان إن صام وأفطر... لو غسلته بسبع ابحور أبداً ما يطهر// بالفاسد هي الأسباب...

الوجه الثاني للإرهاب// أقبح من أفعال ابليس من داعش أخطر/ الله... الله أكبر). وهناك قصائد عديدة تأتي بتزامن التظاهرات مع المناسبات الدينية سنأتي عليها ضمن القصائد النادبة لأهل البيت.

- قصائد متحدية واستشرافية: وهي تمتاز بميزتي التحدي واستشراف المستقبل بتأكيدها على حتمية قيام الثورة والإطاحة بالفاسدين ونظامهم المحاصصاتي، نقرأ منها هذه الأبيات التي تمجد بالشعب وحضارة وادي الرافدين وتقلل من أهمية الأسوار والتحصينات التي يتسور بها الحكام أمام غضب الشعب وثورته المرتقبة: (شعب الحضارات مايرضى بالذلة... متدوم هيهات للفاسد انكله// أسواركم تنفع لمن... وأيام ثورتنا اجن// للفاسد انكله)، وأخرى تقدم انذاراً أخيراً للمنطقة الخضراء: (هذا آخر انذار للمنطقة الخضرة... جيناكم اعصار كل الشعب ثورة// بأصوات شعبية... اتطيح الحرامية// ماتنفع أسوار كل الشعب ثورة) وهاتان القصيدتان كانتا في الشهر الذي سبق اقتحام المنطقة الخضراء، وفيهما أيضاً تنبؤ واضح لما سيحصل وتحريض على الثورة في الوقت ذاته.

- قصائد نادبة لأهل البيت: وكان معظمها من الردّات المؤثرة والأكثر تفاعلاً من الجمهور كونها تستلهم رموزاً مقدسة في الوجدان الشعبي، وهي مما اعتاد عليه المجتمع النجفي. ونستطيع القول هنا أن هذه الردّات كانت الشرارات الأولى لظاهرة تحول المنابر الحسينية إلى صف الاحتجاج وهجومها على السياسيين الفاسدين وإغلاق أبواب المواكب الحسينية في وجوههم. ومن أوائل هذه الردات هذه القصيدة للشاعر فارس حرّام التي رددها المتظاهرون في تظاهرة سميت بـ(جمعة الإصلاح الحسيني) في تشرين الأول 2015: (يحسين اصلاحك حيّ يهتف للحريّة... يهتف ضدّ الظالم والفاسد يوميّة// من يومك ياحيدْ... طحنا بألف يزيدْ// خايف منك، من اصلاحكْ، منك هالثوريّة). وأخرى أداها موكب المتظاهرين (موكب ثوار النجف) ضمن مواكب العزاء التي تخرج في المدينة القديمة باتجاه مرقد الإمام علي معزية بمناسبة عاشوراء، ورغم أن القصيدة تبدأ بالندب والشكوى للحسين إلا أنها تربط هذه الشكوى بالثورة: (يحسين الظلم الشفناه جاوز كل احدود... لاخدمات ولااعمار والأمن المفقود// زناگين احنه بالأرقام... بالواقع عيشتنا اعدام// عالفاسد باسمك يحسين نعلن ثورتنا).

- **البيانات:**

لم تكن البيانات التي صدرت عن الحركة الاحتجاجية في النجف للمدة من آب 2015 ولغاية نهاية العام 2020 كثيرة ولكنها اتسمت بسمات عديدة، نحاول هنا وبعجالة أن نتناولها من باب هذه السمات، ونشير إلى أن معظمها لم يكن يذيل باسم المتظاهرين كلهم أو يختزلهم بمسمى احتجاجي واحد، في اشارة إلى عدم امكانية تجيير هذه الحركة متعددة الأقطاب ولا يمكن اختزالها بفئة دون أخرى، وتعكس أيضاً دقة مدوني البيانات والتزامهم، ولذلك سنجد معظم البيانات مذيلة بتوقيع جمع أو عدد أو ما شاكل ذلك، ونلاحظ أيضاً تصدير معظمها في حال النشر بجملة (النشر لمن يتفق)، وهذه واحدة من الدروس الديمقراطية المهمة -برأيي- التي طرحتها ساحة الاحتجاج في النجف...

بيانات ادانة واستنكار: ويأتي في مقدمتها البيان الصادر في 11 أيلول 2015 إثر حادث الاعتداء على ناشطين مدنيين في النجف، إذ دعا البيان الناشطين إلى عدم استفزاز الآخرين وتوخي الاعتدال في منشوراتهم في مقابل تحمل الجهات المسؤولة مسؤولياتها في الكشف عن المعتدين ومحاسبتهم وحماية الناشطين بشكل عام، ولضيق المساحة سنكتفي بقراءة نتف من البيانات:

(نحن، عدد من متظاهري النجف الأشرف... ندين بشدة حوادث إطلاق النار من مجهولين اليوم الجمعة على عدد من نشطاء تظاهرات محافظتنا الآمنة قرب أماكن سكناهم، وندعو المواطنين فيها إلى رفضها واستنكارها).

(ونقول في هذا الصدد أنه مهما كانت شدّة الآراء التي يعبر عنها الناس في وسائل التواصل الاجتماعي فإن القانون موجود لأخذ الحق واسترداد الكرامات، أما التصرف خارج إطار القانون فهو ما نرفضه وندينه).

وحمل البيان الجهات الحكومية مسؤولية حماية الناشطين وردع العصابات التي تستهدفهم.

ونقرأ في بيان آخر نشر بتاريخ 7 شباط 2020 أي بعد حادثة اقتحام ساحة اعتصام النجف بيومين واستشهاد تسعة من الشباب المعتصمين وجرح عدد آخر منهم... واللافت أن هذا البيان كتب بلغة احتجاجية مستنكرة ولكن على طريقة المطالبة التي فيها من الروح الهجومية المستندة إلى الكبرياء ما هو طاغٍ على روح الانكفاء والتراجع في دلالة علّى المقاومة والاصرار على البقاء قيد الاحتجاج مهما بلغت التضحيات... وأكد البيان على حق التظاهر السلمي، موضحاً، (ان أمن ساحات الاحتجاج كما هو أمن المجتمع بصورة عامة هو من مسؤوليات الدولة بحكومتها ومؤسساتها الأمنية الرسمية، كل بحسب اختصاصه وقاطع مسؤوليته، ولا يجوز التعدي على هذا الواجب من أي جهة كانت، كما لا يجوز لهذه المؤسسات الأمنية التنصل من واجباتها أو ايكالها إلى جهات أخرى، والا فقد يغيب القانون والحال هذه وينفرط عقد الدولة لننتقل إلى الفوضى). كما أنه حمل الحكومة مسؤولية ما جرى في الساحة وطالب بانسحاب الجهات المسلحة وايكال أمن الساحة إلى الداخلية.

بيان من تجمّع تنسيقيات النجف الأشرف:

وجاء بمناسبة مرور سنتين على التظاهرات المطلبيّة في يوم (٣١ تموز ٢٠١٧) وجاء فيه استعراضٍ مهم لما جرى في عامين احتجاجين مؤكداً على ما حققته الحركة الاحتجاجية من منجزات بعد أن شاعت التساؤلات في الأوساط الاجتماعية عن جدوى الاحتجاج: (أكثر من مئة أسبوع، والمغرضون والمنتفعون يتساءلون: ماذا حققت تظاهراتكم؟ وماذا استفدتم؟ وماذا استفاد العراق؟) حيث يشير إلى عدة منجزات منها (تفكك الأحزاب والكيانات التي تحكّمت بالعراق وقسّمت موارِدَه ومناصبَ مسؤولياته فيما بينها) و(إقرار مجموعة قوانين لصالح بناء حياة سياسية واجتماعية مدنيّة وشفافة في العراق، أبرزها قانون الأحزاب)، ويستمر بلغة واثقة معبراً عن في جملة أسف يوجهها للقضاء (يؤسفنا استمرار الادّعاء العام في النجف الأشرف بصمّ أذنيه عن شبهات الفساد والقضايا الخطيرة التي يثيرها المواطنون والإعلاميون والناشطون، وكأنها

جميعاً غير موجودة، في ظاهرة استلاب عجيبة للإرادة والقدرة، وكأّن هذا المنصب ليس مسؤولية قانونية وأخلاقيّة وإنما هو مجرّد وظيفة روتينية عابرة تشبه أيّ وظيفة في أيّ دائرة)، إلى أن يختم البيان بعهد على البقاء في ساحات الاحتجاج رغم قلة العدد.

بيانات مطلبية: وهي الأبرز من ناحية أن الحركة الاحتجاجية في جانب مهم منها هي حركة مطلبية كما نوهنا سابقاً وكما هو معروف عنها أيضاً، وهي عادة ما يكون فيها المطلب المحلي ممتزجاً أو مجاوراً للمطلب الوطني. وبعد استعراضه لأوضاع السياسية المتردية تضمن البيان الصادر في كانون الأول 2018 المطالب الآتية: (ابعاد منصب المحافظ عن نهج المحاصصة وتدوير الشخصيات) و(ضرورة ابعاد مطار النجف الأشرف الدولي عن نهج المحاصصة بين الأحزاب الحاكمة) و(الكشف عن ملفات الفساد المشاع عنها في المطار) و(الكشف عن مصير الايرادات المحلية في المحافظة والمشاريع التي تم انجازها بهذه الأموال) و(الاسراع بإعلان نتائج التقديم على التعيينات في دوائر المحافظة بشفافية) و(أن يتولى مجلس المحافظة دوره الرقابي الدستوري في الكشف عن المشاريع المتلكئة وعن الفاسدين) واختتم بتأكيده أن (ستكون لنا صولات وجولات احتجاجية، بحسب الدستور والقانون، نفضحهم ونعريهم بها).

وفي بيان مشابه صدر في 10 آذار 2019 عاد ليكرر المطالب ذاتها تقريباً بعدما بُحَّت الأصوات بحسب تعبير البيان وهي تهتف (بمطالبَ هي في مجملِها حاجاتٌ أساسية لا غنى للمواطن عنها) ومخاطباً رئيس الوزراء هذه المرة بصفته الوظيفية، معللاً ذلك بـ (استمرار ضعف الاستجابة الحكومية للمطالب، التي هتفت بها حناجرُ بنات وأبناء الشعب عموماً، وفي النجف بصورة خاصة) مؤكداً في الختام على (ضرورة الاستجابة السريعة من لدن رئيس الحكومة لما ورد فيه من مطالب مشروعة وملحَّة، طال الوقت علينا في انتظار تحقيقها، ولا نجد بداً بعد ذلك من الذهاب بعيداً في خيارات الاحتجاج السلمي التي تعبر عن مدى السخط الشعبي للفشل المتواصل في إدارة هذه الملفات).

رسائل موجهة:

وقد انفردت النجف بهذا النوع من البيانات، فأرسلت رسالتين مهمتين بالتتابع، واحدة إلى السيد مقتدى الصدر بتاريخ 15 نيسان 2019، وأخرى إلى (النزيهين على قلتهم في مجلس المحافظة)، بتاريخ 16 نيسان 2019، وفيما أجاب الصدر على الرسالة الأولى بتغريدة وجهها لتياره، لم يجب أحد من أعضاء مجلس المحافظة للرسالة الثانية...

وخاطبت الرسالة الأولى السيد الصدر بلغة الصداقة موضحة استغلال بعض المنتمين للخط الصدري لاسم الشهيد الصدر وجعله غطاءً لأفعالهم بحسب وصف البيان، مؤكداً أنهم استحوذوا على اغلب المناطق الخضراء ومساحات أخرى مهمة، وعلى بنايات تابعة للبلدية، وجاء فيه أيضاً (ان بعض المنتمين الى التيار الصدري يحاربون آل الصدر للأسف ويقفون بالضد من مشروعكم الاصلاحي باسم الصدر نفسه... هؤلاء الذين خاطبهم جنابك سابقاً بـ (خذوا المناصب والمكاسب لكن خلولي الوطن) نعم يا أخانا وصديقنا، لقد أخذوا المكاسب

والمناصب وسرقوا أرضنا وحياتنا، وما عاد لنا شيء... حتى قبورنا وزعت بحسب أهوائهم ومصالحهم الضيقة).

وقدرت الرسالة الثانية مدى صعوبة أن يتصدى أحد النزيهين في مجلس المحافظة إلى الفساد والفاسدين في كتلته وفي حزبه، ولكنها أكدت أن هذه الصعوبة لا تعفيهم من المهمة ولا تثنينا عن مخاطبتهم ومطالبتهم بها... مشيرة الى أن (ما يحفزنا بهذا الاتجاه أنكم دائمو الشكوى من الفساد في الإعلام وكثيراً ما تتحدثون عن ضرورة محاربة ومحاسبة الفاسدين... والفاسدون أيها الأصدقاء بقربكم ويجلسون بينكم كتفاً لكتف، يجاملونكم وتجاملونهم، فما أسهل مهمتكم وأنتم تعرفونهم وتمتلكون الأدلة الدامغة التي تدينهم وتجعلهم خلف القضبان) مخاطبة اياهم أن (ابدأوا بأنفسكم وبكتلكم وأحزابكم أيها الأصدقاء، فالإصلاح يبدأ من الذات).

بيانات تضامنية:

وفي هذا السياق نقرأ البيان الصادر في كانون الثاني 2020 حيث تضامن فيه متظاهرو النجف مع متظاهري الناصرية وأعلنوا تبنيهم للمهلة التي أعطتها ساحة الحبوبي للبرلمان من أجل اتمام تشكيل الحكومة الانتقالية بعد اسقاط حكومة عادل عبد المهدي. وجاء في البيان (وها هي حكومة الفساد والقنص مع برلمانها تتنصل من التزاماتها وتتراجع من تعهداتها باستكمال تشكيل الحكومة الانتقالية بحسب ارادة الشعب وتطلعاته) مؤكداً (اننا وفي هذا المنعطف المهم والخطير من مسار انتفاضة تشرين الباسلة، نعلن عن تأييدنا لما أطلقه أصدقاؤنا في ناصرية الشهداء والأبطال، ونمهل البرلمان المهلة ذاتها من أجل إنهاء تشكيل الحكومة الانتقالية بحسب ما توافقت عليه جموع الشعب من صفات ومواصفات، ونؤكد رفضنا للتسويف والمماطلة في تحقيق مطالبنا المشروعة، وعدم اعترافنا بأي حكومة يراد منها تدوير نفايات أحزاب الفساد).

بيان الرابع من تشرين الأول 2019:

ويعد من أهم البيانات وهو الذي رسم معالم ما عرف بـ(خارطة الطريق) التي صدرت ببيان سنتناوله لاحقاً، وتكمن أهميته كونه أول بيان يصدر من الجمهور بعد انتفاضة تشرين، ولأنه تضمن معظم المطالب التي تبنتها الانتفاضة في عموم العراق، ولذلك سنقتبس منه هذه المطالب بالنص: فبعد أن أكد المطالب العامة للحركة الاحتجاجية الممثلة بإصلاح النظام السياسي ومحاربة المحاصصة والفساد طالب بـ (استقالة حكومة السيد عادل عبد المهدي وتحويلها إلى حكومة تصريف أعمال. وحل مجالس المحافظات والمجالس المحلية). و(تغيير قانون الانتخابات بطريقة تنهي السيطرة الدائمة للكتل والأحزاب الكبيرة على النتائج، وضمان التمثيل الأوسع لإرادة الشعب، ومن ذلك مثلاً اعتماد الأعلى أصواتاً فقط لفوز المرشّح بغض النظر عن مجموع أصوات كتلته). و(بعدها تجري انتخابات مبكرة بإشراف الأمم المتحدة لانتخاب مجلس نواب جديد في ضوء قانون الانتخابات الجديد). و(الوضع الجديد الناتج عن الانتخابات الجديدة سيتيح الإطاحة بالرؤوس الكبيرة ومحاسبتها واسترجاع أموال الشعب العراقي منها، كما سيتيح انطلاق ثورة تشريعية لإصدار مجموعة أساسية من القوانين واصلاح الحياة السياسيّة وإنقاذ الاقتصاد). وأكد في النهاية

على (بقاء الحركة الاحتجاجية يقظة وتراقب مرحلة ما بعد الانتخابات الجديدة). وختم البيان بـ (أنّ الطبقة السياسية الحالية لن تقبل تنفيذ هذه الخطوات لأنها عملياً تؤدي إلى خروجها من الحكم، ولكنْ لابدّ من تحذيرها بأنّ الشعب العراقي لن يموت، وأنّ هذه المطالب مهما بدت تعجيزية في نظرهم فإن الأكثر تعجيزاً هو سكوت الشعب عنهم).

بيان خارطة الطريق:

وصدر بتاريخ 31 /10 /2019 بصيغة إعلان من ناشطين نجفيين سرعان ما تبنته ساحة التحرير في نشرتها ليحظى بعد ذلك بتأييد واسع من جمهور المحتجين في ساحات العراق. وجدد البيان المطالبة باستقالة الحكومة وتشكيل حكومة انتقالية وضع لها سقفاً زمنياً حدده بثلاثة أشهر ووصفاً تفصيلياً لأعضائها، بأن يكونوا مستقلين غير مجربين في حكومات سابقة ومعروف عنهم الكفاءة والنزاهة وأن لا يتقدموا للترشيح في الانتخابات المبكرة.

وطالب البيان بـ (تعديل قانون الانتخابات ليكون الانتخاب ضمن دوائر متعددة داخل المحافظة، وتطبيق نظام الترشيح الفرديّ وفوز الأعلى أصواتاً). كما دعا لتشكيل مفوضية مستقلة جديدة بشروط الحكومة الانتقالية ذاتها. وتفعيل قانون الأحزاب لكشف مصادر تمويلها ومنع وجود سلاح بيدها. كما طالب البرلمان الذي سينتخب بتعديل الدستور، وأن تتعهد الحكومتان الانتقالية والمنتخبة بكشف ومحاسبة قتلة المتظاهرين وتعويض أسر الضحايا.

بيان الانسحاب من ساحة الاعتصام ورفع الخيام:

وصدر بتاريخ 20 /10 /2020، أي بعد عام من الانتفاضة والاعتصام. واستذكر البيان دماء الشهداء ومآثرهم وبطولات المتظاهرين وصبرهم، وقمع السلطة ودمويتها. مؤكداً أننا وصلنا إلى (محطة أخرى في مسيرة الانتفاضة والاحتجاج السلمي لنؤكد مطالبنا العادلة التي خرجنا من أجلها وعلى رأسها الكشف عن قتلة المتظاهرين والناشطين، ولكي نتهيأ مع أبناء شعبنا لمواجهة تحديات إجراء الانتخابات المبكرة التي نشترط فيها النزاهة والبيئة الآمنة والإشراف الأممي، وبخلاف ذلك سيكون لنا موقف من المشاركة فيها). مبرراً أسباب الانسحاب بأن (تكالب أحزاب السلطة ومدعي الإصلاح والمليشيات المجرمة على الشباب المنتفض ومحاولة جرّنا إلى صراعات تأنف انتفاضة تشرين الخوض فيها، فقد قررنا تعليق الاعتصام إلى إشعار آخر، لننتقل بعد ذلك إلى أشكال أخرى من الاحتجاج السلمي ستعلن في حينها). وثمن البيان المواقف المشرفة لشرائح المجتمع المختلفة التي دعمت الانتفاضة وساحة الاعتصام. وخاطب الشباب المنتفض (كنتم أبطالاً وستبقون صرخة حق بوجه كل ظالم مستمرين حتى رجوع الوطن إلى أهله من براثن أولئك الذين يدعون حب الوطن والناطقين باسم الدين حتى صاروا مثل عجل السامري في بني إسرائيل يدّعون القداسة ومخالبهم تنهش مستقبل الشعب والأجيال). مؤكداً عليهم أن (نظموا أموركم ورصوا صفوفكم. واقلبوا المعادلات التي تنتج الفاسدين في السلطة).

ملاحظة: جميع قصائد الردّات التي لم يذكر فيها اسم الشاعر تعود للكاتب.

((تشرين)): مساق الثورة والتغيير

د. نائل الزامل
اكاديمي وناشط مدني - البصرة

تبدأ الاحتجاجات الشعبية ذات المطالب السياسية بعد مرحلة الانغلاق السياسي، وشعور الجماهير بأن لا حلول قائمة في الافق. في العراق بدأ الانغلاق السياسي مبكرا مع العملية السياسية التي قادها بريمر بعد الاحتلال الامريكي عام 2003، بتقسيم الشعب العراقي حسب المذهب او القومية، ما انتج طبقة سياسية تمتلك عناصر قوتها من الصراع القائم بين مكونات الشعب، معتمدة على الاصطفافات الإثنية لتحقيق غاياتها ومصالحها الضيّقة، فكان الفساد المالي والاداري هو السمة العامة لهذه الطبقة الحاكمة، وغالبا ما يقترب خطابهم من امراء الحرب والمقاطعات. لقد تقاسموا الثروات، وطوروا عناصر الوهن والضعف في جسد الدولة العراقية. وبدلا من إيجاد حل ينهي كل مظاهر السلاح المنفلت، والسعي لبناء أجهزة امنية تتشكل من كافة ابناء الشعب، انطلقوا دون أي رادع في تشكيل مليشيات مختلفة ومتعددة المسميات. بل ودفعوا حتى المكونات الصغيرة الى تشكيل ميليشياتها.

ويمثل الدستور العراقي الحلقة الابرز في مخرجات ما بعد 2003, ويمثل نظام الحكم في العراق, وعلى الرغم من ان التصويت عليه جاء بكثافة كبيرة داخل مكونين وبشكل اقل من مكون ثالث، الا انه ظل غير فاعل، ولم ينه المحاصصة السياسية، لان غالبية المصوتين عليه في الجنوب والوسط كان بوازع ديني مذهبي واضح، حيث لم تتم قراءة الدستور من قبل أغلب المصوتين ولم يخضع لقناعاتهم. وفي كردستان كان التصويت على الدستور لا يختلف كثيرا عما هو في الجنوب فكان هاجس الحزبين الكرديين هو الإبقاء على سلطتهما في الإقليم وليس مصالح الشعب الكردي عامة. لذلك لم يستطع الدستور وحده ان يوقف العملية السياسية القائمة على المحاصصة، فضلا عن رفض قادة الكتل ان يتحول البلد الى نظام ديمقراطي فعلي، وابقوا على الانتخابات التي تقودها مفوضية مشكلة من اعضاء الكتل الحاكمة خلافا لاشتراطات الدستور الذي اكد على استقلاليتها، ما جعل تزوير الانتخابات عملا مبرمجا ينهض به اعضاء

المفوضية العليا (المستقلة) للانتخابات. في المقابل كان التحشيد الطائفي والعرقي وزرع النعرات والبغضاء والتنكيل هو العمل الوحيد الذي تجيده هذه الكتل وتبثه بين ابناء الشعب، مما يجعل ابناء المكون يحتمون بالكتل نفسها من التهجير والاختطاف والقتل على الهوية، وجميع هذه الاعمال قامت بها المنظمات الارهابية والكتل المتنفذة على حد سواء. لم يتحول العراق الى بلد ديمقراطي بشكل فعلي، فالانتخابات وحدها لا تجعل من البلدان انظمة ديمقراطية. وكثير من الدول الشمولية تمارس الانتخابات بشكل او بآخر. تقاس الديمقراطية بعوامل عدة اهمها حرية التعبير والمواطنة والعدل والمساواة وتكافؤ الفرص، والعراق يفتقد هذه العناصر جميعها. بل ان المحاكم العراقية مازالت تحكم الناشطين بالقوانين الموروثة عن مجلس قيادة الثورة المنحل. يضاف لهذا استشراء الفساد المالي والاداري والسلاح المنفلت والتدخلات الخارجية وسوء الخدمات والبطالة.

جيل مختلف

العراق شعب فتيّ، اعطت مفوضية الانتخابات احصائية عام 2017 تؤكد ان 65% من الشعب العراقي اعمارهم اقل من 25 عاما، وهذا مؤشر خطير. فالشعوب الفتية يصعب بقاؤها على اتجاه واحد، وتمر بتحولات دائمة لكون فئة الشباب هي الفئة الاكثر تحركا وتفاعلا في المجتمع مقارنة مع بقية الفئات، وقادرة على التعبير عن وجودها بشتى الوسائل والسبل، وكان لوسائل التواصل الاجتماعي الدور الابرز في اظهار توجهات جيل الشباب. كما لم تعد مغريات القوى المتسلطة كافية للأجيال الشابة، خصوصا تلك التي بدأت تنضج دون ذكريات عن الدكتاتورية. وترى أن الشعائر الدينية الممارسة جزء من الواقع المعتاد وليس هبة من احد، وتلاحظ الفوارق الطبقية الهائلة بين المسؤولين الفاسدين واتباع الكتل المتسلطة وبين بقية ابناء الشعب، فضلا عن الفوارق الكبيرة في التعيين والتعامل المزري للمراجعين مقارنة بافراد المليشيات, يضاف له المدارس والمستشفيات الحكومية المتهالكة، يقابلها المدارس والمستشفيات الاهلية، وغيرها من التناقضات البارزة. وتبقى نقطة التحول الاهم هي دخول داعش وسقوط خمس محافظات عراقية بشكل صادم ودون مقاومة، ما كشف هشاشة الدولة، وفضح عمل القوى السياسية المتنفذة التي كانت طوال الفترة الماضية تقوي مصالحها وترسانتها المالية ومليشياتها مقابل اضعاف ادوات الدولة واهمها الجيش العراقي. وطالبت السلطة والمرجعيات الدينية من ابناء الشعب ولا سيما فئة الشباب منه، قتال التنظيمات الارهابية وتحرير المدن، واصبح الوعي السائد بان البسطاء عليهم الدفاع عن دولتهم. فأسقطت سياقات وهمية سائدة، وشارك البسطاء والمعدمون في تحرير الاراضي العراقية, في الوقت نفسه كانوا يلاحظون المتاجرة بدمائهم من قبل الكتل المتنفذة, وعانى الجرحى والشهداء من الحصول على ابسط حقوقهم, وبعد انتهاء المعارك عاد اغلبهم الى حياتهم البائسة، في حين ازداد عدد المليشيات والفضائيين في تشكيلاتهم المنضوية تحت قوات الحشد الشعبي، وانعكس سلوك المعارك الضارية

التي خاضوها او شاهدوها على الحياة الاجتماعية. ولم يعد صوت الرصاص او المسلحون او الملثمون مناظر مرعبة بالنسبة لهم, يصاحب هذا السخط والغضب تجاه بؤس حياتهم المقترنة بفساد المسؤولين الذي بات علنيا.

بدا هذا السخط الشعبي ينتشر، والقوى المتنفذة لا يعنيها الا حصصها في تقاسم خيرات العراق. وكان جرس الانذار الاخطر هو العزوف الكبير عن المشاركة في الانتخابات عام 2018 ووفق منظمات قامت بالمراقبة فإن النسبة لم تتجاوز الـ 22%، وأيّد ذلك عدد من القوى السياسية، في حين اعلنت مفوضية الانتخابات ان النسبة 43% وهو مخالف للواقع. وما عزز الازمة هو فضيحة التزوير في الانتخابات وهروب اعضاء من المفوضية وحرق الصناديق وغيرها. وكرست القوى المشاركة في الانتخابات مبدا المحاصصة بشكل جذري هذه المرة، ولم يهتم للدستور والى الان لم يعرف من هي الكتلة الاكبر.

اما الجرس الثاني الذي كان واضحا للعيان بان القادم مختلف جدا، فهو تظاهرات 2018 في البصرة، والتي جاءت كردة فعل على تسمم مياه شط العرب. وكانت طبيعة التعبير مختلفة جدا وطريقة التحدي واضحة. ولم يعد الغاز المسيل للدموع والرصاص الحي كافيا لتفريق جموع المحتجين. واستخدمت السلطة اقسى ادواتها، من اعتقال وتعذيب ودهس وقتل بالرصاص الحي ومطاردات ودعاوى كيدية ومداهمة منازل المحتجين. في المقابل كلما زادت السلطة بطشا زاد الشباب المحتج تحديا وثباتا، واغرقت السلطة نفسها بدماء الشهداء والجرحى، واصبح اعتقال الجرحى من المستشفيات سلوكا يوميا، بما زادت زخم الفعل الاحتجاجي واحرق مقر المحافظة وطالت مقرات الاحزاب والقنصلية الايرانية، وخرج الامر عن السيطرة تماما، وبقيت البصرة لمدة يومين بيد المحتجين الشباب. وساهمت دعوات التنسيقيات للتهدئة ووقف الاحتجاجات، على انتهاء مظاهر الاحتجاج في البصرة، لكن اسباب ومبررات الاحتجاج وامكانياته باقية، ومن ثم تعرضت التنسيقيات التي طالبت بإيقاف الاحتجاجات للتخوين من قبل الشباب المحتج، مما سيجعلها في شبه عزلة عن دورها السابق في الاحداث القادمة.

نريد وطن

انطلقت الدعوات الى يوم 1 /10 /2019 من قبل مجاميع كبيرة من الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي, وكانت العزلة بين الاجيال على اشدها، وهنا لا اعني فقط القوى السياسية المتنفذة. بل ان كثيرا من القوى المدنية (احزاب وطنية وتنسيقيات) لم تكن على دراية تامة بما سيحصل يوم 1 اكتوبر، ذهب بعضهم لمقاطعتها واستهزاء عدد كبير بهذه الدعوة، في حين كان رتم الشباب في تصاعد بالدعوات، واطلق بعضهم عليها ثورة قبل انطلاقها. وكان الفارق واضحا جدا في التوجهات، بين اهداف الشباب المنتفض وبين بقية القوى المدنية، وهو ما يرفع الوصاية في اللحظات الاولى عن الشباب. على العكس من القوى المدنية، كانت القوى السياسية المتنفذة والمليشيات على اهبة الاستعداد للقمع والاغتيالات، فمنذ اليوم الاول تم استخدام

القناص لقتل الشباب في بغداد والمحافظات المنتفضة. وبدت عمليات الاغتيالات في البصرة بابشع صورها، باقتحام شقة الناشط الشهيد حسين المدني وزوجته الناشطة الشهيدة سارة طالب وقتلهما، واستمر مسلسل الاغتيالات. التحقت القوى المدنية بالمحتجين منذ اليوم الاول وبعد استخدام السلطة والقوى المتنفذة للقمع مباشرة. وهذا خلق فارقا وجوديا بين مطالب الشباب وبين مطالب القوى المدنية المتمثلة بايقاف العنف تجاه المحتجين.

ما يميز تشرين عن بقية الاحتجاجات في العراق، بانها لم تكن مطلبية كسابقاتها، وليس من الصحيح ربطها ابدا بالتظاهرات المطلبية بالتعيين او بحادثة الاعتداء على حملة الشهادات العليا، كما انها لم تكن ردة فعل على قرار او اغتيال او اجراء تعسفي او اعتراض على مستحقات، كما حدث في تظاهرات سابقة كثيرة. وهذا ما جعل السلطة المتمثلة بالقوى المتنفذة تراها خطرة جدا على وجودها وبقائها في سدة السلطة، وشعارها (نريد وطن) يلخص مطالبها. فالسلطة في العراق تخضع تماما للقرار الخارجي، ولا يأتي رئيس وزراء دون موافقة ايرانية -امريكية عليه، والموافقة الامريكية تتوافق مع الموافقة الخليجية، ومن ثم فان جميع هؤلاء لهم نفوذهم ودورهم في حماية الفئة المتحكمة، وجميعهم لهم اتباعهم. لكن المتضرر الاكبر في تشرين هو الجمهورية الاسلامية الايرانية، لكون موقع الاحتجاجات في مناطق نفوذها الشعبية. اما مطالب الاحتجاجات فهي تشكل خطرا على كافة القوى المتحاصصة، وبحكم نفوذ الفصائل وتحالفها مع القوى السنية في المناطق الغربية كانت المشاركة ضعيفة، وذلك للتهم الجاهزة التي ستطلق على المشاركين، وتم اعتقال عدد من الناشطين هناك وبتهم ارهابية.

مع تطور الاحداث الدامية في الايام الثلاثة الاولى، اعلن الشباب عن موعد 25/ 10 لمعاودة الاحتجاجات. على صعيد اخر حاولت السلطة تدارك الوضع وتعزيز نفوذها واستمرت عمليات المطاردة والاغتيالات والاعتقالات. وكان يوم 25 /10 لا يقل عنفا ودموية عن ايام 1،2،3 من الشهر نفسه، لكن الاعداد كانت كبيرة، والدعم الشعبي في ازدياد، واخذ شعار (اقالة حكومة القناصين) مركزية موازية لشعار (نريد وطن)، واستمرت الاعداد بالتزايد في الايام التي تلتها. في 27 /10 استقال اعضاء الحزب الشيوعي من البرلمان في مؤتمر صحفي، اكدوا فيه على "اقالة الحكومة وتشكيل حكومة كفاءات وطنية بعيدا عن المحاصصة ومنظومة الفساد، تهيئ مستلزمات اجراء انتخابات مبكرة، بعد تغيير كامل المنظومة الانتخابية وتشريع قانون انتخابات عادل". وكانت المطالب في الشارع ترفض الكتل المتنفذة وتطالب بإسقاطها. طالب اياد علاوي بحكومة انقاذ وطنية يطمح برئاستها. اخذت الدعوات للاعتصام بالانتشار. رفض عدد كبير من الشباب المنتفض الاعتصامات مذكرين بتجارب سابقة. الاعداد الكبيرة التي دخلت الساحات من القوى كالتيار الصدري كانت منظمة اكثر، وتملك امكانيات واسعة، وبدات مرحلة الاعتصامات. تحول الفعل الاحتجاجي الهادر، الى كرنفال احتجاجي، تسيطر على مداخله مجاميع في اغلب

المحافظات، يتبعون لتنظيمات سياسية متنفذة. في حين تواجد عدد كبير من الشباب المنتفض في مواقع المواجهة واطلق عليها في كافة المحافظات (حائط الصد). لم تتوقف السلطات عن محاولات اقتحام الساحات، وكان الشباب المنتفض على حائط الصد، وتصلهم اعداد هائلة من بيانات خيم الاعتصامات في كافة المحافظات. ولم يتوقف سقوط الشهداء على خط المواجهة، حيث اخذت المجازر تتزايد كمجزرة الزيتون في الناصرية ومجزرة السنك في بغداد ومجازر في النجف وكربلاء والحلة والبصرة. واستمرت الاحداث بهذا الاتجاه، حائط صد دام، وكرنفال احتجاجي متنوع التوجهات والاتجاهات. وكلما زاد عدد الشهداء والجرحى طغى مطلب محاسبة القتلة وتصاعد على مطلب (نريد وطن)، حتى بدا طرح المرشحين لرئاسة الوزراء، ما عمق التشظي الموجود اصلا. واستطاعت القوى السياسية تفكيك الشعار المركزي الى مطالب برئاسة الوزراء، كان الفارق والشقاق مع التيار الصدري في ترشيحه محمد توفيق علاوي لرئاسة الوزراء، ورفض المحتجين له. انقلبت المجاميع الصدرية في بعض المحافظات على المحتجين، واخذت السلطة تتفرج على الصراع داخل الساحات وبين المحتجين الموحدين سابقا والمتقاتلين حاليا بسبب منصب رئيس الوزراء. واستغلت فرصة الصراع وحاولت الزج بمحافظ البصرة لمنصب رئيس الوزراء. واصبح حائط الصد حائطين او اكثر في بعض المحافظات، وصمد الشباب، لكن شعار (نريد وطن) لم يعد صامدا بما يكفي.

"الطرف الثالث"

ان مصطلح الطرف الثالث الذي اعلنت عنه السلطة مع بداية القنص والقمع لاحتجاجات تشرين، ليس جديدا على قوى المعارضة العراقية، اذ لم تجتمع هذه القوى الا بوجود طرف ثالث. في اجتماع قوى المعارضة العراقية في منتجع دوكان في كردستان قُبيل اعلان بوش الابن الحرب على العرق، تم تأجيل الاجتماع لعدم حضور ممثل الادارة الامريكية زلماي خليل زاده، وتأخر الاجتماع لحين حضوره، وقوى الاسلام السياسي الشيعي لا تتفق او توحد خطاباتها الا بوجود الطرف الايراني. اما تشكيل الحكومات العراقية المتعاقبة بعد 2003 فقد كان لا بد من اتفاق الطرف الثالث المتمثل بأمريكا وايران. وفي تفسير احد مستشاري عادل عبد المهدي لشعار (نريد وطن) قال: "ان الوطن المقصود الواو تعني واشنطن والطاء طهران والنون النجف, ... هذا معنى نريد وطن". من ثم فان الطرف الثالث جزء من عقلية القوى المتنفذة في العراق، وهي في الغالب تستند الى العنصر الخارجي في اتفاقاتها واتخاذ قراراتها. وبالغالب ان انعدام الثقة بين هذه القوى يجعلها دوما بحاجة الى طرف ثالث ضامن لاتفاقاتهم، وبالتأكيد هذا الطرف سيكون اقوى منهم جميعا ويضع شروطه، لذلك هم لا يستوعبون بان شبانا كانوا يملكون ارادة قرارهم.

لعل اول من اطلق رسميا مصطلح "الطرف الثالث" في تظاهرات تشرين هو وزير الدفاع ناجح الشمري، وكان في لحظتها يقصد بان الذي قتل المتظاهرين ليس القوات الامنية وبتحديد اكثر اشار

الى انه ليس الجيش العراقي، بل ان هناك طرفا ثالثا وكان يلمح للمليشيات او القوى السياسية. ثم تطور المصطلح ليتحول الى ثلاثة محاور يرتبط كل محور بتوجه مستخدميه، والجميع يتفق على انه طرف غير رسمي، فحكومة عبد المهدي واتباعها ذهبت الى ان الطرف الثالث هم مجموعة من المندسين المدعومين من قوى خارجية، تتآمر على الحكم الشيعي والديمقراطية في العراق، ومرتبطين ببقايا حزب البعث. اما القوى السياسية المنتمية لمحور المقاومة، فهي بالتأكيد تعد كل الحركة الاحتجاجية تابعة لإسرائيل وامريكا (وهو خطابهم المعتاد في نظرية المؤامرة) لكن هناك مغرر بهم وهناك عملاء، وبرأيهم العملاء يقومون بقتل المتظاهرين. في حين تلمح أطراف أخرى الى أن الطرف الثالث هو المليشيات التابعة لإيران.

استمرت الحكومة بإلقاء اللوم على الطرف الثالث على الرغم من عشرات الفيديوهات التي توثق استخدام الرصاص الحي من قبل القوات الامنية تجاه المتظاهرين. ولعل مجزرة ذي قار في 28/ 10/ 2019 كانت واضحة للعيان بنوع السلاح المستخدم وحتى اسم القوة والقادة العسكريين المنفذين. وهناك توثيق بوجود مدنيين مسلحين يرافقون القوات الامنية ولا سيما مكافحة الشغب، ويقومون بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين بشكل مباشر، بما يجعل الطرف القاتل واضحا ويمثل بعض القوات الامنية التي مارست القتل بشكل علني وواضح، ومليشيات ترافق هذه القوات وتقوم بدور آخر هو الاغتيال والخطف والتعذيب والتغييب.

بعد عامين من الاحداث الدامية والاغتيالات المستمرة لم يكشف بشكل رسمي عن اسم واحد من "الطرف الثالث"، ولم تحدد هويته او القوى التي تقف خلفه، ولم يحاكم احد على قتل المتظاهرين، بل ان ما كان شبه واضح في حكومة عادل عبد المهدي اصبح ضبابيا في حكومة مصطفى الكاظمي، وبقي "الطرف الثالث" دون محاسبة او حتى تحقيق بشأنه.

الجوكر

تحولت خيم الاعتصام الى كرنفالات احتجاجية كبرى، تملك طقوسا متنوعة وبعضها شبه ثابتة. في الصباح تأتي التظاهرات الطلابية من كافة الجامعات اناثا وذكورا، وبالزي الجامعي وبسيل جارف وهتافات ثورية وروح شبابية ذات همّة عالية. ايضا كانت هناك اعداد كبيرة من طلبة المدارس تنظم مسيرات راجلة باتجاه اماكن الاعتصام في الوسط والجنوب. في المساء تأتي الاسر مع اطفالهم والشباب، مكبرات الصوت تضج بالأناشيد الحماسية. بعض الخيم تحولت الى مكتبات، وخيم للحوارات والندوات ومهرجانات شعرية، ومسرحيات، وفعاليات متعددة. ساهمت ربات البيوت بصنع الطعام في بيوتهن او طبخه في خيم الاعتصام، بعض الموظفات كنّ يأتين بعد انتهاء العمل او في العطل، ويقمن بأعمال الطبخ ويشاركن الطالبات والطلاب في تنظيف الساحات بشكل مستمر. الرسامون كانوا يخططون على الصبات الكونكريتية والجسور صور الشهداء وشعارات الاحتجاج، واتحادات ونقابات وفئات وشرائح اجتماعية مختلفة

كانت تتواجد في مكان واحد تعبر عن رفضها للقوى الحاكمة.

سعت القوى المتسلطة ومن خلال امتلاكها منصات الاعلام لهدف محدد، وهو كيفية عزل هذه الشرائح عن التأثير بالمجتمع، فاستخدمت وسائل عدة واستعانت بعدد من المدونين لتسقيط تشرين. وكانت اولى وسائلهم هي استنساخ طبق الاصل لمقولات الاخوان المسلمين في مصر ضد المحتجين على حكم المرشد فترة ترؤس الاخواني محمد مرسي العياط، فكانت خطاباتهم تدور حول صوت المرأة عورة، والاختلاط بالذكور، واتهام المعتصمين بالمعصية وشرب الخمور وغيرها من الوسائل التي حاولوا ارعاب الاسر من دخول الاعتصامات وانتهت بالنتيجة نفسها فهي لم تنجح في مصر ولم تنجح في العراق. وكان يرافق هذا الخطاب بشكل بسيط اشارة الى الجوكر، وهو فيلم امريكي يحمل العنوان ذاته، وايضا الورقة المعروفة في ورق اللعب، وتعني ايضا العنصر الرئيسي او الرابح في جميع الحالات. وفي ايام التظاهرات الاولى وضع بعض الشباب صورة الجوكر على صفحاتهم الشخصية، تلك الابتسامة الجامدة التي لا تعرف المشاعر الكامنة خلفها. لكن بعد فشل تكرار اسلوب الاخوان المسلمين بدات ماكنات القوى المتسلطة الاعلامية وجيوشها الالكترونية باستخدام كلمة الجوكر على المتظاهرين كافة، ومن ثم اخذوا يستخدمونه بشكل مكرر ومستمر وبصيغة الجمع (الجوكرية)، في محاولة لمنحهم هوية اخرى غير هويتهم الحقيقية لتحقيق هدف عزلهم عن المجتمع وربطهم بالسفارة الامريكية. وغالبا ما يكون وصف الماكنة الاعلامية للقوى المتسلطة تجاه المحتجين، بعبارة (الجوكرية/ ابناء السفارات)، في المقابل اطلق المحتجون على مؤيدي السلطة لقب (الذيول) في اشارة الى انهم يتبعون ايران، وقد استخدمت مرجعية السيد السيستاني هذا اللفظ على لسان الناطق باسمها حين قال: "يأبى البعض إلا أن يكونوا ذيولا اي اذنابا".

تحول اسم الجوكرية الى سُبّة تكررها الفضائيات الحزبية ذات الميل الايراني، وحشدوا كثيرا من الاقلام لترسيخ هذا المفهوم، لكنه لم يؤد غرضه المطلوب، بل اصبح مصطلحا يكشف عن هوية مستخدمه اكثر مما يشوه المحتجين. ادى امتداد فترة الاحتجاج، وضعف امكانيات الدعم اللوجستي من مأكل ومشرب الى رتابة في الاعتصامات. ولكن العامل المباشر لضعف الاعتصامات هو وباء كورونا وما رافقه من حظر شامل وتام، وتحول اغلب النشاطات الى مواقع التواصل الاجتماعي، ومثل كل جماعة تمارس عملا او توجها معينا، اطلق بعض المحتجين بحسن نية على انفسهم (التشرينيين) نسبة الى انطلاق الاحتجاجات في تشرين. ومن المعروف ان كل هوية بطبيعتها اقصائية، وبحكم صراع الهويات المرير في العراق سنلاحظ ان الكثيرين من داعمي الاحتجاجات يرفضون ان يتحولوا الى هوية او جزء من هوية متصارعة، ومن ثم تلاقفت القوى المعادية للاحتجاج لفظة (التشارنه) ليعيدوا الصاق التهم التي اطلقوها سابقا على الجوكر، وبدأت مرحلة خطرة من مراحل العزل التي لا بد من الالتفات لها، لا سيما مع ظهور قوى

وشخصيات تدعي انبثاقها من تشرين او تمثيله لها، وهذا يفقد الاحتجاج اهم عناصر ديمومته بصبغته الشعبية المعبرة عن الجميع.

الوعي قائد

يمثّل هذا الشعار (الوعي قائد) الذي رُفع في بداية انطلاقة تشرين من قبل الشباب رفضا واضحا وصريحا للوصاية على خياراتهم، وينم هذا الشعار عن انعدام ثقة تامة مع الفئات العمرية الاخرى وبين فئة الشباب انفسهم. ولعل اتخاذ التكتك رمزا للاحتجاج يمثل معادلا موضوعيا لقيمة الفعل مقارنة بالحجم والتأثير. فالتكتك وسيلة نقل مهملة لا تمثل طموحا لاحد، يستأجرها البسطاء ويتبرم منها أصحاب السيارات الفارهة، ويمثل هامشا في المجتمع العراقي حوله الشباب الى رمز يقوم بمهمة رئيسية في ساحات الاعتصام وخط الصد. وبالتالي فان المعايير القديمة اصبحت مرفوضة او مهملة في نقطة التحول الكبرى التي اختارها الشباب. ويعود ذلك لأسباب كثيرة لعل ابرزها فشل التجارب الاحتجاجية السابقة التي قادتها تنسيقيات توصف بالخبرة والاتزان والخطاب ذي الصبغة السياسية الناعمة في بعض الاحيان، والشراكات السابقة لهذه التنسيقيات مع تيارات دينية راديكالية، واتخاذ التنسيقيات بعض القرارات في وقف الاحتجاجات خشية الفوضى كما حدث في احتجاجات البصرة 2018، ودخول بعض الشباب في تشكيلات قريبة من المسؤولين الحكوميين، وتحول تنسيقيات تحت عنوان الرقابة او المتابعة الى شكل شبه سلطوي تحوم عليهم تهم الفساد، ومقاتلة بعض الشباب في تشكيلات حزبية فترة الحرب على داعش، وخشية من الضغط على القيادة وتهديدها او اغتيالها او اخضاعها، وتجنب دخول المندسين من الاحزاب المتسلطة بين قيادة المتظاهرين، واسباب اخرى تضاف لها الطبيعة الفردانية للشباب التي نمت من خلال السوشيال ميديا وتحولهم الى اصحاب آراء مكتوبة او مصورة يدافعون عنها بشكل فردي واصبحوا متابعين للأخبار ويملكون وجهات نظرهم الشخصية، واصبح كل شاب اشبه برئيس تحرير في مواقع التواصل الاجتماعي، ما خلق فردانية في الراي والتوجه، يفوق كل هذا ميلهم للنقد الحاد والتشكيك في كل شيء اكثر من اطمئنانهم لما يجري. وسبب ذلك كثرة الكذب والتضليل الذي مارسته عليهم السلطات بأنواعها.

مع بدء انحسار الاحتجاج اخذ هذا الشعار بالتراجع، فالزمن الطويل نسبيا للفعل الاحتجاجي المستمر، كشف الكثير من العناصر السلبية والايجابية امامهم، وبات هناك مواطن للثقة وحاجة الى توحد الآراء والخطابات بدلا من التوافقية التي كانت تصدر بها البيانات السابقة ابان الاحتجاجات او ما يسمى باتفاقات الخيم لا سيما اثناء وجود التيار الصدري وبعض الاحزاب الاسلامية الاخرى داخل الخيم. واصبح التوجه لاختيار مجموعة من مراكز التنسيق بين المحتجين، وعلى الرغم من اهمية هذه الخطوة لكن لا نغفل بانها ستحول الاحتجاج الى ارادة تنظيمية تسهل تخطئتها او تسقيطها ومهاجمتها.

خلاصة

تعد ثورات التغيير من المفاهيم النبيلة التي تفخر بها الشعوب والانسانية جمعاء، حتى ان اصحاب الانقلابات العسكرية سعوا لإطلاق اسم ثورة على انظمتهم، وربما تبدأ مشاكل البلدان مع اول قرار لتشكيل مجلس قيادة الثورة الذي في الغالب يعتمد ايديولوجيا واحدة او سائدة او ينشئ حزبا حاكما، وتكون المعارضة على مختلف مشاربها متوجهة بالضد من راس النظام او حزبه او الاثنين معا، مما يجعل الخصم واضحا والمعركة مع الانظمة وان كانت شرسة لكنها ذات توجه واحد متى ما تهشم راس السلطة سقطت اطرافها.

في بلدان الديمقراطيات المشوهة مثل العراق، التي تملك امراء مقاطعات مقسمة جغرافيا، وتعاني من وجود دولة عميقة تقتسم السلطات المركزية بين قوى مهيمنة على الرقع الجغرافية، وتمارس بيروقراطيتها في تسلم المسؤوليات وفق اتفاقات وتحالفات مهما اختلفت اعلاميا يبقى ما يجمعها هو مصلحة البقاء جميعا في السلطة، والتزاحم بينها لا يكون بين امراء مقاطعات المكونات ابدا، اذ لا طموح مثلا للتمثيل الطائفي ان ينتشر خارج دائرته وكذلك الامر مع القومي، انما يكون التزاحم داخل هذه المقاطعات بين قوى متشابهة داخل رقعة جغرافية لمكون، لذلك يكون الاحتجاج اكثر اشتباكا وتداخلا. وكلما نجح الضغط في منطقة معينة سوف لا يؤثر على الكتل المتنفذة في المناطق الاخرى، فضلا عن تلاعب هذه القوى جميعا بأوراق السلطات الاتحادية، فعند الضغط مثلا على السلطة التشريعية ستعمل على انقاذها من الداخل السلطة التنفيذية والقضائية، وان كانوا في تصريحاتهم الاعلامية يدعون شيئا اخر، كما ان تشتيت جهد الاحتجاج على اكثر من نقطة سيضعف تأثيره، لذلك كان المطلب الواعي للشباب (نريد وطن) يحدد بالدقة الهدف من الاحتجاج، الوطن كفيل بانتهاء المحاصصة وحكم امراء الحرب وتقسيم المواطنين حسب هوياتهم الاثنية، لكن آيات العمل الاحتجاجي لتحقيق هذا الشعار المنقذ ليس بالأمر البسيط، وبحاجة الى تنوع وتعدد وسائل الاحتجاجات وعدم الاقتصار على وسيلة واحدة. لكن الازمة الاكبر التي ستواجه الاحتجاج هي التوجه والمعرفة بان التطور يأتي بالتدريج وفق اولويات محددة لا تخضع للتشتيت، تبدأ بالأهم ثم المهم ثم الضروري، وهذا الاتفاق يبدو تبسيطا لكنه في الالتزام صعب لا سيما وان بعض التشتيت يقوم به المحتجون انفسهم، فلو وضعنا خيارا حول من المهم ومن الأهم:

حصر السلاح بيد الدولة وتجريد المليشيات من سلاحها ام المطالبة بدم الشهداء؟

الاجابة حول هذا السؤال بتحديد الأهم لا يعني ابدا ترك المهم، لكنه يقدم هدفا محددا يشترط بالضرورة مجموعة اجراءات ووسائل احتجاج تتلاءم مع تحقيقه، واستثمار كافة الامكانيات للوصول اليه، وهذا التحديد بالأولويات والعمل عليها سيخلق فرصة واقعية لنيله وبعد اتمامه، تبدا الخطوة الاخرى، بالتأكيد هو صراع مرير وطويل ولكنه ضروري لتحقيق هدف محدد ..

في كافة الاحتجاجات السابقة بعد اول

عملية اغتيال او قمع او اعتقال، تُنسى مطالب الاحتجاج وتتحول الى مطالبة بالكشف عن القتلة او اطلاق سراح المعتقلين او المغيبين، وهنا لا اعني الفعاليات الاحتجاجية المهمة التي تفضح القتلة او تسبب الضغط على السلطات لإخراج المعتقلين، بل عن تحول في اصل الهدف من الاحتجاج ونسيان السبب الرئيس والتحول الى المطالبة بالأضرار التي حدثت جراء قمع الاحتجاج، هذا ما وقعنا به مرارا في الاحتجاجات السابقة، والسلطات بقواها المتنفذة ترصد ذلك، فكانت القوى القمعية اذا ما ارادت تذويب اي احتجاج يمس وجودها، ستقوم بممارسة القتل والقمع وبعدها مباشرة سينسى المحتجون هدفهم ويتحولون لهدف عرضي صنعته السلطة، التي طورت اساليبها واستطاعت ان تخلق عداء بين المحتج وبين الجندي او الشرطي في موقع الاحتجاج، ومن ثم تتحول بوصلة الاحتجاج من الهدف الذي يضعف السلطة او الفاسدين او مليشياتها الى معركة في شوارع المدن. ولعل هذا السبب الرئيس لتحول بعض الاحتجاجات الى مقرات الاحزاب، لكن بوصلة التحدي والفعل الاحتجاجي غالبا ما يساق الى معركة ميدانية تتحول الى كرّ وفر، وتحصر كهدف داخل مكان الاحتجاج.

إن ما قام به الشباب وكافة شرائح وفئات المجتمع في تشرين، يمثل نقطة تحول شعبية عظيمة في المجتمع، ولن يكون ما بعدها شبيها بما قبلها، ولم تصبح تاريخا بعد، فظروفها الذاتية والموضوعية والفكرية وامكانياتها ما زالت موجودة وتنمو بوعي اكثر، وتستخدم وسائل نضالية متعددة، وربما هي ليست بحاجة الى قائد لكافة وسائلها المتنوعة، بقدر حاجتها الى تحديد الاولويات وضبط الخطاب تجاه بوصلة اهدافها التي نادت بها.

انتفاضة تشرين
انعطافة هامة في الكفاح الوطني نحو التغيير والإصلاح الجذري المنشود

علي حسين جابر
حقوقي وناشط مدني - الشطرة – ذي قار

المقدمة

بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق وسقوط نظام البعث العفلقي وانهيار نظام الحكم القائم عليه استبشر العراق خيرا في تعويض حجم الخسارات التي نالت شعبه على مر عقود من الظلم والاستغلال والحرمان وفتحت الباب أمام مرحلة جديدة في تأريخه المعاصر جاءت بها قوى سياسية معارضة لذلك النظام الديكتاتوري، وفق متطلبات التغيير الموعود الذي كان يحلم به الشعب العراقي طوال حقبة طويلة من الظلم والديكتاتورية.

لقد ارتكزت العملية السياسية في بداية نشوئها على وعود العدل والمساواة والتداول السلمي للسلطة وتعويض الضحايا والارتقاء بالواقع الاجتماعي والاقتصادي للشعب نحو الوصول لتحقيق الرفاهية والعيش الرغيد له ضمن دستور يؤسس لذلك الالتزام ويحقق أثره فيه غير ان السنوات التي تلت التغيير شابها الكثير من الممارسات الخاطئة وتعمد التأسيس غير المشروع للسلوك السياسي وتغييب

ارادة الشعب ومصالحه، وبدأت المكاسب تتوالى في الهبوط والانهيار ما جعل من القوى والشخصيات الوطنية تشخص ذلك عبر الإعلام أو الاحتجاجات الشعبية المتعددة والمتوالية بدءا من احتجاجات شباط 2011 وما بعدها وآخرها انتفاضة تشرين الظافرة - اسبابها - احداثها ومنجزاتها، التي سنوردها في هذا المقال.

أسباب اندلاع انتفاضة تشرين

كان لانتفاضة تشرين اسبابها المنطقية الناجمة عن سوء إدارة السلطات الثلاث للصلاحيات الدستورية التي سببت آثارا وخيمة ألقت بظلالها على المواطن

العراقي حيث تم تزييف إرادة الشعب وإخضاعها لمبدأ التوافقات السياسية. وهذه الأساليب لم تقتصر على السلطات الاتحادية بل وصلت الى المحافظات حيث كان السلوك السياسي مشينا وسافرا، شكل استهانة بإرادة الناس ومصالحها حيث كان السلوك السياسي في السلطة الاتحادية متناغما مع ما يجري في المحافظات وغطاء له، نتيجة التخادم للقوى السياسية المتحاصصة في المركز والمحافظات باعتبارها امتدادا ونفوذا سياسيا متجانسا له، فكانت المؤسسات التنفيذية غائبة عن دورها نتيجة التولية الإدارية لشخصيات تابعة لتلك القوى وكذلك عدم امكانية المؤسسات الرقابية ـ بمجملها التشريعية المتمثلة بمجلس النواب أو مجالس المحافظات أو الهيئات المستقلة ـ من القيام بدورها لذات الأسباب، وخضوع تلك المؤسسات اما لتأثيرات سياسية أو أنظمة داخلية محددة لعملها كما في المجالس التشريعية، حيث تكون المماحكات او التوافقات السياسية هي الغالبة على عملية التصويت في المحاسبة واتخاذ القرارات أو تنضيد التشريعات التي تؤبد مصالحها في اللجان المتخصصة، والتي تعتبر المطبخ السياسي لها.

إن السلوك السياسي في التوافق أدى الى عدم امكانية تطبيق القانون وسيادته وفق اسس سليمة تؤدي اهداف القانون وتنامي الفساد عبر تقاسم المال العام وانعكاسه على الخدمات المقدمة للشعب وجعله لقمة سهلة بيد الفاسدين، وعجز النظام السياسي عن معالجة ذاته. كل ذلك جعل لا امكانية لاستعادة الدولة من الفساد ما لم يكن للشعب صوته الذي يهز مضاجع المفسدين ويخلص البلد ومؤسساته من الرتابة، فكانت انتفاضة تشرين هي تتويج لكل الحركات الاحتجاجية التي قام بها الشعب وقواه الوطنية من شخصيات وطنية واحزاب.

لقد كانت الانتخابات البرلمانية لعام 2018 بمثابة فيض الإناء للشعب حيث أنها أول انتخابات بعد نكبة آب عام 2014 واحتلال تنظيم داعش الإجرامي لأراض واسعة من الوطن، فكانت هذه الانتخابات هي الإرث ونتائج عقد ونصف من التسويف والوعود السياسية الكاذبة وتفشي الفساد الإداري في مؤسسات الدولة وانهيار الواقع الخدمي بسبب طبيعة منظومة الفساد المتسمة بالجشع والباحثة دوما عن مواطئ قدم جديدة غير متناهية، تضيف لامتيازاتها الظالمة فيما تضيق معها ما يتلمسه المواطن من حقوق مشروعة والأمل باستعادتها.

ومع تشكيل الحكومة العراقية على أنقاض افتضاح التلاعب بكثير من مراكز العد والفرز واعتراف رئيس الوزراء العراقي حينها السيد حيدر العبادي ومفوضية الانتخابات بنسب معينة واجراء التحقيقات الديوانية بشأنها وصدور التوصيات المؤيدة لهذه الإدعاءات وحوادث تحطم أجهزة العد والفرز واحتراق صناديق الاقتراع في مركز العد والفرز الرئيسي في جانب الرصافة، شاب العملية الانتخابية الكثير من الشكوك والتخمينات والوقائع واليقين بعدم وجود رغبة سياسية في التخلي عن المكاسب وتحقيق مبدأ التداول السلمي للسلطة.

والأدهى من ذلك أنه جرى القفز على أهم مبدأ دستوري وهو تحديد الكتلة البرلمانية الأكبر وفق تفسير المحكمة الاتحادية العليا للمادة (76) المذكورة، ليضيع معها أمام الشعب الكتلة المسؤولة عن إخفاق الحكومة المنبثقة منها أو نجاحها، إضافة لذلك جرى القفز على كثير من الوعود الانتخابية حيث استمر مبدأ التحاصص للمواقع التنفيذية العليا ليتعدى المحاصصة على منصب الوزارة ليشمل الدرجات الخاصة التي تمس صلب واقع حياة الناس والتي تعتبر أكثر المناصب الوظيفية تأثير في أداء المديريات العامة والدوائر التابعة لها، والتي تتميز بكونها مواقع إدارية على درجة عالية من الخبرات والمهنية بغض النظر عن مستوى نزاهة بعض أفرادها والتي تنتظر وعود الحكومة في ضرب مصادر الفساد وإصلاح المنظومة الإدارية، لا على أساس التوافق والمحاصصة السياسية بل وفق معايير الخبرات والمهنية والعدالة والنزاهة لتفشل الحكومة مرة أخرى في التصدي لهذا الملف، ناهيك عن الفشل في إصلاح المنظومة القانونية والتشريعات الفاسدة في البلد حيث أن المنظومة القانونية أسيء التعامل بها عبر استغلال الصلاحيات الدستورية والتنصل من الوعود والبرامج السياسية مع كل عملية انتخابية، غير أن الكتل السياسية المتحكمة بالقرار داخل المجلس النيابي ومجلس الوزراء تنصلت من وعودها في ذلك بل، وساهمت بإقرار قانون انتخابات مجالس المحافظات وفق صيغة أسوأ من سابقه باعتماد قانون سانت ليغو المعدل وفق معيار قاسم انتخابي (1.9) رغم رفض بعض القوى له باعتباره التفاف على إرادة الجماهير وتطلعه للإصلاح باحتجاجات عام 2015. ومن هذه القوى الرافضة هي الحزب الشيوعي العراقي الذي اعتبر القانون انتكاسة لآمال الجماهير ورغبتها في الإصلاح والتفاف مستمر على مبدأ التداول السلمي للسلطة، وبعد ذلك توجهت لإقرار التشريعات المقيدة للحريات، فالحريات هي المكسب الوحيد المتبقي من التغيير الذي حلم ويحلم به الشعب العراقي حيث توجهت لمحاولة تمرير قانون جرائم المعلوماتية، الذي وضع جرائم تكاد تصل عقوبتها الى الإعدام والسجن المؤبد أو المؤقت لسنين، وغرامات مالية باهظة تصل إلى الملايين عن أفعال أو أخطاء ربما تكون غير مقصودة على شبكة الانترنت. كما وضعت مشروع قانون حرية التجمع والتظاهر السلمي قيد التشريع بمسودة تكاد تنهي هذا الحق ليكون هذان المشروعان محاولة لتوجيه ضربة قاصمة للديمقراطية، ولحق الشعب في الاحتجاج وتصويب الأداء الحكومي وضمان عدم عودة الديكتاتورية بأطر ديمقراطية مفرغة من محتواها، ولم تكتفِ الكتل المتنفذة بذلك، بل سعت لإقرار مشروع قانون المحكمة الاتحادية العليا سيئ الصيت في محاولة منها لتحصين تلك التشريعات الفاسدة وضمان عدم امكانية الطعن بها دستوريا.

انطلاق احتجاجات تشرين الظافرة

لقد أصبحت هذه الاحتجاجات أيقونة الرفض الشعبي الحقيقي لكل الممارسات السياسية التي أسلفنا الحديث عنها،

وتتويجا للتعبير الشعبي الساخط والذي امتزج بالعنفية احيانا باعتبارها نتاجا عن أسبابٍ تراكمية ناجمة عن حجم اللامبالاة والتسويف وتزييف إرادة الشعب في امكانية اختيار ممثلين حقيقيين عنه، وتأسيس حياته الحرة الكريمة واثبات وجوده وتأثيره في الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، فكانت حملة المقاطعة التي زامنت انتخابات نيسان عام 2018 بمثابة جرس الإنذار لحركة الاحتجاج ومقياس الرفض والسخط الشعبي والتحذير من تفاقم الوضع والسلوكيات السياسية غير المبررة. فانطلقت موجة احتجاجات شاسعة في عدة محافظات منذ بداية تشرين الأول لعام 2019 لتشكل صدمة للكتل السياسية بعد عام من تشكيل الحكومة، وعدم رضا الجماهير عن استمرار ذات النهج في المحاصصة وتقاسم كافة المناصب التنفيذية.

لم تتعامل الحكومة للأسف بشكل منضبط لامتصاص الهبة الجماهيرية فجوبهت الانتفاضة بالعنف المفرط يقابلها متظاهرون سلميون يرفعون الأعلام وشعارات مطلبية لكنها بعد ذلك رفعت بسقوف عالية، بعضها تجاوز اصلاح النظام، مطالبا بإسقاط النظام السياسي برمته.

لكن أهم ما ميز اهداف الانتفاضة والتي كانت في بداية موجة الاحتجاجات:

- اقالة حكومة عبد المهدي وتشكيل حكومة انقاذ وطني من الشخصيات الوطنية النزيهة وضباط الجيش الذين ساهموا بتحرير الاراضي العراقية من تنظيم داعش؛

- الغاء مجالس المحافظات بسبب كونها ادوات للفساد؛

- اجراء انتخابات برلمانية مبكرة وفق قانون انتخابي جديد ومفوضية بإشراف قضاة وتحت إشراف اممي. كما طالب المحتجون بإلغاء امتيازات الطبقات الحاكمة.

لقيت الانتفاضة دعما شعبيا منقطع النظير حتى صارت إحدى النساء المتعففة من ذوي الاحتياجات الخاصة أيقونة للاحتجاج، وهي توزع ورق الكلينكس الذي تبتاعه طلبا للرزق على المتظاهرين للتخفيف من آثار الدخانيات، واستمرت الاحتجاجات هذه لعدة أيام، واجهتها الأجهزة الأمنية بالرصاص الحي أحيانا والدخانيات تارة أخرى، كما شهدت هذه الاحتجاجات حادثة القناصين الشهيرة التي أودت بحياة عدة اشخاص، والتي وعدت الحكومة بالتحقيق فيها وكشف المتورطين بها، وحادثة القنص هذه أدت إلى تفاقم الوضع الداخلي للبلد، كما شهدت ادانات دولية كبيرة، مطالبة الحكومة بالكشف عن الجناة وتقديمهم للعدالة.

تأجلت الانتفاضة لما بعد الزيارة الأربعينية لشهادة الامام الحسين - عليه السلام - من قبل المحتجين، لترك المجال للأجهزة الأمنية بأخذ دورها في تأمينها، لكنها سرعان ما عادت، اي الاحتجاجات، مرة أخرى بعد أحداث تشرين الأول لتتجدد في الخامس والعشرين من أكتوبر من عام 2019 بعد حملة واسعة اطلقها نشطاء مدنيون على منصات التواصل الاجتماعي لتجسد مرحلة مهمة للمراجعة في أسس وطبيعة السلوك السياسي، اشتركت فيها فئات وقطاعات مهنية واجتماعية كبيرة

منها النساء والطلبة والنقابات المهنية كنقابة المحامين والصيادلة والحقوقيين والعمال ونقابة المعلمين التي كان لها الأثر الكبير في الضغط والإضراب الطلابي والتعليمي. كما كان للنساء حضور فاعل ايضا منها الشهيدة ريهام التي تعرضت في ما بعد بسبب دورها في احتجاجات البصرة لحادثة اغتيال جبانة في مركز المحافظة بتأريخ 19 /8 /2020 بعد حملة تشويه تعرضت لها. وكانت الفقيدة من أبرز نساء البصرة المحتجات حيث كان حضورها بارزا من خلال الشعارات التي تطلقها في الفعاليات الاحتجاجية منها (آنه أجيت ومحترك – أنته منو – لا همني حر وبرد انته منو - أنه الحسين الصدك انته منو) كذلك تميزت الناشطة الذيقارية نهاوند تركي بتنظيم الحشود وقيادتها احيانا، وتردد هتافات منها (تصعد عالطلقات الشيلة والشايب كام يشد حيله – عالحد مامات حيوا ابطال). ومن الشعارات النسوية التي صدحت بها حناجر نساء العراق في محافظات كربلاء وبابل والبصرة وميسان والديوانية مثل (أحنه بناتك يا وطن صوت الثورة) و(حزمنة أحزام وياك – حكَنة نجيبه) و(ثورتنا مو ثورة شعارات – ثورتنه ضد حكم السفارات) و(هاي بناتك ياوطن هايه - رفعت الراس وبينه الكفاية) و(هاي بناتك ياوطن هايه لبسن الغيرة ورفعن الراية) و(وهاي بناتك ياوطن هايه - ضحن بدمهن ورفعن الراية) و(صوت المرأة ثورة) و(وهاي بناتك ياوطن ماطلعن بتغريدة) (1).. الخ من الشعارات النسوية التي كانت طعم الانتفاضة وألقها.

كما أعلنت نقابة المعلمين تضامنها مع مطالب الشعب، وقررت الانضمام للانتفاضة ومساندة الطلبة المحتجين حيث قررت الاضراب عن الدوام في المؤسسات التعليمية والتربوية بتأريخ 28 /10 /2019. كما اعلنت نقابة المحامين بنفس اليوم انضمامها للاضراب العام ومنع اعضائها من المحامين من الترافع أمام المحاكم، وتشكيل هيئات من الدفاع للتطوع للترافع عن المحتجين أمام القضاء بالضد من التهم الكيدية الموجهة لها. وكانت من الشعارات التي اطلقها المحتجون هي (ماكو وطن ماكو دوام)، فيما أطلق محتجو مدينة الناصرية شعارات منها (شلون تريد تداوم ودم أخوانك عالتبليط) و(طلاب.. طلاب مانسكت بعد) و(شلون تريد تداوم ودم اخوانك عالزيتون) والزيتون هو جسر معروف في المدينة، سقط عليه العشرات من محتجي المدينة بعد الهجوم الذي قامت به القوات الأمنية المشتركة التي شكلها رئيس الوزراء (عادل عبد المهدي) بقيادة الفريق جميل الشمري، وسمي الجسر بعد ذلك بجسر شهداء جسر الزيتون. فيما رفعت الطالبات لافتات كتبن عليها (تركت قاعات الدراسة اكراما لأرواح الشهداء) وقد ايدت مجمل النقابات والاتحادات المهنية من نساء وطلاب ومزارعين وممرضين ومهندسين ومحامين ومعلمين.. الخ مطالب المنتفضين، ورسمت خارطة طريق لتحقيق مطالبهم فهي تعديل الدستور والغاء القوانين التي تميز بين الطبقات المجتمعية كامتيازات رفحاء والسجناء والشهداء السياسيين أو تعديلها، وكذلك حل مجالس المحافظات والأقضية والنواحي والغاؤها

وتشكيل لجنة من المختصين خارج الكتل السياسية المتنفذة لتعديل الدستور واصلاح المنظومة الانتخابية من أجل تحقيق تمثيل برلماني حقيقي يمثل الشعب. ومن ضمن هذه المطالب تشكيل مفوضية مستقلة من القضاة وجعل القانون الانتخابي على أساس الدوائر الانتخابية المتعددة وتمكين الترشيح الفردي للانتخابات. كما أيدت هذه المطالب المرجعية الدينية في النجف الأشرف، ودعت الى تبني رؤيتها حول خارطة طريق متضمنة مفوضية مستقلة وقانونا انتخابيا عادلا واجراء انتخابات مبكرة شفافة ونزيهة باشراف أممي بعد أن وجهت في خطبتها الشهيرة بتأريخ 29/تشرين الثاني/ 2019 الدعوة الحازمة للكتل السياسية باختيار شخصية اخرى لتولي حكومة مؤقتة تنفذ خارطة الطريق المتضمنة مطالب الشعب في التغيير ومحاربة الفساد الاداري والمالي. واستجابت الحكومة بنفس يوم خطبة الجمعة الحازمة لمطالب مرجعية النجف حيث أعلن عبد المهدي نيته تقديم الاستقالة بعد اقل من ساعتين من الخطبة مفتتحها بنص لآية قرآنية (ياأبتِ أفعل ماتُؤمَر وستجدني أن شاء الله من الصابرين) (3). وهنا يؤخذ على خطاب رئيس الوزراء أنه لم يقدم استقالته استجابة لمطالب الشعب أو بسبب المجازر التي حصلت للمحتجين او الفشل في مواجهة الفساد والمحاصصة بحسب البرنامج الحكومي وانما كان البيان استجابة لمطالب المرجعية الدينية في النجف، ومقدمة خطابه كانت تأكيدا أن الرجل لم يكن مخيرا بل أنه واقع في ضغط سياسي ودولي كبير.

استمرت الكتل السياسية بالتماهي تخادما مع الحلول الترقيعية التي وضعتها الحكومة برغم أهميتها في امتصاص النقمة عنها وتكريس معالجات جزئية للأزمة، ذهب نتيجتها للأسف شهداء كثيرون. ولم تقف الأحداث عند هذا الحد بل حاولت القوى المتنفذة الإجهاز على مكاسب الانتفاضة بعد سلسلة من الاغتيالات للنشطاء والاختطاف والتغييب أو تلك المتعلقة بالاعتقالات التعسفية والإفراج عن بعضهم. فيما بقيت نتائج التحقيق عن حوادث قتل المتظاهرين قيد التأجيل والتسويف على الرغم من تنوع أدوات التحقيق القضائي في العراق واستقلالية سلطته عن بقية السلطات برغم أن قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي النافذ رقم (132) لسنة 1971 المعدل نص وفي أكثر من مادة على تحريك الشكوى الجزائية من السلطات التحقيقية في أية جريمة يصل العلم لها بوقوعها (4). كما أن قانون الإدعاء العام النافذ رقم (30) لسنة 2016 الذي أعطى للإدعاء العام صلاحية اجراء التحقيق محل قاضي التحقيق في أية جريمة يصله العلم بها أو المباشرة بفتح التحقيق بالتنسيق مع قاضي التحقيق (2) ولاسيما أن الجرائم التي وقعت تصل إلى مستوى جرائم القتل العمد المهددة للأمن والسلم الاجتماعي. ورغم ذلك فإن الشعب أصر وفي سوح الاحتجاج كافة على معالجة جذرية للأزمة السياسية واستمرت تظاهرات تشرين، فقد نشطت دعوات التظاهر بالدعوة الى مليونية 25/ شباط/2020 وفي جميع المحافظات العراقية بالتوجه الى ساحة التحرير. وكان

الإعلان احياء لذكرى تظاهرات 25 شباط من عام 2011 حملت معه اهازيج وهتافات بذكرى الانتفاضة وحب الوطن واستذكار الشهداء فقد كانت صور الشهداء صفاء بن ثنوة وعمر السراي (ابتسامة الثورة) من ذي قار وآخرين قد ملأت الساحات في بغداد والمحافظات. ومن هذه الهتافات (تبقة بدينا الراية للتحرير عنّاية) و(ثورة مبادئ هاية... للتحرير عناية) و(سفينة تبقة الثورة والفساد نشمره). وكذلك رفع شعار للطلبة (طلاب احنه ومانمل – ثوار ونلم الشمل) و(الصوت صوتك ياوطن مايعله صوت- ماتخوفنه المنايا كلمن بيومه يموت)، فيما هتف طلاب الجامعة المستنصرية (والله مانرجع لأهلنه بلايه وطن اي وحك الطاح وعيون البجن). فيما رددت الناشطة الذيقارية (نهاوند) في مسيرة بناتك ياوطن هتاف (صفنتوا العالم بالغيرة ياثوار ياعمي أنتوا شيوخ الديرة ياثوار ..الخ).

منجزات انتفاضة تشرين

استطاعت انتفاضة تشرين تحقيق نصر كبير بالضغط على الكتل السياسية بتشريع قانون الانتخابات البرلمانية وتشريع قانون جديد للمفوضية العليا المستقلة للانتخابات، وتم اصدار قرار بتعيين لجنة لتعديل الدستور وإصدار تشريع بإنهاء عمل مجالس المحافظات غير المنتظمة بإقليم السارية، وكذلك تشريع بإلغاء نسبي لامتيازات الطبقة السياسية والوعد بمحاسبة المسؤولين عن قتل المتظاهرين السلميين. وعلى اثر هذه الوعود تم اقرار العديد من القوانين والضغط على المؤسسات الرقابية التنفيذية والقضائية من أجل محاربة الفساد، كما تم تغيير العديد من المواقع الحكومية على أسس مغازلة للجماهير المحتجة، كما حققت انتفاضة تشرين القرار 315 الخاص بتشغيل الخريجين بعقود حكومية وكذلك تقليص سن التقاعد بتشريع خاص عدل قانون التقاعد. غير أن اهم انجاز لاحتجاجات تشرين هو اقالة حكومة عبد المهدي واجبار البرلمان على حل نفسه والتحضير لانتخابات مبكرة رغم تأخرها عن اول موعد انطلاق تظاهرات تشرين بحوالي عامين، حيث لم يبق لعمر الدورة البرلمانية الرابعة سوى بضعة اشهر.

مرت الاحتجاجات ومطالبها المشروعة بنجاح خلال اكثر من عام وبصورة مستمرة، ولأول مرة يكون الاحتجاج الشعبي بهذه الصورة والوتيرة، مسندة بدعم الجماهير ومرجعية النجف وقواه الوطنية، لتسطر أروع ملحمة تاريخية فاقت بسلميتها التصورات، حتى يمكننا القول ان رواد اللاعنف والسلام كالقائد نيلسون مانديلا والمهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج أمير الزنج الذي تأثر بأفكار غاندي، وقد دونوها بنور أفكارهم المضيئة، حيث اعتمد فيها غاندي الرأي بأن فلسفة اللاعنف والعصيان المدني في نضاله الطويل تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية في آن واحد، ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعي الكامل والعميق بالخطر المحدق وتكوين قوة على مواجهة هذا الخطر باللاعنف، ومن هنا انطلقت انتفاضة تشرين(5).

ان احتجاجات تشرين آمنت بالسلمية،

لأن السلمية لا تهدف إلى الحاق الهزيمة بالخصم بل كسب تفهمه من أجل الحفاظ على المجتمع المتماسك القائم على أساس الحوار، ومد جسور الثقة والمشتركات الحقيقية لبناء الوطن بسلام. وأن أهم منجزات انتفاضة تشرين رغم نسبيتها الا أنها كرست وعيا مجتمعيا بضرورة الخلاص من الفساد ومنظومته ووحدت الرؤى والأهداف الحقيقية تجاهه، وركزت على أس المعضلة وحقيقة الصراع الجاري منذ قرابة عقدين فاصبح هو صراع الشعب في حقه المشروع للحصول على الحياة الحرة الكريمة، وتصويب منظومة بناء الحكم والمتطلبات الجادة بإعادة النظر في سلوكياتها السابقة، كما أن الانتفاضة هذه أجبرت الحكومة على الاستقالة، وهذا لم يحدث منذ أكثر من نصف قرن من تأريخ الجمهورية العراقية الحديثة، وفرض نفسها بأحياء المجتمع الذي يحكم نفسه عبر ممثلين حقيقيين، لا كما كان يجري سابقا.

وأخيرا، نود القول ان الجماهير المنتفضة ما زالت تؤكد على سلميتها لحين تشكيل حكومة عراقية مستقلة، تعيد عافية البلد وسيادته من الفساد والإرتماءات الخارجية وصراعاتها وبناء العلاقات بسلام، وفق الدستور مع كافة دول الجوار، بضمان أن لا يكون العراق منطلقا لتهديد جيرانه وعلى أساس المصالح المشتركة وحماية مصالح الشعب وحرياته ومحاسبة المتورطين بجرائم العنف وإعادة هيبة الدولة بحصر السلاح بيدها، وتعديل قانون الأحزاب السياسية وقانون الانتخابات ومفوضيتها على وفق أسس دستورية وقانونية عادلة. ومن الضروري البدء بإطلاق سراح المعتقلين وإصدار عفو خاص عمن صدرت أحكام بحقهم من المتظاهرين السلميين وإنهاء الملاحقة القانونية بحق النشطاء، ولا غنى عن ذلك بغية إعادة الثقة والأمن والسلم المجتمعي.

المصادر الهوامش:

1- من كتاب - أحداث انتفاضة تشرين العراقية في اهازيج وهتافات الحركات الاحتجاجية – حسين العامل.
2- المواد (41 – 43 – 47 – 48 - 56) من قانون أصول المحاكمات الجزائية النافذ.
3- الصافات اية 102 جزء من خطاب الاستقالة لعادل عبد المهدي.
4- م5 - م 9 - م12 من قانون الإدعاء العام العراقي رقم 49 لسنة 2017.
5- مقتطف من كتاب حقوق الإنسان في الميزان – المحامي عبد الأمير الشلاه.

جدلية الإفراغ والإملاء
قراءة في مجموعة "مناسك تشرين"
للشاعر أجود مجبل

الدكتور عمار المسعودي
اكاديمي وناشط مدني، رئيس اتحاد ادباء كربلاء

ابتداء من العنوان الذي تصدّر مجموعة (مناسك تشرين) وهي تشي بعظمة الدنس وتفشيه وتراكمه مما وجدنا ان الشاعرية ساكنة ما بين مستقيمات معان تتقاطع في قلب الشاعر ولبه وجوهره، مخلفة فراغات يفرح بإنجازها ممتلئة على بياض الورق متخلصا بذلك من ثقل اللحظة التاريخية الفاصلة.

هي محاريب تتوجه في كليتها صوب المطلق برحلة عشق صوفية تقع خارجة عن منظومة الثبات التي جاءت على روح الأثير الناصعة بكل أحجار الإثم هذه ما توجب على روح الشعرية أن تتوثب ناسفة السكون، خالقة فعلها التاريخي الخالد داخل مهمات الشعرية التي من سماتها الوقوع حرة ما بين جدليات الوجود المليئة بالغياب والحضور الطهر والدنس الخنوع والثورة.

لو قلبنا ممعني النظر ضفتي هذه المناسك المكتوبة بعناية راء لوجدناها لا تخلو من الوجود ما بين مكان تأريخي يتم افراغه من عناصره وبين ما تحاول اعادة تغريسه فهو وأعني الشاعر الذي ظل منشغلا بذكر الأمكنة لا بنية التذكير بها بل بقصدية اعادة شحنها وطنيا وتطهيرها تجهيز مناسك تشرين المضمخة بروح المحاريب المطيبة بعطر المطلق وبإصرار الثورة في انجاز فعلها التاريخي، بعد كل هذا المحو المتعمد والمصنوع بعناية، عابثين بهوية وطن كلية تسكن المطلق الجمعي وهو يشابه قلبا بنهرين.

من هذا يتوجب على فعل القراءة المسكون بالحدس المشحون بالقوة الغائبة التي تساكن اللغة بعدها الوجود الكامل بما يظهر منها وما يخفى أن نسكن القراءة بكل ما يكون قلقا ما بين النسق الظاهر الواضح، ما يجعله متوافقا مع شروط الخطاب وما بين

ما يكون مختفيا مسكوتا عنه يقع شاهدا على منظومات الفعل الابداعي، ما نجد مصاديق كل ذلك في مطويات قصيدة جاءت تحت عنوان "صباح الخير":

صباح البلاديين لم يتذوقوا في العمر طعم بلاد
صباح الأهل تجمع شملهم ثلاجة موتى
ويفترقون ثانية امام معاول الدفان
صباح شوارع اشتاقت
إلى صرخاتكم في أوجه الجلاد
صباح للرصاص
يصبه غرباء قناصون فوق صدوركم
ليموت حرف الضاد[1].

من تتبع صرفي لاستعمالات الشاعر نجده يقول "للبلاديين" اشارة وتعريضا بالآخر غير البلادي بادئا بإلقاء تحيته الصباحية مما يشي بهذه القطيعة ما بين من يسكن جراح البلاد هامشا نابضا بالانتماء وبين طارئ لم يعتن الخطاب الشعري غير بتلويحة مسكوت عنها ومضمرة امعانا في التقليل من شأنهم فهم غرباء قناصون يطلقون همجيتهم على ورقة هذه البلاد محوا وتتبيعا "ليموت حرف الضاد" لا يتورعون بثلم قلوب تجتمع جراء بحثها عن بلاد ولو على مائدة موت بدلالة "ثلاجة موتى" ثم سرعان ما تتفرق مما يوحي بضياع هذه الأرواح وتشظيها.

لا يتورع الشاعر من فضح التراتبية الاستعلائية لمنظومة السلطة الحاكمة بالرصاص والنار وبكل الأساليب الوحشية من خطف وتغييب وانتهاك تلك السلطة التي تغلف وجودها الهش واللاشرعي بمنظومة قيمية، تقوم بتحريفها وفقا لمصالح تتخادم في ما بينها، فكان الذي تقع حقيقته بعيدا عن أطماع هؤلاء، وسيلة للغش والتدليس على وعي جمهرة وقعت عليها كل حيوفات الأنظمة الجائرة. هذا الأمر الذي قد نبهت اليه كثير من طروحات علماء الاصلاح منذ الأفغاني وأديب اسحق ومحمد عبده [2] بعد أن عم الجهل والتخلف كثيرا من عقول رجال الدين ما جعلهم يضرون منظومة اللاهوت بدلا من أن ينفعوها [3] وهذا ما صرحت به ذات الشاعر كونها الذات الصادحة في سكون مطلق:

قناصهم واعظ والدين مهنته
حتى الرصا ص هنا يلتف بالدين
هم دونوا هذه الساحات
وانصرفوا الى الغياب
ولم يحظوا بتدوين
لم يتركوا أي عنوان هناك
فهم لا يأبهون كثيرا بالعناوين[4].

يقوم الفعل الشعري هنا على لعبة الافراغ والاملاء وهي أسلوبية تؤدي مهمتين معا هما تكثيف معنى حضور الثوار في الساحات لتطهيرها بعد التدوين ثم غيابهم السريع كونهم ثوارا لا يمسكون ولا يتملكون فهم منشغلون بتطهير أمكنة أخرى هم كونيون تليق بأرواحهم الأكوان المطلقة، فضلا عما تنميه هذه الجدلية من نمو للشعري نصيف المعنوي ولصيقه كون)) ان بناء احسن القصائد هو بناء تناقض؛ لأن مواد القصيدة يقوم بينها التجاذب والمقاومة والصراع وأحسن بناء ما بلغ بهذه المواد المتنافرة درجة التوازن[5] حتى في الكتابة تحت حمى الروح الثورية التي تدون حمى توهجها.

وبعد أن فرغ الشاعر من تعرية الطبقات المتخادمة والتي تستعمل الدين زورا وبهتانا في تعويم الزمان والمكان التاريخيين

الواقعيين، نجده يذهب لتقديم زمن تاريخي تقيمه أيادي العمال والفلاحين في اشارة واضحة الى الطبقة الحقيقية التي تصنع الثورات من استثماره للرأسمال الرمزي لزهد أبي ذر الغفاري، ورفضه لقوى الجهل والباطل، وهي تستغل قوة عمل الفقراء لتصنع لها سلطة مال مضافة الى سلطة المقدس، امعانا في السحق والتهميش. يأتي كل من قصيدة بعنوان ''كاميرا من ساحة التحرير'' يقول فيها:

عندي تلاقى الغفاريون أجمعهم
ليطردوا جثث الماضي وأشباحه
لكي يشيد عمال مصانعهم
ويقرأ الأرض فلاح وفلاحة[6].

لقد ظلت فكرة الشاعر في الإفراغ والإملاء تشغله، مصوبة مثل ما بوصلة خطاه كونه نسق الثورة التشرينية التي تدور حولها مجموعة هذه المناسك، يعتمد على مسلمة افراغ الوطن من سراقه وجواسيسه وإملائه بقوة الخير ممثلة بمحبي البلاد بزنودهم السمر التي لا بد أن تدار عجلة الحياة بهم ايمانا واخلاصا وأمانة وانتماء.

ويستمر نسغ تشرين متصاعدا في مجموعة المناسك لتطهير الأرض وتحطيم أصنام وتابوات قارة يظهر في قصيدة تحت عنوان شعب:

في أول تشرين الأول
خرج الشعب وحيدا أعزل
ليزيح خرافة آلهة
ويسير الى غده الأجمل
فأحاط به القناصون
وأقذر حراس الهيكل[7] .

اذن، هي عناصر الافراغ التي يحاول الشاعر بثها في أوصال نصوصه مثل ما منشورات سرية أو بيانات للثورة كون فكرة الثورة هي التغيير الشامل ما انسجم مع بيان الشاعر، بدءا من العنوان ''شعب'' الذي هو مصدر الشرعية لأي نظام سياسي.

ولأجل ادامة الفعل التحريضي الذي يمنح قوة لصهيل خيول الثورة وهي تصهل مستنفرة في سوح طالها الصمت والسكون لزمن طغاة يتكاثرون ويتكررون يكون الشاعر معرضا برموز الفساد والعمالة ومحرضا على محوهم وازالة مفاسدهم وتسفيه قواعد تخادماتهم؛ اذ يقول من قصيدة بعنوان ''محافظ'':

بلاد بها من كان يدعى محافظا
ولم يبق من شيء عليه يحافظ
رعاياه من فقر وظلم تساقطوا
وأعوانه
نذل
ولص
وواعظ[8].

اعتمد مبنى القصيدة اللغة البسيطة التي تشاغف قلوب الثائرين مانحة شعلا تزيد من النيران الواجب تصويبها على تراكمات الفساد، بغية تطهيرها معيدة دوائر الرفض في الشعر من الزهاوي والرصافي والجواهري الذين قاموا بتعرية النظام الملكي مسحوبة على هذا الظلم باسم المقدسات الذي لم يبق ولم يذر من القوت اليومي إلى السيادة والهوية المستلبة.

من جهة أخرى، يمكن ملاحظة التلاعب في معمارية البيت الذي ساقط بكلمة أبطال الثورة فهم يتساقطون دفاعا عن بلاد حفظوها مثل قرآن قلوب، بينما قام برسم أثر الثورة على أولئك المارقين تشظية وازالة.

ومن لحظة شجن وحزن وجدنا الشاعر

يحسن مشاركة مأساة الثوار الذين يستقبلون الشهادة بقلوب مليئة بالأمل، مما جعلهم متقدمي الصفوف يأتي الأمر بدلالة جملة كنائية تتمثل بـ "تقتات الرماة بهم" بسياق ايقاعي ساكن القافية، ما يوحي بحزن عميق يساكن الشاعر؛ اذ يقول من قصيدة بعنوان "صناعة الزمن":

أبناء تشرين
تقتات الرماة بهم
لهم دم بيع في الأسواق
دون ثمن
إنا صحابتهم والتابعون
وهم منذ المواويل
كانوا أنبياء شجن
تسربوا من شقوق الأبجدية
كي يحطموا صنما مستذئبا ووثن
حتى وإن كبروا فيه بلا سكن
فملء أعينهم هذا العراق سكن[9].

ومن هذه المقاربات الشعرية التي تتخذ في الأعماق استراتيجية جدل الإفراغ والإملاء يكون الشاعر قد حسم أمر خروج الفتية الثائرين من كل فج عميق، كي تملأ فراغات البلاد عدالة بعد ان ملئت جورا وظلما، ومن هذا يتوجب على الشاعر أن لا يقف عند نقل التجربة وإبلاغها إنما يجمع إليه الإحساس الذي خامره والموقف الذي اعتراه في أثناء ممارسته للتجربة وللحظة تصويره[10]. ما يكون متماثلا مع ما يكابده الشاعر نصيفا تاما للثوار في رغبة استعادة وطن يحاولون مسخه ومحوه.

الهوامش:

1- مناسك تشرين، أجود مجبل، ط1 دار مكتبة سامراء للنشر والتوزيع، ص5.
2- ينظر زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت، دت، ص 84.
3- ينظر المصدر نفسه، ص84.
4- مناسك تشرين، ص 21.
5- فن الشعر، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، 1978م، ص 210.
6- المصدر نفسه، ص27.
7- المصدر نفسه، ص 28.
8- مناسك تشرين، ص 30.
9- مناسك تشرين، ص 31.
10- الوعي الشعري ومسار المجتمعات العربية المعاصرة، محمد مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2008م ، ص .54

مقـــــالات

في الذكرى السنوية الثالثة والستين لثورة 14 تموز 1958
(2-2)*

د .كاظم حبيب

ما هي طبيعة الثورة وما هي طبيعة المهمات والمنجزات التي حققتها ثورة تموز 1958؟

كل المعطيات التي تحت تصرفنا تؤكد أن ثورة 14 تموز كانت في سنتها الأولى، على نحو خاص، غزيرة العطاء وواحدة من أكثر ثورات حركة التحرر الوطني في القرن العشرين سرعة وجذرية في تحقيق جملة من أكثر المهمات أهمية وضرورة لصالح الشعب وتعزيز الاستقلال والسيادة الوطنية في الجانبين الديمقراطي والوطني. ولم يأت هذا بفعل إرادة القوى التي أسقطت النظام فحسب، بل وبالأساس وبعمق كبير بفعل الحركة الجماهيرية النشطة والفعالة والحاسمة التي فرضت نفسها على الساحة السياسية العراقية، وعبّأت قواها لصالح تلك المنجزات، وأهمها: الخروج من حلف بغداد ومن منطقة الإسترليني، وإعلان الحياد الإيجابي والتضامن مع الشعوب في محاربة الاستعمار ومساندة حركات التحرر الوطني، وإقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي وبلدان اشتراكية أخرى، ومن ثم إصدار قانون شركة النفط الوطنية والمبادرة بتأسيس منظمة الدول

المصدرة للنفط (أوبك) وإصدار القانون رقم 80 لسنة 1961 باستعادة 99 % من الأراضي التي كانت بحوزة شركات النفط الاحتكارية للتنقيب عن النفط الخام. وعلى الصعيد الداخلي كان هناك قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958 الديمقراطي، وقانون الأحوال الشخصية، وفيه مواد جديدة وإيجابية لصالح المرأة والاعتراف ببعض حقوقها المهمة، وقانون العمل والعمال، وتوزيع قطع أراض سكنية على الفقراء والمعدمين من سكنة المناطق العشوائية، ومنها مدينة الثورة وأحياء أخرى في بغداد وغيرها، وإطلاق سراح السجناء السياسيين والبدء بعملية التنمية الاقتصادية والتصنيع على وفق اتفاقية اقتصادية واسعة ومتنوعة مع الاتحاد السوفييتي وبلدان اشتراكية

أخرى ... إلخ، إلى جانب محاكمة قادة وكبار النخبة الحاكمة. كل هذا وجد استحساناً وتأييداً واسعين من لدن الشعب وقوى حركة التحرر الوطني ودول المعسكر الاشتراكي والقوى التقدمية في المعسكر الرأسمالي، في حين أغاض ذلك كل المتضررين من السياسات الجديدة والإجراءات المهمة التي اتخذتها حكومة قاسم، والتي أخرجت العراق من دائرة الهيمنة الأجنبية، لكنها لم تخرجه من دائرة التبعية للاقتصاد العالمي استيراداً وتصديراً بسبب طبيعة الاقتصاد الريعي النفطي الوحيد الجانب والمتخلف في قواه المنتجة عموماً، فيما عدا جزيرة النفط الاستخراجية المتقدمة نسبيا.

لم يكن الصراع الذي نشب في السنة الأولى وما بعدها صراعاً وطنياً عاماً فحسب، بل كان الصراع طبقياً أيضاً، فهو بين طبقة الإقطاعيين كبار الملاكين الذين خسروا جزءاً كبيراً من الأرض التي كانت بحوزتهم عبر قانون الإصلاح الزراعي لصالح الفلاحين، كما خسروا سلطتهم السياسية وامتيازاتهم. كما خسرت حليفتهم البرجوازية التجارية الكومبرادورية ذات المصالح المتشابكة والتابعة للاقتصاد الأجنبي والتجارة الخارجية مصالحها لصالح قطاع الدولة والرقابة الحكومية عليها، ثم خسارة مباشرة للبرجوازية البيروقراطية الكبيرة التي كانت تدير الدولة بسلطاتها الثلاث وأجهزتها ومؤسساتها المختلفة. وكانت الخسارة الأكبر لحليف هذه القوى، للرأسمال الأجنبي وشركات النفط الاحتكارية والبرجوازية التجارية الأجنبية. أما المستفيد الأول فهم الفلاحون ومن ثم البرجوازية الصناعية والبرجوازية الحرفية الصغيرة والعمال وفئة المثقفين، إضافة إلى جمهرة واسعة من العاطلين عن العمل والفقراء والمعدمين. هذا التناقض في المصالح الطبقية وجد تعبيره في صراع الأحزاب السياسية بصيغ مختلفة، إذ عجز نظام الحكم عن إيجاد صيغ مناسبة لإدارة الصراعات بشكل ديمقراطي سليم، ما سمح بتعمقها وانتقالها بسرعة إلى الجماهير الواسعة لينقسم الشعب إلى مجموعتين مؤيدة لقاسم، وهي الأكبر، ومعارضة له، وهي الأصغر، ولكنها الأكثر شراسة ولديها الدعم العربي والدولي غير المحدود.

فلم تمض فترة طويلة على انتصار الثورة حتى دب الخلاف في وجهات النظر بين القوى الوطنية المتحالفة في اللجنة العليا لجبهة الاتحاد الوطني على الصعد المحلية والإقليمية والدولية، وهي في الجوهر عبرت عن تناقضات اجتماعية وصراعات سياسية لعدة أسباب أساسية:

1) جذرية السياسات والإجراءات التي تصدت لها الثورة وبدأت بإنجازها على الصعيد المحلي والتي أغاضت القوى الاجتماعية الداخلية كفئة الإقطاعيين وكبار الملاكين والكومبرادور التجاري .. ؛

2) دور الشعب وقواه الوطنية، لاسيما الحزب الشيوعي العراقي، في الدفع بهذا الاتجاه الجذري وتنامي دور الحزب في الحياة السياسية والتأثير في الأحداث اليومية رغم عدم مشاركته في السلطة التنفيذية كحزب. وقد اثار هذا القوى القومية اليمينية من منطلق شوفيني وايديولوجي ؛

3) رفض حكومة قاسم مقترح حزب البعث والقوى القومية بإقامة الوحدة الفورية مع مصر وسوريا وتأكيدها ضرورة تعزيز

الجمهورية وحل قضاياها الأساسية أولاً، ما أغاض البعث وكل القوى القومية وأدخل عنصراً عربياً إضافياً في معاداة حكومة الثورة والحزب الشيوعي العراقي، هي القوى الناصرية وقوى البعث السوري، إضافة إلى حكومات أغلب الدول العربية الأخرى؛

4) كما أغاض موقف خروج العراق من حلف بغداد الدول الأعضاء في هذا الحلف (السنتو)، لاسيما إيران وتركيا وباكستان وبريطانيا، ثم الولايات المتحدة المؤيدة للحلف، وكذلك الموقف من قضايا النفط، وأخيراً موقف عبد الكريم قاسم غير الواقعي في فترة متأخرة وإصراره على استعادة العراق للكويت باعتبارها كانت جزءاً وقضاء من ولاية البصرة؛

5) ثم نشوب خلاف بين الكرد وملا مصطفى البارزاني من جهة، وحكومة عبد الكريم قاسم من جهة أخرى، التي قادت إلى حرب بينهما، ما فاقم هذا الخلاف في الوضع السياسي العام وتكالب أعداء الجمهورية الأولى وتآمرها لإسقاطها.

6) رغم قيام قاسم بضرب كبار قادة النظام، إلا أنه لم يشعر بأي حاجة لتغيير جهاز الحكم الإداري، فحافظ عليه كما كان في العهد الملكي وفي ظروف الهيمنة الإقطاعية والكومبرادورية على البلاد، ما سهل وقوف هذا الجهاز في مجرى التناقضات والصراعات إلى جانب المناهضين للثورة ومنجزاتها، ما جعل جزءاً كبيراً من منجزات الثورة تتعثر في التنفيذ لاسيما قانون الإصلاح الزراعي أو تطبيق قانون العقوبات البغدادي وكذلك في نشاط أجهزة الأمن الداخلي.

ولأسباب غير قليلة بدا الصراع وكأنه بين الشيوعيين والقوميين لا غير، في حين كان الصراع على مستوى ومستقبل الشعب والوطن كله، ومنه كان الخلل في وعي قاسم لهذا الصراع ما جعله يهاجم الحزب الشيوعي، رغم اتفاقه ودعمه بما قام به في مواجهة مؤامرة الشواف في الموصل، من جهة، ومن ثم ضربه للقوميين والبعثيين ثم احتضانه غير المباشر لهم بهجومه وإدانته للحزب الشيوعي العراقي. الإشارة إلى هذه المسألة مهمة وضرورية لأنها أوضحت السبب في عدم موافقة قاسم على تسليح قوى المقاومة لانقلاب 8 شباط/فبراير 1963، وهم شيوعيون وديمقراطيون قاسميون ومستقلون وبينهم كثرة من الكرد الفيلية. ويمكن تلخيصها بما يلي:

** عدم قناعة قاسم بقدرة البعث والقوميين على الإطاحة به، وأنه حبيب الشعب والقوات المسلحة، وأنهم سيفشلون في انقلابهم وأغفل كل الذين تكالبوا على الثورة ومنجزاتها وعليه كقائد للثورة؛

** خشيته من نجاح الشيوعيين والديمقراطيين في مقاومتهم للانقلابين، إذ حينها يقع تحت هيمنة الحزب الشيوعي الذي لم يكن يرغب فيها بأي حال، رغم معرفته بإخلاص الحزب وغالبية الشيوعيين له ودفاعهم عن الجمهورية الأولى. كما كان في باله ، كما يبدو، واقع بروز صراع مبكر في قيادة الحزب في الموقف من حكومة قاسم وطرح رأي بأهمية الانقلاب عليه قبل أن تفلت زمام الأمور وتنتهي الثورة إلى عواقب وخيمة والذي رُفض من الغالبية في قيادة الحزب حينذاك؛

** وأخيراً وليس آخراً، خشيته من

وقوع مجازر في الصراع الدامي المحتمل، رغم قناعتي بأنه كان يعرف في حالة نجاح الانقلاب ستحصل مثل هذه المجزرة ومن طرف واحد.

والسؤال العادل والمشروع هو: لماذا نجح الانقلابيون وفشلت مقاومة الشعب لهم؟ كل المعطيات المتوفرة لدينا تشير إلى العوامل الآتية التي يمكن توزيعها على طرفي الصراع .

قوى الصف الوطني :

1) غياب أي تفاهم مطلوب ونشوء شكوك بين قائد الثورة والحزب الشيوعي العراقي، وكذلك بين قاسم وأبرز قادة الحزب الوطني الديمقراطي والقوى الديمقراطية العراقية، بسبب فردية قاسم وعجزه عن وعي عمق التناقضات الاجتماعية والسياسية والصراعات الوطنية والطبقية الجارية في البلاد.

2) تخلخل فعلي في العلاقة بين قائد الثورة والجماهير المستفيدة من منجزاتها، بسبب إعاقة القوى المناهضة لها والأجهزة الإدارية تنفيذ مضامين القوانين التي أصدرتها الثورة وعجز قاسم عن رؤية ذلك والاعتراف به ومعالجته جدياً .

3) تخلخل فعلي بين القوى الديمقراطية والتقدمية في الموقف من حكومة قاسم بين مؤيد ومعارض لها، وعجز عن إعادة تشكيل جبهة وطنية موحدة والاتفاق على أهدافها .

4) صراع في قيادة الحزب الشيوعي العراقي حول الموقف من حكومة قاسم وسياساته بين معارض لها ومؤيد. وبالرغم من معرفة الحزب بتوجه القوميين بمختلف تكويناتهم في التحضير لانقلاب عسكري بالتعاون مع القوى العربية والأجنبية، ورغم إعلامهم قاسم بذلك، لم تتخذ قيادة الحزب الإجراءات الكفيلة بحماية الثورة والوطن والحزب، وبالتالي حين دعا سكرتير الحزب سلام عادل إلى المقاومة، لم يكن الحزب ولا جماهيره مستعدين لها وقادرين على التصدي للانقلابيين وإفشالهم، لاسيما وأن قاسم رفض تسليح قوى المقاومة.

5) الصراع السياسي ومن ثم الحرب الفعلية بين فصيل من القوى الوطنية، وهم الكرد والحزب الديمقراطي الكردستاني والملا مصطفى البارزاني من جهة، وحكومة الثورة وقائدها عبد الكريم قاسم من جهة ثانية، بحيث سلخت جزءاً مهماً من القوى الوطنية ووضعتها في صف أعداء الجمهورية الأولى وأضعفت القدرة القتالية ضد الانقلابيين.

6) ولا شك في أن مستوى الوعي السياسي للقوى الوطنية والديمقراطية كلها ودون استثناء لم يكن بالمستوى المطلوب بما يرتقي إلى حماية الثورة من التراجع والانتكاس ومن ثم السقوط المأساوي في شباط/ فبراير 1963.

قوى الصف المناهض للثورة:

1) تشكيل جبهة واسعة مناهضة لحكومة قاسم ومنجزاتها تضم فيها : ** حزب البعث، والقوى القومية الناصرية بمختلف تشكيلاتها، وقوى حزب الاستقلال، والقوى المحافظة، وكبار الإقطاعيين والملاكين القدامى والأغوات الكرد، والبرجوازية التجارية الكومبرادورية، وقوى الإسلام السياسي الشيعية والسنية، التي ناهضت

الثورة بسبب قانون الأحوال الشخصية وتضرر حلفائها ومصدر رزقها (لاسيما شيوخ الدين الشيعة)، وأغلب شيوخ العشائر، والقوى الكردية المتمثلة في الحزب الديمقراطي الكردستاني، والقوى والأحزاب التركمانية وجمهرة غير قليلة من الضباط العسكريين في الخدمة أو خارجها.

2) عقدت هذه الجبهة تحالفاً فعلياً مع: الولايات المتحدة عبر جهاز السفارة والمخابرات المركزية CIA، وبريطانيا عبر سفارتها في بغداد وتزويد الانقلابيين بأسماء وعناوين الشيوعيين والديمقراطيين لاعتقالهم قبل الانقلاب بفترة قصيرة. وقد وضعت شركات النفط الاحتكارية على نحو خاص قدراتها في خدمة الانقلابيين أيضاً .

3) القوى المناهضة للثورة من أعضاء حلف بغداد السابقين لاسيما إيران وتركيا وباكستان التي قدمت الدعم، بصور مختلفة ولاسيما علاقة إيران مع القادة الكرد.

4) اصطفاف الدول العربية كلها دون استثناء ضد الجمهورية وسياساتها الداخلية والخارجية، لاسيما مصر وسوريا والأردن ولبنان، التي مدت المتآمرين بالدعم السياسي والإعلامي والمادي .

أما اليوم فنحن أمام مهمات الثورة الوطنية الديمقراطي، تلك المهمات التي بدأت بها ثورة تموز، ولم تنجزها حتى يومنا هذا، بعد انتكاسها حتى قبل وقوع الانقلاب الفاشي في العام 1963. ومهمات من هذا النوع تستوجب مرة أخرى جبهة وطنية واسعة وبرنامجا وطنيا ومدنيا ديمقراطيا واضح المعالم ومكثفا وقادرا على تعبئة أوسع لقوى الشعب، لمواجهة لا الأعداء الداخليين فحسب، بل والأعداء الخارجيين العاملين في قلب العراق وبقوى ذات هوية عراقية وانتماء لخارج العراق، لإيران أو لتركيا أو حتى لدول كبرى. إنه الدرس الجديد والمكرر الذي طرحته علينا انتفاضة تشرين الأول 2019، غياب الوحدة الوطنية والبرنامج المشترك يعني غياب النصر على الأعداء الداخليين والخارجيين.. ومن يسعى للنصر عليه أن يفكر بهذا الاستنتاج المركزي والأساسي لنضال وطني وديمقراطي مرير ومجيد ومتواصل على مدى قرن من السنين العجاف تقريباً.

برلين في 14 تموز / يوليو 2021

*** نشر الجزء الاول من هذا المقال في العدد 424 - 425 من مجلة (الثقافة الجديدة).**

إشكالية السلطة السياسية، الدولة، الطبقات الاجتماعية - مقاربة نيكوس بولنتزاس

د.صالح ياسر

يمكن القول إن الفيلسوف والمفكر الفرنسي، اليوناني الاصل، (نيكوس بولانتزاس)[1] (Nicos Poulantzas) طوّر واحدة من أغنى الدراسات النظرية عن القانون، والدولة، والآيديولوجية السياسية القانونية في الماركسية المعاصرة. فقد أسس بشكل مثير للانتباه التمفصل الوثيق بين هذه الحقول الثلاثة ومترتباتها بالنسبة للعلاقة بين المستويين الاقتصادي والقانوني- السياسي. أضف إلى ذلك، أنه بدلا من أن يقيّد نفسه بتحليل ضيق للقانون و/ أو الآيديولوجية القانونية وفق مفهوم الصنمية Fetishism، فقد بيّن كيف أنها تقدم المصفوفة Matrix للإطار المؤسسي للدولة الرأسمالية بوصفها دولة قانون وللشكل المميز للسياسات البورجوازية بوصفها صراعا من أجل الهيمنة[2].

في بناء مقاربته للإشكاليات المتضمنة في العنوان أعلاه، انطلق (بولانتزاس) من ملاحظة منهجية هامة تتعلق بالمعالجة النظرية للمستوى السياسي في المؤلفات الماركسية الكلاسيكية، أي نصوص ماركس وانجلس ولينين وغرامشي. إنه يعتقد أن هؤلاء المفكرين لم يعالجوا ميدان السياسة معالجة نظرية متسقة ولم يضعوا صراحة نظرية لهذه الممارسة، وذلك نظرا ''لانشغالهم بالممارسة السياسية المباشرة''. وما نجده في مؤلفاتهم – حسب بولانتزاس- هو، في النهاية، أما مجموعة متناسقة من المفاهيم في ''صورتها العلمية''، أي ماثلة في الحديث وتستهدف بحكم وظيفتها فيه التوجيه المباشر للعمل السياسي، في ظرف سياسي ملموس ولكنها تفتقر الى الصياغة النظرية، وأما عناصر من المعرفة النظرية عن العمل السياسي، وعن البنية الفوقية للدولة... وأما ان تكون – أخيرا - مفهوما ضمنيا للسياسة العامة تتضمنه الاشكالية الماركسية وراء انتاج تلك المفاهيم''[3]. كما ان هناك مجموعة من النصوص الكلاسيكية تتناول موضوع علم السياسة تناولا جزئيا

أو كليا من قبيل: الدولة، الصراع الطبقي، والدولة الرأسمالية كـ ''نقد برنامج غوتا'' [4] ، ''الحرب الاهلية في فرنسا'' [5]، و''انتي دوهرنغ'' [6]، و''الدولة والثورة'' [7] ، و''ملاحظات عن ميكافيلي''[8]. ورغم هذا فان (بولانتزاس) يرى ان النصوص أعلاه كانت في المقام الاول ''نصوصا للنضال الآيديولوجي'' حيث اعدت ''كرد ملح على الهجمات الموجهة ضد النظرية الماركسية وعلى محاولات تشويهها'' [9].

وعلى غرار ما قام به الفيلسوف الفرنسي (ألتوسير) من تحليل لأجهزة الدولة والأجهزة الإيديولوجية التابعة لها، فان (بولانتزاس) واصل تعميق التحليل بشأن هذه الاشكالية ورأى أن المشكلة الجوهرية هنا هي الأجهزة الآيديولوجية وعلاقاتها مع جهاز الدولة بالمعنى العميق والواسع [10].

ومثل ما قام به (ألتوسير)، انطلق (بولانتزاس) مما اعتبره ''ثغرة'' في النظرية الماركسية للدولة، حيث انها ركزت بشكل واضح على الجهاز ''القمعي'' للدولة (أي الجهاز المركب من فروع خاصة مثل الجيش، الشرطة، الإدارة، المحاكم، الحكومة)، ولم تعالج بنفس الجدية الاشكالية الثانية وهي اجهزة الدولة الايديولوجية، بحسب بعض القراءات.

ومن المفيد الاشارة هنا الى ان بعض الباحثين ركزوا على وضع القانون والشرطة، وأجهزة الدولة القانونية.. إلخ في التمفصل الكلي للهيمنة البورجوازية، وبرهنوا على أن هذا الوضع يتغير مع اختلاف مراحل تراكم رأس المال ومع اختلاف أشكال الدولة. وعرضوا دعواهم من خلال مقارنة الاستبداد القانوني في الدولة الرأسمالية الزراعية الصاعدة في انجلترا اثناء القرن الثامن عشر مع حكم القانون للدولة الليبرالية في مرحلة رأس المال الصناعي في القرن التاسع عشر.

وفي هذا الاطار بحثوا الدور المتغير لإسباغ الطابع ''البوليسي'' (بمعنى الكلمة الواسع) على الدولة البريطانية ما بعد الحرب. فرداً على أزمة عامة للسلطة، والدولة و''الاشتراكية الديمقراطية '' (مرتبطة بالأزمة الاقتصادية وليست مختزلة إليها) تطورت سلسلة من ''الذعر الأخلاقي'' بلغت ذروتها في حملة عامة من أجل ''القانون والنظام'' في السبعينات عنيت بتعزيز عنصر الإكراه في الهيمنة البورجوازية ليعوض عن التدهور في ''الرضا التلقائي''، نجد القانون، والشرطة، والضبط الإداري والرقابة العامة في هذه ''اللحظة الاستثنائية'' في ''دولة عادية'' قد وظفت لاحتواء الاضطراب السياسي والمدني والصناعي. وعلى الرغم من أن محاولات ضبط قوى العمل من خلال التشريع والعمل القانوني المؤسس على مقاومة الطبقة العاملة قد استبدلت بأشكال تدخل جماعية وتعاقدية، فإن قوى الضبط في هذا المجال قد جرت تقويتها وكان هناك تجريم مستمر و/ أو إسباغ طابع بوليسي وقائي في الحقلين السياسي والمدني.

وفي أعقاب فاصل اشتراكي ديمقراطي في ظل حكومة عمالية هشة ازدادت فيها مختلف الأزمات الاقتصادية والسياسية والآيديولوجية، بدأت مرحلة جديدة كبرى في إعادة تنظيم الهيمنة البورجوازية مع انتخاب حكومة ''تسلطية شعبية'' من اليمين. حيث، ركزت حملة ''القانون والنظام''

على ''إسباغ طابع بوليسي على الأزمة'' ضمن إطار اشتراكي ديمقراطي معدل، حيث كانت التاتشرية تحاول وبشكل جذري إعادة اصطفاف للقوى الاجتماعية عبر جبهة عريضة من أجل إحداث قطيعة لا رجعة فيها مع الإجماع/ الاتفاق الاشتراكي الديمقراطي لما بعد الحرب [11].

في كتابه ''الفاشية والدكتاتورية'' [12] حول تفكيك الفاشية والدكتاتورية، والذي يعد واحدا من أعمق وأغنى الدراسات الماركسية، يقول (بولانتزاس) أنه كرس هذا الكتاب'' لتحليل الصراع الطبقي أثناء تكون الدولة الفاشية''.

وعند تحليله لأجهزة الدولة و الأجهزة الإيديولوجية التابعة، رأى (بولانتزاس) أن المشكلة الجوهرية هنا هي الأجهزة الآيديولوجية و علاقاتها مع جهاز الدولة بالمعنى العميق و الواسع. وفي هذا الشأن يقول بولانتزاس:'' في الواقع النظرية الماركسية للدولة رمزت، بشكل واضح، على الجهاز ''القمعي'' للدولة: الجهاز المركب من فروع خاصة مثل الجيش، الشرطة، الإدارة، المحاكم، الحكومة. كما ان كلاسيكيات الماركسية عالجت العديد من مؤسسات هذه الدولة مثل المدارس والكنائس الخ. ولكن فقط ومن خلال سلسلة من المقارنة و المماثلة مع أجهزة الدولة''. الاستثناء الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه هو ما قام به المفكر الماركسي الايطالي (انطونيو غرامشي) الذي وضع أسس نظرية (تبعية النظام الدولاتي ـ من دولة ـ للأجهزة الإيديولوجية) [13].

فمن المعروف ان (غرامشي) تحدث عن أن الدولة التي ليس لها فقط دور ''القوة''، ولكن أيضا دورا آيديولوجيا وهو ـ الهيمنة والسيطرة ـ، ومن هنا رأى – أي غرامشي ـ وفي مرات عديدة وبأشكال مختلفة دائما أن الدولة يجب ألا تُدرك وتُفهم فقط بطريقة ''تقليدية'' أي اعتبارها ـ جهاز قوة ـ، ولكن ـ كمنظم للهيمنة. وأشار غرامشي أيضا إلى أن الدولة ''بالمعنى التام'' تضم '' منظمات بشكل تقليدي تعتبر كخاصة''، لاسيما الكنيسة، المدارس، النقابات، الأحزاب وأجهزة الإعلام. يقول غرامشي هنا في مقطع يستشهد به (بولانتزاس) في كتابه: '' وصلت إلى حد اعتبار كل مفهوم الدولة مدركا أو مفهوما عموما'' كدكتاتورية ''وليس مثل [....] هيمنة مجموعة اجتماعية على المجتمع الوطني بكامله، هيمنة تمارس من خلال وسيلة التنظيمات الخاصة مثل الكنيسة، النقابات، الأحزاب، المدارس.. وفي النهاية إذا كل دولة تمتد لخلق وللحفاظ على شكل معين من الحضارة و المواطن، ثم تقضي على مجموعة من العادات و المواقف وتأخذ بأخرى، القانون سيصبح أداة للوصول إلى هذه الغاية كما حال المدارس والمؤسسات الأخرى'' .

أولا: الأجهزة الإيديولوجية، أجهزة الدولة

في البداية ينطلق (بولانتزاس) من بعض الملاحظات حول عمل الآيديولوجيا داخل التشكيل الاجتماعي. ويشير الى انها ـ أي الآيديولوجيا ـ، في الواقع، لا تقوم فقط داخل الأفكار، ولا تشكل من جهة أخرى ''نظاما مفهوميا'' بالمعنى الخاص للمصطلح. إنها تمتد، كما أشار سابقا (غرامشي) إلى الأخلاق، العادات، أو ''نظام وشكل الحياة''

عند الناس في تكوين معين. إنها تتجسد أيضا في ''الممارسات'' لتكوين اجتماعي معين، ''الممارسات البرجوازية، العمالية، والبرجوازية الصغيرة''. بالإضافة لذلك، فإن الآيديولوجيا، كآيديولوجيا مهيمنة ومسيطرة، تشكل ''سلطة'' أساسية من الطبقات في تكوين اجتماعي معين. وبهذه الحالة - وكآيديولوجيا مهيمنة - تتجسد داخل التكوين الاجتماعي وبشكل سلسلة من الأجهزة والمؤسسات: الكنيسة (جهاز ديني)، الأحزاب السياسية (جهاز سياسي)، النقابات (الجهاز النقابي(، المدارس والجامعات (جهاز مدرسي وتعليمي)، وسائل الإعلام (الجهاز الإعلامي). وتصبح هذه أجهزة آيديولوجية للدولة. هذه الأجهزة تتميز، نسبيا، عن الأجهزة ''القمعية'' للدولة. ولكن (بولانتزاس) يتساءل: لماذا نشير إليها هنا كأجهزة للدولة.

في معرض الاجابة على هذا السؤال يذكر (بولانتزاس) ثلاثة أسباب [14]:

1. السبب الأول، هو ان الآيديولوجيا ليست شيئا ''محايدا'' في المجتمع. وكآيديولوجيا مهيمنة، فإنها في علاقتها مع السلطة يمكن أن تلعب دور المهيمن أو المسيطر. ومع ذلك فان هذا لا يكفي لتمييز الأجهزة الآيديولوجية كأجهزة دولة. يجب الذهاب أبعد من ذلك: السيطرة السياسية نفسها لا تستطيع أن تصبح بوسيلة خاصة بمثابة القمع المادي physic الوحيد، لذلك تتطلب التدخل القاطع والمباشر للآيديولوجيا. وبحسب هذه المقاربة، فإن الآيديولوجيا المسيطرة المتجسدة في أجهزة آيديولوجية، تدخل وترتبط مباشرة بالأجهزة الدولاتية، والتي تشكل في نفس الوقت الضامن ومكان تركز السلطة السياسية.

2. وبمقابل ذلك، يلح بولانتزاس على انه لابد هنا من العودة إلى التعريف الماركسي للدولة. فالدولة، والتي هي دولة الطبقة المسيطرة (او الائتلاف الطبقي المهيمن)، لا تعرّف فقط، بالنسبة للكلاسيكيات الماركسية، من خلال حيازة ''القوة'' المادية القمعية، ولكن بشكل أساسي من خلال دورها الاجتماعي و السياسي. دولة الطبقة المسيطرة هي المركز الذي يتمثل دوره في الحفاظ على وحدة و تلاحم تشكيل أو تكوين اجتماعي محدد، الحفاظ على ظروف الإنتاج، وكذلك إعادة إنتاج الظروف الاجتماعية للإنتاج. أي إنه، في نظام من صراع الطبقات، تمثل الدولة الضامن للسيطرة و الهيمنة السياسية للطبقة المسيطرة. هذا هو الدور الذي تقوم به تماما الأجهزة الآيديولوجية المسيطرة والتي تشكل، بحسب بولنتزاس، ''إسمنت التشكيلة الاجتماعية''.

3. إن جهاز الدولة، بالمعنى الدقيق للمصطلح، يشكل شرط الوجود وشرط عمل الأجهزة الآيديولوجية في تكوين اجتماعي ما. فإذا لم يتدخل جهاز القمع بشكل مباشر في عملها، فإنه بالتأكيد يعمل من خلفها.

تتيح قراءة الملاحظات السابقة لبولانتزاس بلورة الخلاصات الاتية:

أولا: مع كل ما ذكر سابقا، لا يمكن القول فقط أن الدولة ليست لها إلا دور قمعي و آخر آيديولوجي. ان لها ايضا ''وظيفة اقتصادية مباشرة''- كما يسميها بولانتزاس. وهذا يعني– بحسب بولانتزاس - أن دور الدولة لا يتحدد في إعادة إنتاج الظروف الاجتماعية للإنتاج، بل انها تتدخل بشكل قاطع في إنتاج دورة الإنتاج نفسها، وفي تفاصيل العملية

الاقتصادية، بل في إعادة إنتاج رأس المال. هذه الوظيفة الاقتصادية للدولة يقوم بها في نفس الوقت الجهاز القمعي: (الإدارة، الحكومة) والجهاز الإيديولوجي (النقابات). ولكن هذه الوظيفة الاقتصادية للدولة تنظم حول دورها السياسي ككل. بمعنى آخر، الوظيفة الاقتصادية للدولة هنا، تمارس بدقة تحت اشراف الجانب الأساسي أو الرئيسي، أي إما القمع أو الآيديولوجيا.

ثانيا: ان مفهوم "الجهاز" ليس محجوزا فقط لأجهزة الدولة. بمعنى آخر، فإن مفهومي "الجهاز" apparatus و " الدولة" state ليس لديهما نفس المدلول أو نفس الحقل. إن التمييز بين أجهزة الدولة state apparatus والجهاز الاقتصادي يبقى أساسيا، حيث من الواضح أن أجهزة الدولة و الجهاز الاقتصادي لا يمكن التخلص منهما لا في نفس الوقت ولا بنفس الشكل أو الطريقة، ذلك لأنهما، وباختصار، من طبيعة مختلفة. فنجد في الجهاز الاقتصادي "كوحدة للإنتاج" ما سماه كارل ماركس "القاعدة التكنيكية للإنتاج" و التي لا نجدها في أجهزة الدولة، وهذا يطرح "مشاكل" من نوع آخر.

ثالثا: الأجهزة الإيديولوجية للدولة لديها في الغالب طابع" خاص". بمعنى أنها ليست رسمية أو معترف بها كجهاز تابع للدولة، وهذا - حسب بولانتزاس- يجب ألا يكون مفاجأة. وفي الواقع فإن التمييز بين "الخاص" و"العام" هو تمييز قانوني بحت. وهذا التمييز أو التفريق "عام/ خاص" لا يغير شيئا في عمق موضوع الأجهزة الإيديولوجية للدولة. هنا يشير (بولانتزاس) الى ان (غرامشي) فهم هذا تماما، حيث اعتبر أن هناك "منظمات تعود للدولة في العادة هي معتبرة كخاصة". وهذا لا يعني أن الطابع "الخاص" أو "العام" للأجهزة الآيديولوجية للدولة لا أهمية له، أو هو عمل جاء بالصدفة. على العكس من ذلك، إنه يُرد إلى أشكال مختلفة وظيفيا، وحسب نماذج وأشكال الدولة. وفي العادة فإن الطابع "الخاص" لهذه الأجهزة يسترد من جهة أخرى وفي الغالب استقلاليتها النسبية، فيما بينها، وبالنسبة لجهاز الدولة.

رابعا: اننا لا نستطيع الحديث عن جهاز الدولة، بالمعنى الصارم أو الفردي، بينما نستطيع الحديث عن عدة أجهزة آيديولوجية للدولة. في الواقع، سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن جهاز الدولة، بالمعنى الدقيق والصارم، يشكل كتلة صخرية واحدة من دون تشققات. على العكس من ذلك، الجهاز القمعي للدولة هو نفسه مركب بما ندعوه "فروعا" خاصة: جيش، شرطة، إدارة، إلخ. لكن الأجهزة الآيديولوجية للدولة تشكل، في علاقاتها المتبادلة، وفي علاقتها مع الدولة، "درجة" و"شكلا من الاستقلال النسبي"، وهذه صفات لا تمتلكها فروع جهاز الدولة [15].

الجهاز القمعي للدولة، هو اذن نواة مركزية للنظام الدولاتي ولسلطة الدولة، يمتلك وحدة داخلية بشكل آخر عادة ما تكون أكثر قوة وصلابة من الأجهزة الإيديولوجية. الوحدة الداخلية لفروع هذا الجهاز تعمل وكأنها "فعالية تشبه النظام" ضمن نطاق النظام الدولاتي للأجهزة. أما النتيجة الأولى التي يمكن استخلاصها فهي التالية: أن "إنهاء" الدولة لا يمكن تطبيقه بشكل نظير لإنهاء جهاز الدولة أو الأجهزة الإيديولوجية للدولة، وحتى الأجهزة الإيديولوجية لا

يمكن إقصاؤها، لا بنفس الشكل ولا في نفس الوقت كما جهاز الدولة. لضيق المساحة لن ادخل هنا في التفاصيل بل أشير الى ثمة العديد من القراءات لتراث (بولانتزاس) في هذا المجال توضح هذه القضية بالتفصيل، يمكن العودة إليها [16].

وبالمقابل يشير (بولانتزاس) الى ملاحظة مهمة هي انه في البنية الاجتماعية ذات المستويات المتعددة وغير المتطابقة وذات التطور غير المتكافئ، تقوم الدولة بوظيفة فريدة إذ تشكل العامل الذي يحقق تماسك مستويات التكوين الاجتماعي. ان الدولة هي ايضا في الوقت نفسه "البنية التي تتركز فيها تناقضات مستوياته المختلفة (المقصود مستويات التكوين الاجتماعي – ص.ي). فهي إذن الميدان الذي ينعكس فيه الدليل على سيطرة مستوى معين، أو لأحد مراحله، أو أطواره " [17].

ثانيا: اشكالية السلطة عند نيكوس بولانتزاس

على الرغم من ان القضية الرئيسية في النظرية السياسية هي قضية السلطة إلا ان (بولانتزاس)، وكما أشرنا سابقا، يعتقد ان ماركس وانجلس، ولينين وغرامشي لم ينشئوا مفهوما نظريا للسلطة بالرغم من اهمية ذلك [18].

واستنادا الى ملاحظته أعلاه، سعى (بولانتزاس) الى تقديم مقاربته للسلطة وسنقوم هنا بتلخيصها استنادا الى ما قدمه في عمله الهام: "السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية" الذي جرت الاشارة إليه. ان ابرز مرتكزات هذه المقاربة هي الاتية[19]:

1. الارتباط الوثيق بين مفهوم السلطة ومفهوم الطبقة، فالعلاقات القائمة بين الطبقات هي علاقات سلطة أو قوة. ولكن (بولانتزاس) يستدرك قائلا ان العلاقة بين المفهومين لا تعني ان أحدهما هو أساس الآخر، وإنما تعني تجانس المجال الذي ينتميان إليه. فكما ان العلاقات الطبقية لا تعتبر اساسا كعلاقات للسلطة، كذلك لا تعتبر علاقات السلطة اساسا للعلاقات الطبقية. واذا كان مفهوم الطبقة يعبر عن انعكاس مستويات البناء الاجتماعي ككل على دعائمه الاجتماعية، فان مفهوم السلطة يقصر هذا الانعكاس على العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المتصارعة. بهذا المعنى فان السلطة لا تقع في أي مستوى من مستويات البنى الاجتماعية فهي انعكاس لهذه المستويات في تحولها.

2. عندما يجري الحديث عن سلطة الدولة فليس معنى ذلك ان الحديث يدور عن كيفية تدخلها في المستويات الاخرى من البناء الاجتماعي او صور ارتباطها بها. ان المقصود هنا بسلطة الدولة هي سلطة طبقة محددة تتطابق الدولة في مصالحها مع غيرها من الطبقات الاجتماعية.

3. بحسب (بولانتزاس)، تعني السلطة قدرة طبقة اجتماعية معينة على تحقيق مصالحها الموضوعية الخاصة. وبهدف تطوير هذه الاطروحة يشير (بولانتزاس) الى عدة ملاحظات اضافية:

الاولى: ترتبط السلطة بهذا المفهوم بميدان الممارسات "الطبقية" وفي ما بين هذه الممارسات من علاقات. فالصراع الطبقي هو الاطار المرجعي لمفهوم (بولانتزاس) للسلطة في المجتمعات المنقسمة الى طبقات. ان السلطة، بهذا المفهوم، تنتمي الى مجال

تتعارض فيه – بحكم وجود الطبقات ذاتها - قدرة أي طبقة على تحقيق مصالحها الخاصة وممارستها في سبيل توثيق المصالح مع قدرة ومصالح الطبقات الاخرى. وهذا يحتم وجود علاقة خاصة من السيطرة، ومن التبعية بين ممارسات الطبقات المختلفة.

الثانية: يرتبط هذا المفهوم للسلطة بقدرة الطبقة على تحقيق مصالحها الموضوعية الخاصة. ويرجع (بولانتزاس) هذا العنصر الى تحليلات ماركس، ولينين المتعلقة بالتنظيم الطبقي. فالمصالح الطبقية تنتمي أولا وأخيرا الى ميدان الممارسات الطبقية أي الى ميدان الصراع الطبقي. ولكن (بولانتزاس) يؤكد أنه علينا ان نتذكر ان السلطة باعتبارها القدرة على تحقيق المصالح الطبقية لا ترتبط بالمصالح الطبقية كما تتصورها الطبقات تحت تأثير الآيديولوجيا وانما ترتبط بها باعتبارها حدودا للممارسة الطبقية.

الثالثة: انتقال مركز الثقل، في الصراع الطبقي، من مستوى الى آخر، ومن موقع الى آخر من مواقع السيطرة الطبقية، فقد تختلف الطبقات التي تحتل مواقع السيطرة. ولكن هذا لا يعني انه يمكننا ان نحدد وبدقة الطبقة او الطبقات الحاكمة في تكوين اجتماعي معين، أي تحديد أي المواقع السيطرة هو الموقع المهيمن.

رابعا: ليس لمؤسسات المجتمع المختلفة سلطة بالمعنى الدقيق للكلمة. وهذا يصدق بصفة خاصة على الدولة كمؤسسة. فهذه المؤسسات ترتبط من ناحية السلطة بالطبقات الاجتماعية التي بيدها السلطة، ويتجسد تنظيم ممارسة سلطة هذه الطبقات الاجتماعية في مؤسسات خاصة، في مراكز القوى. ان (بولانتزاس) يعتبر الدولة في هذا السياق مركز ممارسة السلطة السياسية، ولكنه يستدرك بالقول: ''ان هذا لا يعني أن مراكز القوى، أي المؤسسات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والثقافية.. وغيرها هي مجرد أدوات أو أجهزة لسلطة الطبقات الاجتماعية. فلهذه المؤسسات ذاتيتها واستقلالها، ولها بنيتها الخاصة التي لا يمكن ردها مباشرة الى السلطة إذا اردنا تحليلها'' (20).

خامسا: يجب التمييز بين ''سلطة الدولة'' و''جهاز الدولة''. وفي هذا الاطار يستعير (بولانتزاس) التمييز بين هذين المفهومين الذي قام به لينين (وما قام به لاحقا الفيلسوف الفرنسي ألتوسير ايضا).

فمثلا، يقصد لينين باصطلاح ''جهاز الدولة'' أمرين:

أ. الدور الذي يلعبه جهاز الدولة بين مجموعة بنى التكوين الاجتماعي، أي وظائف الدولة المختلفة: الاقتصادية-التقنية، والسياسية بالمعنى الضيق، والآيديولوجيا وغيرها.

ب. موظفي الدولة، أي كوادر الادارة والبيروقراطية، والجيش ... الخ.

اما اصطلاح ''سلطة الدولة'' فيقصد به (لينين) تلك الطبقة الاجتماعية أو ذلك الجناح fraction الذي بيده السلطة.

إن انتقال السلطة الفعلية في جهاز الدولة (بمعناها الاول) من مركز الى آخر من مراكز القوى يعني بالتحديد تغيير الساحة التي تتركز فيها علاقات القوى السياسية الطبقية الحقيقية. غير ان هذا يرتبط بانتقال وظائف الابنية الفوقية السياسية من مؤسسة الى اخرى، ومن ثم اعادة ترتيب وضع

الدولة بين مجمل الابنية الاجتماعية. وهذا يرتبط بدور معين لمؤسسة "السلطة الفعلية" الجديدة بين باقي مراكز القوى.

أما مفهوم "جهاز الدولة" في معناه الثاني الذي جرت الاشارة اليه أعلاه، أي موظفي الدولة فيرتبط بقضيتين:

- علاقة الطبقة الحاكمة بهؤلاء الموظفين الذين "بيدهم" الدولة؛
- علاقة هؤلاء الموظفين بالدولة.

وانطلاقا من الملاحظات في اعلاه وبعد قراءته للتمييز الذي قدمه لينين لمفهومي: سلطة الدولة وجهاز الدولة، يؤكد (بولانتزاس) على "انه لا ينبغي ان نرد المفهوم اللينيني لجهاز الدولة الى مفهوم يرى الدولة مجرد جهاز أو أداة من ادوات السلطة وانما يعرّف المفهوم اللينيني البنية الفوقية السياسية استنادا الى وظيفتها ومكانها بين مجموع الابنية الاجتماعية" [21].

ومن جهة اخرى فان جهاز الدولة ليس شيئا او بنية محايدة بحد ذاتها، ومظهر سلطة الطبقة لا يدخل فيها كسلطة دولة. فالنسب المميزة لسلطة الدولة تتشرب في بنية جهازها، لأن الدولة في نهاية المطاف تكثيف لتناسبات القوى السائدة في فترة محددة. ان هذه الطبيعة التي تحملها الدولة بالضبط تخترقها التناقضات الطبقية من طرف لآخر، فتمنح هذه الطبيعة وتضفي على اجهزتها وعناصر مركباتها دورا خاصا ووزنا نوعياً محدداً [22].

حول مفهوم الهيمنة عند بولانتزاس

ينطلق (بولانتزاس) من الاقرار بأن (غرامشي) هو من ابتدع مفهوم الهيمنة ولكنه - أي بولانتزاس - يرى ان هذا المفهوم بقي عند غرامشي "في مستوى التطبيق العملي من ناحية، غامضا شديد الغموض من ناحية أخرى، نظرا لاتساع مجال استخدامه" [23].

واستنادا الى الملاحظات اعلاه، بلور (بولانتزاس) الملاحظات الاتية بشأن مفهوم الهيمنة حيث ينظر إليه بمعنيين [24]:

(1) فمن جهة يعني اعتبار المصالح السياسية للطبقات الحاكمة في علاقتها بالدولة الرأسمالية ممثلة "للمصلحة العامة" "للشعب- الامة" ذلك الكيان السياسي القائم على التفتت، والانعزال في المجال الاقتصادي.

(2) وللهيمنة مفهوم آخر لم يشر إليه (غرامشي) في الواقع. فالدولة الرأسمالية، والسمات المميزة للصراع الطبقي في التكوين الاجتماعي الرأسمالي تفسح مجال الحركة امام الكتلة الحاكمة التي تتألف من الطبقات، او الأقسام السائدة سياسيا. وثمة طبقة من هذه الطبقات أو قسم من هذه الاقسام هو الذي يلعب دور الوسيط وهو دور خاص يمكن وصفه بالدور القيادي او الدور المهيمن.

ويرى (بولانتزاس) ان مفهوم الهيمنة "يمكّننا، بالتحديد، من فهم العلاقة بين السمتين المميزتين لنمط السيطرة الطبقية في المجتمعات الرأسمالية. فالطبقة المهيمنة هي تلك الطبقة التي تلعب وحدها في الساحة السياسية ذلك الدور المخادع. فهي تمثل المصلحة العامة للشعب - الامة. وهي صاحبة الكلمة الاولى بين الطبقات والاقسام الحاكمة، وذلك بحكم علاقاتها الخاصة بالدولة الرأسمالية" [25].

وعلى الرغم من أن أفراد المجتمع

المدني أحرار ومتساوون شكليا، والدولة هي التجسيد ذو السيادة وغير الطبقي شكليا لوحدتهم، فإن (بولانتزاس) يرى ان الطريقة التي تُحقق بها الدولة هذا التماسك وتلك الوحدة هي بالضرورة محددة تضافريا بسبب الحاجة إلى إعادة إنتاج السيادة الطبقية. ومن ثم يبرهن (بولانتزاس) على أنه بينما يتعين على الدولة الرأسمالية أن تمنع أي تنظيم سياسي للطبقات المسودة قد يهدد بإنهاء عزلتها الاقتصادية وتفتتها الاجتماعي، فإن عليها أن تشتغل باستمرار على أقسام الطبقة السائدة و/ أو الطبقات حتى تلغى عزلتها الاقتصادية وتؤمن وحدة الكتلة الحاكمة وهيمنتها على الطبقات الخاضعة.

تتحقق هذه المهمة السياسية المزدوجة من خلال تنظيم كتلة حاكمة موحدة تحت قيادة طبقة معينة (نموذجيا تكون هي الطبقة السائدة) (أو قسم منها) والعرض الناجح لمصالحها السياسية كأنها مصالح الأمة – الشعب ككل. يتضمن هذا – بالمقابل - التفاوض الدائم حول المصالح في توازن غير مستقر للتسوية كما يتطلب تنازلات لطلبات المتحد corporate الاقتصادي للطبقات الخاضعة[26].

الهوامش:

1- نيكوس بولنتزاس مفكر وفيلسوف ولد في أثينا عام 1936، أقام في فرنسا منذ عام 1960. عمل محاضرا لعلم الاجتماع في جامعة باريس الثامنة. من مؤلفاته باللغة العربية: السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، ترجمة: عادل غنيم. (بيروت: دار ابن خلدون، 1983)؛ كذلك: الايديولوجية والسلطة – نموذج الدولة الفاشية. ترجمة نهلة الشهال. (بيروت: دار ابن خلدون، الطبعة الاولى، 1979)؛ كذلك: أزمة الدكتاتوريات (اليونان، البرتغال، اسبانيا). ترجمة عبد القادر ضللي (بيروت: دار ابن خلدون، الطبعة الاولى، 1981).
وصدرت له باللغة الانكليزية الاعمال الاتية:
Poulantzas, Nicos. Fascism and Dictatorship: The Third International and the Problem of Fascism. NLB, 1974 (orig. 1970).
Poulantzas, Nicos. Classes in Contemporary Capitalism. New Left Books, 1975 (orig. 1973).
Poulantzas, Nicos. The Crisis of the Dictatorships: Portugal, Greece, Spain. Humanities Press, 1976.
Poulantzas, Nicos. Political Power and Social Classes. New Left Books, 1978 (orig. 1968).
Poulantzas, Nicos. State, Power, Socialism. New Left Books, 1978.

2- قارن: قارن: بوب جيسوب، النظريات الماركسية المعاصرة حول القانون والدولة والأيديولوجيا القانونية السياسية، ترجمة: سعيد العليمى، "الحوار المتمدن"-العدد: 5484 - 2017 / 4 / 7. متاح على الانترنيت على الرابط الاتي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=554238

3- انظر: نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية. ترجمة عادل غنيم، الطبعة الثانية...، مصدر سابق، ص -17 18.

4- كارل ماركس، نقد برنامج غوتا. (في:) ماركس، انجلس، مختارات في أربعة أجزاء – الجزء الثاني (موسكو: دار التقدم، 1977)، ص 211 - 241.

5- كارل ماركس، الحرب الاهلية في فرنسا. (في:) ماركس، انجلس، مختارات في أربعة أجزاء – الجزء الثاني...، المصدر السابق، ص 109 - 208.

6- فردريك أنجلس، ضد دوهرنك (موسكو: دار التقدم، 1984).

7- قارن: لينين، الدولة والثورة، (موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ)

8- انطونيو غرامشي، ملاحظات عن ميكافيلي
AntonioGramsci, Note sul Machiavelli,sulla politica e sullo stato moderno (Turin,1949),

9- قارن، المصدر السابق، ص 18.

10- لمزيد من التفاصيل قارن: د.صلاح نيوف، نيكوس بولانتزاس - مدخل لقراءة تفكيك الدولة الفاشية و الدكتاتورية. متاح على الرابط الاتي:
http://salahnayouf.net/2014/12/31/%D9%86%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%B3-%D8%A8%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%AA%D8%B2%D8%A7%D8%B3-%D9%85%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A1%D8%A9-%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D9%83-%D8%A7%D9%84%D8%AF

11- Comp: Hall, Stuart et al. (1978) Policing the Crisis, London: Macmillan, pp 186 – 208, 272 – 298

12- صدرت الطبعة الاولى في عام 1970، في حين صدرت طبعته الثانية في عام 1974 وقد أجرى المؤلف بعض التغييرات الطفيفة على الطبعة الاولى وفق ما جاء في مقدمة الطبعة الثانية. لمزيد من التفاصيل قارن:
..Poulantzas, Nicos. Fascism and Dictatorship.., op, cit

13- لمزيد من التفاصيل قارن: انطونيو غرامشي، الامير الحديث، قضايا علم السياسة في الماركسية...، مصدر سبق ذكره؛ كذلك: انطونيو غرامشي. ترجمة فواز طرابلسي، الطبعة الاولى (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1971).

14- قارن: نيكوس بولانتزاس، الآيديولوجية والسلطة – نموذج الدولة الفاشية. ترجمة نهلة الشهال...، مصدر سبق ذكره، ص 11 - 12.

15- لمزيد من التفاصيل قارن على سبيل المثال:
Poulantzas, Nicos (1973) Political Power and Social Classes, London: New Left Books, p 137, pp 190-191

16- قارن على سبيل المثال:
Martin J (ed) (2008). Nicos Poulantzas The Poulantzas Reader: Marxism, Law and the State, Verso. Gallas, Alexander, Bretthauer, Lars, Kannankulam, John and Ingo Stützle eds. Reading Poulantzas. Merlin Press, 2011.
Bob Jessop)1982) The Capitalist State: Marxist Theories and Methods, op, cit.
Jessop, Bob (1982) Nicos Poulantzas, London: Macmillan

17- انظر: نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية...، مصدر سابق، ص 47

18- المصدر السابق، ص 114.

19- المصدر السابق، ص 112 ولاحقا.

20- انظر: نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية...، مصدر سابق، ص 132.

21- انظر: نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية...، مصدر سابق، ص 135.

22- قارن: نيكوس بولانتزاس، أزمة الدكتاتوريات (اليونان، البرتغال، اسبانيا). ترجمة عبد القادر ضللي (بيروت: دار ابن خلدون، الطبعة الاولى، 1981)، ص 96 97- .

23- المصدر السابق، ص 159.

24- المصدر السابق، ص 163 – 164.

25- انظر: نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية...، مصدر سبق ذكره، ص 164.

26- لمزيد من التفاصيل قارن:
Poulantzas, Nicos (1973) Political Power and Social Classes, op, cit.

علم النفس السياسي
نحو فهم أعمق للأحداث السياسية

أستاذ دكتور رياض البلداوي
استشاري الطب والتحليل النفسي

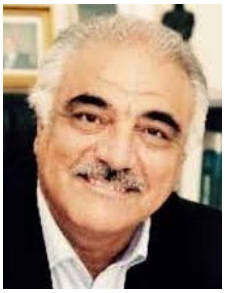

د. رياض البلداوي، من مواليد بغداد عام 1950، ويعيش في السويد في بداية عام 1986، استاذ مشارك ومحاضر في الجامعات السويدية والاسكندنافية ومنها معهد كارولينسكا الطبي وجامعة ستوكهولم. استشاري في الطب والتحليل النفسي، باحث في شؤون الهجرة والتأقلم وعمل مستشارا للدولة السويدية في هذا المجال، كما أنه مؤسس ورئيس مركز الشرق للطب النفسي في العاصمة السويدية ستوكهولم.
صدرت للدكتور رياض 4 كتب شخصية و 10 كتب مشتركة مع زملاء اخرين، والكثير من المقالات والبحوث العلمية المنشورة. كما انه عضو في العديد من الجمعيات الطبية العالمية.

مقدمة قصيرة

العلاقة بين الحاكم والمحكوم او بين الرئيس والمرؤوس كانت دوما العنصر الهام في الدراسات السياسية. كما أن سلوكية صاحب القرار وكيفية إدارة العلاقة مع من هم يتبعون له من الناس والجماهير هي العنصر الرئيسي في علم النفس السياسي. إذا هذا العلم في جذوره يقيّم السياسة من خلال دراسة نتائج القرارات والاحداث عبر دراسة وتقييم الخلفية النفسية والاجتماعية لأصحاب القرار في لحظة تاريخية محددة. ولا بد من التذكير بأن الحدث السياسي يتأثر عادة بعدة عوامل أحدها هو شخصية وسلوك صاحب القرار وكذلك خلفيته الاجتماعية وشخصيته. كما ان الظروف الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية وكذلك الضغوط الخارجية تلعب دورا مهما في اتخاذ أي قرار وعلى مختلف المستويات. عندما ننظر الى الماضي ونقيم احداثه التاريخية يجب ان لا نغفل النظرة للوضع النفسي لصاحب القرار في اللحظة التاريخية تلك. وإذا اضفنا هذا التحليل الى العوامل المذكورة الأخرى فقد نصل الى تقييم موضوعي للحدث التاريخي. من

خلال هكذا تقييم نستطيع ان نستلهم الدروس لكي نتجاوز الأخطاء وتقييم ما هو إيجابي، ولكي نصل الى مستوى أفضل في العلاقات السياسية. إن دراستنا لشخصية الحاكم وصاحب القرار وما تركه من آثار سلبية او إيجابية تتيح لنا استخلاص الدروس التي قد نستفيد منها لتجاوز الأخطاء وتوظيف ما كان إيجابيا. ومن خلال تطبيق منهجية علم النفس السياسي نستطيع على الأقل ان نختار (إذا كان لنا حق الاختيار الحقيقي) السياسي الذي تتوفر فيه أفضل الشروط في سلوكيته وشخصيته. اما على مستوى العراق فبتقديري لم يجر تقييم موضوعي وعلمي، معتمدا على أدوات ومنهجية علم النفس السياسي برغم مرور مئة عام على تكوين الدولة العراقية الحديثة. لقد مرّ العراق بأحداث ومتغيرات سياسية كبيرة في رحلته هذه. وقدمت دراسات كثيرة حلّلت الاحداث بشكل سياسي، وكذلك اجتماعي ودرست الظروف المحيطة والمؤثرة في الحدث، ولكن قلما تناولت بإسهاب الدور الشخصي والبعد الانساني الذي له علاقة مباشرة بشخصيات قادت او تصدت لهذا او ذاك من الاحداث السياسية في العراق، وقاد متغيراتها رجال اثروا على الحدث السياسي بما لهم من خلفية سياسية واجتماعية او طبقية. يلعب البعد النفسي جانبا مهما لفهم الاحداث، لان القائمين على الفعل او ردة الفعل هم أناس لهم مشاعر وأحاسيس وخلفيات اجتماعية وثقافية واقتصادية مختلفة تؤثر وتتأثر بهذه المتغيرات. مهما كان المتصدي للعمل السياسي خبيرا بصناعته ومتقنا للعبة، ولكنه في قراراته لا يمكن إلا ان يتأثر بالعوامل النفسية الذاتية التي قد لا يدركها هو في فعله، ولكن عند البحث المعمق المبني على اساس دراسة علم النفس التحليلي وتطبيقها على الحدث نجد هناك اجابات على تساؤلات، قد تكون محيرة حول الاسباب لاتخاذ هذا او ذاك من القرارات الحاسمة التي قد تؤثر على تطور او انكسار شعب ما او بلد ما. اذ أن دارسة التاريخ السياسي تتطلب تحليلا نفسيا معمقا لأولئك السياسيين الذين اتخذوا القرارات التي اثرت في المتغيرات السياسية.

علم النفس السياسي

العلم الذي يدرس هذا التحليل يسمى بعلم النفس السياسي، والذي برز منذ نهايات القرن الثامن عشر، ولكنه تبلور كعلم ومنهج في اواسط ونهايات القرن التاسع عشر. أصبح هذا العلم اليوم منتشر الاستعمال في تقييم الاحداث السياسية وقادتها، لكي يستطيع الدارس فهم الجوانب الخفية الانسانية والتفاعلات النفسية عند هذا او ذاك من السياسيين الذين ساهموا بهذا الفعل السياسي.

في الغالب يعرف علم النفس السياسي على انه مجال أكاديمي متعدد الاختصاصات، يقوم على فهم السياسة والسياسيين والسلوك السياسي من منظور نفسي. وتعتبر العلاقة بين السياسة وعلم النفس ثنائية الاتجاه؛ فيستخدم العلماء علم النفس كمرآة لفهم السياسة، وكذلك السياسة مرآة لعلم النفس. ويعد هذا العلم مجالا متعدد الاختصاصات،

لأنه يأخذ مادته من مجموعة واسعة من التخصصات الأخرى، بما في ذلك علم الانسان، وعلم الاجتماع والعلاقات الدولية، والاقتصاد، والفلسفة، والقانون (1).

ان اهم رواد هذا العلم على مر العصور الاخيرة هم كُثر، سأحاول ايراد بعضا منهم ممن اثّروا على تطوير هذا العلم. ويعتبر العالم الفرنسي في علم الاجناس ادولف باستيان (1826 - 1905م) اول من استخدم مصطلح علم النفس السياسي في كتابه (رجل في التاريخ، الصادر عام 1860) (2) في تحليله لكومونة باريس والأحداث التي رافقتها وكذلك تحليل دور قادتها. وكذلك الاعمال الهائلة لغوستاف لوبون (1841 - 1931) وخاصة عمله ''سيكولوجية الحشود'' (1895م) (3) وكتابه في علم النفس السياسي (1910) (4).

أمّا في النمسا فكان لسيغموند فرويد صاحب منهج التحليل النفسي دور كبير لاستخدام ادوات هذا المنهج لدراسة الظواهر السياسية وقادتها وذلك من خلال العديد من المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر (سيكولوجية الجماعة) وكذلك تحليل الأنا 1921 (5).

أما في ألمانيا فكان هناك باحثون كُثر على سبيل المثال تيودور ادورنو (1903 - 1969م) والذي ابتكر منهجا لتحليل النزاعات السلطوية وتحديد نوع الشخصية وأثرها في القرارات. اما في الولايات المتحدة فقد كان لهارولد لاسويل (1902 - 1978م) اسهامات كثيرة منها كتابه الموسوم (الامراض النفسية والسياسية 1937).

السلطة والجماهير

لا يمكن لحاكم او زعيم ان يثبت زعامته دون ان تكون هناك جماهير او رعية. وعلم النفس السياسي يبحث في هذه الحتمية ويحلل سلوك الفرد في المجاميع او الحشود وكذلك قدرة هذا السياسي على التأثير في هذه الجموع او الحشود. في كتابه الموسوم ''سيكولوجية الجماهير'' (وان كنت أرى ان ترجمة الكتاب افضل بـ ''سيكولوجية الحشود'' لان الحشد يضم أناسا مختلفة دون هدف موحد) كتب غوستاف لوبون شارحا وبشكل عميق هذه العلاقة حيث يذهب الى وصف الجماهير بأنها مجاميع من الناس يفقد الفرد فيهم الكثير من سماته وقيمه بانضمامه الى المجموعة حتى يكون جزءا منها، ومن هنا يكون من السهل على الزعيم والسياسي المحنك ان يقود ويوجه هذه الجماهير اذا كان متحليا بثلاث صفات، وهي ان تكون له كاريزما شخصية طاغية ومؤثرة وان يستطيع ان يبلور أفكاره وطروحاته بأسلوب سلس وبسيط يستطيع ابسط الافراد في الحشود ثقافةً ان يفهم هذه اللغة، وان تكون الأهداف والشعارات المطروحة بسيطة ومباشرة ومفهومة بدون تعقيد لان الجماهير لا تتبع الشعارات الغامضة او المعقدة. ومن هنا تبرز الحاجة لدراسة شخصية وسمات وأسلوب الحاكم لكي نقدر قدرته في التأثير في هذه الجموع.

المجتمع الابوي والمجتمع الناضج
سلطة الحاكم المطلقة ام سلطة القانون

اريد ان أركز في مقالي هذا حول الاشكالية الأكثر عمقا في السياسة وخاصة في عالمنا العربي خلال المئة سنة الأخيرة ألا وهي الصراع بين سلطة الحاكم المطلقة مقابل سلطة القانون، بين سلطة الفرد وسلطة المؤسسات.

لا تزال مجتمعاتنا العربية الى يومنا هذا محكومة بمبدأ السلطة الأبوية. هذا المبدأ قد يكون ممثلا بدور الاب رب الأسرة على مستوى العائلة، ذي المكانة التي قد تصل الى حد التقديس (أحيانا قد تأخذ الأم هذا الدور) وقد تكون سلطة المدير في احدى المؤسسات او صاحب العمل في معمله او شركته وصولا الى شيخ العشيرة حتى الرئيس ممثلا لأعلى سلطة سياسية في البلاد. ان بلداننا العربية على مرّ العصور كانت ولا تزال حبيسة مفهوم القائد او الملك الفذ الملهم او شيخ القبيلة الذي لا يخطئ او الامام العارف بكل شيء. ولهذا السبب كانت كل دراسة مجردة وعلمية لهذا او ذاك من القادة مهمة صعبة للغاية. فلا يمكن ان يقوم باحث ما في عمله دون الاخذ بنظر الاعتبار سلطة هذا الزعيم او اتباعه على القرار السياسي وما قد يترتب عليه من تداعيات وأحيانا تصل الى حد التهديد بل القتل. ولهذا جاءت الدارسات التاريخية السياسية محدودة بمن كتب وفي أي الظروف كتبت الدراسة ولأي غاية. إنّ دراسة الشخصية والسلوك السياسي للزعيم تحتاج الى جوهر مهم وهو توفر الحرية الحقيقية واحترام حقوق الانسان وكذلك ديمقراطية الحكم. بدون توفر مثل هذه الظروف لا يمكن لأي بحث من هذا القبيل ان يكون موضوعيا. الكثيرون حاولوا الكتابة عن زعماء عرب لعبوا دورا مهما في تاريخ بلادهم ومنطقتهم ولكن قلما كانت هذه الكتابات مجردة فقط عند أولئك الذين أمنوا شر هؤلاء الحكام او اتباعهم كأولئك الذين كتبوا وهم خارج البلاد، محميين بنظام فيه وفرة من الحرية للنشر، ولكن حتى هؤلاء لم يكونوا خارج انتقام هذا الزعيم او من اتبعوه. ولعل قضية الصحفي السعودي جمال خاشقجي خير مثال على هذا. ان التسليم بالسلطة الأبوية يجعل مفهوم البحث العلمي المجرد في تقييم الحدث التاريخي ضعيفا او معدوما لأن السلطة الأبوية تفرض قوانينها الخاصة التي تتعارض مع مفهوم سلطة القانون. اذن، كنتيجة لهذا كتب د. محمد المهدي يقول (اننا نستطيع ان نقول بان هناك دوما صراعا قد يكون خفيا أحيانا وظاهرا أحيانا أخرى بين فكرة المجتمع الأبوي والمجتمع الناضج) (6).

إن العلاقة بين الحاكم والجمهور إذا ما سادتها مفاهيم السلطة الأبوية تجعل هذا الحاكم (على كافة المستويات المذكورة أعلاه من الاب في العائلة الى زعيم البلاد) يتصرف وكأنه هو العارف بكل أمور الحياة وعلى الاخرين اتباع ما يراه ويعتقد به، ومن يعارض هذا المبدأ يضع نفسه في خانة غير المرغوب فيهم، وقد ينتهي به الى عقوبات تصل أحيانا الى القتل. الحكم في مثل هكذا منظومة يستخدم القوانين الوضعية المنطلقة

في أساسها لتأكيد سلطة الحاكم. وهنا تبرز مساندة المجموعة كالعائلة الكبيرة او العشيرة بإعطاء المشروعية لمثل هكذا عقاب، وتبرر له متخذة من الأعراف والتقاليد درعا لهذا التبرير. وما جرائم الشرف ضد البنات او الأولاد المنتشرة في المجتمعات ذات النظام الأبوي الشمولي إلا دليل صارخ على ما نقول. فعلى الرغم من الحب الذي هو أساس العلاقة بين الاب وبناته او أبنائه، لكن لا يزال في أوساط واسعة في العالم العربي تحدي الأولاد لسلطة الاب قد يؤدي الى صراع هائل، تختلف نتائجه بناء على المستوى التعليمي في الاسرة. ويكون هذا التحدي في أغلب الأحيان مرادفا للعقاب بمستويات ونتائج مختلفة. أما على مستوى السياسة في البلاد فتجد في مجتمعاتنا قلة من الزعماء ممن يقبلون بالنقد ولكن لا يحضرني زعيم من هؤلاء ممن قبل بالتحدي والنقد الذي له علاقة بسلوكية حكمه أو جوهر السياسة المتبعة من قبله. وفي اغلب الأحيان يكون الانتقام قاسيا اما بإنهاء الخصم وقتله او مصادرة حقوقه المدنية بأشكال مختلفة. اذا يرتكز الأساس الجوهري الذي يستند له الحاكم في السلطة الأبوية وخاصة في المجتمعات ذات الأصول القبلية والثقافة البدوية الى أساس مهم ألا وهو الطاعة الكاملة للحاكم (على اختلاف المستويات).

إنّ مجتمعات السلطة الأبوية تنطلق في تركيبتها الاجتماعية من ان المحافظة على المجوعة وحقوقها هي غالبا الهدف الرئيسي على حساب الفرد وحقوقه. أي أن المجتمع والمجموعة ترى الفرد جزءا لا يتجزأ من المجموعة وفقط من خلال الانتماء إليها يحصل على امكانية العيش والتطور. هذه الفكرة تضع الفرد امام خيارين: اما ان تكون معنا وتتبع ما نراه نحن صحيحا، او ان تكون بمفردك دون دعم من قبلنا. في المجتمعات ذات التركيبة الأبوية يختلف تطبيق هذه العلاقة بين الفرد والمجموعة تبعا لعدة عوامل منها على سبيل المثال لا الحصر المستوى الثقافي والتعليمي السائد في المجموعة وتطور الافراد الفكري او مناطق سكن المجموعة واصولها ان كانت من الحضر (سكنة المدن والمراكز التجارية او الصناعية) او أولئك من سكنة الأطراف (الأرياف والصحاري)، والعامل الثالث هو نوع العمل الذي يمارسه الفرد. كلما كانت المجموعة أكثر تعلما وكلما كان الفرد من خلال عمله معتمدا على نفسه اقتصاديا ويعيش في حواضر تجعل السلطة الابوية اقل تأثيرا في واقعها على الفرد من أولئك الذين في سكنهم وعملهم يكونون معتمدين جذريا على العون المقدم من قبل المجموعة (العائلة الكبيرة او العشيرة). هناك عامل مهم اخر يحدد علاقة الفرد بالمجموعة الا وهو الاستقرار السياسي وقوة الدولة في فرض القانون. عندما ينخفض دور الدولة في حماية الفرد، لأسباب كثيرة منها ترهل الدولة او الفساد المستشري فيها او ضعف المؤسسات او تسييس القضاء، يصبح الفرد مضطرا الى ان يعود للمجموعة (العائلة او العشيرة) ليحصل على الحماية والمساندة، ويكون هذا دائما على حساب حقوقه. في بلداننا ذات السلطة الابوية يخدم فيها القانون

من هو في السلطة ويستخدم الحاكم المؤسسة الأمنية او العسكرية وأحيانا أيضا القضاء لكي ينتقم ممن كشفوا حقائق عن سياسته او تحدوا سلطانه. إذا، القانون يخدم مَن في السلطة وليس لخدمة علاقة متوازنة بين الحاكم والمحكوم. أدى التطور في وسائل التواصل الاجتماعي الى بروز معارضين يكتبون هنا وهناك ولكن الزعماء السياسيين لن يغفروا لمعارض مؤثر في الجماهير على الاستمرار بتحديه للحاكم. ومن هنا كان رد فعل الحكام مختلفا على من يعارضهم ولكن المعارضة الحقيقية وبتحدي واضح وباستخدام المؤثرات على الناس لا يمكن ان تمر دون رد فعل من الحاكم.

وفي بلدان ذات سلطة القانون، يكون القانون هو الفيصل. اما في السلطة الأبوية فيكون الحاكم ومصالحه فوق القانون. وبخصوص الأبناء او التابعين او الرعية فينحصر دورهم في التبعية والانصياع والتنفيذ. هذه المنظومة ما زالت سائدة ومؤثرة على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية (من العائلة الى المؤسسة الى الدولة) في الكثير من المجتمعات العربية رغم التغيرات التي جاء بها تطور تكنولوجيا الاتصالات ما أدى الى ازدياد الوعي عند الجماهير بأساليب مختلفة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم ما أدى الى اتساع الهوّة بين وعي الناس مع إصرار الطبقة السياسية الحاكمة على المضي في قيادة الدولة ضمن مفاهيم السلطة الابوية.

أما في المجتمع الناضج فإن توزيع المهام والأدوار بين الأفراد او المجموعات، يكون قائما على أساس المهنية والتخصص دونما تضخيم او تقديس لأحد، وذلك ضمن منظومات متطورة ومرنة وفاعلة وقابلة للتغيير الإيجابي. ان استقلالية وحرية الفرد مضمونة بالقانون دون الاخذ بنظر الاعتبار المجموعة التي ينتمي لها هذا الفرد. الفرد هنا مسؤول عن تصرفاته امام القانون وليس هناك من هو فوق القانون حتى وان كان حاكما. في مثل هكذا منظومة يكون للفرد حقوق وعليه التزامات أخلاقية واجتماعية يجب ان يقوم بها ليكون جزءا من المجتمع، أما المخالف فيعاقب على أساس القانون.

طبعا في كلتا المنظومتين توجد استثناءات. فقد نجد أسراً وهي ضمن إطار مجتمعات ذات السلطة الابوية، ولكنها تحاول تطوير العلاقة مع افرادها بأسلوب حضاري فيه الكثير من الحفاظ على شخصية واستقلالية الفرد. والعكس أيضا قد نجد في المجتمعات الناضجة تجاوزات على حقوق الافراد من المؤسسات. والفرق هنا هو انه في مجتمعات القانون يمكن للفرد ان يطالب بحقوقه من خلال القانون، ولكن في المجتمعات ذات التسلط الابوي نرى ان الحق في اغلب الحيان لا يصل الى أصحابه إذا لم يكونوا مدعومين من قبل اشخاص أو عوائل متنفذة في الدولة.

إذن، سلطة الحاكم في مجتمعات السلطة الأبوية غير محدودة او محددة مما تجعل الحاكم دكتاتورا في فرض آرائه. من هنا كانت مراجعة دور الحاكم من خلال دراسة شخصيته بتجرد مهمة صعبة ولكنها ضرورية. وفي ضوء ذلك يمكن القول ان

علم النفس السياسي أراد ان يوظف منهجية لدارسة السلوك السياسي لهذا او ذاك من الزعماء، بناءً على الظروف التي مرت في عصره.

شخصيّة الحاكم

كتب الكثيرون من فرسان علم النفس السياسي كماً من المؤلفات التي ارادت إعطاء ملامح لشخصيات وزعماء سياسيين الغاية منها دراسة تأثير هذه الشخصية على الفعل السياسي او المرحلة التي حكم بها هذا السياسي.

إن اهم عنصر في الإدارة السياسية هو القابلية على إدارة العلاقة بين الحاكم والجماهير والعمل على حل الازمات التي تعصف بالبلد.

في كتابه المشهور علم النفس السياسي (6)، حدد د. محمد المهدي الملامح لسبع شخصيات وخصائصها من خلال دراسة الضعف والقوة في كل من هذه الشخصيات. سأحاول هنا ان أقدم نبذة قصيرة عن كل منها، معتمدا على ما جاء به الدكتور المهدي مع إضافات مني قد تفيد القارئ.

القائد الملهم

شخصية معقدة ولكنها موجودة بقوة في التاريخ السياسي وخاصة في عالمنا العربي الحديث. مشكلة هذه الشخصية ان من يتقمصها من الزعماء يرى هو بنفسه على انه القائد الملهم والضرورة. هذا الزعيم لديه خصال شخصية واخلاقية، مثلا له كاريزما وحضور فعال واعتزاز بالنفس وكذلك يرى بنفسه المخلص للشعب والجمهور وبأن الارادة الربانية منحته هذه الفرصة لكي يطور البلد بأسلوبه الخاص. الملهم يتجنب ان يكون سارقا بل يحاول إعطاء المُثل العليا مكانة في حديه فهو يعاقب المقصر، وبكل شراسة يدافع عن الفقراء ويحكم بكل صرامة على الفاسدين والسرّاق. ولكن كل هذا يجري بانتقائية تخدم نفوذه، فهو يتساهل مع أولئك الذين يحتاج إليهم ولكن قد يتخلص منهم متى ما انتهت ادوارهم ليعوضوا بآخرين، يمنحهم مجالا وحريات لكي يدعموا سيطرة هذا الزعيم. الملهم زعيم قوي في بعض القرارات، ولكن قد يضعف في أخرى، غايته ان يوصل الفكرة وترسيخها عند الناس بأنه هو المنقذ وبدونه لا تدور عجلة الدولة والحياة. فهو يسعى لتحقيق الانتصارات لكي يعطي لنفسه صبغة المخلص وإضفاء طابع البطولة على تاريخه مما يضعه امام الجماهير كانسان خارق. مع وجود آلة إعلامية مسيرة لخدمة هذه الأغراض، نجد ان الجماهير مع مرور الوقت تبدأ بتضخيم ذات الزعيم وإطلاق مسميات تؤكد الصورة التي يريدها الزعيم لنفسه. الزعيم الملهم قد يتحول الى ان يكون هو الوطن، والوطن هو ويصبح رمزا بطوليا خاصة عند المظلومين والمقهورين. هذا الزعيم يهتم بكل الدقائق ليظهر بمظهر جذاب وطلعة تثير الحماس عند الشباب. فهو عندما يخطب يستخدم صوته ومظهره لتأكيد سلطته. ويعرف كيف يخاطب مشاعر الجماهير وان يوقظ بهم الحماسة التي تشعرهم بالفخر والكرامة وتنتشلهم من حالة

اليأس والخوف من الأعداء. هذا الزعيم مع الوقت يتحول الى جزء مما هو خارق ويصبح النقد له غير مقبول حتى أحيانا من الناس التي تلتوي بحكمه. هذا الزعيم ينكل بمنتقديه لأنه على ثقة بأنهم على خطأ لأنه هو من يحدد الخطأ والصواب.

الزعيم النرجسي

شخصية أخرى نرى لها امثلة كثيرة في تاريخنا السياسي العربي. هذه الشخصية تتميز بإحساس شديد بالذات وشدة في الاعجاب بها. ولهذا يقوم هذا الانسان بفعل كل ما يستطيع لكي يكون له موقع الصدارة لتحقق له فرضية انه الأفضل والاقدر والاجمل والاقوى. ومن هنا هو غير مستعد لقبول النقد لأنه يعتبر نفسه الكبير والمقدس والرمز. قرارته تميل دوما للإبهار حتى على حساب المصلحة العامة، يميل الى المفاجئات والصدمات في قراراته. ومثل هكذا شخصية لا تريد ان تكون محبوبة من الجماهير ولكن ان تكون مطاعة. الناس قد ينبهرون به كشخصية ولكن تصرفاته تجعلهم في استغراب وحيرة. هذا الزعيم لا يحب الفساد وليس سارقا لان في هذا حط من صورته امام نفسه، فهو ميال الى ان يكون مسرفا في ملبسه وعيشه، ولكن لا يريد ان يتورط بعمليات فساد. حب هذا الزعيم لشخصه يجعله يقرب من يكبّرون فيه هذه الصفات ويؤكدونها بل ويعظمون فيها. هذه الحاشية قد تستغل صفات هذا الزعيم لكي يبنوا لأنفسهم ثروات من الفساد لأنهم مدركون ان الزعيم لن يطالهم بالعقاب ما داموا هم مستمرون في إرساء هذه الصورة الخرافية عنه عند الجماهير. ولكن هذا النوع من الشخصية يميل دوما الى الوسوسة فهو بقدر ما هو مرتاح لما يسمعه من مديح لكنه يشك في كل من حوله ويخاف من غدر المحيطين.

الزعيم الموظف

شخصية معقدة وبسيطة في آنٍ واحد. هذا الشخص يقوم بدور المدير وعادة ما يصل الى السلطة عن طريق الصدفة التي قد تلعب فيها ظروف سياسية او اجتماعية واقتصادية تؤدي الى تسنمه هذا الدور. قد لا يكون له أي اهتمام بالسياسة بل قد يمقتها ويعتبرها نوعا من المغامرات، تتشابك فيها ألاعيب مختلفة. إذن، يقبل هذا الشخص التكليف باعتباره جزءاً من وظيفة سيقوم بإنجازها دون ان يكون مهيّئا لها. من هنا يحاول مثل هكذا رئيس او مدير أن يكون متواضعا، بعيدا عن الأبّهة الرئاسية والحكم ويقبل بالأوضاع القائمة ويسعى لتثبيتها وترسيخها، مستفيدا في هذا من اللوائح والقوانين السائدة التي وضعها الاسلاف. الزعيم الموظف يكره الأحلام والأمنيات ويحتقرها ويحتقر من يتمسك بها ويعتبره ساذجا، من صفات هكذا شخصية انها ميّالة للوسواس والشك في كل ما يحيط به، ولهذا فهو يدقق في الكثير من الأمور حتى التي ليست من اختصاصه، فيصبح عنيدا لا يقبل رأيا آخر، ولا يتنازل عن شيء، ويتمسك بالشكل دون الجوهر.

الزعيم البوهيمي الإبداعي

هذا النوع من الزعماء لديه رغبة شديدة بطرح أفكار وخطط بوهيمية إبداعية ولكنها بعيدة عن الواقع اليومي وهو يسعى لتنفيذ هذه الأفكار رغم بعدها عن هموم واحتياجات الناس اليومية. قد يحول هذه الأفكار الى سياسات ونظام للحكم وفلسفة للإدارة. المشكلة انه يحيط بنفسه بأعوان لا يجرؤون على مناقشة وتفنيد هذه الأفكار والخطط. بل يسعى هذا الزعيم الى اجبار الطبقة المثقفة والاعلام على الترويج لهذه الأفكار وإعطائها تفسيرا وتحليلا وأحيانا تبريرا لرأي هذا الزعيم المفكر والمبدع المشوش والمتناقض. هذه الشخصية طالما تكون متقلبة في مزاجيتها وتوجهاتها، احيانا يكون ثوريا شديد الوطنية والتقدمية، وتارة أخرى مستسلما ومهادنا وخاضعا. يهتم بمظهره فيلبس ثيابا عسكرية مليئة بالنياشين والأوسمة (كطفل حصل لتوه من والده على بدلة ضابط مبالغ في ترصيعها) وتارة يلبس لباسا بسيطا ويعيش عيشا بسيطا. هذه الشخصية تهتم بان يكون لأفكارها موضع متميز كأن تكتب عنها كتب ودراسات او حتى يجبر الجامعات على تدريس أفكاره على اعتبارها فذة ويجب على الدارسين والباحثين الاستفادة منها. أحيانا قد تكون هذه الأفكار والخطط ضد ما وصلت له مؤسسات الدولة بعد بحوث مطولة ولكن الزعيم يصر على ان تنفذ أفكاره رغم تعارضها احيانا مع المصلحة الوطنية.

الزعيم في دور شيخ القبيلة

هذا النوع من الزعماء يعتمدون في وجودهم ومشروعيتهم على عصبية القبيلة او العائلة. العلاقة مع الرعية تقوم على أساس المساندة المطلقة لهذا الزعيم من قبل عشيرته والجذور العائلية او الحزب او الارتباط الطائفي او العرقي وتفانيهم في الدفاع عن الزعيم. هذا الشخصية تعطي لاتباعه الحرية في ان يقوموا بما يشاؤون ضمانا لولائهم مما يؤدي الى وضع اتباعه في صراع ظاهر او احيانا خفي مع فئات المجتمع الأخرى، قد تؤدي الى نزاعات كبيرة. الولاء من الاتباع يظهر على اشكال مختلفة منها مظاهر تقبيل اليد او الكتف او الرأس. إدارة العشيرة او العائلة قد تنجح لمثل هكذا شخصية، ولكن عندما يتحول هذا النموذج الى إدارة الدولة، فقد يخلف الكثير من المشاكل والخلافات العميقة.

الزعيم العسكري

تنطلق هذه الشخصية من فكرة أساسها ان الضبط العسكري هو الحل لإدارة الدولة او المؤسسة او المعمل.. الخ. مشكلة هذه الشخصية انها ملتزمة بالعقلية العسكرية التي تقوم على أساس الالتزام الحرفي بتنفيذ التعليمات والمهام دون نقاش، ولهذا فهي غير مؤهلة لكي ترى احتمالات أخرى. المنظومة العسكرية تربي الفرد على الطاعة أولا وتنفيذ المهام ثانيا دون نقاش. ومن هنا تكون هذه الشخصية أحادية التوجه والرؤية. تنفيذ التعليمات بدون نقاش يمنع

الابداع، اذن هناك واحد يفكر والاخرين ينفذون. المشكلة عندما يتسلم العسكري زمام الحكم على فئات متباينة تحتاج الى مرونة وتقبل المناقشة يقع في حيرة من امره، يؤدي في اغلب الأحيان لبروز دوره العسكري على شخصيته السياسية. هناك فرق واسع بين عقلية السياسي وعقلية العسكري، كلّ في دوره مطلوب ولكن تبادل الأدوار يضع هذه الشخصية في إشكالات كبيرة. العسكرية في طبيعة عملها لا تؤمن بالديمقراطية وحق الآخر في ابداء الرأي. ومن هنا العسكري الحاكم يميل بطبعه المهني الى الدكتاتورية. ولم يذكر لنا التاريخ على مر العصور عسكريا استطاع بناء منظومة ديمقراطية او يقود مؤسسة مبنية على احترام الرأي والرأي الاخر.

الزعيم المتحيز

هذا المثال ينطبق علي الاب الميال في تعامله مع اطفاله، ان يكون متحيزا لطفل من اطفاله على حساب الآخرين، او مدير المؤسسة الذي يميز بين موظفيه بناء على ما ينفذونه له من خدمات، ويجعل بعضهم جواسيس على بعض. في هكذا ظروف تكون المنظومة مهددة بصراعات حادة قسم منها مخفي والآخر يبرز في ظروف ما على السطح مما يؤدي الى انقسامات حادة داخل العائلة في حالة الاب او المؤسسة في حالات العمل. هذا قد يتوسع حين يكون الزعيم له هذه الشخصية، فتدب الخلافات بين الاتباع وتؤدي الى صراعات طاحنة.

الزعيم المستغرب

المعجب بنظام اجتماعي موجود ومطبق في ظروف ومجتمعات أخرى لها ثقافة مختلفة وتاريخ سياسي مختلف وحتى وضع اقتصادي مختلف. نقل تجارب الشعوب او المؤسسات الأخرى دون الاخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعية والتاريخية وكذلك الثقافة السائدة قد يؤدي الى كوارث في التطبيق الفعلي. التجارب عند الآخرين يمكن الاستفادة منها ولكن نقلها حرفيا قد يؤدي الى انفصام بين الأهداف والواقع مما يؤدي في النهاية حتما الى فشل المشروع التنموي. نقل تجارب الغرب مهمة للاستدلال بها ولكن ليس لتطبيقها حرفيا في ظروف الشرق الأوسط. الزعماء الذين حاولوا استقدام تجارب الغرب وتنفيذها في مجتمعاتهم الشرق أوسطية او الافريقية، فشلت فيها هذه التجارب رغم ان الفكرة كانت جيدة.

الفيلسوف الحالم

نوع من الزعامات التي يصل اصحابها بمحض الصدفة فصاحب هذه الشخصيّة لا يسعى لمنصبه ولكن بسبب ظروف معينة قد تحمله لتسلم مهام هو فكريا غير مستعد لها، اما بسبب القرابة والظروف السياسية. هذا الشخص عند ارتقائه المنصب يميل الى الحديث كثيرا بخطابات مطولة فيها من الاحلام والفلسفة بعيدة عن الواقع. هذا الزعيم يكون في ازمة داخلية بين حركة الحياة التي اعتاد ان يعيشها قبل تسلم المنصب وبين البرج العاجي الذي وضعه فيها منصبه الحالي،

وان يرى الواقع من خلال هذه المتغيرات. هكذا شخصية غير قابلة للتعامل مع الاحداث والمتغيرات السياسية بحزم وثبات بل بالكلام والخطابات التي يريد منها اقناع الاخرين. مثل هكذا شخصية تكون غير مؤثرة في الجماهير بل وان الجماهير قد تنقلب ضدها في أسرع وقت. ان هكذا شخصية لا تفرض احتراما لما تؤمن به عند العامة وتقنعهم (رغم ان ما تقولوه فيه مصلحة لهم) وسرعان ما يترك وحيدا في مواجهة الازمات.

الوريث

وهو من يرث السلطة كملك او رئاسة بعقل القرابة او العصبية او الظروف السياسية وليس بسبب الكفاءة او الكفاح وتاريخ طبيعي في العمل السياسي.

ان شخصية أي فرد هي مزيج معقد من سمات لها علاقة بالطبيعة البيولوجية للفرد مثل الشكل والمظهر العام كالطول او القصر او غيرها وكذلك الحضور والكاريزما. هذه الأمور تخلق مع الفرد ولا يمكن فعل التغيير الكبير فيها وهناك سمات وصفات مكتسبة من البيئة التي تحيط بهذا الفرد وكذلك خليط من العادات والتصرفات التي لها علاقة بالتربية والتنشئة وهناك اخلاق مكتسبة يأخذها الإنسان من العلاقات في العائلة او المجتمع الصغير المحيط به. إذا، مفهوم الشخصية عنوان معقد لا يمكن ان نؤطرها بأوصاف محددة بكلمات، فما بالك إذا كان هذا الوصف لشخصية سياسية مؤثرة والتي هي في أساسها تحمل الكثير من التعقيد والمتناقضات. ومن هنا كان علينا ان نبتغي الحذر ونحن نحدد ملامح الشخصية السياسية. فقد يكون فرد يجمع بين المتناقضات وتنطبق عليه سمات موجودة في عدد من الشخصيات كما ورد آنفا. سنحاول في المقالة القادمة ان نتناول تطبيقات هذا العلم العملية في دراسة مقتضبة على شخصيات سياسية، لعبت دورا في التاريخ الحديث.

المصادر:

1- Cottam, M.L., Dietz-Uhler, B., Mastors, E., Preston, T. (2010). Introduction To Political Psychology. New York, NY: Psychology Press

2- لدراسة مؤلفات أدولف بستيان انصح بالرجوع الى الانسكلوبيديا البريطانية تحت اسم هذا العالم : Encyclopedia Britannica Online

3- سيكولوجية الجماهير، غوستاف لو بون - ترجمة وتقديم هاشم صالح؛ دار الساقي، 2011 / 1895

4- Political psychology Gustaf Le Bone 1910

5- Psychology of Group - Sigmund Freud 1910
يمكن الرجوع الى المؤلفات الكاملة لسيغمود فرويد، وحسب علمي هذا الكتاب لم يترجم الى العربية.

6- علم النفس السياسي رؤية مصرية عربية، د. محمد المهدي، المكتبة الانجلو المصرية، 2007

نموذج مقترح لقيام مجلس الحبوب العراقي

"دراسة تحليلية"

إعداد: د.حيدر عبدالامير الغريباوي
وزارة التجارة

الدكتور حيدر عبدالأمير الغريباوي، كاتب وباحث عراقي. حاصل على شهادة الدكتوراه/ فلسفة في الاقتصاد. تخصص علاقات اقتصادية دولية، من كلية الإدارة والاقتصاد/ من الجامعة المستنصرية، فضلاً عن بكالوريوس اقتصاد/ فرع التخطيط من كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة بغداد، مدير البحوث والدراسات في الشركة العامة لتجارة الحبوب، احد تشكيلات وزارة التجارة العراقية. له مساهمات عديدة في المشاركة بالندوات والمؤتمرات العلمية التي تعقدها وزارة التجارة. نشر العديد من البحوث والدراسات العلمية والاقتصادية.

المقدمة

يعد مجلس الحبوب جهازا حكوميا للدول التي تعتمد عليه في تنظيم وتفعيل الأنشطة المختلفة في تجارة الحبوب، وتنبع هذه الأهمية من كونه المسؤول عن توفير الحبوب المتنوعة للمجتمعات، فكلما امتاز المجلس بالفاعلية والتمييز في تسيير الانشطة، كلما ساهم في ترسيخ قواعد الاستقرار والامن الغذائي والاقتصادي والاجتماعي للدولة. ولذا تركز كافة الحكومات على اصلاح وتطوير مؤسساتها التجارية باستمرار لتواكب التطورات اولا بأول. وبدورها ساهمت الامم المتحدة والمنظمات النوعية بإقامة المؤتمرات ذات الصلة، ومنها (مؤتمر الحبوب الدولي وهو منتدى رفيع المستوى يجتمع فيه كبار ممثلي القطاع الخاص والمسؤولون الحكوميون ويضم في عضويته 27 عضوا، منهم 17 عضوا مستوردا و 10 اعضاء مصدرين) الذي يتمتع بحضور من كافة دول العالم، والذي يستعرض فيه احدث النظم والتجارب الحكومية في التطوير.

وبناءً على ما اقره مجلس النواب وصادق عليه رئيس الجمهورية بالاستناد الى احكام البند (اولاً) من المادة (61) والبند ثالثاً من المادة (73) واستناداً الى احكام المادة (80) البند سادساً من

الدستور، صوت مجلس النواب في جلسته التاسعة والعشرين، على مشروع قانون انضمام جمهورية العراق الى اتفاقية تجارة الحبوب لعام 1995 المقدم من لجان العلاقات الخارجية والقانونية والاقتصاد والاستثمار والزراعة والمياه والاهوار، لتعزيز التعاون الدولي في تجارة الحبوب الدولية وتأمين التدفق الحر لهذه التجارة بما يحقق المصلحة لكافة الاعضاء والمساهمة في استقرار الحبوب الدولية وتعزيز الامن الغذائي.

للعلم ان هناك ثلاثة اتفاقات تدخل في التجارة الدولية للحبوب هي:

(أ) اتفاقية تجارة القمح، 1986. أبرمت في لندن في 14 / آذار مارس 1986؛

(ب) اتفاقية المعونة الغذائية، 1986. أبرمت في لندن في 13 آذار/ مارس 1986؛

(ج) اتفاقية تجارة الحبوب، 1995. أبرمت في لندن في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1994.

حيث يعد التواصل والمشاركة في اتفاقيات التجارة العالمية للحبوب جزءاً لا بد منه في الاستراتيجيات الوطنية للتجارة لدى معظم البلدان، مع الأخذ بالاعتبار أن عملية الانفتاح على تجارة الحبوب الدولية وما يترتب عليها من تبعات، تحتاج إلى إدارة مناسبة، إذا ما أريد للتجارة أن تكون في صالح تحسين نتائج الامن الغذائي.

وتأسيسا على ما تقدم في هذا الموضوع سوف نركز على المحاور الآتية:

المحور الاول: الرؤية والرسالة لمجلس الحبوب العراقي.

المحور الثاني: الهدف والمهام لمجلس الحبوب العراقي.

المحور الثالث: الهيكلية والادارة والشؤون المالية لمجلس الحبوب العراقي.

المحور الرابع: الهياكل التنظيمية لمجالس الحبوب في بعض الدول العربية (مصر والاردن وسوريا والسعودية) كأقرب الى واقعنا الاقتصادي.

المحور الخامس: السياسة التجارية لمجلس الحبوب العراقي في تجارة الحبوب.

المحور السادس: دور مجلس الحبوب العراقي في التعامل مع الازمات قبل حدوثها وفي أثنائها وبعدها.

المحور الاول
الرؤية والرسالة والهدف لمجلس الحبوب العراقي:

تتحدد رؤية ورسالة مجلس الحبوب العراقي باتجاه النهوض بالواقع الاقتصادي في البلاد بالاطار الآتي:

رؤيتنا: تحقيق رؤية الحكومة المتمثلة في رفع مستويات الانتاج الزراعي من الحبوب من اجل تعزيز الدور الانتاجي للمزارعين والمستثمرين العاملين بالقطاعين الزراعي والتجاري، بما يسهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي والامن الغذائي، وتشجيع الاستثمار المحلي والاجنبي في مشاريع تطويرية زراعية للحبوب

(الحنطة – الرز - الشعير)، فضلاً عن جعل هذا القطاع المحرك الأساسي للتنمية الاقتصادية، ومنافساً حقيقياً في ميدان تجارة الحبوب الدولية، بما يعزز تحقيق فاعلية التجارة الخارجية من خلال تهيئة كافة الاسس في اطار العمل التخصصي ضمن الرؤية الاستراتيجية لعمل تجارة الحبوب في العراق.

رسالتنا: السعي لتعزيز وتفعيل الجهود وتنسيقها، وتطوير السياسات والخطط والبرامج التنموية في جميع الأنشطة الاقتصادية المتعلقة برفع مستويات الإنتاج للحبوب، فضلاً عن تحقيق قفزات نوعية في مستوى الانتاج (للقمح والرز المنتج محلياً) تساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية وبما يؤمِّن الاستغلال الأمثل للطاقات والإمكانات البشرية والمادية، وتعزيز الشراكة في القطاعين العام والخاص، وتوظيف الجهود للوصول إلى تنمية شاملة مستدامة.

وبشكل عام ترتكز الرؤية الوطنية في انشاء مجلس تجارة الحبوب العراقي على خمسة مرتكزات رئيسة:

1. تطوير إمكانية إتاحة منتجات عالية الجودة من الحبوب لصالح المستهلك وبأسعار منخفضة وبمعايير صحية عالمية.

2. تقديم نموذج تجاري يجذب جميع المستثمرين في الخارج ويتكامل مع المشهد الحضري للبلاد من خلال حزمة كاملة من التشريعات الجاذبة للاستثمار الاجنبي.

3. تطوير كفاءة التجارة الداخلية بما يجعلها أكثر جاذبية للمستثمرين المحليين للارتقاء بمستواهم وتطوير ودعم بنيتهم التحتية.

4. الارتقاء بالتجارة الخارجية من خلال آليات تمويل وتحديث المجالات التجارية.

5. وضع العراق كمحور إقليمي بإعادة تطوير تدريجي في هياكل التجارة الخارجية للحبوب وجذب كبار المستثمرين على المستوى العالمي.

ويتمثل الهدف من إيجاد مجلس تجارة الحبوب العراقي في:

1) رسم سياسة اقتصادية تعمل على تقييم الدعم المقدم لاستهلاك الحبوب عبر البطاقة التموينية (الطحين والرز)، والتحقق من أن الدعم يصل إلى الفئات المستهدفة بالصورة الملائمة، من خلال دعم اسعار المشتريات من القمح المنتج محليا بما يتوازن ويتوافق مع حجم الطلب داخل الدولة ويمنع محاولات التهريب عبر الحدود إلى البلدان التي يكون السعر المحلي بها اقل ارتفاعا.

2) وضع سياسة مالية ترسم مسارات دعم تكلفة التخزين والنقل في الالتزامات وبما يسهم في تقليل الخسائر في القمح او الرز المفقود على امتداد سلسلة إمدادات استيرادات الحبوب.

3) رسم سياسات تجارية فاعلة للجهات القائمة والمنفذة لعمليات تجارة الحبوب وبما يؤدي إلى رفع مستويات فاعلية القدرة التنافسية للتجارة الخارجية للحبوب، فضلاً عن تنمية وتطوير الأعمال بوضع الاستراتيجيات والسياسات التنموية والتي

تؤدي إلى تطوير هياكل التجارة الداخلية والخارجية للحبوب تدريجياً وجذب كبار المستثمرين.

4) رسم سياسات تنموية هادفة الى رفع مستويات الكفاءة الانتاجية للموارد البشرية من خلال تقليل الهدر والضياعات نتيجة سوء الادارة والعمل، التي تؤدي الى فقدان المزيد من الحبوب أثناء عمليات المناولة والنقل، أو عدم القدرة على تفريغ القمح عن آخره في ارصفة الموانئ وتلافي التلف في القمح الذي لا يعد صالحا للتصنيع او الاستهلاك.

5) على المستوى العالمي، يجب العمل على وضع العراق كمحور إقليمي لتنشيط التبادل التجاري للمنطقة العربية والعالمية وقيام جميع إدارات المجلس بدورها في تنمية وتطوير وإعادة هيكلة منظومة التجارة الداخلية والخارجية في إطار الخطة الإستراتيجية التي يضعها المجلس، وفقاً للسياسات العامة التي تضعها الدولة بشأن التجارة الداخلية والخارجية، في تقييم أداء تجارة الحبوب (صادرات واستيرادات القمح والرز) وتحديد الاختناقات والصعوبات المحتملة ووضع التوصيات للتخلص منها.

6) مواجهة التحديات، تلقي الدراسة نظرة شمولية على سلسلة واردات القمح والرز، وتفحص السبل التي يستطيع المجلس من خلالها استخدام المخزون الاستراتيجي بصورة أفضل وتحد من تكاليف لوجستيات سلسلة واردات القمح والرز والزمن اللازم للنقل، وتحقق الاستفادة المثلى من أدوات الشراء والتحوط من المخاطر.

7) يسعى المجلس الى تطوير وتوفير بيئة عمل جماعي شاملة ومتنوعة لأفضل وابرز المهنيين وتمكينهم من الوصول للنجاح في تحسين مبيعات ومشتريات الحبوب وتحقيق ربحية المزارعين والسياسات التجارية باستمرار.

المحور الثاني
المهام الاساسية لمجلس الحبوب العراقي

يتولى المجلس المهام والاختصاصات الآتية:

1. يقوم مجلس الحبوب العراقي برسم السياسات الاقتصادية المالية منها والنقدية الكفيلة بتطوير تجارة الحبوب (استيراداً وتصديرا) و(الحنطة على وجه الخصوص) والمنتجات ذات الصلة فالمجلس يضع في اعتباراته أن الصادرات أمر حيوي للتنمية الاقتصادية في البلاد.

2. اقتراح التشريعات الوطنية لتنظيم الأنشطة التجارية للحبوب الزراعية مع الهيئات الرقابية الحكومية ودوائر الدولة ذات العلاقة بما يتناسب مع خطة الدولة وأهدافها وبما يتوافق مع المعايير الدولية، وتنسيق الجهود الوطنية في مجال الحبوب وتنفيذ المشاريع المتعلقة بهذا النشاط وفقاً للسياسات والبرامج المقرة وحسب الاولويات المحددة.

3. تمثيل جمهورية العراق في المنظمات والهيئات العربية والإقليمية والدولية ذات

الصلة بالتنسيق مع دوائر الدولة المعنية، ويكون المجلس عضو الارتباط الوطني بهذه المنظمات.

4. يمثل المجلس في مجلس الحبوب العالمي من خلال مستشارية علمية دائمة تتم تسمية أعضائها بالتشاور مع الهيئات الرقابية الحكومية ويكون مقرها في الممثلية الدائمة للعراق في مجلس الحبوب العالمي في بريطانيا.

5. يقوم المجلس باقتراح السياسات والمشاريع والبرامج في جميع مجالات تجارة الحبوب مع الاشراف على تنفيذ الالتزامات الوطنية بموجب الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي تتعلق بتجارة الحبوب في العراق، وبما يساهم في التنمية الوطنية.

6. المشاركة في اعداد خطط الطوارئ الوطنية للازمات وبالتنسيق مع الهيئات الرقابية الحكومية والمساهمة في التصدي لها، ووضع خطط التأهب والاستجابة للطوارئ في حال حدوثها.

7. يدعم المجلس التوجهات العالمية للتجارة الحرة والعادلة في جميع أنحاء العالم وبما يتوافق مع الاتفاقيات التجارية الدولية لمنظمة التجارة العالمية.

8. يدعم المجلس التحالفات مع المنظمات الدولية ذات الاهتمام المماثل في جميع أنحاء العالم.

9. يدير المجلس برامج تطوير سوق الحبوب، فضلاً عن اشرافه على الأموال المخصصة لتطوير مشاريع الحبوب الاستراتيجية في البلاد، مع تقديم الاستشارات العلمية للجهات العليا في مجال الاختصاص..

10. وضع القواعد الخاصة بتنظيم سلوك الاشخاص المشاركين في انشطة المجلس.

11. تتمثل إحدى المهام الاساسية لموظفي المجلس في التواصل مع المسؤولين المحليين الحكوميين لمعرفة المزيد حول القضايا العالقة ونشر الحلول بسرعة.

12. إقرار الهيكل الإداري للمجلس، مع إقرار النظام الداخلي له وجميع أنظمة عمله، ووضع آليات تنفيذ القرارات الصادرة عن الجهات العامة التي يقع على عاتق المجلس تطبيقها ومراجعتها.

13. القيام بمهام التجارة الخارجية في ما يتعلق بتجارة الحبوب وجميع المواد اللازمة لتحقيق أغراضه وفق القوانين والأنظمة النافذة.

14. بناء القدرات الوطنية المختصة العاملة بنشاط تجارة الحبوب وتأهيلها وتطويرها عن طريق البعثات والاجازات الدراسية والزمالات والدورات التدريبية داخل جمهورية العراق وخارجها بالتنسيق مع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والجهات الأخرى ذات العلاقة.

15. دراسة المواضيع المحالة من رئيس المجلس أو الوزارات او الجهات غير المرتبطة بوزارة وتقديم التوصيات في شأنها.

16. اقتراح التشريعات الوطنية لتنظم بالتنسيق مع الهيئة الرقابية ودوائر الدولة

ذات العلاقة بما يتناسب مع خطة الدولة وأهدافها وبما يتوافق مع المعايير الدولية.

17. وضع خطة التوعية الإعلامية في مجال استثمار الاراضي الزراعية للحبوب الاستراتيجية في مقدمتها(الحنطة والرز).

المحور الثالث
الهيكلية والادارة لمجلس الحبوب العراقي

اولاً: الهيكل التنظيمي للمجلس:

1. يؤسس المجلس بموجب القانون تحت تسمية (مجلس الحبوب العراقي)، يتمتع بالشخصية المعنوية فضلاً عن الاستقلال المالي والإداري، ويمثله رئيس المجلس أو من يخوله ويرتبط بمجلس الوزراء، يكون مقر المجلس في بغداد.

1. تتخذ قرارات المجلس بأغلبية أصوات أعضائه الحاضرين وفي حال تساوي الأصوات يرجح جانب رئيس الجلسة.

2. يجتمع المجلس مرة واحدة في الأقل كل شهر، أو كلما دعت الحاجة الى ذلك بدعوة من رئيس المجلس.

3. ينعقد المجلس بحضور ثلثي عدد اعضائه وتصدر توصياته بأغلبية عدد الأعضاء، وفي حالة تساوي الأصوات يرجح الجانب الذي صوت معه الرئيس.

4. يسمي رئيس المجلس احد موظفي الهيئة مقررا للمجلس.

5. لرئيس الهيئة تخويل أي من نائبيه لترؤس الاجتماعات.

إدارة مجلس الحبوب العراقي

ثانياً: ادارة المجلس:

- يرأس ادارة المجلس موظف بدرجة خاصة يعين وفق القانون.
- لرئيس المجلس نائبان بدرجة وكيل وزير يعينان وفق القانون.

أ- نائب للشؤون العلمية والفنية.

ب- نائب لشؤون السياسات الاقتصادية والتجارية.

- تتألف إدارة المجلس من وكلاء عدد من الوزارات والهيئات الحكومية وغير الحكومية بالنسبة للقطاع الخاص، فضلا عن ممثليه من السلطة المالية النقدية بالنسبة للبنك المركزي:
  - ممثل عن رئاسة الوزراء / عضوا
  - وكيل وزارة التجارة / عضوا
  - وكيل وزارة المالية / عضوا
  - وكيل وزارة الزراعة / عضوا
  - وكيل وزارة التخطيط / عضوا
  - وكيل وزارة الموارد المائية / عضوا
  - وكيل وزارة الصناعة / عضوا
  - ممثل عن البنك المركزي العراقي / عضواً
  - ممثل عن الامن الوطني / عضواً
  - ممثل عن الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية / عضواً
  - عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العام لنقابات العمال / عضوا
  - عضو الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية التعاونية / عضوا

يتولى رئيس المجلس ما يأتي:

أ- ضمان تنفيذ سياسات المجلس واستراتيجياته.

ب ـ الاشراف على اداء المجلس وفعالياته وانشطته.

ج ـ اقتراح التعليمات والانظمة الداخلية واصدار القرارات والأوامر في كل ما له علاقة بالمجلس وسائر شؤونه الفنية والتنظيمية والادارية.

د ـ تقديم المشورة لجهة القرار في كل ما يتعلق في شؤون تجارة الحبوب.

هـ ـ تأليف اللجان المتخصصة والاستعانة بالخبراء والاختصاصيين من الموظفين وغير الموظفين ومنحهم المكافآت المناسبة وفقا للقانون.

و ـ اقرار قواعد حماية وسرية المعلومات المتعلقة بعمل المجلس.

ز. لرئيس الهيئة تخويل بعض مهامه الى نائبيه.

المحور الرابع
الهياكل التنظيمية لمجالس الحبوب في بعض الدول العربية (مصر والاردن وسوريا والسعودية) كأقرب الى واقعنا الاقتصادي العراقي

تعد البلدان العربية التي تمت دراسة تجاربها من أكبر مستوردي ومنتجي للحبوب، الا أنها كانت تختزن 10% من المخزون العالمي للقمح خلال عام 2010 ، وتعتبر مصر هي الدولة العربية الاولى ضمن أكبر عشرة بلدان تحتفظ بمخزونات القمح.

ونشير الى أن مجالس الحبوب للبلدان العربية تقوم بإعادة النظر في استراتيجياتها بشكل مستمر فهي تدرس التوسع في الاحتياطي الاستراتيجي الخاص بها حتى تتمكن من الاحتفاظ بمخزون قمح يكفي لفترة تتراوح بين ستة شهور وعام كامل.

يبين الجدول رقم (1)/ الملحق، الهياكل التنظيمية لمجالس الحبوب في بعض الدول العربية (مصر والاردن وسوريا والسعودية) كأقرب الى واقعنا الاقتصادي العراقي، والتي تتيح لنا الاسترشاد في نمط هيكيلتها الادارية والفنية عند البحث في موضوع دراستنا الحالية.

المحور الخامس
السياسة التجارية لمجلس الحبوب العراقي في تجارة الحبوب

توفر الدراسة سياسة تجارية رفيعة المستوى للقائمين على تنفيذ السياسات التجارية للحبوب كي تتولى تحسين سلاسل إمدادات واردات القمح والرز الخاصة بها، فضلاً عن الصادرات عند تجاوز متطلبات الاكتفاء الذاتي، وقد ركز الفريق المكلف في دراسة انشاء مجلس الحبوب العراقي على الخيارات التجارية ذات الجدوى للدولة لتحسين أداء التجارة الخارجية للحبوب.

ويراقب مجلس الحبوب العراقي عن كثب ضمن سياساته التجارية العامة التعريفات الكمركية وغيرها من الحواجز التجارية التي لديها القدرة على تقييد أو منع توريد الحبوب من الأسواق الدولية.

ونشير الى أن السوق الدولية للحبوب من أهم أسواق المواد الغذائية العالمية، إذ يدخل حوالي خمس الإنتاج العالمي في التجارة الدولية لهذه المادة بمختلف رتبها وأصنافها، وكونه يمثل أهم أنواع الحبوب استهلاكا لا يكمن الاستغناء عنه أو احلاله كلياً بأي من انواع الحبوب الاخرى.

ان شركات تجارة الحبوب الرصينة متعددة الجنسيات تتمثل في Cargill (الولايات المتحدة الأمريكية) و Co-tinental Grain (الولايات المتحدة الأمريكية) و Louis Dreyfus (فرنسا) و Bunge (هولندا) و André (سويسرا) التي تسيطر على سوق الحبوب العالمي، وتستحوذ على حوالي ثلثي تجارة الحبوب الأمريكية، وأكثر من 80 ٪ من الصادرات ، و 70 إلى 80 ٪ من سوق الحبوب العالمي، ولها تأثير حاسم في السوق الدولية للمنتجات الزراعية بالإضافة إلى تجارة الحبوب.

اولى العراق اهتماما لقطاع الحبوب الذي عد من اهم القطاعات الاستراتيجية، الذي يسهم في تحقيق الامن الغذائي، خاصة في انتاج القمح والرز حيث حاز القمح النصيب الاهم من الدعم والتوسيع في مساحات زراعته ودعم مدخلات انتاجه والعديد من السياسات والبرامج الأخرى التي انتهجها لتحقيق الامن الغذائي، علماً أن العراق يتمتع بنسبة اكتفاء ذاتي عالية من الشعير والذرة، فلم تستورد الدولة أي كمية لاكتفائه بإنتاجه المحلي.

وبدورها تركز اتفاقية تجارة الحبوب، التي صوت البرلمان عليها، على فاعلية التجارة الخارجية واتخاذ الوسائل الحمائية المتبعة في الرقابة على الواردات في ثلاثة اشكال منها، مراقبة الصرف، والتعريفة الكمركية، ونظام الحصص.

1. مراقبة الصرف: لغرض محاولة التقليل من خروج العملة الصعبة وكذا التحكم في التقلبات النقدية للسوق الدولية وتحديد آثارها على العملة الوطنية.

2. التعريفة الكمركية: وهي تعني مجموع الضرائب والرسوم الكمركية المطبقة في دولة ما، خلال مدة زمنية معينة على السلع والخدمات عند عبورها الحدود السياسية دخولاً وخروجاً.

3. نظام الحصص: أي تحديد حجم الواردات مع إمكانية تحديد المنطقة الجغرافية مصدر الاستيراد، ومن أهداف هذا الإجراء حماية المنتج الوطني والحد من استيراد السلع، وتحسين وضع الميزان التجاري.

يقوم العراق بدعم كبير لأسعار الحبوب وتنظيمها ما يعزل المنتجين عن التغيرات في الاسعار التي تصيب الاسواق الدولية، غير ان انخفاض سعر العملة الوطنية ينطوي على ارتفاع فواتير واردات الحبوب للبلد.

ويعد المجلس بمثابة آلية هامة لسياسة الدولة العراقية فهذا المجلس مكلف بضمان التسوية بين الانتاج المحلي، واحتياجات المواطنين من الحبوب ومن جهة اخرى فأن المجلس يرفع المستوى التجاري لمادة الحبوب، حيث أن الآلية في

السياسة التجارية لمجلس الحبوب تتمثل في المشاركة في الاستيراد والاستلام والتخزين ونقل بذور الحبوب كما يقوم بمراقبة الاسعار.

ويولي المجلس اهتماماً خاصاً لتوريد السوق العالمية للحبوب عن طريق مشاركته في النشاطات الدولية، اذ يقوم بشراء كميات معتبرة من القمح والحبوب الثانوية من أماكن عالمية مختلفة لتأمين السوق الداخلية.

ويعد القمح والرز طليعة المحاصيل الاستراتيجية العالمية بحكم أهميته الغذائية التي تشكل مصدراً غذائياً لأكثر من 35% من سكان العالم، فهو يغطي اكبر مساحة مزروعة على سطح الارض بالمقارنة مع المحاصيل العذائية الاخرى، وهذا كان من اهم الاسباب التي جعلت القمح والرز سلعة تجارية عالمية بامتياز، فأصبحت السوق الدولية للقمح والرز من أهم أسواق المواد الغذائية ضخامة من حيث الطلب عليه.

وتتطلب تجارة الحبوب توفر كميات فائضة للتصدير وإجراءات ووسائل نقل (بواخر وقطارات)، كما تخضع لبورصات عالمية ولاتفاقيات التعاون الدولي (كمعاهدة تجارة الحبوب)، ويديرها المجلس العالمي للحبوب.

يتولى المجلس سياسة ومسؤولية مهمة تلبية كامل احتياجات العراق من القمح والرز والتي يتم استيرادها من الخارج، فضلاً عن المساهمة في وضع قواعد وإجراءات ترشيد استهلاك المياه في البلاد، وتنظيم استخدامها في المجالات الزراعية في جميع المدن والمحافظات. ويطبق المجلس سياسة ثابتة لشراء سلعة القمح والرز من الاسواق العالمية، تتسم بالشفافية من خلال طرح مناقصات عالمية تتنافس فيها الشركات العالمية الكبرى المتخصصة في تجارة الحبوب، ويتم ذلك من خلال خطوات رئيسة ترتكز على خمسة مبادئ رئيسة هي:

1. انتقاء أفضل المواصفات.
2. التعامل مع الشركات العالمية الكبرى.
3. تأهيل فريق عمل من المتخصصين بالمجلس.
4. متابعة تطورات الاسواق العالمية لسلع الحبوب.
5. طرح المناقصات العالمية.

المحور السادس
دور مجلس الحبوب العراقي في التعامل مع الازمات قبل حدوثها وفي أثنائها وبعدها

يتناول المحور الحالي دور مجلس الحبوب العراقي في التعامل مع الازمات قبل حدوثها وفي أثنائها وبعدها، في محاولة لوضع اطار محدد بالإمكان الاسترشاد به كسياق تعامل حقيقي مع سبل معالجة الازمات وقد اوجزت حسب جدول يبين طريقة التعامل مع الازمة حسب واقعها الزمني وكما موضح في الجدول رقم (2)/ الملحق في ادناه.

الملحق

جدول رقم (١)

الهياكل التنظيمية لمجالس الحبوب في بعض الدول العربية

الدولة	الهيكل التنظيمي لمجلس الحبوب	اهم نشاطاته	المخزون الاستراتيجي ومخزونات الطوارئ
مصر	وزارة التموين والتجارة الداخلي: لها مهام متعددة وتمس حياة المواطن البسيط بشكل مباشر وتتلخص أهمها في ضمان وصول المواد التموينية للمواطنين:	– توفير الدقيق لغرض تصنيع الخبز البلدي من الأفران (القمح). – السلع التموينية من المتاجر (الزيت والسكر والأرز) – تنسق مع وزارات أخرى منها وزارة البترول والثروة المعدنية ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضي بالتجاه تسويق وتخزين وتصنيع الحبوب	يعتبر القمح محصول الحبوب الرئيس الذي له مخزون استراتيجي تتولى الحكومة برنامج تخزينه وضخه وتداوله ووضع سياساته العامة
سورية	مؤسسة عامة ذات طابع اقتصادي تسمى "المؤسسة العامة للتجارة وتخزين وتصنيع الحبوب" (السورية للحبوب) تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي والإداري وترتبط بالوزير مقرها مدينة الحسكة.	– تنفيذ السياسة العامة للتسويق وتخزين وتصنيع الحبوب الداخلة في نطاق عملها لتأمين حاجة الاستهلاك داخل الدولة وتصدير الفائض. – ممارسة التجارة الخارجية فيما يتعلق بالحبوب والمطاحن والممالن والآلات والمعدات والتجهيزات وقطع التبديل وجميع المواد اللازمة لتحقيق أغراضها وفق القوانين والأنظمة النافذة. – ممارسة التجارة الداخلية وفتح مراكز لتسويق الحبوب والقيام بعمليات الطحن والتصنيع والتوزيع والبيع لمنتجاتها. – إنشاء وتطوير وإدارة واستثمار واستثمار الصوامع والصوبمعات والمطاحن والمستودعات والممالن ومراكز التسويق والمنشآت والأبنية التابعة لها. – تخزين الحبوب ومشتقاتها ومعالجتها في الصوامع والمنشآت المعدة لها بما يضمن المحافظة عليها سواء لحسابها أم لحساب الغير. – عقد الاتفاقيات والعقود الداخلية والخارجية اللازمة في سبيل تحقيق أهدافها. – تحديد مواصفات الحبوب ووضع الدراسات اللازمة لتطوير وتحسين منتجات صناعة الطحن والمخابز. – تصنيع وتركيب وصيانة التجهيزات الميكانيكية والكهربائية للصوامع والصوبمعات والمطاحن لمنشآت المؤسسة ولحساب الغير. – إقامة الدورات التدريبية لتأهيل الكوادر الفنية التابعة لها. – القيام بكل ما من شأنه تحقيق مهام المؤسسة.	تتولى ادارة سياسات المخزون الاستراتيجي ووضع البرامج وتنفيذ خطط المخزون الاستراتيجي والتي عادة ما يتم وضعها من قبل وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية. وبالجدير بالذكر ان هناك نوعين من المخزونات بسوريا أحدهما المخزون التجاري ويستخدم للمواد التي يسمح بتداولها بشكل طبيعي وتدوري، والثاني هو المخزون الاستراتيجي والذي يستخدم في حالات الطوارئ فقط
السعودية	مجلس الحبوب السعودي (المؤسسة العامة للحبوب) كانت تسمى المؤسسة العامة لصوامع الدقيق ومطاحن الدقيق هي مؤسسة حكومية، يقوم عملها على تحقيق التنمية الاقتصادية وتوفير احتياجات المواطنين بأهم السلع الغذائية بالمملكة العربية السعودية. تأسست: 1972	– انشاء صوامع الدقيق لتخزين القمح والمحافظة عليه إلى أن يوجه للمطاحن أو التصدير – قيام مطاحن الدقيق بطحن القمح وإنتاج أنواع متعددة من الدقيق تناسب كافة الأغراض، وإنتاج مشتقات أخرى من القمح كالجريش والهريس والمفلق، وجميعها تستخدم في الأكلات الشعبية، كما تستخلص منها النخالة حيث يستفيد منها الإنسان والحيوان. – مصنع الأعلاف لإنتاج الأعلاف اللازمة لتغذية مختلف أنواع الثروة الحيوانية والداجنة. – مختبرات الجودة تقوم بفحص القمح المورد من المزارعين للتأكد من جودته وخلوه من الشوائب والآفات وفحص مواد الإنتاج للتأكد من سلامتها قبل إدخالها العمليات الإنتاجية ثم فحص المنتجات بعد الإنتاج للتأكد من جودتها ونظافتها قبل التسويق. – خطوط تعبئة الإنتاج وتعبئة المنتجات في عبوات تناسب كافة أغراض الاستخدام. – وحدات التنقية تعمل على تنقية القمح وتعبئته تمهيداً لتسويقه. – وحدات تفريغ الدقائق ورفعها إلى الصوامع، ومن شحنها. – شعبة الصيانة القيام بتركيب المعدات وصيانتها وإصلاح أي خلل يطرأ عليها	تقوم المملكة العربية السعودية بوضع سياسات المخزون الغذائي لمواجهة الحالات الطارئة.
الاردن	يتمثل في وكالة الحبوب الأردنية والشركة العامة الأردنية للصوامع: انبثقت هذه الشركة من رحم وزارة الصناعة والتجارة والتموين بيع ما نسبته 51% من الشركة للقطاع الخاص إلا ان الاحتجاجات التي كانت في ذلك الوقت ضد برامج الخصخصة حكمت الحكومة من بيع الحصة الاكبر من هذه الشركة وابقتها حكومية 100.%		يتم شراء المخزون الاستراتيجي عن طريق طرح عطاء دولي في ضوء الحاجة، وتتولى مديرية المخازن في وزارة الصناعة والتجارة مراقبة المخزون من خلال الصوامع المنتشرة .

جدول رقم (٢)

دور مجلس الحبوب العراقي في التعامل مع الازمات قبل حدوثها وفي اثنائها وبعدها

قبل وقوع الازمة	اثناء وقوع الازمة	بعد وقوع الازمة
1) وضع استمارات تتضمن جميع انواع المعلومات عن مجلس الحبوب العراقي ومشكلاته والزمن المتوقع لحدوث الازمة تقريبا.	1) تقدير الموقف بدقة سريعة للغاية، حيث يتم الاتصال بفريق المواجهة الموجود فعلاً في اثناء الازمة، وانشاء غرفة عمليات سريعة جداً لتحديد حجم واتجاه وملابسات الازمة ومتابعة تطورها.	1) تحديد وتصنيف درجة تأثير الأزمة على المواطنين والوزارة بكافة تشكيلاتها.
2) بناء قاعدة معلومات جيدة وحديثة وشاملة ومتكاملة عن مجلس الحبوب العراقي دون الاعتماد على القديمة.	2) الاتصال السريع بالهيئات الحكومية كوزارة التجارة ودوائرها وشركاتها المختلفة وغير الحكومية المحتمل أن تساعد فعلاً بتقليل مخاطر وآثار الأزمة.	2) اتخاذ (الارشاد النفسي) لحالات القلق والتأهيل النفسي للموظفين عند حدوث طارئ أمني، (الارشاد الاداري والفني) عند حدوث خلل هيكلي معين في منظومة العمل الاداري والفني.
3) بناء ملفات أو دراسات لتوقعات مخاطر وقوع الأزمات وعمل سيناريو دقيق للمواجهة في حالة وقوع الأزمة طبقاً لكل توقع.	3) استخدام معلومات الوعي الوقائي لخفض التوتر والصدمة حتى لا تحدث متكافات ثانوية.	3) استشارة المشاركة الإكاديمية العلمية والمنظمات غير الحكومية للتعاون مع المسؤولين لمساعدة الذين تأثروا من واقع الأزمة.
4) تحديد وسائل وبدائل الاتصال بين جميع العاملين في مجلس الحبوب العراقي.	4) اتخاذ القرارات السريعة الفعالة في ضوء الشروط المتاحة.	4) وضع برنامج حول كيفية إدارة الازمة وإعداد فريق من افراد الوزارة يتم اختيارهم وتدريبهم باستمرار وعلى مدد مناسبة.
5) تشكيل فريق مواجهة الازمات في ضوء خبرات المديرين والأفراد الموجودين داخل مجلس الحبوب العراقي.	5) استخراج الخطط الموجودة للمواجهة بسرعة وعمل التعديل المناسب في حال عدم مناسبتها.	5) الاستفادة من تكنولوجيا العصر ووضع الاجراءات الوقائية لكل مكسب تكنولوجي في حالة سوء استخدامه.
6) الاهتمام الشديد بالأمور التي تبدو صغيرة أو بسيطة وأسنادها لذوي الخبرة والعلم مهما كانت تافهة أو بسيطة.	6) وضع البدائل وسرعة عمل الاجراءات الأولية وضمان عدم الضرر للإجراءات المقدمة.	6) وضع خططاً تدريبية منظمة جداً على السيناريوهات المتوقعة حسب ظروف كل وزارة.
7) وضع احتمالات واضحة جيدة والتي يمكن أن تتعاون وتقدم المساعدة والخبرة في حالة وقوع الأزمة.	7) عمل خطة تفريغ المكان وسرعة نقل الضحايا والمصابين الى المستشفيات في حال كانت الأزمة طبيعية والرجوع الى ذوي الاختصاص ان كانت الأزمات مالية او اقتصادية او اجتماعية.	7) مواجهة الاشاعات المغرضة ووضع الحد لها عملياً واعلامياً والاعتماد على التفكير العلمي في حد ذاته بظل بعيد عن الخسائر المحتملة ويحقق التوازن في حالة وقوع الأزمات.
8) وضع برنامج تدريبي واضح لكل قسم من اقسام مجلس الحبوب العراقي يتناول كل السيناريوهات المتوقعة لحدوث الازمة لأن التدريب يعتبر العامل الحاسم في مواجهة الازمات.	8) الاتصال الجيد بالإعلام وتحديد مسؤول الاتصال الإعلامي والتأكد من وصول المعلومات للجهات المسؤولة بدقة فضلاً عن باقي المواطنين .	

طابع الحزن في الأغنية العراقية
نحو فرضية تفسيرية مغايرة

د. حميد الهاشمي
أستاذ علم الاجتماع- الجامعة العالمية- لندن
hashimi98@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الحزن، الشجن، الأغنية العراقية، العراق، الحضارات الرافدينية القديمة، الانشاد الديني، المراثي الحسينية.

تمهيد:

يعد الحزن أحد المشاعر الإنسانية التي تعكس التعبير عن حالة وجدانية. فهو حاله حال الفرح، والانبهار، والإعجاب، وخيبة الأمل، والغضب، وغيرها. والتعبير عن أي من تلك المشاعر لا بد أن ينعكس في مظهر سلوكي. والمظهر السلوكي هذا يمكن أن يكون بالقول أو الفعل. فالقول منه الصراخ أو البكاء أو سكب الدموع أو الكلام سواء بضمنه نظم الشعر أم إلقاؤه، أو الغناء أو الرقص وغيرها من التعابير السلوكية.

في الجانب الآخر يعد الغناء نوع السلوك المعبر عن المشاعر الوجدانية. وقد اشتهر الغناء كونه تعبيرا عن الفرح والطرب سيما اذا ترافق معه الرقص الذي يعد ملازماً إلى الغناء إلى حدٍ كبيرٍ.

في شأن الأغنية العراقية، يعتقد الكثيرون أن الطابع العام لها هو مسحة الحزن، وتتجلى هذه في أركان الأغنية الرئيسية الثلاثة: الكلمات، والصوت (الأداء)، واللحن الموسيقي.

يقول عالم الاجتماع العراقي الشهير علي الوردي: (الوردي، 2001، 51) استمعوا إلى أغانينا ترونها تعج بالشكوى والتألم. ومما يُحكى في هذا الصدد أن أحد الطلاب العراقيين الذين يدرسون في أميركا، ذهب مرة لزيارة صديق له، عراقيّ أيضاً، فلم يجده في البيت، فجلس مع أم البيت يتحدث عنه. فقالت السيدة تصف العراقي الساكن في بيتها بأنه فتى طيب، ولكنه لا يكاد يدخل الحمام حتى يشرع بالبكاء. يقول فعجبت من هذا القول، وبقيت أنتظر صديقي حتى أتى، فسألته عن سبب بكائه في الحمام، فقال: لم أبك في الحمام، إنما كنت أغني أبوذية عراقية فقط لا غير.

يضيف الوردي في مصدر آخر: (الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، 1965)

حين ندرس الأغاني العراقية، لاسيما المقامات البغدادية منها، نرى طابع الحزن والعويل غالباً عليها. فهي أغاني (جنائزية) على الأكثر، وهي مملوءة بالشكوى من الدنيا وسوء الحظ والشعور بالخيبة والألم. عندما استمع إلى صوت مقام بغدادي وهو صادر من بعيد، في ليلة هادئة، أحس أنه قد لُحن إثر طاعون جارف قضى على أكثر الناس. فهو صوت إنسان مات جميع أهله، وبقي وحده يئن من الوحشة وفناء الدنيا.

بينما دافع فلانين هدجكوك وزوجته في كتابهما (الحاج ريكان: عرب الأهوار) عن الغناء العراقي في بيئة الأهوار بالقول:

وأعترف أن داوتي كان متجنياً حينما وصف غناء العرب بأنه نهيقٌ مضغوطاً من الأنف. فإن اللحن الحزين الذي يبدأ عالياً ثم يتذبذب بين ارتفاع وانخفاض حتى ينتهي بانتهاء نَفَسِ المُغني، كان في أذني بعيدا عن ذلك الوصف الشنيع الذي وصف به''. (فلانين، 2006، 38)

ورغم شيوع وشعبية الأغاني العراقية في المرحلة الحالية عربياً، إلا أن أهم انطباع عنها أنها أغاني حزن، أو ذات طابع حزين، وخصوصاً المواويل. فبمجرد البحث على محرك البحث (google) تحت عبارة (موال عراقي)، فإن ثاني اقتراح سيظهر لك هو (موال عراقي حزين). وهذا يدلل على كثرة تكرار البحث تحت هذه الكلمات المفتاحية، باللغة العربية. وستظهر نتيجة البحث بتاريخ اليوم (02/03/2021) ما عدده (327 ألف) نتيجة. لاحظ إذن كم التكرار لهذه العبارة. والبحث تحت عبارة (أغنية عراقية حزينة)، سيظهر ثالث الاقتراحات على نفس محرك البحث، ونتائجه تبلغ (652 ألفاً).

الأصل الديني للغناء وصلته بالشجن:

بداية، نرى أنه من الضروري إضاءة كلمة (شجن Melancholy)، باعتبارها مرادفة لغناء الحزين. فقد ورد في قاموس المعاني: (قاموس المعاني، 2021) أن الشجن ، تعني (الحزن)، حيث يقال: شجن الرجل أي حزن، وشجنت المرأة (حزنت)، وشَجَنَتِ الحَمَامَةُ : نَاحَتْ، تَحَزَّنَتْ بِتَرْدِيدِ صَوْتِهَا. فهو إذن الحزن، وهو يرتبط دوما بالغناء الحزين.

وبالبحث عميقاً في تاريخ الحضارات، وجذور الموسيقى، فإننا نجد أن الموسيقى والغناء قد نشأتا في المعابد الدينية، وقد تطورتا على مر الدهور والعصور، بتطور الآلات الموسيقية وتلاقح الثقافات.

كذلك يميل (الجابري، وزلزلة، 2013).

فقد كانت الموسيقى في العراق القديم غنائية، حيث صاحبت الآلة الموسيقية الغناء والتراتيل الدينية للفرح والأعياد ومراثٍ وعزاء للموتى ودعوات وصلوات بصورة عامة. وكان الأداء الموسيقي محدودا وله ضوابط معينة على غرار الطقوس والشعائر الدينية. وذكرت النصوص المسمارية أن أكثر الموسيقيين كانوا من الكهنة ورجال المعبد. كما كان بعض الموسيقيين يتعاطون مهناً أخرى

لا علاقة لها بالمعبد ولكنهم يستدعون للمشاركة في العزف والغناء في المناسبات التي تستدعي ذلك. وكان العازفون من الرجال والنساء. إن الموسيقى كانت تدرس، وتعلم في مدرسة المعبد، ومدرسة القصر. وكان التدريس يشمل نظريات في الموسيقى، واغلب النظريات كانت متأثرة بالنظرة الدينية والفلك. (الوزني، 2015)، أنظر أيضاً (البلداوي، ومحمد، 2017).

فيما تشير الكاتبة المصرية مروة البشير (البشير، 2018) في كتابها (فن الإنشاد الديني) إلى أن مصر أول دولة في العالم عرفت الإنشاد الديني، وهو الإنشاد المصاحب للطقوس والعبادات وإقامة الشعائر والصلوات داخل المعابد عبر مجموعة من الترانيم تستند لنصوص دينية... وأن بعض النصوص والتراتيل الجنائزية وجدت منقوشة على جدران بعض الأهرامات وتوابيت الموتى. وتوضح الكاتبة أن الباحثين لم يتوصلوا بعد إلى الطريقة التي كانت تؤدى بها تلك التراتيل لكن المرجح أنها كانت تؤدى بطريقة الإلقاء أو التلاوة. ومع انتشار الديانة المسيحية، ظهرت في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الموسيقى الكنسيّة القبطية، وهى من أقدم الموسيقى الكنسية الموجودة، وقد وصفها عالم الموسيقى الإنجليزى، ايرنست نيولاند سمث، بأنها إحدى عجائب العالم السبع، والترانيم هي جزء مهم من العبادة المسيحية فهي كلمات تسبيح للرب، وهناك ترانيم كثيرة في الكتاب المقدس منها السارة والحزينة، ومنها ترانيم النصرة والتوبة، وقد شهدت السنوات الأخيرة تطورا كبيرا في الترانيم والألحان القبطية، وظهرت فرق عديدة تؤدي هذا اللون، لكن الأبرز كان ظهور جيل جديد من المرنمين، الذين يؤدون ترانيم أقرب إلى الغناء الديني باللهجة العامية.

وبما أن الإنشاد الديني، يتطلب بالضرورة الخشوع والشجن، ففي هذه الحالة، يمكن الأخذ بنظر الاعتبار، طابع الحزن في الأغنية عموماً، على اعتبار ذلك الأصل والإرتباط. ولكن نحن بصدد بحث ظاهرة الحزن في الأغنية العراقية، فإنه يصعب الجزم والربط القاطع هنا، لكن لا يمكن نكران التأثير المتبادل بين أداء الألحان والأداء الغنائي من جهة، وأداء الأناشيد، والنعي الديني من جهة أخرى. فالنعي في المآتم الحسينية (الشيعية) مثلاً، يمكنك أن تميز فيه بسهولة مقامات غنائية معروفة. كذلك الغناء الصوفي، وأداء الاذكار والنعي والمراثي (لدى السنة) في العراق على السواء، توظف مقامات غنائية معروفة في الغالب.

في نفس السياق، برزت بعض الأغاني العراقية التي تطورت أو حوّرت عن مراثي دينية، مثل أغنية المطرب الراحل صلاح عبدالغفور (لا تلوموني)، باعتبارها مأخوذة عن (ردة) القارئ الحسيني حمزة الصغيِّر، المعروفة باسم (يما ذكريني لو تمر زفة شباب)، التي تروي حال الشاب (القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب)، الذي كان أحد ضحايا واقعة الطف بكربلاء إلى جانب عمه الحسين بن علي.

لقد تبادلت الردات الحسينية، والأغاني العراقية، في ما بينهما ألحاناً كثيرة ومشهورة، خاصة عند المُلحنين الكبيرين محمد جواد أموري، وكوكب حمزة، اللذين استفادا فائدة كبيرة من أشهر الردات الحسينية، مثل أغنية (يابنادم)، التي وضع كلماتها الشاعر العامي ذياب كزار (أبو سرحان)، ووضع لحنها الملحن القدير كوكب حمزة، حيث تشابهت مقدمتها الموسيقية وصيحة الشيعة (حيدر). (الشويلي، 2017).

فرضيات في تفسير الظاهرة:

يرجع البعض من المهتمين هذا الطابع إلى عوامل ايكولوجية وجغرافية عامة، إضافة إلى عوامل التاريخ المتعلقة بالغزوات والمآسي والحروب وما شابه ذلك، في حين يضيف آخر العوامل الاجتماعية المتعلقة بالظلم الواقع على الإنسان العراقي على فترات عديدة، سواء ظلم الحكام أم الإقطاع مثلاً وما شابه ذلك.

في حين اجتهد أستاذ الآثار العراقي الراحل د. فوزي رشيد بربطها بالحضارة السومرية، حيث يقول: توجد إشارات تؤكد أن الألحان السومرية القديمة تحمل في طياتها طابع الحزن والنوح، من تلك الإشارات أن العلاقة المسمارية الخاصة بكلمة أغنية التي تلفظ باللغة السومرية «شير» قد اقتبسها الأكاديون وعبّروا بواسطتها عن الفعل «ينوح» الذي معناه باللغة الأكادية «صراخو»، وكذلك عن الفعل يغني الذي لفظه ومعناه بالأكادية «زماروا» وهذا ما يدل على الشبه الكبير الذي كان موجوداً في العصر السومري القديم بين الغناء والنوح، وإلا فلماذا دوّن الأكاديون الفعليون بالعلاقة السومرية الخاصة بكلمة أغنية، وعلى سبيل المثال يقول رشيد إن هناك الأغنية العراقية الشهيرة «عيني وماي عيني.. يا عنيد يابابا» التي ألّفها ولحّنها وأدّاها الفنان العراقي «حضيري أبو عزيز» وهو من محافظة ذي قار «الناصرية»، في الجنوب السومري من العراق، وهذه الأغنية كتبت وغنّيت ولحّنت وفقاً لإحدى الطرق السومرية التي تتمثل في تكرار شطر البيت الأول في جميع أبيات القصيدة، وقد ظهر هذا الأسلوب بالأداء في الألف الثالث قبل الميلاد. (رشيد، 1982).

وينسج الباحث الدكتور رحيم الشمخي على منوال الدكتور فوزي رشيد، بالقول:

من هذا المنطلق يتبين لنا أن الشجن في الأغنية العراقية هو موروث سومري بامتياز، والدليل الدامغ هو كلمة «ينوح» التي نستخدمها الآن وما يقابلها بالأكادي هي كلمة «صراخو» وكلمة يغني منبعها الأكادي وأصلها «زماروا» التي تشير إلى «الناي» وهو لسان الشجن الأكادي، وهذا الموروث السومري والأكادي الذي أصبح لصيقاً دائماً بالعراقي لم يستطع التخلص منه على الرغم من دخول الجيوش العربية الإسلامية للعراق، فبعد أن أصبح العراق عاصمة للدولة الإسلامية قام بإدخال ذلك الموروث حتى في الإسلام من خلال المنشد، أو ما يسمى الرادود في مواكب العزاء الحسيني، وخاصة في طقوس النوح

الذي يستثير بكاء المستمعين في نهاية المحاضرة الدينية لرجال الدين، وهذه الطريقة التي تسمى «النعي» والمستخدمة حتى الآن تشابه إلى حد كبير ما كان يفعله مغني «الكالا» السومري القديم وصولاً إلى عصرنا الحديث إذ لم يستطع العراقي الهروب من صاحبه الشجن، حيث ذهب أغلب الباحثين العراقيين ومنهم الدكتور حسين سرمك حسن، إلى أنه رغم حالة الاستقرار والاسترخاء التي عاشها العراق في سبعينيات القرن الماضي، فإن فناني هذه الفترة لم يستطيعوا عكس هذه الفترة بأغنياتهم، بل إن سمة الحزن التي كانت الأبرز في هذه الأغاني أثبتت أنها معششة في الآذان العراقية وليس من السهل استبدال أغان تدل على الفرح بها (الشمخي، 2018).

كذلك يميل (الجابري، وزلزلة، 2013) إلى الربط التاريخي بالجذور الثقافية القديمة في بلاد مابين النهرين. "فقد عرف السومريون الغناء وقدروه حق تقديره، فدخل في كل صغيرة وكبيرة. ردد العامة من الناس أغانيهم، وكذلك فعل كهنة المعابد في طقوسهم، فلا غريب علينا إذا ما كنا امتداداً لتلك الحضارة، نعيش ونشرب ونأكل من أرضها نفسها".

ينقل فالح ياسين الربيعي عن الشاعر العراقي داوود أمين رأيه في هذا الموضوع:

إنه حزن تاريخي تعود جذوره الى آلاف السنين فإنسان هذه الارض كان مهموما بكل شيء، هموم بالحياة والموت وصراعه مع الطبيعة وتكيفها، بالزراعة وتدجين الحيوانات، بالكتابة والتدوين، ومهموم بالقوى الخارجية المتحكمة بالكون وكيفية ارضائها والحد من غضبها... كل هذه الامور تركت أثراً نفسيا وولدت لديه شعورا متراكما بالحزن باعتبار الحزن رديفا للوعي والشعور بالمسؤولية وقد تجسد حزنهم في اسطورة موت اله الخصب (دموزي) الذي قادته الشياطين الى العالم السفلي. فكان العراقيون القدماء يسيرون مواكب العزاء الحزينة ويطلقون المناحات في طقوس جماعية حزنا على وفاة (دموزي) ونظموا المراثي التي تشبه الى حد كبير مراثي استشهاد الحسين. واستمر داود قائلا ان هذا الحزن الذي جسدته الاساطير والحكايات العراقية لم يكن حزنا استثنائيا ولا فرديا بل هو صورة لطبيعة مجتمع له خصائص عامة فهذه الارض الغنية بخصوبتها ومياهها الوفيرة وبإنسانها الذكي والمتحدي كانت طوال حياتها عرضة للغزوات وعرفت هذه الارض اغلظ الحكام قلوبا واشدهم قسوة. (الربيعي، 2017)

في سبعينات القرن الماضي وجهت السلطات الإعلامية القائمة في ذلك الوقت وعن طريق الإذاعة والتلفزيون في العراق بالابتعاد عن الطابع الحزين في الأغنية العراقية، والتوجه نحو الأغاني التي تبعث بالسرور في المجتمع، وذلك المقترح السياسي هو نابع من الفكرة القادمة بمحسوبيتها في تغيير النمط الحياتي للفرد العراقي عموماً. (الجابري، حسن، و زلزلة، 2013)

فرضيتنا: تطريب الحزن:

بداية، لا بد من تأكيد قناعتنا، من أن الغناء العراقي قد تعرض إلى عملية تثاقف (acculturation)، أي تأثر وتأثير مع ثقافات أخرى مجاورة، وخصوصاً الغناء الإيراني (وريث الثقافة الفارسية)، والغناء التركي (وريث الثقافات العثمانية). والمُطلع على طابع الغناء في هاتين الثقافتين يتبين له طابع الحزن في الغناء لدى كل منهما، وخصوصاً على مستوى اللحن على أقل تقدير، لمن لا يجيد لغة أي منهما، أو لم يطلع على أغنيات مترجمة أو كلماتها. فتلك الأغاني مليئة بالشجن وكلمات الحزن العميق، ناهيك عن اللحن الحزين. خذ مثلاً أغاني المطرب التركي ابراهيم تاتلسس (1950-) وما جسدته من قصص وكلمات حزينة جداً.

لقد حصل تأثر وتأثير متبادلان بين تلكم الثقافات، والثقافة العراقية، وخاصة المقامات الغنائية، وطرق أدائها. وهناك من المغنين العراقيين الذين اشتهروا بغناء مقامات وأطوار إيرانية في أغانيهم العراقية، ومنهم المطربة الراحلة زهور حسين (1924 - 1964)، وبعض مطربي المقام العراقي. بينما تتميز المقامات العراقية بطابع غناء تركي إلى حد كبير. ونكرر هنا أن التأثير متبادل بالتأكيد وليس بالضرورة أن يكون غناؤنا قد تأثر بالغناء الإيراني والتركي فقط.

أيضاً في جانب آخر لعله يتعلق بما نطرحه هنا من جانب جذور التنوع في الغناء العراقي، فقد نقل سليمان الدخيل في كتابه (الفوز بالمراد في تاريخ بغداد) عن ظاهرة (توظيف) الجواري في الغناء خلال العصر العباسي، ومن جملة ما أورده:

كان للجواري فضلٌ آخر، إذ أنهن (كما رأينا) من بلاد مختلفة روميات وتركيات وهنديات وصقليات وغير ذلك. وحاولن إدخال عاداتهن، وأدى ذلك إلى انقسام الناس إلى طائفتين، طائفة تتعصب للقديم، وأخرى تفضل الجديد، الذي أدخل عليه نغمات رومية أو تركية أو هندية أو نحو ذلك... وقد لعب المال دوراً كبيراً في ازدهار الفنون في بغداد، فتنوعت مصادر الثروة. والمال خير وسيلة لازدهار اللهو ويسير جنباً إلى جنب مع الترف، فيكون الترف حيث يكون

المال، وكل نابغٍ في فنٍ أو مذهبٍ يذهبُ إلى بغداد لعرض شعره أو غنائه، فقصدها أناسٌ كثيرون من بلدانٍ مختلفةٍ، من بلاد فارس وبلاد الهند والروم وغيرهم... فعرضت كل أمّة فنّها وأنواع حضارتها، فكان في ذلك معرضٌ عام. وأخذ أهل بغداد من كلٍ لونٍ من ألوان الفنون بحظٍ وافرٍ، وأخذت البلاد الأخرى تقتبس الفن من بغداد. (الدخيل، 2003، 79، 97، 98)

وهذه دلالة على التنوع والثراء في الغناء العراقي من خلال ازدهاره بصورة مبكرة.

نسوق هذه المقدمة لنصل إلى وجهة نظر مغايرة تفسر طابع الحزن هذا في الغناء العراقي، بغير تلك التي تذهب إلى ربطه بالجغرافيا، أو التاريخ وحوادثه الحزينة، وهي أن المقدرة التعبيرية للملحن والمؤدي (المغني) العراقي تعمل على (تطريب gleization) الحزن، سواء من ابداعه أم تأثراً بالغناء التركي/ العثماني والإيراني/ الفارسي. فـ (تغنية) موقف أو حادث أليم كفراق الحبيب أو فقدانه، أو فقدان شخص عزيز وغالٍ، وغير ذلك من الأمثلة يتم تجسيده بطريقة طربية حتى يمكن أن تبعث على تحريك الجسد تمايلاً أو رقصاً.

ما يؤكد فرضيتنا هذه هو ما يحصل في مناسبات الحزن ذاتها، من أساليب تعبير يمكن أن تعطي للوهلة الأولى، وللشخص غير المطلع على هذه الثقافة، انطباعاً من أنها تعبير عن فرحٍ، أو نوعٍ من الرقص، وهذا ما يحصل في طرائق (اللطم) المُنظم، والإيقاعات، والألحان الصوتية المرافقة له. لاحظ مثلاً أساليب لطم النساء في مجالس العزاء، سواء في وفاة شخص عادي، أو المناسبات الدينية خصوصاً لدى أبناء الجنوب العراقي من الشيعة. فحلقات اللطم التي تتألف من مجموعة من النساء الشابات، يشكلن دائرة صغيرة يتحلقن حولها، واقفات وينثرن شعورهم، وتبدأ الحركات الحماسية تدريجياً مع ارتفاع ايقاع صوت الناعية (الملاية)* وحينما يشتد الحماس، وترتفع نغمة الصوت بتأثير قوة الكلمات، وهي عادة تشبه الأبيات الشعرية، أو النثرية الأدبية الحزينة، التي تعكس وقع المصيبة، سواء بمقتل الإمام الحسين وأصحابه، والترويع والصدمة اللذين تعرض لهما ذووه من النساء والأطفال، يشتد الحماس وينعكس بحركات أقرب للرقص واقعاً، منها إلى الحزن، سواء باستخدام الكفين بالضرب بخفة على الصدر، أو جبهة الرأس، مع حركة كاملة للجسم بالقفز المتناسق.

ولدى أبناء السنّة أيضاً، هناك مجالس العزاء، التي تعقب وفاة بعض الأشخاص، الذين يقوم ذووهم، بدعوة فرقة متخصصة بالنعي والأذكار، سواء من الذكور أم الإناث. وبشكل مماثل لما يحصل عند الشيعة تقريباً، إلا أن الفارق هنا غياب فعالية اللطم. لكن الندب يتم وفق مقامات غنائية حزينة.

بينما لدى الصوفية نجد الأذكار التي تحفل بالإيقاعات الصاخبة، والحركات الراقصة، وهذه تحضر سواء في الأفراح (الموالد) أم مناسبات إحياء الذِكر.

يورد عالي بك (الرحالة العثماني) وصفاً جميلاً لعادات البغداديين في مناسبات (الأفراح والمآتم): ففي مأتمهم، كان

للبغداديين طقوسهم الخاصة لاسيما في فصل الصيف، حيث يؤخر الأهالي دفن الجنازة إلى الليل، بسبب ارتفاع درجات الحرارة، وعادة ما يسير أمام الجنازة بعض الصبيان يحملون الدفوف ومعهم يسير قارئ المدائح (الأناشيد الدينية). وعادة ما تستمر المآتم لمدة سبعة أيام. وفيها يعمد القارئ (المداح) إلى الإفراط في ذكر محاسن الميت بأسلوب صوفي ديني. (هاشم، 2008)

وفي ذات السياق، يصف المعلم نابليون الماريني (مؤلف كتاب نزهة العباد في تاريخ بغداد، الصادر عام 1887م)، عادات أهل بغداد في المآتم، والحزن على الميت. وسنورد هنا ما ذكره بخصوص دور النادبة في مآتم النساء، إذ يقول:

وفي غضون هذا الهفلق أي الأسبوع، ترى النساءَ العارفاتِ الميتِ والأجنبيات (أي من غير أقاربه)، إذا بلغهن خبر المأتم، يهتممن اهتماماً مخصوصاً، فيذهبن إلى المآتم، كأنهن مدعوات إلى عرسٍ وسرورٍ، فيأتين ذلك البيت ومعهن نادبة، وهي إمرأة تعدد مناقب المتوفى، وتردد بعض الأقوال، المؤثرة المبكية بصوتٍ عالٍ، فيخالها السامع حزينة، وحينئذ لتوجع قلوب من في المآتم، من النساء يخمشن وجوههن أسفاً وحزناً، لكنهن لسن كلهن بمتأثرات، بل حزنهن مُصطنع، وأكثر الآتيات من الخارج إنما هن متفرجات، بل هن فرحات بذلك. أما الموكلات على النارجيلة والقهوة، والسيغارة، فتراهن يدرن في وسط المجلس كالدوامة، والكلام الذي يدور في جمعيات العجائز والبنات له هنا المحل الأكبر. (الماريني، 1887، 55)

وهكذا يتضح أن هذه العملية قد حملت من سمات الطرب بقدر كبير، ابتداء من استعمال آلات موسيقية (الدفوف)، إلى صيغة من الغناء (الإنشاد)، إلى المشاركة الجماعية التي تحمل طابعاً احتفالياً، بالإضافة إلى التركيز على محاسن ومآثر الميت أو ما تتم نسبته إليه، وهذه الأخيرة خصوصاً تبعث على الارتياح عوضاً من الحزن. وبالإجمال فإن هذه العملية قد أحدثت العديد من جوانب التطريب في هذا الحدث الحزين.

في موقف آخر من مواقف الحزن المفترضة، وهي تشييع جنازة شخص ما، فإن المشاعر والمراسيم، لا بد من أن تكون حزينة كما يُتوقع، لكننا نراها مختلفة بالمظاهر على الأقل، بحيث تتحول إلى احتفالية. وهذا يتجسد في ما يسمى بـ (العراضة)، وهي عملية تشييع شخصية مهمة خصوصاً في أرياف وسط وجنوب العراق؛ حيث تنطلق الهتافات (أهازيج/ هوسات)، وترافقها دبكات، تمجد بتلك الشخصية (المهمة)، كزعيم عشائري أو وجيه اجتماعي نافذ. وتطلق العيارات النارية، ليتحول الأمر إلى احتفاء، سيما وأن الدبكات واطلاق العيارات النارية هي الشائعة تقليدياً في مناسبات الأفراح.

من جانب آخر، فإن تكريس أبيات ولوازم شعرية تؤكد المصيبة واللوعة والألم من قبيل:

يتلولح يريد يطيح قلبي، ومالوم خايب

سايب يا قلبي، ترى يعمن عيوني، آه وعلى الآه عودتك ياروحي، أووووف وكم أووف... الخ ما يعني أنها تعبير عن حالة حزن أو مصاب أليم. وإذا ما دخلت مثل هذه التعابير على أي نوع من الكلام الذي يعكس مشاعر أخرى كالفرح، فإنه يقلبها حزناً، ويعطي الانطباع أن الأغنية بأكملها تعكس حزناً وألما ووجعاً.

وهناك من الأغنية التي غناها فؤاد سالم، وردد فيها المقطع الشهير (أون ومن لوعتي وكالوا يغني)، وهي تعكس واقعاً يؤكد أن التعبير عن اللوعة يمكن أن يفسر على أنه نوعٌ من الغناء، ومثلها البيت الشعري الفصيح:

لا تحسبنَّ رقصي بينكم طرباً... قد يرقص المذبوح من شدّةِ الألم

حاول الدكتور علي الوردي الربط بين التعديد لدى النساء، وطابع الحزن، فقال: (الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، 1965، ص 307 - 308):

يبدو أن المرأة لا تختلف كثيراً عن الرجل من هذه الناحية (طابع الحزن). فهي قد اختصت بـ(التعديد). وربما جاء هذا اللفظ من تعديد خصال الميت عند البكاء عليه. وهذا التعديد شائع بين النساء في المدن والريف معاً. وقد برعت فيه المرأة العراقية براعة فائقة. فهي تبحث عن مجالس العزاء والبكاء، وتسرع إليها لتنفس فيها عن ألمها المكبوت... الخ. علماً أن الوردي حاول هنا ربط تبني الحزن بالازدواجية الشخصية، حيث يظهر نقيض الحزن في مواقف النزاعات والخلافات التي يتخلى فيها الفرد سريعاً عن موقف الضعف الذي كان عليه.

الخلاصة:

مما سبق نخلص إلى أن هناك صلة كبيرة بين الإنشاد الديني، والغناء عموماً، في ما يتعلق باحتضانه، وتطوره على مر العصور. وأن الغناء العراقي، على وجه الخصوص هو نتاج مزيج من التثاقف بين حضارات مختلفة توالت وتعاقبت عليه. لكننا لا نميل إلى الربط العميق، بين الغناء العراقي الحالي ونماذج الغناء أو سماته في الحضارات السومرية والبابلية والأكادية القديمة في وادي الرافدين. ذلك بحكم تغير البنية الديموغرافية العراقية على امتداد التاريخ، نتيجة الغزوات والحروب، والهجرات، والكوارث الطبيعية. فقد حلت القبائل العربية في جنوب العراق خصوصاً، بدل سكانه القدماء، ولم يعد من أثر موثق لأناس ينتمون إلى تلك العهود يعيشون بين ظهرانينا. لقد حصل ما يشبه الانقطاع الذي استحال معه تتبع امتدادات تلك الشعوب سوى المتأخرين منهم مثل الآشوريين، والسريانيين، والصابئة (ديانة)، واليهود (ديانة وقومية).

إنّ سمة الحزن في الأغنية العراقية حسب قناعتنا، هي عملية ابداعية ناجمة عن محاولات لتطريب موقف الحزن نفسه، وجعله طرباً. ومع ذلك، فهي لا بد أن تكون أيضاً نتاج تلاقح حضاري بين ثقافات، وظروف مختلفة مرّ بها العراق.

*** قارئة النعي في المآتم والمجالس الحسينية، وهي تختص بمجالس النساء فقط، بينما يقرأ للرجال، رجلٌ يسمى المـُلاّ أو المومن.**

ببليوغرافيا:

• البشير، م . (2018). فن الانشاد الديني. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

• الجابري و.، حسن، & زلزلة، ا. ش. (2013). مظاهر طابع الحزن في الأغنية العراقية. مجلة الأكاديمي(66)، 251 - 268.

• الدخيل، س. (2003). الفوز بالمراد في تاريخ بغداد. القاهرة: دار الآفاق العربية.

• الربيعي، ف. ي. (2017, 11 17). الحزن في الأغنية العراقية. Retrieved from الناقد العراقي: https://www.alnaked-aliraqi.net/article/48004.php

• الشمخي، ر. هـ. (2018). سمة الحزن في الأغنية العراقية أثر البيئة والتاريخ ... النكبات والنوائب والحروب على أرض العراق رسمت معالم الشجن. جريدة الوطن.

• الشويلي، د. س. (2017, كانون2/ يناير 30). اللحنية العراقية بين الردة الحسينية و الاغنية العاطفية ... حمزة الصغير و صلاح عبد الغفور أنموذجا. Retrieved from الحقيقة: http://www.alhakikanews.com/index.php/permalink/50094.html

• الماريني، ا. ن. (1887). تنزه العباد في تاريخ مدينة بغداد. بيروت: المطبعة اللبنانية.

• الوردي، ع. (1965). دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)ط 1 (ed بغداد: مطبعة العاني.

• الوردي، ع. (2001). شخصية الفرد العراقي: بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث (2 ed.). لندن، بريطانيا: دار ليلى.

• الوردي، ع. (2001). شخصية الفرد العراقي: بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث (2 Ed, 2) .(ed.). لندن: دار ليلى.

• الوزني، ح. 2015, كانون2/ يناير 28 . الموسيقى والغناء في العراق القديم. Retrieved from صوت العروبة: h-tps://arabvoice.com//53414/الموسيقى-والغناء-في-العراق-القديم/

• رشيد، ف. (1982). التراث الشعبي.

• شيماء البلداوي، وحسن محمد. (2017). الموسيقى والطرب في العراق القديم. مجلة مركز دراسات الكوفة، 1(46)، 97 - 124.

• علي، ا. (1965). دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)ط 1 (ed. بغداد: مطبعة العاني.

• فلانين. (2006). الحاج ريكان: عرب الأهوار)ج. س. شريفTrans.) بيروت: الدار العربية للموسوعات.

• قاموس.المعاني. 2021, شباط/فبراير 02 . تعريف و معنى الشجن في معجم المعاني الجامع. Retrieved from قاموس المعاني: https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A/C%D9%86

• هاشم، هـ. (2008). بغداد أواخر القرن التاسع عشر من خلال رحلة عالي بك 1882 – 1886. المؤتمر الدولي بغداد السلام في الحضارة الإسلامية (268 - 267 .pp). استانبول: باغلرباشي كلتور مركزي.

• وليد الجابري، واحسان زلزلة. (2013). مظاهر طابع الحزن في الأغنية العراقية. الأكاديمي(66)، 251 - 268. تم الاسترداد من مجلة الأكاديمي.

نصوص قديمة

حول انهيار الاتحاد السوفييتي *

الحزب الشيوعي البريطاني

يرفض الحزب الشيوعي البريطاني وجهة النظر القائلة إن انهيار الاتحاد السوفييتي يعني أن الاشتراكية نفسها فشلت، وأنها لم تعد ذات علاقة بحل المشاكل العديدة التي تواجه العالم.

السبب الجذري لانهيار الاتحاد السوفييتي يكمن في الاشكال الخاصة للبناء الاقتصادي والسياسي التي تطور فيها، وعلى وجه التحديد يكمن في الاستبعاد المستمر لأعداد كبيرة من الشغيلة عن أية رقابة مباشرة على مصيرهم الاقتصادي والاجتماعي. لقد أثر هذا التآكل في جوهر الاشتراكية ذاتها على جميع جوانب المجتمع السوفيتي.

ومعروف ان النظام السوفييتي تكوّن تدريجيا في مجرى معالجة المشاكل الصعبة لبناء الاشتراكية في بلد متخلف، محاط بقوى امبريالية معادية، دفعته مرتين الى خوض حربين مدمرتين: الاولى حرب التدخل التي اعقبت الثورة مباشرة، والأخرى هي الحرب العالمية الثانية.

ويمكننا القول كان بالإمكان تجنب الانهيار لو ان الاجراءات الصائبة اتخذت بوقت مبكر. كما انه من المؤكد لا يمكن نفي حقيقة أن أزمة كاملة كانت تختمر في رحم الاتحاد السوفييتي قبيل عام 1985. حيث ان معدلات النمو بالرغم من أنها بقيت ايجابية، إلا أنها هبطت بحدّة من 1960 الى 1980، والفجوة التكنولوجية بين الاتحاد السوفيتي والغرب اتسعت بشكل هائل.

وظهر بشكل متزايد ان الاتحاد السوفييتي غير قادر على الامساك بالفرص التي وفرتها الثورة العلمية والتكنولوجية، ولا سيما في الميدان الحساس، ذلك هو ميدان التكنولوجيا المعلوماتية.

وابتداءً من أواخر العشرينات وصاعدا، صارت القرارات تؤدي، في جوانب مهمة، الى خرق مبادئ الاشتراكية والديمقراطية.

ويمكن ان نوجز التأثيرات الرئيسية لذلك بما يأتي:

كانت هناك مركزية مفرطة في السلطة السياسية التي سلبت حقوق مجالس السوفييتات المنتخبة، ورافقها تقليص في حقوق الممارسة الديمقراطية، وشمل الإرهاب كل من رفض الالتزام. وأصبح خرق القوانين مسألة دائمة، وانتشر الفساد بشكل خاص، ولا نتطرق هنا الى جرائم فترة ستالين.

فحلت الآمرية البيروقراطية محل الروافع الاقتصادية كوسيلة للتخطيط. وكل شيء اصبح خاضعا لنظام الإدارات ذات

المركزية المفرطة. وجرى لجم المبادرات الفردية، وسرى تأميم الصناعة والتجارة الى أصغر المؤسسات، علما ان قطعا من الارض خصصت لأعضاء المزارع الجماعية من اجل انتاج الخضار والفواكه والحليب بعملهم الشخصي. كذلك جرى استبعاد آلية السوق في بيع انتاج اعضاء المزارع الجماعية العاملين في هذه القطع، الأمر الذي نجم عنه بالضرورة اقتصاد ظل واسع، بضمنه السوق السوداء.

اما الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي فقد اندمج بالدولة، وأصبح مركز القرار فيها.. وفقد القدرة على العمل كحزب سياسي يعبئ الشعب من القاعدة الى الأعلى، ويناضل في المناطق الانتخابية... وصاحب هذا انثلام في ممارسة الحزب للديمقراطية، واستبدت البيروقراطية.

كما اصبحت النقابات جزءاً من جهاز الدولة الإداري، وعبرها تنقل رغبات النظام الاداري الى العمال بدل ان تكون النقابات صوتا مستقلا يناضل من اجل مصالحهم ضد المتجاوزين عليها.

وفي مجرى هذا كله اختزلت الماركسية اللينينية الى عقيدة جامدة تبرر الوضع القائم ... اما وظيفتها الخلاقة والانتقادية البالغة الحيوية لفهم التطور الاجتماعي، وبالتالي حل معضلات بناء الاشتراكية، فقد تمت تصفيتها بالفعل، وانتهت ايضا باعتبارها علما وأصبحت عقيدة جامدة.

وإذا ما نظرنا الى كل هذه النواقص سوية، سنجد أنها شكلت عقبات جدية في طريق تطوير الديمقراطية بمعناها الكامل.

بالإضافة الى ذلك لم يكن للشعب دور في اتخاذ القرارات في جمع المستويات كما يجب. وجرى مرارا اتخاذ القرارات الهامة من قبل مجموعات صغيرة. فعلى سبيل المثال لم تطرح على الجماهير سياسة برجينيف الرامية الى مساواة الغرب في التسلح بدل الكفاية الدفاعية.

ومع ذلك فإن تلك القرارات حولت موارد، كانت الحاجة ماسة إليها، عن مهمات أساسية لإقامة اقتصاد عصري ينبغي الاعتماد عليه في نهاية المطاف لتأمين القدرة الدفاعية لأية دولة.. ونشأت داخل النظام الآمري شبكة قوية جدا من مجموعات المصالح البيروقراطية، وكانت تتحكم في الصناعة والمؤسسات العلمية والمؤسسة العسكرية.

وبات واضحا ان هذا الوضع ساعد على توطيد التركيب الاداري البيروقراطي بكامله. هذا التركيب الذي قام على اساسه النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي.

كان شغيلة الاتحاد السوفييتي، نظريا، يملكون كل شيء لكنهم في الواقع كانوا اسياد شيء قليل جدا، اذ كان المجتمع يدار فعليا من قبل نخبة تصدر الاوامر من اعلى الى اسفل.

وقاد ذلك بالضرورة الى تفشي السلبية بين الشغيلة، فكل ما يطلب منهم هو تنفيذ الأوامر التي تصلهم من أعلى. فلا يحظى بالترحيب التفكير والعمل المستقلان اللذان يمكن أن يتعارضا مع السلطة البيروقراطية، بل هما يسببان المشاكل لمن يطرحها. الانسياق كان يمهد الطريق

للوصول الى القمة مع السلطة... وهكذا فإن هذا النظام الذي يعطي الاولوية للدولة، ويتسم بالمحافظة، لابد ان يحجّر المجتمع الاشتراكي ويفرغه من ديناميكيته.

كل هذا لا يعني نكران ما أنجزه الاتحاد السوفييتي، فالصناعة الثقيلة تطورت، وتحقق تقدم هائل في التعليم والثورة الثقافية، الأمر الذي غيّر ملامح ما كان بلدا متخلفا جدا، وليس هناك من يشكك في قدرات الاتحاد السوفييتي العلمية، وفي مجال الصحة والسكن والخدمات الاجتماعية، إذ انه سجل إنجازات كبيرة الى أمام.

وترك أثرا هائلا على حركة التحرر الوطني ضد الامبريالية في العالم. ولا يشك احد في دوره في مساندة الحركة المعادية للإمبريالية، وهزيمة الفاشية، وفي النضال من اجل السلم.

لكن الحقيقة تبقى ماثلة، ذلك ان نواقص النظام السوفييتي قوضت قوة الاشتراكية داخل الاتحاد السوفييتي.

لقد شرعت البريسترويكا باختراق هذا المأزق، واعتمد اسلوبها على الديمقراطية، والجمع بين التخطيط الاشتراكي وآليات السوق، والاستناد الى إطلاق مبادرة الشعب، وجعله السيد الحقيقي في المجتمع واستعادة ديناميكية الاشتراكية.

لكن إصلاح الاشتراكية المتحجّرة في الاتحاد السوفييتي لم يكن مهمة سهلة. فالكادر الاداري تعوّد على العمل بالطريقة القديمة، وخشى على مستقبله من فقدان امتيازاته، وبالتالي كان عليه أن يقاوم التغيير، ولا سيما وهو يحتل المراكز الآمرية العليا في الاقتصاد والدولة والحزب والنقابات، وفي كل مجالات النشاط في المجتمع.

أما الحزب والنقابات، وهما وسيلتا النظام الآمرية، فقد تحجرا معه.

إن أية حركة إصلاحية تحتاج الى وسائل التغيير اللازمة لتعبئة الشغيلة، لكن تعبئتهم كانت مهمة شاقة، نظرا للسلبية السائدة بينهم جراء تخوفهم من عدم التماثل مع النظام الإداري.

وعلينا ان نواجه الفرضية القائلة أن نموذج الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وصل نقطة اللاعودة، وان الاصلاح أصبح مستحيلا. قد يكون هناك اتفاق عام على الحاجة للإصلاح في البدء... وان خطوات هامة قد اتخذت باتجاه الديمقراطية. ولكن ما ان استوجب الامر تحويلها الى إجراءات ملموسة، تضع حدا لامتيازات وسلطة المراتب العليا، حتى فرضت المحافظة والركود نفسيهما في الاتحاد السوفييتي، على غرار ما حصل في محاولات الاصلاح السابقة.

فالبريسترويكا لم تكن المحاولة الاولى. لقد حاول خروتشوف إدخال اصلاحات في أواخر الخمسينات، وحاول كوسيغين مرة اخرى في 1965، ووضع خطة مدروسة جيدا في الميدان الاقتصادي.. ولكن الاثنين أخفقا في مواجهة المحافظة والركود اللذين اصبحا سمات في بنية المجتمع. وأصبح التناقض في المجتمع السوفييتي بين شكله التسلطي ومحتواه الاشتراكي لا يحتمل. وتطلب علاجه الديمقراطية الأكثر شمولا في ميادين الحياة الاجتماعية.

لقد حاولت البريسترويكا ان تتعامل مع هذا التناقض على جبهة أوسع من تلك التي حاول خروتشوف وكوسيغين، لكن المشاكل التي نجمت عنها كانت عديدة وعميقة الى درجة كبيرة، الأمر الذي شكل السبب الاساسي لإخفاقها.

لقد اصبح من المستحيل وضع برنامج اصلاحي مفصل بدون التعاون الكامل بين الكوادر القيادية في الحزب وإدارة الدولة والاقتصاد. لكن الغالبية منهم قاومت التغيير في التطبيق. ولم يعد ممكنا الحديث عن تنفيذ إصلاح بطريقة ثابتة. وكنتيجة لذلك نشأ وضع مرتبك، اتسم بالتذبذب، والتغير المفاجئ في السياسة واتخاذ الإجراءات دون إعداد كافٍ لها أو اهتمام بعواقبها. وهكذا حطمت البريسترويكا الروابط السائدة في الاقتصاد في حين اخفقت في استبدالها بروابط جديدة قائمة على نظام تخطيط مرن وبالاستفادة من آلية السوق. وهذا أمر لم يكن بالسهولة التي يتصورها البعض، ولا يمكن تحقيقه بين عشية وضحاها. بالإضافة الى ذلك كانت هناك صعوبة بالغة في تنظيم فترة انتقالية بين القديم والجديد، مع بقاء عناصرهما متعايشة في تناقض مستمر. فكل واحد منها يضعف فاعلية الآخر.

أما في المجال السياسي فقد تم تحطيم الهيئات القديمة في الحزب والدولة. ولكن لم تنشأ تنظيمات سياسية تعمل بصورة صحيحة حسب السياسة التي يجري تبنيها ديمقراطيا ويمكن بواسطتها استبدال تلك الهيئات.

وازداد الوضع سوءاً نتيجة الاسلوب الجامد في فهم الماركسية اللينينية، ما شوّه تطور الفهم السياسي والفكر الاشتراكي المبدع على مختلف المستويات في الاتحاد السوفييتي، الامر الذي ترك الباب مفتوحا أمام الأوهام عن مزايا مزعومة للملكية الخاصة، ولما يسمى بالسوق الحرة.

وهكذا تبنى متنفذو النخبة الخيار الرأسمالي. ووجدوا فيه الحماية لامتيازاتهم التي تهددها أية عملية اصلاح بمحتوى اشتراكي.

ان الافتقار الى حركة سياسية جماهيرية تعتمد على الشغيلة، ويقودها حزب شيوعي مسلح بأفق واضح للإصلاح، وهما عاملان غير متوفرين، ولم يكن مقدرا لهما ان يتوفرا نتيجة عجز الحزب والنقابات، حتّم ضغط التطور الرأسمالي الذي لم يعد بالإمكان مقاومته. كما حتّم الانحدار الى الفوضى.

وفي ظل غياب هذه الحركة الجماهيرية وغياب حزب موحد ملتزم بالإصلاح، انهمك غورباتشوف بالمناورة بين الفئات النخبوية المختلفة. وراح يفتش عن الاتفاق على برنامج إصلاحي، الأمر الذي ادى الى تزايد المساومات للقبول بالتحول الى الملكية الخاصة، بالرغم من ان هذه المساومات لم تنفذ إطلاقا، وتحولت الى ورقة بيد الاعداد المتزايدة من المتنفذين الذين اختاروا الحل الرأسمالي. واتجه غورباتشوف نفسه في المرحلة التالية أكثر فأكثر الى قبول التحول الى الملكية الخاصة، وما اطلق عليه "فلسفة السوق

الحرة" ولو أنه فضل ان يتم ذلك التغيير على مدى زمني طويل.

إن التزامه الكامل بالحفاظ على الاتحاد وتقليله من أهمية المشاعر القومية في الجمهوريات كان يعني انه لم يعمل بالسرعة اللازمة لإعداد مشروع كيان فيدرالي جديد مقبول لدى الجمهوريات وقادر على تخفيف النزاعات الاثنية التي وقعت في وقت سابق.

وعندما تعقد الوضع، استغلته العناصر المتنفذة التي حسمت اختيارها باتجاه التطور الرأسمالي، مستفيدة من الورقة القومية فأضافت صعوبة جديدة الى الصعوبات القائمة في طريق التوصل الى كيان فيدرالي جديد.

وكانت المغامرة الانقلابية، التي بقيت ظروفها الكاملة غير واضحة حتى الآن، القشة التي قصمت ظهر البعير.

ومن الجدير بالملاحظة ان قادة الانقلاب هم من عناصر النخبة العليا المتنفذة، ومن المؤيدين للملكية الخاصة بشكل واسع. وكان اهتمامها منصبا على الحفاظ على الاتحاد.

إنّ الدرس الذي يجب تعلمه من تاريخ المجتمع السوفييتي، منذ أواسط العشرينات، هو ان الديمقراطية والاشتراكية ملازمتان لا يمكن الفصل بينهما. وليست الديمقراطية كما زائدا، وإنما هي ملازمة للاشتراكية.

فالاشتراكية تهتم بتحسين مستوى المعيشة، لكنها تعني أكثر من ذلك، انها تهدف الى ان يكون الشغيلة أسياد مصيرهم. وهي معنية بالتغلب على الاغتراب، ولا يمكن فصلها عن الديمقراطية. وفي الحقيقة لا يمكن الحفاظ على ارتفاع متواصل لمستوى الحياة دون ذلك كله.

* (الثقافة الجديدة)/ العدد 250/ تشرين الاول 1992، ص 43 – 48.

نصوص مترجمة

مقاربات ماركسية عن السلطة *

بوب جيسوب **
ترجمة: سوران قحطان

حلل الماركسيون علاقات السلطة بطرق متعددة ومختلفة. لكن، هناك أربعة موضوعات مترابطة، تجسد خصائص منهجهم العام. اول هذه الموضوعات، يتمثل بكون [الماركسية][1] لا تعتبر علاقات السلطة ظاهرة شخصية بحتة، تفتقر الى الاسس العميقة في البنية الاجتماعية، بل انها تنطلق من كون السلطة تمثل تمظهرا لنمط او لتكوين معين من الهيمنة الطبقية. ان هذا التركيز على الهيمنة الطبقية، لا يعني ان السلطة والمقاومة تعد حكرا على الفاعلين الاجتماعيين من ذوي الهويات والمصالح الطبقية الواضحة. انه يعني، ان الماركسيين معنيون بشكل اساسي بالترابط السببي بين ممارسة السلطة الاجتماعية واعادة انتاج و/أو قلب الهيمنة الطبقية. وهم، بالتأكيد، على دراية جيدة بالأشكال الاخرى من الهيمنة والخضوع والعداء والهوية. لكنهم ينظرون الى هذه الظواهر، الى حد كبير، من ناحية صلتها وتحددها المفرط بالهيمنة الطبقية.

ثانيا، يعنى الماركسيون بالصلات بين [تجليات] الهيمنة الطبقية، الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية. وذلك يتضمن انقطاع هذه الصلات بالإضافة الى ديمومتها. وعلى الرغم من المركزية

الواضحة لهذه القضية في التحليل الماركسي، وربما بسببها، فإنها تستمر في إثارة الخلافات النظرية والتجريبية على نطاق واسع. فهناك عدة مقاربات ماركسية، تحدد أسس السلطة الطبقية بالدرجة الاولى في علاقات الإنتاج الاجتماعية، سواء في السيطرة على الدولة، أو في الهيمنة الفكرية (Intellectual Hegemony) على الأفئدة والعقول. وسوف أتعامل مع هذه الخيارات في ما سيأتي لاحقا.

ثالثاً، لقد اثارت المحدودية المتأصلة في اي ممارسة للسلطة انتباه الماركسيين،

حيث تتجذر هذه المحدودية في هذا الشكل او ذاك من الهيمنة الطبقية. وقد حاولوا تفسيرها بالتناقضات والتضادات البنيوية المنغرسة في السلطة. وبالتالي، اتجه الماركسيون إلى افتراض أن جميع أشكال السلطة الاجتماعية المرتبطة بالهيمنة الطبقية هي بطبيعتها هشة وغير مستقرة، كما أنها مشروطة ومؤقتة. وأن استمرار الصراعات ضروري لتأمين الهيمنة الطبقية، وللتغلب على المقاومة، وكذلك من اجل تحويل السلطة الطبقية الى قضية ملغزة أو مسألة طبيعية.

وقد ترتب على ذلك، وهذا رابعا، أن الماركسيين يعالجون ايضا مسائل الاستراتيجية والتكتيك. فهم يوفرون للاستراتيجيات الواقعية، التي تهدف الى إعادة إنتاج أو مقاومة أو الإطاحة بالهيمنة الطبقية في فترات وظروف محددة، تحليلات تجريبية؛ وهم غالبا ما ينخرطون في النقاشات السياسية حول الهويات، والمصالح، والتكتيكات، والاستراتيجيات، التي تكون أكثر ملاءمة كي يتم تبنيها في فترات وظروف معينة، من قبل الطبقات المهيمن عليها وغيرها من المجاميع المضطهدة، وذلك من اجل تحدي عملية اخضاعهم. كما ان أحد الجوانب المهمة في التحليل والحساب الاستراتيجي هو حساسية الاستراتيجية للأبعاد المكانية والزمانية. وقد انعكس هذا في الاهتمام النظري المتنامي بمسائل الزمان والمكان الاجتماعيين.

السلطة كعلاقة اجتماعية

في المقام الاول، يقع اهتمام الماركسيين بالسلطة كقدرات، وليس بالسلطة كتحقيق لهذه القدرات. انهم ينظرون الى هذه القدرات على انها تبلور اجتماعي، وليس على كونها عشوائية او غير منظمة اجتماعيا. وهكذا، بدلا من خصائص الممثلين الفرديين المأخوذين بعزلتهم، يركز الماركسيون على القدرات المؤسسة على علاقات اجتماعية منظمة. علاوة على ذلك، لأن هذه الاخيرة تستلزم ارتباطات مستمرة، فهناك بالتالي، قدرات متبادلة، وايضا قابلية للعطب متبادلة، وان كان هذان التبادلان غير متكافئين. المثال الشائع هنا، هو جدل السيد/العبد الهيغلي. والذي فيه يكون السيد معتمدا على العبد، والعبد معتمدا على السيد. بالنسبة لماركس، فإن المثال المكافئ هو مسألة علاقة التبعية المادية المتبادلة بين رأس المال والعمل. فكلتا الحالتين تمثلان علاقات مستمرة، لممارسات متبادلة معاد انتاجها، بدلا من ان تكونا فرضا احادي الجانب للإرادة. إن لهذا مضمونا مثيرا للاهتمام، وهو ان السلطة تعمل على تأمين استمرارية العلاقات الاجتماعية وليس الى احداث تغيير جذري. "بدلا من ان A يحمل B على ان يفعل شيئا ما، عادة B لا يقوم به خلاف ذلك، فإن العلاقات الاجتماعية للسلطة تتضمن نموذجيا، انA وB يفعلان ما يفعلان على نحو اعتيادي مألوف"[2]. ستوضح علاقة الاجر الرأسمالية هذا الامر بصورة جيدة. فعندما يبيع العمال قوة عملهم مقابل الاجر بصورة

طوعية، فإنهم ينقلون السيطرة عليها الى الرأسمالي مع الحق في اي فائض. وبذلك، يصبح التبادل الحر الرسمي، اساسا للاستغلال الاقتصادي والاستبداد في مكان العمل. والعكس بالعكس، حيث تبين عملية العمل (The labour pro-ess) ومقاومة الطبقة العاملة في اسواق العمل ان الممارسة الناجحة للسلطة هي ظاهرة ظرفية، وليست مضمونة بعلاقات انتاج اجتماعية غير متكافئة.

وهكذا، ان تحقيق القدرات على ممارسة السلطة وتأثيرات الاخيرة ان وجدت، هو ما يعنى به الماركسيون. وذلك باعتبار تحقيق هذه القدرات هو دائما، وفي كل مكان، مرهون بأنشطة معينة يقوم بها ممثلون محددون وفي ظروف محددة. ان الاستنتاج المترتب على هذا، انه لا وجود لشيء من قبيل السلطة بشكل عام، او السلطة كفكرة شاملة. ان ما هو موجود، هو فقط، سلطات معينة، ومحصلة لممارسات السلطة.

ملاحظات عامة حول الهيمنة الطبقية

تختلف الماركسية عن المقاربات النظرية الأخرى التي تسعى الى تحليل السلطة، وذلك لأنها تعنى أساسا بالهيمنة الطبقية. فعلى سبيل المثال، وفي مقابل الماركسية، تمنح التحليلات الفيبرية وزنا نوعيا مساويا لأشكال أخرى من الهيمنة (كالمكانة، والحزب)؛ بينما تعطي النسوية الراديكالية الأولوية للنظام الابوي/ الذكوري (Patriarchy)، ولأشكاله وتأثيراته. لكن اهتمام الماركسية الاستثنائي بالهيمنة الطبقية ليس مقتصرا لا على الهيمنة الطبقية الاقتصادية في عملية العمل The labour process (على الرغم من اهمية هذه الأخيرة)، ولا حتى بالأسس الاقتصادية للهيمنة الطبقية في الاقتصاد بمعناه الاوسع (مثل السيطرة على عملية توزيع رأس المال بين الأنشطة الإنتاجية البديلة). وذلك لأن الماركسيين ينظرون الى ان السلطات الطبقية تنبث في كل ارجاء المجتمع، وبالتالي فإنهم يعنون أيضا بالهيمنة السياسية وكذلك بالهيمنة الايديولوجية. وبينما يعتقد بعض الماركسيين ان الهيمنة السياسية و/او الايديولوجية تُشتق بهذه الدرجة او تلك من الهيمنة الاقتصادية، يشدد آخرون منهم على العلاقات المعقدة بين مواضع او أنماط الهيمنة الثلاثة هذه.

لكن حتى أولئك الماركسيين الذين يشددون على الأسس الاقتصادية للهيمنة الطبقية، هم أيضا يقرون ان للسياسة الأولوية في الممارسة. فمن خلال الثورة السياسية فقط يمكن الإطاحة بأنماط الهيمنة الطبقية القائمة. بينما يمنح ماركسيون آخرون الأولوية للسياسة على الاقتصاد، ليس فقط من حيث ارتباطها بالنضالات الثورية (ان وجدت)، وانما بسبب دورها في إعادة الإنتاج الروتينية للهيمنة الطبقية. ان هذا يجعل من الدولة مركزية في التحليلات الماركسية، ليس فقط في ما يتعلق بالسلطة السياسية بالمعنى الضيق، ولكن أيضا بالنسبة للسلطة الطبقية بالمعنى العام. حيث ينظر الى الدولة على انها مسؤولة عن الحفاظ على الاندماج البنيوي والترابط الاجتماعي لـ "مجتمع منقسم الى طبقات". فبدون هذا الاندماج البنيوي

والترابط الاجتماعي يمكن ان تتسبب تناقضات وتضادات الرأسمالية بأزمة ثورية او حتى انها قد تؤدي الى "خراب متبادل للطبقات المتصارعة"، كما أشار البيان الشيوعي عام 1848.

الهيمنة الطبقية الاقتصادية

ترتكز الماركسية على افتراض ان غالبية الوجود البشري يتمثل بأنماط انتاج متصارعة. يتضمن الإنتاج الاستيلاء المادي وتحويل الطبيعة. بالمقابل، يتشكل نمط الإنتاج من توليفة محددة من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الاجتماعية. بالنسبة لقوى الإنتاج فإنها تتألف من المواد الخام، ووسائل الإنتاج، والتقسيم التقني للعمل المتوافق معهما، بالإضافة الى علاقات التعاون والترابط بين المنتجين المباشرين خلال عملية تشغيل وسائل الإنتاج هذه. اما بالنسبة الى علاقات الإنتاج فهي تشمل السيطرة الاجتماعية على عملية توزيع الموارد على مختلف الأنشطة الإنتاجية، وأيضا الاستيلاء على فائض الانتاج؛ ومعها أيضا التقسيم الاجتماعي للعمل (او توزيع العاملين على الأنشطة المتنوعة في وحدات الإنتاج المختلفة)؛ وهي أيضا تشتمل على العلاقات الطبقية المؤسسة على علاقات الملكية الخاصة، وامتلاك وسائل الإنتاج، وشكل الاستغلال الاقتصادي. وإذا كان بعض من الماركسيين يسلطون الضوء على الدور الذي تلعبه قوى الإنتاج في احداث التغيير الاجتماعي، فإن وجهة نظر غالبيتهم تعطي الاولوية لعلاقات الانتاج الاجتماعية. فبالتأكيد، انها هي التي تجسد الاختيار بين قوى الإنتاج المتاحة، وكيف سيتم استخدامها في الإنتاج.

ومن خلال اسبقية علاقات الإنتاج في الهيمنة الطبقية الاقتصادية، يشدد بعض الماركسيين على ان علاقات السلطة متجذرة في تنظيم عملية العمل. حيث يعد هذا الموقع الأساسي للصراع بين الرأسماليين والعمال، كما انه الموقع الحاسم في خلق فائض القيمة لرأسمال، من خلال التحكم المباشر بـ[علاقة] السلطة - السلطة[3]. وهناك اشكال متعددة للتحكم تم تحديدها، (مثل: التحكم البيروقراطي والتحكم التقني، والتحكم بالاستبداد). لكل منها آثاره الخاصة على اشكال الصراع الطبقي، وعلى توزيع السلطة بين رأس المال والعمل. بينما يدرس ماركسيون اخرون التنظيم العام لعملية الإنتاج، وتعبيرها عن جوانب أخرى من دائرة رأس المال. وبالتالي، يكون التركيز على مسائل [من قبيل] الأهمية النسبية لرأسمال الصناعي او المالي؛ رأس المال الاحتكاري او المشاريع المتوسطة او الصغيرة؛ الشركات متعدية الجنسية او الوطنية؛ شركات مهتمة بالنمو المحلي ام بالصادرات. ترتبط الصيغ المختلفة للنمو الاقتصادي بأنماط مختلفة من السلطة. فعلى سبيل المثال، الفوردية الأطلسية التي تقوم على أساس دائرة فعالة من الإنتاج والاستهلاك الضخمين في اقتصادات مغلقة نسبيا، كانت متوافقة لفترة ما مع التسوية المؤسسية بين رأس المال الصناعي والعمل المنظم. وهذا ساهم في دعم دولة الرفاهية الوطنية الكينزية، بكل اشكالها المميزة لإعادة التوزيع، اقتصاديا واجتماعيا

وكذلك سياسيا. لكن العولمة المتنامية (او تكامل السوق العالمية) المقترنة بمحاولات رأس المال لزيادة مرونة سوق العمل قوضت هذه الشروط وشجعت على الانقضاض على هذه التسوية. ويظهر هذا بجلاء في تلك الاقتصادات التي قاست تحولات النظام النيولبرالي، مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. والتي ارتبطت بالريغانية (والتي استمرت في ظل الطريق الثالثة لكلينتون وكذلك إدارة جورج بوش الابن) والتاتشرية (التي دعمها مشروع حزب العمال الجديد "تحديثي"). وقد ساهم كل ذلك في تراجع حصة العمال من الدخل والثروة، كما أدى الى الانفصال المتزايد بين راس المال المالي عن راس المال الصناعي، بل وحتى الى التوسع المفرط في القطاع المالي، وصولا الى الفترة 2007 - 2009 والازمة المالية العالمية، والتي كان لها تأثيرها الخاص على أنماط الهيمنة الطبقية.

الهيمنة الطبقية السياسية

تبدأ التفسيرات الماركسية للهيمنة الطبقية السياسية عادة بالدولة، وأدوارها المباشرة وغير المباشرة في تأمين شروط الهيمنة الاقتصادية الطبقية. ان هذا التشديد على الدولة له عدة أسباب: الأول، بما ان قوى السوق ذاتها لا تستطيع تأمين جميع الشروط اللازمة من اجل تراكم رأس المال وهي ايضا معرضة الى اخفاق السوق، بالتالي هناك حاجة الى آلية ما تقف خارج السوق وفوقه تعمل على تأمينه وعلى التعويض عن إخفاقاته؛ ثانيا، تستلزم المنافسة الاقتصادية والسياسية بين رؤوس الأموال قوة قادرة على تنظيم مصالحها الجماعية، وقادرة أيضا على الحد من أي ضرر قد يسببه السعي من اجل تحقيق مجموعة من المصالح رأسمالية احادية الجانب؛ ثالثا، الدولة ضرورية في إدارة التداعيات العديدة والمتنوعة للاستغلال الاقتصادي داخل المجتمع الأوسع. يجادل الماركسيون أنه لا يمكن تأمين الظروف غير الاقتصادية من اجل القيام بالحساب الاقتصادي العقلاني، بل ومن باب أولى، تأمين التراكم الرأسمالي، الا إذا تمكنت الدولة من تأمين تكامل مؤسسي وتماسك مجتمعي كافيين. يتطلب هذا دولة ذات سيادة، مستقلة نسبيا عن المصالح الطبقية الضيّقة، ويمكنها ايضا ان تعبر وتنمي مصلحة وطنية - شعبية أوسع. وما دام هذا المشروع يحترم النواة الاقتصادية الثابتة للمجتمع وطابعه الرأسمالي، فأن الدولة ستساعد في تأمين الهيمنة الطبقية الاقتصادية وكذلك السياسية. وغالبا ما يتوافق هذا مع الأنظمة السياسية الديمقراطية البرجوازية أكثر منه مع الأنظمة الديكتاتورية [4].

ماركسيا، هناك ثلاث مقاربات نظرية حول الدولة: الأداتية، والبنيوية، الاستراتجية-العلاقتية. ترى المقاربة الأداتية ان الدولة هي أداة محايدة لممارسة السلطة السياسية: أي طبقة تستطيع التحكم بهذه الأداة يمكن استخدامها لتحقيق مصالحها الخاصة. بينما يجادل البنيويون ان من يتحكم بالدولة هو شأن عرضي، لأنها تجسد تحيزا مسبقا مع رأس المال وبالضد من الطبقات التابعة. أما منظرو

مقاربة الاستراتيجية - العلاقاتية فإنهم يجادلون بأن سلطة الدولة ما هي إلا تكثيف محدد الشكل لتوازن قوى طبقية متصارعة. سأوضح الآن وجهات النظر الثلاثة هذه بالنسبة للدولة الرأسمالية. والمسألة تتطلب امثلة مختلفة بالنسبة للدول المرتبطة بأنماط انتاج أخرى.

يعتبر الأداتيون الدولة المعاصرة على انها دولة في مجتمع رأسمالي. ويعبر رالف ميلباند عن هذا: "ان الطبقة الحاكمة للمجتمع الرأسمالي هي تلك الطبقة التي تمتلك وتتحكم بوسائل الإنتاج، وبحكم السلطة الاقتصادية الممنوحة لها بسبب ذلك، هي قادرة على استخدام الدولة كأداة للسيطرة على المجتمع" [5]. بشكل عام، يشدد منظرو "الدولة في المجتمع الرأسمالي" على صدفية العلاقة بين الدولة والاقتصاد. فعلى الرغم من هيمنة علاقات الإنتاج الرأسمالية في مثل هذا المجتمع، فإن الدولة ذاتها بطبيعتها ليس لها شكل رأسمالي، وهي لا تؤدي بالضرورة وظائف رأسمالية. وأي وظائف قد تؤديها الدولة لرأس المال تحدث لأنه يصدف ان القوى المؤيدة للرأسمالية تتحكم بالدولة و/ أو لأن تأمين النظام الاجتماعي يصدف أيضا انه يؤمن الشروط الأساسية للحساب الاقتصادي العقلاني. وإذا عُثر جهاز الدولة ذاته في نظام من نوع آخر، ربما يكون متحكما به من قبل قوى أخرى ليؤدي وظائف مختلفة.

ينظر البنيويون الى الدولة على انها دولة رأسماليةلأنها ذات شكل رأسمالي بطبيعتها، وبالتالي فهي تعمل لمصلحة رأس المال. ولكن ما الذي يجعل شكل الدولة رأسمالي؟ وما الذي يضمن اشتغالها لصالح للرأسمالية؟ يجادل البنيويون ان بنية الدولة الحديثة ذاتها تعني تنظيم راس المال وافساد نظام الطبقة العاملة. وقد طور كلاوس أُف (Claus Offe) هذه الرؤية كما يلي. ان اقصاء الدولة من السيطرة المباشرة على أدوات الإنتاج (المملوكة للقطاع الخاص) يجعل إيراداتها تعتمد على وجود قطاع خاص سليم؛ وبالتالي، ومن اجل ان تؤمن عملية إعادة انتاجها كجهاز، عليها ان تضمن ربحية رأس المال. وبالنسبة للطبقات التابعة ان تؤمن منافع مادية فقط ضمن هذه حدود – فاذا كانت الربحية مهددة، فيجب التراجع عن هذه المنافع. ومع ذلك، لا يمكن لرأس المال الضغط من اجل مزاياه الاقتصادية أكثر من اللازم دون تقويض الشرعية السياسية للدولة. فعلى العكس من الاشكال السابقة للهيمنة الطبقية السياسية، لا تتمتع الطبقة المهيمنة اقتصاديا بأي احتكار رسمي للسلطة السياسية. ان الشكل النموذجي للدولة البرجوازية بدلا من ذلك، هو الدولة الدستورية، ثم لاحقا الدولة الديمقراطية الوطنية - الشعبية لاحقا. وهذا يتطلب احترام سيادة القانون ووجهات نظر مواطنيها [6].

اما بالنسبة للمقاربة الاستراتجية - العلاقاتية فقد تم طرحها من قبل المنظر الشيوعي اليوناني نيكوس بولانتزاس (Nicos Poulantzas) وقد قمت لاحقا بشرحها وتدقيقها[7]. حيث جادل بولانتزاس في عمله الأخير بأن الدولة هي أيضا علاقة اجتماعية، بناء على أطروحة ماركس من ان رأس المال ليس شيئا بل علاقة

اجتماعية. فقد وضح ماركس كيف ان اعادة الإنتاج المستمرة للصيغ المادية والمؤسسية لعلاقة رأس المال تشكل الديناميكية لكل من التراكم الرأسمالي والصراع الطبقي الاقتصادي. لكن هيمنة هذه الصيغ لا يمكن ان تضمن بحد ذاتها تراكم رأس المال. ان هذا يعتمد على نجاح رأس المال في الحفاظ على هيمنته على الطبقة العاملة في الإنتاج، وفي السياسة، وفي المجتمع بمعناه الاوسع. وبالمثل، رأي بولانتزاس ان الشكل الحديث للدولة يحمل في ثناياه تحيزات معينة، ولكنه جادل بأنها بحد ذاتها غير كافية لضمان سيطرة الرأسمالية. لقد ساعدت هذه التحيزات، بالفعل، في إعادة انتاج الصراع الطبقي والتناقضات في الدولة ذاتها، بحيث ان تأثير سلطة الدولة اعتمد بشكل كبير على توازن المتغير للقوى، وعلى الاستراتيجيات والتكتيكات التي تتبعها القوى الطبقية وغير الطبقية على حد سواء[8].

ان افتراض الدولة كعلاقة اجتماعية مهم نظريا وسياسيا. فالدولة باعتبارها مستودعا او طاقما من القدرات والموارد السياسية، لا يمكن اعتبارها على الاطلاق محايدة طبقيا. ان الدولة حتما منحازة طبقيا بسبب الانتقائية البنيوية التي تجعل من مؤسساتها، وقدراتها، ومواردها سهلة المنال، بالنسبة لبعض القوى السياسية أكثر من قوى أخرى، وتجعل منها مطواعة لبعض الغايات أكثر من أخرى. ان هذا التحيز متجذر في الشكل العام للدولة الرأسمالية، ولكنه يختلف باختلاف بيئتها المؤسساتية. وفوق ذلك، بما انها ليست ذاتا، فإن الدولة الرأسمالية لا تمارس السلطة، ولا تستطيع في الواقع ان تمارسها. عوضا من ذلك، فإن سلطاتها (بالجمع) يتم تفعيلها بواسطة طواقم متغيرة من سياسيين ومسؤولين متواجدين في أجزاء محددة من جهاز الدولة في ظل ظروف معينة. واذا كان هناك خط استراتيجي شامل قابل للتميز عند ممارسة هذه السلطات، فهو ناتج عن التنسيق الاستراتيجي الذي صار ممكنا بواسطة انتقائية نظام الدولة وكذلك بواسطة الدور المنظم لشبكات السلطة المتوازية والتي تقطع وتوحد هياكلها الرسمية. ومع ذلك، يعد هذا إنجازا بعيد المنال. وذلك لان نظام الدولة يتسم بالضرورة بالتناقضات والصراعات الطبقية، والممثلون السياسيون العاملون ضمنه يواجهون دائما مقاومة من قوى معينة خارج الدولة، والتي تنخرط في صراعات من اجل تحويلها، ومن اجل تحديد سياساتها، او التأثير عليها من بعد. وبالتالي فإن الصراع الطبقي السياسي لا ينتهي ابدا. وفقط من خلال التجديد المستمر تستطيع كتلة السلطة الرأسمالية ان تحافظ على وحدتها النسبية في مواجهة التنافس والانقسام، وان تحافظ على هيمنتها Hegemony (او على الأقل سيطرتها) على المجموعات التابعة. وفقط من خلال تعطيل الاستراتيجية الانتقائية للدولة بواسطة النضال الجماهيري بعيدا عن الدولة، وفي داخل الدولة، والعمل على تحويل الدولة، يمكن تحقيق التحول الديمقراطي الى الديمقراطية الاجتماعية.

الهيمنة الطبقية الايديولوجية

قيل في "الايديولوجية الألمانية" (1845 - 1846) ان "الأفكار السائدة في أي عصر هي أفكار الطبقة السائدة"، وهذا يرتبط بتحكم الأخيرة بوسائل الإنتاج الفكري. وقد طورت أعمالهم هذه عدة افكار حول الهيمنة الطبقية الايديولوجية. بدءا من التأثير الملغز لصنمية السلعة، مرورا بالسلوك الفرداني المتولد من اشكال السياسي من قبيل المواطنة، الى النضال من اجل [الفوز] بأفئدة وعقول المجتمع المدني. وكان الاهتمام الماركسي بأشكال وانماط الهيمنة الطبقية الايديولوجية قد تعاظم مع صعود الحكومة الديمقراطية والسياسة الجماهيرية في القرن التاسع عشر وتزايد أهمية وسائل الاعلام الجماهيرية والثقافة الشعبية في القرن العشرين. حيث عالجت التيارات المختلفة لما يسمى "الماركسية الغربية" آليات وتأثيرات الهيمنة الطبقية الايديولوجية، خصوصا خلال فترات اخفاق قيام ثورة اشتراكية او شيوعية على الرغم من وجود ازمة اقتصادية حادة، او خلال الفترات التي كانت الطبقة العامة فيها سلبية. إن الأجيال المتعاقبة لمدرسة فرانكفورت تكتسب الكثير من الأهمية هنا، ولكن هناك أيضا الكثير من المقاربات عملت في هذا المجال.

يعد (أنطونيو غرامشي) من الشخصيات الملهمة في هذا المجال. وهو شيوعي إيطالي نشط سياسيا في الفترة ما بين الحربين [العالميتين] الى ان تم سجنه من قبل النظام الفاشي. وهناك في السجن كتب مؤلفه المشهور "دفاتر السجن". مطورا فيه مقاربة منهجية متميزة للغاية لتحليل السلطة الطبقية؛ حيث كان همه الأرأس هو تطوير علم سياسة ماركسي مستقل في المجتمعات الرأسمالية، من اجل التمييز بين الأنواع المختلفة للدولة والسياسات، وبالتالي المساهمة في ترسيخ الظروف التي تجعل من امكانية القوى الثورية للحلول محل الرأسمالية أكثر إمكانية. كان غرامشي مهتما بشكل خاص بخصوصيات الوضع السياسي والافاق الثورية في الغرب (اوربا الغربية، والولايات المتحدة) مقابل الشرق (أي روسيا القيصرية)، مؤمنا بأن الحزب الطليعي اللينيني والانقلاب الثوري كانا غير مناسبين لـ"الغرب".

عرّف غرامشي الدولة بمعناها الضيق بالجهاز السياسي والقانوني، وبالسمات الدستورية والمؤسسية للحكومة، وبإجراءات صنع القرار الرسمي، وسياساتها العامة. في المقابل، ركزت دراساته بشكل أكبر على الطرق والوسائل التي تتوسط بواسطتها القيادات السياسية، والفكرية، والأخلاقية خلال مجموعة معقدة من المؤسسات والتنظيمات والقوى، التي تعمل في الدولة بمعناها الضيق، او تكون موجهة نحوها، او تعمل بعيدا عنها. ان هذا المنهج ينعكس في تعريفه ـ المثير للجدل ـ للدولة على انها "المجتمع السياسي + المجتمع المدني"، وكذلك في افتراضاته ذات الصلة من ان الدولة في المجتمعات الرأسمالية الغربية تقوم على "الهيمنة Hegemony المدرعة بالإكراه". عرف غرامشي الدولة أيضا على أنها: 'المجموعة الكاملة من الأنشطة العملية والنظرية التي تقوم بها الطبقة الحاكمة ليس فقط من اجل

تبرير سيطرتها والمحافظة عليها فحسب، وانما من اجل كسب القبول الفعال لمن تحكمهم"[9]. لقد جادل بأن الدول كانت دائماً قائمة على مجموعات متغيرة من الإكراه والهيمنة Hegemony . فالإكراه بالنسبة لغرامشي يتضمن استخدام جهاز القسر لجلب كتلة الناس الى حيث الامتثال والإذعان لمتطلبات نمط انتاج معين. في المقابل تتضمن الهيمنة Hegemony التعبئة الناجحة وإعادة انتاج "القبول الفعال" للجماعات المسيطر عليها من قبل الطبقة الحاكمة من خلال ممارسة القيادة السياسية والفكرية والأخلاقية. وبهذا لم يماثل غرامشي الإكراه بالدولة على وجه الحصر (على سبيل المثال، هو أشار الى فرق الرعب الفاشية الخاصة)، كما انه لم يحدد موقع الهيمنة Hegemony داخل المجتمع المدني بصورة حصرية (بما ان الدولة تمتلك أيضا وظيفة أخلاقية سياسية). لقد جادل بوجه عام، أنه لا ينبغي ان ينظر الى الدولة الرأسمالية على انها أساسا جهاز قسر وانما على كونها مجموعة مؤسساتية تقوم على مزيج متغير من الإكراه والقبول والاحتيال والفساد. علاوة على ذلك، بدلاً من التعامل مع مؤسسات وأجهزة معينة كأدوات تقنية بحتة للحكومة، تفحص غرامشي قواعدها الاجتماعية، وشدد على ان سلطة الدولة تتشكل من خلال روابطها بالنظام الاقتصادي والمجتمع المدني.

تتمثل إحدى حجج غرامشي المفتاحية، في الحاجة الى حرب مواقع طويلة الأمد في الديمقراطيات الرأسمالية المتقدمة، تستطيع من خلالها القوى الطبقية التابعة ان تطور "إرادة جماعية" مهيمنة، تصنع بشكل خلاق مشروعها الثوري القائم على التجربة اليومية و"الحس العام" للقوى الشعبية. على الرغم من أن بعض المعلقين فسروا هذا التشديد على النضال السياسي الأيديولوجي على أنه يفترض ضمنا أن الطريق البرلماني إلى الاشتراكية سيكون ممكناً، فإن غرامشي عادة ما كان يشدد على ان احتمال نشوب حرب مناورة في نهاية المطاف قائم، مع قرار عسكري سياسي. لكن هذا سيكون أقصر وأكثر حدة وأقل دموية إذا تم كسب الهيمنة أولاً.

صياغة الهيمنة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية

يمكن النظر الى العلاقة بين الهيمنة الاقتصادية والهيمنة السياسية والهيمنة الايديولوجية من ناحية الانتقائية المحفورة بنيويا في أشكال معينة من الهيمنة، والاستراتيجيات التي تساعد في تدعيم (او تقويض) هذه الانتقائيات. ان التحيز الذي يميز حقل الدولة كموقع للنشاط الاستراتيجي لا يمكن ان يفهم إلا بكونه تحيزا بالنسبة لاستراتيجيات معينة تسعى من اجلها قوى محددة من اجل تحقيق مصالح محددة في مدى افق زمني معين. ومن ناحية ان مجموعة معينة من قوى أخرى كل منها يدفع باتجاه تحقيق مصالحها الخاصة بواسطة استراتيجيات معينة. ان اشكالا خاصة من الدولة تمنح بعض الاستراتيجيات امتيازا على استراتيجيات أخرى، كما تمنح امتيازا لبعض القوى على قوى أخرى، ولبعض المصالح على مصالح أخرى، ولبعض الافاق الزمنية على الافاق الأخرى،

ولبعض امكانيات التحالف على إمكانيات أخرى. نوع محدد من الدولة، شكل محدد من الدولة، شكل محدد من النظام، سيكون متاحا لبعض القوى أكثر من قوى أخرى، وذلك وفق الاستراتيجيات التي تتبناها للاستيلاء على سلطة الدولة. كما انها ستكون مناسبة بصورة أكبر لملاحقة بعض أنواع الاستراتيجيات الاقتصادية او السياسية من أخرى، بسبب أنماط التدخل وكذلك الموارد التي يتميز بها النظام. ان كل ما سبق يؤشر الحاجة الى التقصي عن الاختلافات بين أنواع الدولة (مثلا: الاقطاعية مقابل الرأسمالية)، وكذلك بين اشكال الدولة (مثلا: المطلقة، اللبرالية، التدخلية)، وبين أنماط التمثيل السياسي (الديمقراطي مقابل الاستبدادي)، وبين أنواع معينة من الأنظمة (مثلا: سلطوية بيروقراطية، فاشية، عسكرية، برلمانية، رئاسية، شعبية جماهيرية ..الخ)، أدوات سياسية معينة (مثلا: ادارة الطلب الكينزية مقابل سياسات جانب العرض اللبرالية الجديدة)، وغيرها [10].

وبينما تميل مقاربتي [11] بناء على ما قدمه بولانتزاس الى التشديد على اللحظة البنيوية لـ ''الانتقائية الاستراتيجية''، يركز غرامشي على اللحظة الاستراتيجية. ان غرامشي يجادل هنا على وجه الخصوص ضد وجهة النظر الماركسية الارثوذوكسية التي كانت السائدة وقتها، والتي تقول ان القاعدة الاقتصادية تحدد بصورة أحادية الجانب البناء الفوقي القانوني والسياسي وكذلك الاشكال السائدة من الوعي الاجتماعي، مشيرا الى ان هناك علاقة متبادلة بين ''القاعدة'' الاقتصادية و''البناء الفوقي'' السياسي والأيديولوجي؛ حيث درس غرامشي هذه العلاقة من ناحية كيفية تأمين ''التبادل الضروري بين البنية والبنية الفوقية'' من خلال ممارسات فكرية واخلاقية وسياسية معينة، والتي تترجم المصالح القطاعية الضيّقة، او المصالح المهنية او المحلية الى مصالح 'أخلاقية سياسية' أوسع. وبهذا الشكل فقط، كما كتب، تتوقف البنية الاقتصادية عن ان تكون قوة خارجية مقيدة وتصبح مصدرا لحرية المبادرة والحرية الذاتية [12]. وهذا يفترض ان الممارسات الأخلاقية - السياسية لا تساهم فقط في تشكيل البنى الاقتصادية (حتى عندما تتبنى الدولة، كما أشار غرامشي نفسه، دور عدم التدخل laissez-faire، فهو في حد ذاته شكل من اشكال تدخل الدولة) وانما أيضا تمنحهم مبرراتهم العامة وشرعيتهم (على سبيل المثال: من خلال المفاهيم البرجوازية عن حقوق الملكية، حرية التبادل والعدالة الاجتماعية).

بوجود هذه العلاقة المتبادلة بين القاعدة والبنية الفوقية، تحدث غرامشي عن ''الكتلة التاريخية''. كما قدم مفاهيم كتلة السلطة والكتلة المهيمنة لتحليل كل من التحالفات بين الطبقات المسيطرة وكذلك المجموعة الأوسع من القوى الوطنية الشعبية التي تم حشدها وراء مشروع هيمنة محدد. ان مفهوم الكتلة المهيمنة يشير الى الوحدة التاريخية، لكنها ليست وحدة بنيوية (كما في حالة الكتلة التاريخية) ولكنها وحدة قوى اجتماعية (التي حللها غرامشي من حيث الطبقات الحاكمة، الطبقات الداعمة، الحركات الجماهيرية والمثقفين). وبالتالي،

فإن الكتلة المهيمنة هي تحالف متين للقوى الطبقية، تنظمه طبقة (أو قسم من طبقة) والتي أثبتت قدرتها على ممارسة القيادة السياسية والفكرية والأخلاقية على الطبقات المهيمنة والجماهير الشعبية على حد سواء. يلحظ غرامشي دورا رئيسيا محوريا هنا لـ"المثقفين العضويين"، وهم الأشخاص والمنظمات الذين يستطيعون عمل مشاريع هيمنة تعطي تعبيرا "وطنيا وشعبيا" للمصالح طويلة الأمد للطبقات المهيمنة او بدلا عن ذلك للطبقات التابعة. كما أشار ايضا إلى أن الهيمنة الدائمة نسبيا تعتمد على "نواة اقتصادية حاسمة" وانتقد الجهود المبذولة لبناء هيمنة "عشوائية وعقلانية ورغبوية" تتجاهل الحقائق الاقتصادية.

اللحظات المكانية ـ الزمانية للهيمنة

يرتبط الزمان والمكان ببعضهما ارتباطا وثيقا، ولهما معا جوانب بنيوية (التفاوتات الزمانية والمكانية للأنظمة المؤسسية والتنظيمية المعينة والعلاقة المتبادلة في ما بينها)، وكذلك جوانب استراتيجية (مثل الافاق الزمانية والمكانية للفعل، حروب المواقع والمناورات، والجهود المبذولة من اجل ضغط و/ أو بسط العلاقات الاجتماعية في الزمان والمكان). وبالتالي فإن التقدير السليم لأشكال وانماط الهيمنة يجب ان يتضمن سماته الزمانية والمكانية المميزة. وكان هذا واضحا بالفعل في تحليل ماركس لتراكم رأس المال: فهو ينهض على اقتصاد سياسي متميز للزمان وكذلك له ميوله المتأصلة الى التوسع المكاني. ان المحددات الداخلية لعملية تراكم رأس المال تستلزم طرق محددة لتنظيم الوقت، تنعكس في القول المأثور إن "الوقت المال". ووفقا لذلك، طور ماركس نسقا من المفاهيم للكشف عن التفاعل الديالكتيكي لكل من الجوانب الملموسة والجوانب المجردة للزمان خلال عملية تراكم راس المال. يندرج من ضمنها: وقت العمل، فائض القيمة المطلق، وقت العمل الضروري اجتماعيا، فائض القيمة النسبي، وقت الآلة، زمن التداول، وقت الدوران، دورة الدوران، وقت الدوران الضروري اجتماعيا، رأس المال الحاصل على الفائدة وإعادة الإنتاج الموسعة [13]. لقد نشر ماركس مفاهيمه هذه كي يظهر كيف ترتبط الازمان الملموسة لعمليات محددة مع السيرورة المتواصلة لإعادة التأسيس وقت العمل المجرد بوصفه القوة الدافعة وراء المنافسة التي تكاد لا تنتهي، والتي لا يستطيع الفكاك منها لا رأس المال ولا العمال [14]. إن هذه القوة الدافعة تتعاظم أكثر من أي وقت مضى كلما اصبحت السوق العالمية أكثر تكاملا في الزمان الفعلي من خلال ما يطلق عليه غالبا بالعولمة، والتي من الأفضل وصفها من وجهة نظر ماركسية بكونها أشكال متغيرة من الهيمنة الاقتصادية والسياسية الدولية. وبشكل عام، ان التراكم التفاضلي يشتمل على المنافسة من اجل تقليص وقت العمل الضروري اجتماعيا المتجسد في السلع، ووقت دوران رأس المال الضروري، وأيضا وبشكل متزايد، الزمن الضروري طبيعيا من اجل تكاثر الطبيعة. ان هذه الضغوط تتواجد جنبا الى جنب مع اشكال أخرى من المنافسة على تطوير

منتجات جديدة، أسواق جديدة، مصادر جديدة للإمداد، أشكال تنظيمية جديدة، وأشكال جديدة لنزع الملكية، وما الى ذلك. ان هذه الضغوط تولد تنمية جغرافية متفاوتة، وتؤثر مكانيا وعدديا على تقسيم العمل، وتعيد ترتيب النواحي للهيمنة الاقتصادية. هناك أيضا ديناميكية مكانية لتراكم رأس المال. وهذا ينعكس في ميوله المتأصلة للتوسع، والتي قد تبلغ ذروتها في تشكيل سوق عالمية، ولكن أيضا في تحفيز حركات مضادة ضد قوى السوق الجامحة. باختصار ان ازمان التراكم تعد جوانب حاسمة في تنظيم الهيمنة الاقتصادية، كما انها تؤثر بشكل أساسي على العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية، وتتغلغل بعمق في الحياة اليومية.

إن هذه الديناميكيات المكانية والزمانية تؤثر أيضًا على أشكال الهيمنة السياسية. ففي حين ان تطور السوق العالمية ومساحة التدفقات المرتبطة به تتحدى السيادة الإقليمية للدولة، فإن سيادتها الزمنية يتم تحديها بتسارع الزمن. فالدولة تواجه بصورة متزايدة ضغوطا زمنية في عملية صنع السياسات وتنفيذها، وذلك بسبب الاشكال الجديدة من التباعد والضغط والتمايز الزمانية والمكانية. على سبيل المثال، كلما تسارعت ايقاعات الاقتصاد الزمنية مقارنة بتلك الخاصة بالدولة، فإن الأخيرة لديها وقت اقل من اجل تحديد وتنسيق الاستجابات السياسية للأحداث والصدمات والأزمات الاقتصادية. إن هذا يعزز الصراع بين زمن (ازمان) السوق زمن (ازمان) الدولة. تمثل استجابة عدم التدخل laissez-faire أحد الحلول امام فقدان الدولة لسيادتها الزمنية، والتي تؤدي الى تحرير حركة راس المال السريع جدا و/ او فائق الحركة، مما يؤدي الى زيادة فرص الازمات العالمية الناتجة عن انشطتهم غير المنظمة، كنا رأينا مؤخرا.

هناك خياران آخران: يمكن للدول أن تحاول تركيز دوائر صنع القرار الخاصة بها حتى تتمكن من القيام بتدخلات مناسبة وفي الوقت المناسب؛ و/أو يمكنهم محاولة إبطاء أنشطة "الرأسمالية السريعة" لتلائم الروتين السياسي الحالي.

ان استراتيجية التركيز الزمنية تتسبب في تزايد الضغوط لاتخاذ القرارات على أساس معلومات غير موثقة، وتشاور غير كاف، ونقص في المشاركة وما الى ذلك، حتى عندما يستمر مسؤولو الدولة في الاعتقاد بان السياسة تستغرق وقتا طويلا في التفاوض، والصياغة، التشريع، الحكم، التحديد، والتنفيذ. في الواقع، يمكن التذرع بخطاب الأزمة، سواء كان مبررا أم لا، لخلق مناخ امام إجراءات الطوارئ والحكم الاستثنائي. ان هذا اللجوء الى "سياسة سريعة" ينعكس في اقتضاب دورات تطوير السياسة، وسرعة اتخاذ القرارات، وطرح البرامج بسرعة، واختبار مستمر للسياسة، مع مراجعة متصلبة للمبادئ التوجيهية والمعايير. ان هذا يمنح الامتيازات لأولئك الذين يمكنهم العمل في نطاقات زمنية مضغوطة، مضيقا نطاق المشاركين في العملية السياسية، ومحددا من مدى التداول والتشاور والتفاوض. وقد لخص الباحث بيل شورمان Bill Scheuerman، مستلهما مدرسة فرانكفورت، بعض هذه

الاتجاهات من حيث التحول العام الى "حالات الطوارئ الاقتصادية" والتي تتميز بالهيمنة التنفيذية، والديناميكية والتغير القانونية المستمرة [15].

وبالتالي، فإن السياسة السريعة معادية للنزعة الجماعية، والتشارك، وسيادة القانون، والبيروقراطية الرسمية، وبالتأكيد، مع الإجراءات الروتينية ودورات السياسة الديمقراطية بشكل عام. كما أنها ستميز السلطة التنفيذية على السلطتين التشريعية والقضائية، وراس المال المالي على رأس المال الصناعي، والاستهلاك على الاستثمار طويل الأجل. على وجه العموم، ان اللجوء الى السياسة السريعة يؤدي الى تقويض سلطة صانعي القرار الذين لديهم دورات اتخاذ قرار طويلة، وذلك لأنهم سيفقدون القدرة بسبب انماطهم الروتينية واجراءاتهم، وعليهم ان يتكيفوا مع سرعة المفكرين وسرعة صانعي السياسة. يمكن أن يؤثر هذا بشكل كبير على اختيار السياسات، والأهداف الأولية للسياسة، والمواقع التي يتم فيها تنفيذ السياسة والمعايير المعتمدة لإثبات النجاح. اتضح هذا بشكل خاص في الأزمة المالية العالمية الأخيرة، حيث أجبر الضغط من أجل التحرك الدول على إنقاذ البنوك التي اعتُبرت 'أكبر من أن تسقط'، وأدى إلى تركيز سلطة صنع القرار في أيدي نخبة مالية صغيرة لعبت دورا رئيسيا في صناعة الازمة منذ البداية.

ان استراتيجية بديلة لا تنطلق من ضغط الزمن السياسي المطلق، وانما تخلق زمنا سياسيا نسبيا عن طريق ابطاء دوائر رأس المال. الوصفة المعروفة هنا هي فرض ضريبة متواضعة على الصفقات المالية (ما يسمى بضريبة توبين)، والتي من شأنها إبطاء تدفق رأس المال المالي عالي السرعة والفائق الحركة والحد من تأثيره المشوه على الاقتصاد الحقيقي. أحد المجالات المهمة للصراع هو المناخ. هنا نرى صراعات مستمرة بين الدول الوطنية حول سرعة وطبيعة الاستجابة، جنبا إلى جنب مع معارضة صريحة وجيدة التمويل من الشركات والقطاعات ذات المصالح الخاصة في التوسع الاقتصادي المستمر الذي قد تكون كلفته الأرض. بهذا المعنى، بدلاً من أن تكون مشكلة عامة بحتة تؤثر بالجميع على قدم المساواة، هناك جانب طبقي قوي لخلق الأزمة البيئية والصراع حول الاستجابات المناسبة وتوزيع تكاليف التكيف [16].

أثيرت مسألة أخرى خلال تغيير [الظواهر] المكانية والزمانية وهي التعقيد المتزايد للعلاقات الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية لأنها تتطور في سياق السوق العالمية التي تفتقر إما إلى دولة عالمية أو إدارة عالمية فعالة. وهذا يقوض قدرات الدولة على توجيه الاقتصاد، وعلى التعامل مع ميول الأزمة ومعالجة آثارها في انعدام المساواة في السلطة الاقتصادية والموارد؛ ولكنه يؤدي أيضًا إلى عدم الاستقرار حيث تستغل الشركات فرص السوق العالمية بغض النظر عن عواقبها البيئية والسياسية والاجتماعية. وقد انعكس هذا في التحول من الحكومة إلى الحوكمة، وفي زيادة دور الشبكات والشراكات، وفي اللجوء إلى حوكمة متعددة المستويات أو الأفضل حوكمة متعددة الأماكن موجهة الى

افاق وتفاعلات زمانية ومكانية متنوعة. وهذه ليست حلول تقنية بحتة للتحديات الجديدة ولكن لها انتقائيتها الخاصة بها في تكوين سلطة الطبقية [17].

استنتاجات

تعالج المقاربات الماركسية للسلطة وممارستها المواضيع الاتية: (1) السلطة والهيمنة الطبقية؛ (2) التوسط بين الهيمنة الطبقية الاقتصادية والسياسية والايديولوجية؛ (3) حدود وتناقضات السلطة والمتأصلة في طبيعة الرأسمالية كنظام للعلاقات الاجتماعية، بما يتضمن جوانبها المكانية والزمانية؛ (4) دور الاستراتيجية والتكتيك. ان هذه الموضوعات تؤشر على نقاط القوة والضعف في الماركسية. أولاً، في تمييزها للهيمنة الطبقية، هي تهمش الأشكال الأخرى من الهيمنة الاجتماعية: النظام الابوي، الاثنية، "العنصرية"، الهيمنة الذكورية، و[أنواع الهيمنة] بين الدول، والإقليمية أو المحلية، إلخ. وفي أفضل الأحوال، هي تعتبرها كعوامل تحدد اشكال الهيمنة الطبقية و/أو تحدد التغيير في الاستجابة للتغيرات في العلاقات الطبقية. ثانيا، قد تبالغ التحليلات الماركسية في التماسك البنيوي للهيمنة الطبقية، متجاهلة تفككها، وتناقضاتها، وميولها التعويضية وما إلى ذلك. إن مفاهيم الطبقة الحاكمة الموحدة تناقض فوضى التكوينات الفعلية لسلطة الطبقة، الاحتكاكات داخل وعبر الاقتصاد، الابعاد السياسية والايديولوجية، الاختلافات بين الموازين المختلفة للتنظيم الاجتماعي، الطبيعة المتناقضة وتأثيرات السياسة والاستراتيجية والتكتيك، احتمالية فشل الدولة وكذلك السوق، وقدرة القوى التابعة على الانخراط في المقاومة. وقد كشفت التحليلات التجريبية هذه الفوضى والتعقيد، ولكن غالبا ما لم تلق اهتماما في التنظير الماركسي المجرد. ثالثا، يخاطر الماركسيون بتقليص حدود السلطة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية الى مجرد تأثير التناقضات الطبقية، وبالتالي إغفال مصادر القصور الأخرى. أخيراً، في حين أن التركيز على الاستراتيجية والتكتيكات مهم لتجنب المغالطة البنيوية القائلة بأن رأس المال يعيد إنتاج نفسه بشكل شبه آلي ودون الحاجة إلى نشاط بشري، فهناك خطر الارادوية إذا تم اختبار الاستراتيجية والتكتيكات دون الرجوع إلى ظروف محددة وسياقات هيكلية أوسع[19].

الهوامش:

* نشر هذا النص بعد تنقيحه بصورة طفيفة ليكون الفصل الاول من الطبعة الثانية لكتاب
" The Wiley-Blackwell Companion to Political Sociology:
Marxist Approaches to Power; Ch1; in: "The WILEY-BLACKWELL Companion to Political Sociology"; ed. Amwnta et.al.; Oxford: Blackwell; 2012; pp:3-14.
علما ان النسخة الاقدم، نشرت في الطبعة الاولى من الكتاب عام 2004، وكانت بعنوان" تطورات في النظرية الماركسية
"Developments in Marxist theory -

** بوب جيسوب Bob Jessop : بوب جيسوب أستاذ وعالم اجتماع بارز، ومدير مشارك لمركز أبحاث الاقتصاد السياسي الثقافي في جامعة لانكستر. معروف بإسهاماته المهمة في نظرية الدولة، والاقتصاد السياسي النقدي، وإعادة هيكلة دولة الرفاهية، ومؤخراً، له ابحاث متنوعة عن الحوكمة واسباب فشلها. من كتاباته الرئيسية عن الدولة: الدولة الرأسمالية

1982، نظرية الدولة 1990، مستقبل الدولة الرأسمالية 2002، الدولة: الماضي والحاضر والمستقبل 2016.

1- كل ما سيرد في النص بين معقوفتين [] هو اضافة توضيحية من المترجم. بينما كل ما سيرد بين قوسين () هو من المؤلف.

2- Isaac, J.C. 1987: Power and Marxist Theory: A Realist Approach. Ithaca, NY: Cornell University Press.

3- لاحظ ان كلمة (power) تقابلها عدد من المعاني في اللغة العربية. فهي قد تعني سلطة، سلطان، قوة، طاقة، قدرة ..وغيرها. في هذه الفقرة يشير المؤلف لا الى معنى السلطة وانما الى المعاني الأخرى، خصوصا تلك المسلطة من جهة العمال.

4- (انظر:

- Moore, S.W. 1957: The Critique of Capitalist Democracy. New York: Paine-Whitman.
- Barrow, C.W. 1993: Critical Theories of the State: Marxist, neo-Marxist, post-Marxist. Madison: University of Wisconsin Press.
- Gramsci, A. 1971: Selections from the Prison Notebooks. London: Lawrence & Wishart.
- Offe, C. 1984: Contradictions of the Welfare State. London: Hutchinson.
- Poulantzas, N. 1978: State, Power, Socialism. London: Verso.
- Jessop, B. 1990: State Theory: Putting Capitalist States in their Place. Cambridge: Polity.

5- P:22 Miliband, R. 1969: The State in Capitalist Society. London: Weidenfeld & Nicolson.

6- Offe, C. 1984

7- في النص المترجم، يستخدم المؤلف في هذا صيغة الشخص الثالث، حيث يذكر اسمه في سياق. في الترجمة لم نعتمد هذه الصيغة، بل اعتمدنا على صيغة المتكلم.

8- Poulantzas, N. 1978

9- Gramsci, A. 1971: Selections from the Prison Notebooks. London: Lawrence & Wishart, pp 244

10- انظر:

- Jessop, B. 1982: The Capitalist State: Marxist Theories and Methods. Oxford: Martin Robertson.
- Jessop, B. 1990: State Theory: Putting Capitalist States in their Place. Cambridge: Polity

11- لاحظ الهامش رقم (7)

12- Gramsci, A. 1971, pp 366-367

13- Grossman, H. 2007: Marx, classical economics, and the problem of dynamics. International Journal of Political Economy 36 (2): 6–83.

14- Postone, M. 1993: Time, Labour, and Domination. Cambridge: Cambridge University Press.

15- Scheuerman, W.E. 2004: Liberal Democracy and the Social Acceleration of Time. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

16- Burkett, P. 1999: Marx and Nature. A Red and Green Perspective. New York: St Martin's Press.

17- Jessop, B. 2002: The Future of the Capitalist State. Cambridge: Polity Press.

18- Jessop, B. 2007: State Power: A Strategic-Relational Approach. Cambridge: Polity Press.

19- في نهاية المادة اقترح الكاتب كتب أخرى للاطلاع هي:

- Barrow, C.W. 1993: Critical Theories of the State: Marxist, neo-Marxist, post-Marxist. Madison: University of Wisconsin Press.
- Jessop, B. 2002: The Future of the Capitalist State. Cambridge: Polity Press.
- Jessop, B. 2007: State Power: A Strategic-Relational Approach. Cambridge: Polity Press.
- Marx, K. 1871: The Civil War in France. In D. Fernbach (ed.) Karl Marx: the First International and After. Harmondsworth: Penguin, 1973.
- Miliband, R. 1969: The State in Capitalist Society. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Poulantzas, N. 1978: State, Power, Socialism. London: Verso.

حـــــــــــوارات

في الذكرى الثانية لاندلاع انتفاضة تشرين المجيدة
(الثقافة الجديدة) تحاور الناشط المدني والباحث في الحركات الاحتجاجية
الدكتور جاسم الحلفي

الثقافة الجديدة: كنتَ واحدا من اوائل الناشطين المدنيين والسياسيين، وكذلك الباحثين في مجال الحركات الاجتماعية الحديثة، الذين اطلقوا على احداث تشرين تسمية "ثورة"، وان كنت تعطف كلمة الـ"ثورة" بعبارة "غير مكتملة الشروط".

ان توصيف الحدث التشريني بكونه "ثورة غير مكتملة الشروط"، يقودنا الى العديد من التساؤلات المنهجية؛ فمن جهة هو يستبطن التأكيد على ان انتفاضة تشرين هي اكثر من كونها هبة شعبية مفاجئة او حركة احتجاجية مطلبية تقليدية.

ان هذا التوصيف يكتسب اهميته الكبيرة، ليس من طبيعته النظرية فحسب، وانما ايضا من ناحية سياسية. حيث ما زالت جذوة الانتفاضة حتى الحظة لم تنطفئ، على الرغم من خفوت وهجها ظاهريا. فالأزمة البنيوية العميقة التي كانت سببا في تأجيجها ما زالت قائمة.

السؤال هنا متعدد الابعاد: لماذا تشرين "ثورة" برأيك؟ ماهي اسباب كونها "ثورة غير مكتملة الشروط"؟ ولكونها احد ابرز وقائع عملية التغيير حتى الآن، ترى كيف يتم استكمال الشروط كي تفضي حركة الجماهير الى التغيير المنشود؟

د. جاسم الحلفي: نعم، لقد صنفت الانتفاضة في وقت لاحق بانها ثورة غير مكتملة الشروط، وذلك لقوة موضوعة التغيير الذي تبنته، ونادت به وعكسته في سلوك ونشاط فاعليها الاجتماعيين. ولتأكيد الأساس المعرفي لهذا التصنيف، يتطلب التطرق الى مفهومي الثورة والانتفاضة. هناك صعوبة تواجه الباحثين في إيجاد تعريف متكامل لمفهومي الثورة والانتفاضة، اذا ان ضبط مفهوم الثورة ليس يسيرا، بسبب تنوع إختصاصات المفكرين وتعدد متبنياتهم الفكرية: هناك من يستخدمه للدلالة على احداث التغيير ليس في الحقل السياسي وحسب، بل في مختلف الحقول المعرفية والابداعية. بكلمة أخرى، الثورة تعني التغيير حتى في كل مجالات الابداع الإنسانية، العلوم والثقافة والفن. يراد من استخدم المفهوم في الحقل السياسي هو الإشارة إلى التغييرات الجذرية في الأوضاع الاجتماعية والسياسية 1. وكذا الامر بالنسبة للانتفاضة، فليس من السهل تحديد أبعاد المفهوم والدلالات المرتبطة به، مع الاتفاق على انها، أي الانتفاضة، ظاهرة سياسية - اجتماعية عرفتها المجتمعات الإنسانية التي تعرضت للظلم والعدوان. ويمكننا القول انها مقاومة شعبية ومواجهة للظلم أو الفساد، سواء كان تصديها لسلطة مستبدة ام احتلال ام هيمنة خارجية. اذاً، هي ظاهرة كفاحية تهدف لتحقيق مصالح عامة، وحركة اجتماعية تسعى إلى التغيير السياسي وتحقيق الديمقراطية ببعديها السياسي والاجتماعي، وتأمين الحريات والحقوق والعدالة الاجتماعية. هناك فروق دقيقة بين مفهومي الانتفاضة والثورة ينبغي إيضاحها. الانتفاضة تسبق الثورة الشعبية وخطوة تحضيرية لها. الثورة تحسم الصراع لصالح التغيير، بينما الانتفاضة تهب وتهفت. الانتفاضة من المنظور الثوري مرحلة تحضيرية. بينما الثورة من المنظور ذاته مرحلة نهائية لقطف الثمار. الثورة أعلى مراحل الانتفاضة. من جهة أخرى إذا كانت الثورة ذات منطق تغييري جذري وشامل، فإن الانتفاضة تجمع في جوهرها بين المنطق الإصلاحي التدريجي والمنطق التغييري

الشامل وفقا لما تقتضيه حالة المواجهة. ثمة علاقة لا تنفصل بين الانتفاضة والثورة. ليس كل انتفاضة ثورة بالضرورة، وليست هي تحضيرا لها في كل الأحوال. بينما كل ثورة ـ بكل تأكيد ـ ثمرة من ثمرات الانتفاضة. باختصار، يمكن تعريفها من خلال هدفها النهائي وهو التغيير؛ حيث لا يوجد مجتمع رهين مرحلة واحدة لا تتغير، على حد قول سمير أمين. في حين يرى هوبزباوم ان الثورة وسيلة الثوار لتحقيق أهدافهم العامة، عبر عمل منظم ومستمر تديره قيادة واعية مقتدرة ومقدامة، والثورة هي رهان قد ينجح في تغيير النظام، وبالتالي الدخول في مرحلة جديدة، وقد تفشل وتكون النتيجة العودة الى الوراء.

لذا تبقى الثورة، حسب الان تورين، خيارا استثنائيا يتم اختياره برويّة وحكمة تفترضها الضرورات. كما ان الثورة ليست قطيعة وتوقف، لكنها على العكس من ذلك، هي حركة التطور التاريخي نحو الحرية.

بطبيعة الحال، لا يمكن انهاء الفوارق الطبقية الواضحة في العراق دون التصدي للتغيير. تغيير بُنى النظام المتسبب في صنع الفجوة المعيشية التي تتسع يوما بعد اخر، بين الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية المحدودة الدخل والفقيرة والمهمشة من جهة، وبين طغمة الحكم، ضمنها كبار الفاسدين وتحالفاتهم الطبقية وارتباط مصالحهم مع أصحاب المصارف والمرابين والمضاربين الكبار من جهة أخرى. لذا اعتقد ان تصنيفها كثورة كونها تحمل موضوعة التغيير بكل خصائصه. اما لماذا هي "غير مكتملة الشروط"؟ وذلك لافتقادها شرط القيادة، فاي ثورة بلا قيادة لا تنجح. لا تنجح الهبات الشعبية والانتفاضات والتمردات بالضرورة وتحقق هدفها بالتغيير الشامل دون اكتمال عناصر النجاح. وموضوع القيادة من اهم عناصر النجاح. غياب القيادة المقدامة القادرة على قيادة المنتفضين والسير امامهم، فهي ثورة لكن لم تكتمل شروطها. مع ان الانتفاضة استمرت لاشهر عديدة وقدمت شهداء باصرار عنيد، وواصلت اجتراح البطولات النادرة، وعبرت عن رأي شعبي ووطني مكافح من اجل التغيير، لكن لم يضف إليها صفة الثورة، وذلك لانها افتقدت شرط القيادة، لذا اطلق عليها عبارة "ثورة غير مكتملة الشروط".

الثقافة الجديدة: مضت سنتان على انتفاضة تشرين، وهي مدة أكثر من كافية من اجل استخلاص الدروس والعبر، وبحث ابرز واهم قضايا ومعضلات الانتفاضة، بل وحتى عيوبها ونواقصها.

فكون انتفاضة تشرين هي "ثورة غير مكتملة الشروط" يعني انها تمثل خلاصة لمجمل حركات الاحتجاج والنضال الاجتماعي السابقين، بنجاحاتها واخفاقاتها. كما انها تمثل في ذات الوقت عصارة للجدالات والصراعات النظرية والبحثية التي رافقت او واجهت حركة الاحتجاج والنضال هذه.

هل من تعليقات وافية تساهم في عرض اهم دروس وخلاصات انتفاضة تشرين؟

د. جاسم الحلفي: ان اهم الاستنتاجات الأساسية كما اراها هي: أولا، عدم قدرة طغمة الحكم على تقديم حلول ناضجة وكاملة وشافية للسبب الأساسي للانتفاضة، وهو ازمة النظام السياسي، الأزمة البنيوية؛ وثانيا، إن قضية اندلاع احتجاجات جديدة

هي مسألة وقت؛ وأخيرا، إن الاحتجاجات المتوقعة ستكون اشد وطأة وأوسع مساحة وأعمق محتوى مما سبق، شرط معالجة نواقص واخطاء الانتفاضة.

قد يبدو للوهلة الأولى ان الاستنتاجات الثلاث هي اقرب الى فرضيات ليس بالضرورة اثباتها، وربما هناك من يفندها سريعا بفرضيات تعارضها، لكن الامر هو غير ذلك، اذا اتبعنا المناهج العلمية، وفي المقدمة منها المنهج الماركسي في دراسة الأوضاع في العراق، ونركز على تحليل طبيعة النظام السياسي وبنيته وما يمثل من مصالح وما يتبع من أساليب، يقودنا ذلك الى استنتاج سبق وتوصل اليه طيف واسع من المفكرين والسياسيين. ان البلد يعيش ازمة بنيوية تبدأ من جذر النظام وتنتهي بمخرجاته بصناعة الأزمات، واخطرها التمييز الاجتماعي على أساس طائفي/اثني، وهذا التمييز اصبح خاصية من خصائص النظام السياسي في العراق، فقد استند "منظرو" النظام على نظرية وهمية ابتكروها وروّجوا لها، اطلق عليها نظرية (مخاوف المكونات من بعضها البعض) اي ان الشيعة لديهم خوف تاريخي من حكم السنة، والسنة اليوم يشعرون بالتهميش من حكم الشيعة. الكرد لديهم ريبة من حكم العرب والعرب قلقون من "تمدد" الكرد.

هكذا صنعوا مخاوف وهمية بين أبناء الشعب الواحد، عبر الترويج لهذه النظرية المخادعة، واشاعوها بمختلف الأساليب، وباكثر الوسائل دناءة، وصورا وكأن الشعب العراقي عبارة عن مكونات متناحرة متقابلة، والهدف هنا واضح وهو تسهيل فرض حكم الأقلية المستبدة، (الاولغارشية)، بعد ان نظم المتنفذون قواهم لتأمين مصالحهم الشخصية والنفعية والحزبوية، عبر اطر سياسية وتحالفات طائفية، تصدرها (صقور الطائفية) ملأوا الاعلام ضجيجا بخطابات طائفية مقيتة، وصنعوا وعيا مزيفا، نجحوا في تشويش انتباه المواطنين، وحرف الوعي بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وكأن المشكلة الأساسية التي تهدد الحياة هي وجود الاخر من الطائفة الأخرى، واخذ كل زعيم طائفي يدعي بانه حام لطائفته، ومكافح من اجل حقوقها وضامن لها. وصدّر كل منهم نفسه كحام للطائفة والضامن لوجودها وحارس حقوقًها. وكما هو مسار العملية السياسية فقد اصبحت دولة المكونات السياسية هي العائق للاستقرار، المهدد للأمن المجتمعي. وهذا هو اهم عامل دفع الشباب للاحتجاج، بعد ان اكتشفوا الخديعة، اذ أن الطائفية السياسية عبارة عن غطاء لحكم المتنفذين، وباب فساد الحكام ومنفذ لثرائهم الفاحش، على حساب موارد الدولة واموالها. ان نظرية المخاوف هي محض كذبة كبرى حاول ان يروجها زعماء الطوائف وصيّروها كحقيقة، والهدف واضح هو جعلها غطاءً يؤمن سرقاتهم ويحفظ مصالحهم الفئوية والذاتية عبر وجودهم بالسلطة التي هي باب المال والنفوذ والصفقات. لقد فقدت المؤسسات، نتيجة ذلك، دورها القانوني والسياسي، اذ لم تتم محاكمة ومحاسبة اي مسؤول لأخطائه ولجرائم فساد ارتكبها، وفي البعد الطائفي هو المتراس والحامي له، باعتباره ابن الطائفة واحد قادتها، حتى اصبح من المتعذر محاكمة أي من حيتان الفساد، وذلك لانه متنفذ، الا في حالات محددة تمت المحاسبة وفق توازن طائفي أيضا. على سبيل المثال

ان تمت محاسبة شيعي، فيجب أن يكون الى جانبه سني واخر كردي كصفقة للمحاسبة.

رفضت الانتفاضة نهج المحاصصة بشكل قطعي، وأكدت موضوعة المواطنة المتساوية بالحقوق والواجبات، سيما ان المواطن العراقي بغض النظر عن طائفته وقوميته يعاني من هذا النظام وقبضة السلطة ومن المتنفذين والفساد ونقص الخدمات، ومن الوضع المعيشي السيئ. وانصبت محاولات الانتفاضة نحو تغيير بنية النظام من المحاصصة الى المواطنة، وبناء وحدة وطنية حقيقية ليست مزيّفة. الوحدة الوطنية ليست هي وجود قوات عسكرية للحكومة المركزية في منطقة ما، تمنع صوتاً أو تقمع حركة، لأن الوحدة الوطنية الحقيقية لا تبنى من خلال فوهات البنادق، لأن البنادق إذا ما دخلت مجال الصراع السياسي الداخلي، فإنها ستكون مخربة للوحدة الوطنية نفسها. وكذلك الديمقراطية، فهي ليست الديمقراطية الشكلية التي يلجأ اليها نظام سياسي، لتخفيف لضغط عليه، وهي ستعمل على تخريب وتشويه المعنى الحقيقي للديمقراطية. إن كلاً من الوحدة الوطنية والديمقراطية غير الحقيقيتين ستعملان ضد وحدة المواطن والوطن وحريتهما، بحسب الاستاذ عبد الجبار احمد . لذا فموضوعة التغيير تعني ان الامر قد تجاوز اصلاح النظام، كما هو هدف الاحتجاجات التي سبقت انتفاضة تشرين 2019. وبهذا المعنى ينطبق مفهوم الثورة على الانتفاضة بكل عناوينها، لو انها استكملت شروطها. لقد عبّرت شعارات الانتفاضة بلا ادنى شك عن موضوعة التغيير الجذري؛ فشعار "نريد وطن"، على سبيل المثال، هو جواب على حاجة العراقيين لوطن يحفظ كرامة مواطنيه، يكون المواطن فيه حرا وليس تابعا وعبدا لأحد. مواطن غير ذليل، يتمتع بحقوق المواطنة، بدون تهميش او اقصاء. يعيش في وطن لا يستخدم من قبل أصحاب المصالح الخاصة، كساحة للصراعات الاقليمية والدولية الطامعة بموقعه وبموارده، تنهب منها ما يؤمن مصالحها على حساب المصالح الوطنية. اذا دققنا بجوهر الشعار ودلالات رفعه، لوجدنا مفهوم التغيير والحاجة إليه هو الأساس في صياغته وتبنيه. ارتبط رفع الشعار بالمطالبة بتشريع قوانين تؤسس لذلك، منها على سبيل الحصر، قانون انتخابات عادل ومنصف ومفوضية مستقلة حقا، تدير الانتخابات بعدالة وحيادية. كل هذه الامور، بمعناها السياسي، هي مطالبات هدفها التغيير، ورفض للواقع البائس وفضح للنهج الذي سارت عليه طغمة الحكم، وضرورة تغييره. اما الامر الآخر الذي لا يقل أهمية فهو الجانب الاجتماعي للانتفاضة الذي عبر عنه مطلب العدالة الاجتماعية، حيث يعيش المواطنون البؤس والبطالة وضنك العيش والوضع الخدمي السيئ جدا، وليست مصادفة ان تسبق الانتفاضة فعاليات عديدة، من بينها، خمسة اعتصامات استمرت لأشهر امام الوزارات تطالب بالتعيين. وكان ابرزها تظاهرات حملة الشهادات العليا امام مجلس الوزراء، التي تم قمعها بالغاز وخراطيم المياه، التي عبرت عن بؤس السلطة وعدم قدرتها على التعامل مع حرية التعبير، ولجوئها الى الاساليب القمعية المدانة؛ اذ تعرضت حتى النساء الى قمع وحشي غير مقبول. إنّ احتجاج المحرومين بوجه النظام، بهدف فرص العمل ولأجل تغيير الواقع المعيشي البائس، رغم

منظومة القمع التي يوجهها لهم النظام، هي دلالة واضحة على رفض النظام، وهو تعبير آخر عن مضامين الثورة. فيما بقي النظام متمسكا بنفس منهج الحكم، غير مهتم بطرح معالجات للأزمة البنيوية، ما يؤكد ان لا توقع لحل ينتجه عقل السلطة. فتداعيات أزمات النظام سيما الاقتصادية والمالية والمعيشية باقية وتثقل كاهل المواطنين، وهي ذات الأسباب التي دعت العراقيين للانتفاض. وجديدها شدة التفاعل. كما زاد عليها عاملان اخران هما: العامل الأول: تخفيض قيمة الدينار لصالح الدولار، وما ترتب على ذلك من نهب ما يقارب ربع مدخرات المواطنين بطريقة شيطانية؛ اذ ان المواطن الذي لديه مدخرات مالية، يحفظها لوقت الحاجة، فقد نهبت منه قانونيا. على سبيل المثال ان المبلغ الذي قدره مليون دينار، عندما تغير سعر الصرف اصبحت قيمة المبلغ 750 الف دينار. يعني ان 250 الف دينار نهبت، الى جانب خفض القيمة الشرائية، واعقب ذلك ارتفاع جنوني بالأسعار. حمل هذا الاجراء القاسي اعباء تدميرية على الوضع المعيشي، المتدهور اصلا، وتمت اضافة اعداد كثيرة من الجائعين والفقراء الى الجيش الكبير من الفقراء والمهمشين. وهنا أجد اقترابا للصورة التي كتب عنها انجلز في آذار 1844، في سياق معالجة مسألة الوضع في إنكلترا. وبين ان الطبقة المسيطرة لها الهيمنة والنفوذ. اما الفقراء فهم مضطهدون، مسلوبون، وبلا حقوق، الدستور ينكرهم والقانون يسيء معاملتهم.

اما بخصوص العامل الثاني، فهو نتائج الانتخابات؛ حيث كانت الاخيرة بمثابة كاشف جديد لازمة نظام الحكم الذي يتصارع المتنفذون على مركز القرار به. وقد عكس عدم ثقة المواطنين بالنظام السياسي، فقد بينت ارقام المقاطعة اتساع الفجوة بين الشعب العراقي والقوى الماسكة بالسلطة؛ حيث تحدثت لغة الأرقام ليس فقط عن تراجع واضح في حجم المشاركة، انما كذلك عن تراجع واسع للقوى التصويتية لكل الأطراف المتنفذة حتى الفائزين منهم، اذ لم يحصل أي منهم على ما حصل عليه من الأصوات في انتخابات 2018. وبهذا المعنى فقد لحقت بجميعهم خسائر تصويتية فادحة، برهنت على تراجع ثقة ناخبيهم التقليديين بهم. ويبدو انهم لغاية الآن لم يبصروا هذه النتيجة، ولم يتمعنوا بدروسها وتداعياتها عليهم على المستوى القريب والبعيد ايضا. المقاعد التي حصل عليها بعضهم، هي فوز خادع حيث لا يعكس حقيقة الحجوم التصويتية. بمعنى اخر لو قسمت الأصوات التي حصل عليها الفائزون في هذه الانتخابات، وفق أي آلية توزيع أخرى للمقاعد غير هذه التي وردت في قانون الانتخابات الحالي، لاتضح بشكل جلي حجم خساراتهم.

يبدو ان مسعى طغمة الحكم يذهب بتشكيل حكومة توافقية لإرضاء القوى التي خسرت الانتخابات، ما يؤكد حقيقة لا تدحض، هي عدم وجود أي نية لمغادرة طريقة الحكم السابقة المبنية على التوافقات الطائفية، وتمسكهم بنهج المحاصصة وعدم مغادرته، رغم كل نتائجه الكارثية. ما يجعل المواطنين يفكرون بطرق أخرى للتغيير، ستكون الاحتجاجات اهم ما يلجأ اليه المحرومون.

أخيرا، يمكن القول ان الانتفاضة لم تنطلق من فراغ، ولا هي هبة عاطفية، ولا احتجاج عابر، بل هي ثورة ـ وان لم تكتمل

شروطها ـ على النظام السياسي، بعد اتضاح عجزه عن تأدية مهماته الأساسية بتأمين المعيشة الكريمة للمواطن، الى جانب إحلال الاستقرار واطلاق عمليات البناء والاعمار والتنمية المستدامة.

الثقافة الجديدة: لا يمكننا بأي حال من الاحوال ان نعزل الحركة الاحتجاجية في العراق والتي تمتد منذ شباط 2011 وحتى الان عن مسارات حركات "الربيع العربي". فأوجه التشابه والاختلاف قائمة. كما ان الظروف المشتركة والمتنوعة تتشابك الى حد كبير. وكل هذا يجعل من المقارنة امرا يكاد يكون حتميا.

إن احد اهم اوجه المقارنة هنا، هو مقارنة المآلات. ونستطيع في هذا المقام ان نصنف ـ وإن بصورة تعسفية ـ مآلات "الربيع العربي" الى المسارات الاتية:

ـ انهيار الدولة الحديثة بهذا الشكل او ذاك، وبهذا الحجم او ذاك. غالبا بسبب خواء منظومة مؤسسات الدولة وايضا بسبب التدخلات الخارجية (ليبيا، سوريا، اليمن).

ـ الإسلام السياسي التقليدي المنظم يقطف ثمار الحركة الاحتجاجية، انقلاب مؤسسات الدولة الراسخة على الاسلام السياسي، ثم اعادة تشكيل سلطة فردية شعبوية (مصر، الى حد كبير تونس كما بدا مؤخرا).

ـ اصلاحات "رتوش" خارجية لم تمس جوهر المنظومة الحاكمة (المغرب، الجزائر، السعودية).

في ظل المسارات التقريبية وغير الدقيقة السابقة، ترى أين موقع العراق؟ وما هي الامكانيات التي يمكن التنبؤ بها لحركة التغيير في قادم الايام؟

د. جاسم الحلفي: ان اعتماد المناهج العلمية لرصد ومتابعة وتحليل الحركات الاجتماعية ومنها حركات الاحتجاج، وفق المنهج الماركسي العلمي، يقودنا الى أمر مهم، بأن هذه الانتفاضة الجبارة الـ"ثورة غير مكتملة الشروط" لم تولد صدفة ولم تأت من فراغ وهي ليست حدثا عابرا، فهي استمرار للحركات الاجتماعية منذ 2011 وما تلاها من احتجاجات او هبات متنوعة، المحدودة منها والواسعة، الوطنية والمناطقية، المطلبية والتغييرية، العفوية والمنظمة التي عبّرت عن قضايا عديدة. كل هذه الحركات لم تكن منقطعة عن بعضها بل هي استمرار يكمل التالي ما سبقه، عبر عملية تراكمية متعاقبة، فالاحتجاجات التي انطلقت في الأول من تشرين عام 2019، كوقفات احتجاجية سرعان ما تحولت الى اقرب للثورة من كونها انتفاضة. ان ربط الاحتجاجات العراقية بما اصطلح عليه بـ"ثورة الربيع العربي" هو ربط غير موفق، ويوحي وكأن هناك محركا خارجيا لهذه الثورات، مع اني أرى ان الثورات التي اندلعت في البلدان العربية كان العامل الداخلي هو المحرك. لا يعني هذا انه لم يحدث تدخل خارجي، بل حدث خاصة في ليبيا واليمن وسوريا، وذلك بعد اندلاع الثورات فيها. ويمكن الاتفاق مع اطروحة تشارلز تلي الذي قال فيها: "علينا أن نتذكر أن معظم الحركة الاجتماعية في القرن الحادي والعشرين ما زال يعمل على أشكال محلية وإقليمية ووطنية من التنظيم سادت بالأساس في أواخر القرن العشرين". من نافل القول الإشارة الى ان دور العامل الخارجي اصبح لصيقاً بما يعرف بـ(الثورات البنفسجية) التي ظهرت في اوربا الشرقية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية. اما اذا تحدثنا عن

مآلات الثورة البنفسجية، وبعيدا عن نظرية المؤامرة، مع ان العامل الخارجي يجب ان يحسب له حساب، لا ان يغيب من التحليل وما يمثله من مصالح، لكن لا يمكن اعتبار تأثير العامل الخارجي بمستوى وتأثير واحد وقوة واحدة، في جميع الثورات، فكل ثورة لها خصائصها وظروفها المعنية. ومن الجدير بالذكر ان النظام في العراق شأنه كباقي الأنظمة التي لا تعترف بعيوبها واخفاقاتها، وتكيل التهم لمعارضيها، كالارتباط بالاجنبي وهي التهمة الجاهزة بين عديد التهم التي يراد منا تشويه حركات الاحتجاج، ومنها ما يردده ازلام النظام عبارة "أولاد السفارات" كشتائم وتشويه لسمعة شباب الانتفاضة في العراق. لا نحتاج هنا الى استعراض العوامل الداخلية التي فجرت الانتفاضة، فقد تم عرضها ضمن جواب السؤال الأول. ومن جهة أخرى يمكن لنا المقارنة بين حركات الاحتجاج العراقية مع (ثورات الربيع العربي)، اوجز عاملين مشتركين هما عامل اجتماعي واخر سياسي.

بالنسبة للعامل الاجتماعي، فيتمثل بغياب العدالة الاجتماعية، وتدهور الأوضاع المعيشية، والغلاء وضعف القدرة الشرائية، والبطالة والتهميش، ونقص الخدمات وتراجعها، وارتفاع مستويات الفقر، يرافق ذلك علميات تغييب للوعي والتشويه والتخدير الذي تديره الماكنات الإعلامية للأنظمة، وصل الامر الى جعل الهدف من مفاهيم العدالة والاشتراكية والانصاف، ان يكون الفقراء اكثر حرصاً على فقرهم، واكثر استعداداً لخدمة الاغنياء والمتنفذين.

اما بالنسبة للعامل السياسي، فهو يتمثل بالتهميش السياسي وضعف المشاركة السياسية وتشويهها وجعلها صورية، حيث تجري الانتخابات ويحصل من خلالها رؤساء الانظمة على 99.9 بالمئة من الاصوات، ما يضمن استمرارية تسلطهم، وتهافت فرص التحول الديمقراطي وهيمنة ثقافة العنف الإقصائية على المجتمعات العربية والغياب الكامل لقيمة الفرد - الإنسان - المواطن. اما في العراق فالانتخابات من القوانين الى الإدارة الانتخابية تعمل لصالح طغمة الحكم. ولم نشهد انتخابات حرة ونزيهة. دوما تشوب الانتخابات التزوير وتنعت بعدم النزاهة، وتأتيها الطعون حتى من اطراف طغمة الحكم ذاتها.

الملاحظ ان هذه الثورات انطلقت من اساس عدم قدرة الانظمة السياسية على الاستجابة للمتغيرات الاجتماعية وحاجات المواطنين، فضلا عن ضعف الاحزاب السياسية والاطر السياسية الفاعلة، التي لم تتمكن من تمثيل المتطلبات الاجتماعية وحمل الاهداف الكبرى والتعبير عنها في ظل أنظمة سياسية تسلطية، فاقدة لشرعية الحكم، عاجزة عن تقديم إنجازات، لا تقدم سوى خطابات رسمية فاقدة لقدرة الإقناع. فأتت الحركات الاجتماعية بمختلف فواعلها لتقول ان هذا النظام عليه ان يتغير ويستجيب لحركة التغيير. هناك من يقول ان هذه الثورات غيرت الانظمة، لكنها في الحقيقة قامت بتغيير الحكومات، فيما استمرت الانظمة باستمرار القوانين السالبة للحرية رغم تعارض العديد من مواد القوانين مع الدساتير التي شرعت اثر الثورات. وفي بعض الاحيان، حيث جرت تغييرات دستورية سرعان ما تم الانقلاب عليها. يقول المفكر سمير امين: تبدو لي الحركة التي

أخذت مجراها في المجتمع المصري أواخر يناير 2011، هي أكثر من مجرد انتفاضة، لكنها أيضاً أقل من ثورة. بمعنى أن تلك الحركة لم يكن لها أهداف واضحة تتجاوز الإطاحة بمبارك، حسب تحليل المفكر المصري الراحل سمير أمين.

في كل الاحوال، وبقطع النظر عن المآلات، فقد كسرت هذه الثورات حاجز الخوف ورسخت ثقافة سياسية جديدة، وأشرت ضرورة التغيير الاجتماعي والسياسي، وحملت مطالب متعددة، بدءا بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية وصولا إلى الإصلاحات السياسية.

يبدو لي ان الوضع في العراق يختلف نوعا ما؛ فقد حدث التغيير عبر الحرب والاحتلال، مطلع عام 2003، وتحولت طبيعة النظام من نظام حكم دكتاتوري الى نظام يمر في مرحلة التحول الديمقراطي. ولكن رافق هذا التحول تشوه وفساد وهيمنة وتهميش. لذا فالانتفاضة العراقية هدفت الى تغيير طبيعة النظام وبنيته السياسية وقاعدته الاجتماعية، لذا طرحت اقالة الحكومة وتشكيل حكومة مؤقتة ذات صلاحية استثنائية وان تكون من المستقلين والشخصيات النزيهة والوطنية، وان تكون مهمتها اجراء انتخابات حرة ونزيهة، بعد ان يتم تشريع قانون عادل للانتخابات، وتشكيل مفوضية مستقلة واجراء انتخابات مبكرة. جوهر هذا المطلب، هو البحث عن التغيير، لكن سرعان ما انتبه المتنفذون، بما يمتلكون من قدرات وامكانيات ومصلحة في الحفاظ على النظام. وقاموا بتشكيل حكومة محاصصة بلباس جديد، لا يظهرها على انها من الاحزاب الاسلامية، بل على انها حكومة مستقلة. وكان الهدف هو اللعب على الوقت وامتصاص النقمة وتهيئة ظروف افضل لاعادة انتاجهم بالسلطة وتمترس وجودها فيها. وتتم اعادة انتاج انفسهم من خلال انتخابات يتم تنظيمها بالبيئة والشروط التي تحمي مصالحهم وتحقق لهم الحضور، وهذا الذي جرى.

الثقافة الجديدة: عبر سنوات طويلة من الهيمنة والاستلاب، تشربت جماهير الشعب العراقي، خصوصا شرائح الشباب بمختلف معاني التواكل والاحباط والقهر والدونية. وبالتالي فإن احد أهم منجزات تشرين هو كونها اعادت الحياة والدلالة الى الحقل السياسي، من خلال استنهاضها الجماهير مرة اخرى للنضال في سبيل انتزاع حقوقها المسلوبة. ففي لحظة تشرين، تمكن المنتفضون، والقسم الاكبر منهم كما تعلم من الشباب، من تحطم كل تابوهات الهويات، وطعنت بكل رموز المهابة والطاعة. بل وحتى انها سعت الى ان تمزق الكثير من اردية "القداسة".

بمعنى اخر، لقد ازالت الانتفاضة، كل الادعاءات الباطلة من ان الشعب العراقي وبسبب العقود الطويلة من القمع والضغط والحروب وبتأثير قوي من ريعية الدولة فإنه قد جُبل بسمات الاستكانة، ودُجن بثقافة الخضوع. هل يمكنكم تعميق هذه الموضوعة، عبر اضاءة جوانبها المختلفة؟

د. جاسم الحلفي: دعني اجيب بإيجاز شديد: ان عوامل الانتفاضة قائمة، وتتفاعل، ولن تتراجع الحركات الاجتماعية عن هدف التغيير. المتوقع هو ان نشهد احتجاجات جديدة بتكتيكات جديدة وإمكانيات ائتلافية إضافة إلى ثقافات سياسية خلاقة. سيما وان التركيبة الاجتماعية للانتفاضة أساسها ومحركها هو شريحة الشباب، الذي فقد

الامل في طغمة الحكم، كي تحقق له العيش الكريم. واصبح الشعور باليأس منها هو الشعور السائد، اذ لم يجد الشباب حاضرا يسر قلوبهم ويمنحهم فسحة امل. ومستقبل مسدود، لذلك يمكن لنا تفسير بسالتهم اثناء الانتفاضة، وعنفوان ثورتهم، فلم يصدهم القمع الوحشي الذي اوغل في قتل المنتفضين حتى تجاوز عدد الشهداء 800 شهيد وما يقارب 25 الف جريح ومعوق. هذه الخسائر البشرية الموجعة لم تثنِهم عن مواصلة الاحتجاجات. وكانت وستكون عاملا محفزا لإعلان انتفاضة اكثر اتساعا واكثر عمقا من كل الاحتجاجات السابقة. وتبدو لي الصورة المتخيلة للثورة الشبابية المتوقعة، شبيهة بالصورة التي تخيلها المفكر العظيم كارل ماركس ومقولته الشهيرة "ان العمال حينما ينتفضون لا يخسرون سوى قيودهم ويربحون العالم باسره". وفكرة أن الفقر ينبغي أن يساعد الناس على كسر أغلال الاضطهاد، وذلك لأن الفقراء ليس لديهم ما يخسرونه سوى أصفادهم، هي فكرة غدت مألوفة من خلال كتابات كارل ماركس.

اما نظرية طغمة الحكم التي تروّجها ابواقها بان القوى المتنفذة (الشعب العراقي خانع وراكد ومهادن) فقد اثبتت فشلها؛ حيث ان الشعب العراقي لا يختلف بشيء عن الشعوب الحرة التي كافحت من اجل الانعتاق والبحث عن الحرية والكرامة. هناك من السياسيين والمفكرين العراقيين من يعد اليأس والقنوط الذي يسود المزاج العام في فترات معينة، وكأنه سكون وخنوع، لكن العكس صحيح؛ ففي اية لحظة يتحول هذا السكون الى ثورة عارمة وكبيرة وجبارة، تقتلع النظام من جذوره. وهنا لا بدّ لي من ايراد ما كتبه إيريك هوفر نصا حيث يقول: "إن المنبوذين والمهمشين هم المادة الخام التي يُصنع منها مستقبل الأمة. أي أن الحجر المطروح في الشارع يصبح حجر الزاوية في بناء عالم جديد".

من الجدير ذكره، هو الاستعدادات الفكرية والسياسية والبحث الدائم الذي يجرى على المستوى العام، وفي نطاق كل الأطر التنظيمية للمنتفضين، (تنسيقيات، حركات، أحزاب، مؤتمرات، المجلس التشاوري لحركات تشرين والقوى الوطنية)، تتم في أجواء بحث دائم لنواقص الانتفاضة واخطائها، ووضع البدائل والمعالجات. ويمكن لي هنا ان أوجزها بالاتي:-

أولا، موضوعة عدم وجود قيادة، هي موضع نقاش دائم واتفاق واسع بأهمية معالجتها على وجه السرعة، وإنتاج قيادة جماعية.

ثانيا، وهْم القوة، اذ شعر المنتفضون بانهم يمتلكون القوة الكاملة والواسعة والاساسية للتغيير، ولم يضعوا حسابا لقوى السلطة وامكانياتها. صحيح ان قوى السلطة انهزمت وضعفت امام جموح الانتفاضة وعنفوانها، ولكنها لم تتلاش، بل على العكس من ذلك، فحينما شعرت قوى السلطة بقوة الانتفاضة وادركت قدراتها وابصرت اصرار المنتفضين على التغيير، استخدمت ابشع الاساليب واقذرها، وسخرت كل امكانياتها المالية والإعلامية واللوجستية، التي عملت من خلالها ـ الى جانب محاولة اختراقها وتفكيكها وزرع الشكوك والريبة واثارة الخلافات بين اطرافها ـ وكانت تدخلاتها عبر مندسيها، احد العوامل على عدم الاتفاق على القيادة.

ثالثا، البعد السياسي، لم تستثمر الانتفاضة الابعاد السياسية، اي قامت بحصر نشاطها بالاحتجاج، ونسيت ان هناك انشطة اخرى يمكن ان تلجأ اليها، ومن بينها الاتصالات والتفاوض الى جانب عرض القوة، بل ان هناك من حرّم على المنتفضين الاتصال حتى بممثلية الامم المتحدة، والتي هي بعثة دولية، لا تعمل فقط مع الحكومة، وانما من واجبها الاتصال بالمجتمع المدني وبالشعب العراقي، كما في قرار تكليفها.

رابعا، البعد الطبقي، عدم التركيز على الفجوة الاجتماعية الهائلة بين المتنفذين وطغمة الحكم وحلفائهم من تجار الصفقات والمرابين واصحاب البنوك من جهة، وبين عامة الشعب العراقي. لم يتم تفكيك القاعدة الاجتماعية للسلطة، حيث هناك فئات مستفيدة من السلطة ومرتبطة بها، وهي قاعدة اجتماعية تدافع عن السلطة، وهناك جمهور يؤيد هذه الاحزاب من ابعاد تاريخية او دينية او طائفية او عشائرية، لكنه متضرر من سياسات النظام والمحاصصة، ويعيش في الفاقة والفقر. وعلينا أن نعرف بأن الحركة الاجتماعية ليست التعبير عن تناقض ما، بل هي تفجر صراعاً طبقيا، بحسب الان تورين. كان يمكن كسب هذه الفئات الى جانب الانتفاضة وليس تركها لقوى السلطة لكي تستغلها في مواجهة الانتفاضة؛ فموضوع البعد الطبقي قد اهمل الى حد كبير، رغم ان الانتفاضة رفعت شعارات العدالة الاجتماعية، ولكن على المستوى الميداني والخطاب كان ينبغي ان تخاطب جمهور الاحزاب وقاعدة الاحزاب والمؤيدين لها، بالانسلاخ من هذه الاحزاب والالتحاق بالانتفاضة، لا بل شاهدنا ان النظرة اصبحت معادية لكل منتمٍ الى الاحزاب السياسية بغض النظر عن موقف هذا الحزب أو ذاك من النظام.

وأخيرا، الأفكار العدمية، حيث ساد للأسف فكر عدمي، وطغى الفكر التسطيحي في بعض الأحيان على الوعي العالي بضرورة التغيير، حيث رفعت شعارات غير ناضجة، منها شعار "الوعي قائد" كبديل لاختيار قيادة سياسية وميدانية للانتفاضة، كذلك شعار "لا للاحزاب" وكأن الانتماء للاحزاب عيب، وان وجود الاحزاب هو الازمة، ولم يتم التمييز بين احزاب السلطة والاحزاب الوطنية والديمقراطية، اذ لا يمكن تصور بناء نظام سياسي وتحقيق الديمقراطية فيه، دون وجود الاحزاب السياسية، فالعيب ليس بوجود الاحزاب، وانما كان ينبغي تركيز النقد والاحتجاج على احزاب السلطة، التي أصبحت بؤراً للفساد ونفعية، هدفها الوصول للسلطة من اجل المال والنفوذ. هذه القضايا هي اليوم موضع نقاش بين التنسيقيات وبين الاحزاب التشرينية وبين الحزب الشيوعي العراقي من اجل تجاوز هذه الاخطاء والنواقص والهفوات، كي لا تقع الانتفاضة المتوقعة مرة اخرى في هذه الاشكالية.

التوقع بإندلاع إنتفاضة جديدة لا يتطلب الغور في علم التنبؤ، كما لا يحتاج ادراك استمرار حجم السخط المعتمر بقلوب عديد شباننا العاطلين الذي لا يبدده تغيير الاشخاص. كما ان اليأس من طغمة الحكم لن يتراجع، والوقائع تشهد ان حيتان الفساد لا يوفرون أي فرصة إلا واستغلتها تغولا واستئثارا بالسلطة، لمواصلة تعظيم ثرائها الباذخ. ان السخط والغضب واليأس الناتج عن مجمل الأوضاع المزرية ستترك آثارا وخيمة وستدفع باليائسين الذين خسروا حاضرهم، ولم

يبصروا خطوة امل ملموسة لتأمين مستقبلهم، الى المواجهة حيث سيحولون خساراتهم الى سخط عارم، لا يمكن التكهن بقوته ومداه حين اندلاع الشرارة التي لا احد يتوقع متى وأين ستندلع، لكن المؤمل انها ستولد لهيبا احتجاجيا كبيرا ستكون تركيبته ومظاهره وأسلوبه مختلفة عمّا شهدناه. ستتسع هندسته الاجتماعية، لتضم شرائح وفئات اجتماعية جديدة، الى جانب كل المشاركات الفردية والاطر الاجتماعية والتنظيمية التي اسهمت في انتفاضة تشرين، على وسع وكبر حجمها وقوة فعلها وتضحياتها الكبيرة ومأثرها البطولية. سينتظم فيها أصحاب المعاناة اليومية كالكسبة والعاملين بالأجور اليومية وسائقي التكسي والباعة المتجولين وغيرهم الكثير من جماعات القطاع الاقتصادي غير المنظم، الذي لم يلتفت اليهم احد، وهم في أوضاع معيشية مزرية. يطيب لي تأكيد استنتاج توصل اليه الباحث الدكتور فالح مهدي؛ اذ يقول (ليست الخسائر الكبيرة هي التي ستؤدي إلى انهيار النظام الرأسمالي كما أشار ماركس، بل الأرباح المجنونة يمكنها أن تؤدي إلى انهياره). وهذا يتيح لي استنتاج مقارب، اذ يبدو ان جشع طغمة الحكم وتعاظم أرباحها سيكون من بين أسباب الانتفاض عليها.

الثقافة الجديدة: أحد اهم مآثر انتفاضة تشرين انها ساهمت في عملية اعادة بناء وتشكيل الهوية الوطنية العراقية الجامعة، بعد سنوات طويلة من محاولة ثلمها وتغييبها، بنهج المحاصصة القائم على الهويات الفرعية. لكن يبدو ان السؤال الاهم هنا هو: كيف وعبر أية آليات يمكن ان تساهم الجماهير المنتفضة وعمقها المجتمعي مستقبلا في بناء هوية وطنية حديثة، تقوم من ناحية على اساس الانتماء الى دولة القوانين والحقوق والواجبات، دولة لا تفرق بين مواطنيها على اساس الدين او الطائفة او القومية او الجنس او اللون او الموقع الاقتصادي – الاجتماعي. ومن ناحية اخرى، لا تتغافل هذه الوطنية عن الابعاد الاجتماعية للديمقراطية. بمعنى اخر ماهي الاسس التي يمكن ان تساهم في ربط بناء الهوية الوطنية الذي ستنهض به الحركات الاحتجاجية بدولة المواطنة و العدالة الاجتماعية؟

د. جاسم الحلفي: لم تغب موضوعة الهوية عن حركة الاحتجاج، ولم تبتعد عن ذهن الشباب المحتج، لذا كان قراراهم برفع علم العراق فقط دون غيره من اعلام الأحزاب والطوائف، وان لا ترفع صورة أي زعيم من زعماء الطوائف. عبّر الشباب عن وعي وادراك ازمة بنية النظام التي أقيمت وفق المكونات، واعتبرها لغماً فجّر صراعات ليس للشعب مصلحة فيها، بل جاءت لحساب المتنفذين الذين وجدوا فيها بابا لاستغفال الشباب، وحرف صراعهم الأساسي نحو صراع لا معنى له.

شكلت الحركة نقطة انعطاف عند قطاعات واسعة من الشباب، اذ تم عبور خطوط الهويات الفرعية نحو الهوية العراقية، كما كان يرى الراحل د. فالح عبد الجبار، وجرت المطالبة بالمساواة في الحقوق والواجبات، كما روجوا لموضوعة المواطنة والروح الوطنية، ونادوا بالمطالب الوطنية العامة، وتجاوزوا سلطة الهويات الاثنية المتطاحنة، واجتذبوا على اثر ذلك اعداداً كبيرة من الوطنين الذين يصنفون في اطار المدافعين عن الفئات المحرومة اقتصاديا والمهمشة

اجتماعيا والفقيرة تعليميا، حيث انضموا الى الحركة الاحتجاجية. حاججوا كثيرا بأن الخلاف وليس الاختلاف هو السبب الرئيسي في أزمة الهوية، الذي يعود في جذوره إلى ضعف الوعي الاجتماعي. إن المغزى الأكبر لهذه الحركة الاجتماعية هو نقل الصراع من صراع الهويات كما هي خطط طغمة الحكم الى سياسة القضايا.

إن احد اهم أسباب تواجد العراقيين في ساحات الاحتجاج هو شعورهم بالحرمان، وهو جواب قاطع: لا للطائفية السياسية. الاندفاع للكفاح هدفه رفع الظلم ومقاومة الحرمان وتحقيق العدالة الاجتماعية، فالتفاوت بين المساواة الشكلية واللامساواة الاجتماعية الفعلية، هو موضوع بيّنه الماركسيون، مؤكدين على الكفاح الفكري بوجه اللامساواة، محذرين من عصر لا مساواة جديد.

قام الكادحون والمهمشون على طول التاريخ السياسي والاجتماعي في العراق بأدوار مهمة؛ اذ انهم رفضوا الأوضاع القائمة، وعدّوا ان الفئات الحاكمة فاسدة، ومنهم من يفكر أن لا أمل إلا بالخلاص منها، عبر جهد منظم، يتطلب الانخراط في عمل جماعي موحد. الكادحون والعاطلون عن العمل والمهمشون هم الاصدق في اجتراح المآثر، وتقديم التضحيات من اجل غد أفضل؛ اذ بحسب إيريك كيلسلاسي: "الشعب لا يصنع العدالة والحرية إلا عبر التضحيات وعبر دمه المسكوب". منهم نزف الدم امام عسف السلطة واستخدامها للعنف، استنشقوا الغازات السامة، وعلى ظهورهم طبعت اثار الهراوات، ولم ينكسروا، بل زاد غضبهم بقدر ترسخ قناعتهم بالتغيير. وهذا للأسف لم تدركه النخب. الفعل الاحتجاجي هو فعل ثقافي مهم واتفق مع اطروحة ألان تورين التي تقول ان "الحركة الاجتماعية هي صراع اجتماعي وفي نفس الوقت مشروع ثقافي".

إن الحركة الاجتماعية وهي تستند الى شعور المحتجين بعدم الرضا عن الأوضاع السائدة، تسعى الى التغيير، لا تكتسب شرعيتها من رضى البعض وتقييمهم المحصور باتجاه معين، انما تكمن شرعية وجودها، عندما تجعل التغيير شرطا وجوديا لها.

للمحتجين قضايا، والقضية الأهم هي التغيير وتأمين المساواة والعدالة الاجتماعية.

أدب
و
فن

الانتفاضة وخصومها.. ثقافياً

حسب الله يحيى

لكل ظاهرة.. مناصرون وخصوم.

كما ان للمناصرين أسبابهم، وللمناهضين والخصوم اسبابهم كذلك.

لكن من حسن أية ظاهرة، ان يكون لها ما يدل عليها وما يعزز وجودها، وما يجعلها ظاهرة حقة، تستحق التأمل والمراجعة والاجتهاد بشأن تأويلها كذلك.

وما يحزُّ في النفس والعقل ومنطق الاشياء، ان يكون لظاهرة ما حقائقها التي لا يمكن دحضها او تغييبها او حذفها او التنكر لها.

مثل هذه الظاهرة التي تحتكم الى ضوء الحقيقة بوضوح تام؛ تتطلب منا النظر إليها عن طريق خطابها نفسه والادوات التي استخدمتها ذاتها.. وليس دحضها بالانفعال ولا بقوة السلاح.

وانتفاضة تشرين الباسلة، هي الظاهرة الاجتماعية الاكثر بهاء وحضورا في الواقع العراقي اليوم، على الرغم من خفوت صوتها العالي وارادتها الشامخة.

هذه الانتفاضة، تمتلك هوية وطنية حقيقية، ولا يمكن ان نجردها من هذه الهوية السلمية بأي شكل من الاشكال.

الشهود في قلب الحضور، وفي متن الوجود، وفي شعاع الشمس بينة لكل ذي بصر وبصيرة.

وهي إذ تحتكم الى الحال والاحوال، فإنما هي تمثل الشهود من صميم معطياتها، ومن جذرها المتين والاصيل والنبيل.

فبعد سنوات مرّة مرت على التغيير في عام 2003، كان لكل مواطن عراقي آمال وطموحات، واحلام كبيرة بمستقبل افضل يتجاوز الحكم التوليتاري السيئ الصيت، ليكون بديله.. دولة ترعى رعاياها وتحقق ما كانوا يصبون إليه من أمن وتعليم وعافية، وازدهار شامل لمجمل المعطيات التي يتطلبها وجود أية دولة معنية بتوفير ما يسعد الانسان، ويحقق طموحاته المشروعة التي لا تخرج عن الحقوق المدنية المشروعة.

إلا أن ما حدث كان مفاجئا، واصبح تراكما.. ليشكل بالتالي ثقلا وكابوساً وشؤما على حياة كل مواطن ـ باستثناء النخبة الحاكمة التي تتمتع لوحدها بالرفاهية المادية والمعنوية، وتعيش جنات عدن ـ على حساب قوى الشعب الكادحة التي تشكل ثقل الحياة عليها، ما لا يحتمل من الضغوطات النفسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. لتكون من ثم الظاهرة السلبية في واقع العراق والعراقيين.

من هنا ـ لم يكن من العجب، ولا الاستثناء، ان يكون هناك تمرد واحتجاج ومن ثم

انتفاضة تشرينية، لها شعاراتها ومطالب اهلها وصوت دعاتها.

وهي لا تخرج بمجملها العام عن إرادة شعب يريد أن ينعم بخيرات بلاده، لا أن تستغل من قبل فئات محدودة، تتمتع بها بشكل استثنائي، بعيدا عن الشعب العراقي الذي لم يعد بوسعه السكوت عن هذا الوضع القاسي، الذي لم يعد محتملاً.

اذن.. ظاهرة الانتفاضة تمتلك حجة ثوارها، ورموزها في جراح قدمها نخبة من الشبيبة الوطنية التي فضلت ان تتحرك، وان تخرج عن صمتها الذي طال امده.. إلا انه وجد في النهاية انه لا سبيل للخروج من هذا الواقع المأساوي إلا بالثورة عليه.. بعد ان عجزت كل الاساليب عن إيقاف نزف الدم والدمار والخراب والفساد الذي ألحق بالعراق والعراقيين افدح الخسائر.

نعم.. انتفاضة تشرين، باتت كلمة واحدة للعراقيين، ترفض كل ادوات القمع والتجهيل والفساد، التي عمّ مدن العراق كافة..

وهو الامر الذي جعل العراقيين، يدركون ويعون ما هم عليه من مآس بشكل جيد.. وباتت الانتفاضة، تكتبنا صبرا وشجاعة ودما شهيدا وجراحا تئن واصواتا تعلو.. وتعلو.

ولأن الانتفاضة باتت في موقع الكتابة والتنفيذ، كان لزاما على الثقافة والمثقفين، لعب الدور المسؤول في تعميق جذور الانتفاضة وجذرها الفاعل في التغيير، الى جانب فضح كل الاساليب المناوئة التي لا تمتلك سوى حقدها الدفين واتهاماتها الجوفاء وحججها الهازلة والهزلية ومنظورها الاعمى.

انتفاضة تشرين وهي تكتب حضورها الابهى.. هي ما يرسم خارطة المستقبل العراقي الآتي..

أهداف تظاهرات انتفاضة تشرين

أ.د. قاسم حسين صالح *

تعددت اهداف التظاهرات بين: اسقاط الحكومة، محاسبة الفاسدين، تعيين الشباب في وظائف حكومية، حل ازمة الكهرباء والماء، تحسين الخدمات والبنى التحتية..

وواضح ان بين هذه الاهداف ما هو غير عقلاني او غير ممكن مثل اسقاط حكومة مشكّلة من برلمان منتخب ديمقراطيا، والدعوة الى انقلاب عسكري، وبعضها انفعالي مدفوع بما ورثناه من سيكولوجيا الانتقام.

واختلفت الآراء في وصف التظاهرات، اليكم نماذج منها:

* شعب ناقم على احزاب خانته وغدرت به، حركات غير منظمة، متظاهرون تحركهم الغريزة.

العقد النفسية في العقل السياسي العراقي

اللافت ان الحياة السياسية في العراق لم تفرز بعد التغيير قائدا سياسيا بمستوى رجل دولة. ومع ان المحللين السياسيين يعزون ذلك الى ان التغيير في العراق جاء بتدخل اجنبي، فاننا نرى ان القوى السياسية العراقية كانت اشبه بفرق عسكرية متجحفلة في خنادق، لكل خندق عنوان وقائد.. يجمعها هدف واحد هو التخلص من النظام، وتفرّقها مصالح حزبية وطائفية وقومية.. ولأن ما يجمعها ينتهي بانتهاء النظام، فان المصالح تتولى اذكاء الخلاف في ما بينها على حساب المصلحة العليا الخاصة بالوطن.. وهذا ما حصل، فالشخصية السياسية العراقية اعتمدت بعد التغيير العزف على الوتر الطائفي لترويج نفسها بين طائفتها تمهيدا لفوزها بالانتخابات.. ومنها تحديدا نشأ ما اصطلحنا على تسميته بـ(البرانويا السياسية) التي كانت احد اهم اسباب الكارثة العراقية بعد التغيير. وأكدت لنا نحن المعنيين بالاضطرابات النفسية ان في القادة السياسيين العراقيين من ''الأفندية'' و''المعممين'' فرقاء مصابون بـ(البرانويا) التي تعني بمصطلحات الطب النفسي اسلوبا او شكلا مضطربا من التفكير يسيطر عليه نوع شديد وغير منطقي ودائم من الشك وعدم الثقة بالآخر، ونزعة ثابتة نحو تفسير افعال الاخرين على انها تهديد مقصود. ولهذا فأنه يحمل ضغينة مستديمة لمن يخالفه الرأي (العلماني مثلا) ويرفض التسامح عما يعدّه اهانة اعتبار، جسّدها

المتظاهرون بأهزوجات موجعة: ما نريد حاكم ملتحي نريد حاكم يستحي..) وانه على استعداد للقتال او المقاومة والاصرار بعناد على التمسك بالسلطة بغض النظر عن الموقف.. تجسّد ذلك في (احتجاجات تموز 2018)، وفي تراجيديا تظاهرات الفاتح من تشرين اول/ اكتوبر 2019.

وللتذكير، ان تظاهرات (2011) طالبت بمحاسبة الفاسدين، فحماهم السيد نوري المالكي بمقولته الشهيرة التي ستدينه تاريخيا (لديّ ملفات للفساد لو كشفتها لانقلب عاليها سافلها)، وواصل حمايتهم بالتخدير بالوعود، كذلك فعل خلفه السيد حيدر العبادي الذي وعد بضربهم بيد من حديد وبلا نتيجة. ولأن المتظاهرين هتفوا في شباط 2011 (باسم الدين باكونه الحراميه).. فإن الفاسدين اضمروا لهم العقاب بمزيد من الإهمال.. ولكم ان تستعيدوا ما جرى من التعامل الشرس والمهين مع المحتجين في انتفاضة تموز 2018.

الحول العقلي

للتوثيق، كنا في عام (2010) قد شخصنا العقل السياسي الفاسد في السلطة بمصطلح جديد ادخلناه في علم النفس العربي هو (الحول العقلي).. وهو عملية ادراكية ناجمة عن تعصب طائفي، تجبره على تصنيف الناس الى مجموعتين: (نحن) و(هم).. يحّمل الجماعة الأخرى مسؤولية ما حدث من أذى أو أضرار ويرى انها على باطل. ويرى جماعته انها على حق مطلق حتى لو كانت شريكاً بنصيب اكبر في أسباب ما حدث. وقلنا بالصريح ان شخصا بهذه الصفة المرضية لا يصلح لأن يكون قائدا لمجتمع تتنوع فيه الأديان والمذاهب والقوميات.

وبالمقابل، تولّد لدى العراقيين اقتران شرطي بين السلطة والظلم، ناجم عن تكرار السلطات المتعاقبة لممارسة الظلم على الناس. ومع ان النظام العراقي بعد التغيير يوصف بانه نظام ديمقراطي

بحسب الدستور، فان اقبح ما ارتكبته السلطات الرئاسية الثلاث فيه انها انتهكت مبدأ العدالة الاجتماعية في الديمقراطية، فاستأثرت بالثروة، نجم عنه (13) مليون عراقي، يعيشون تحت خط الفقر، فيما هم ينعمون بالرفاهية وتبذير الثروة. مثال ذلك، ان عدد الحمايات لأعضاء مجلس النواب كان 14800 منتسب، يتقاضون 156 مليار دولار من اصل 316 مليار دولار للموازنة المالية لعام 2014، بموجب المذكرة التي قدمها النائب (الراحل) مهدي الحافظ الى رئيس مجلس النواب، طالبا فيها تخفيض عدد الحمايات الى النصف.

وعقدة اخرى هي ان العقل السياسي الفاسد مصاب بالدوغماتية (Dogm-tism) التي تعني الجمود العقائدي او الانغلاق الفكري الذي يفضي الى تطرف ديني، مذهبي، قومي او قبلي، وتعدّ بحسب دراسات علمية انها – الدوغماتية - احد اهم واخطر اسباب الأزمات السياسية والاجتماعية، وانها (مرض) خالقي الأزمات من القادة السياسيين.. ما يعني ان العقل السياسي العراق مأزوم سيكولوجياً ومنشغل فكريا بالماضي. فيما عقل الشباب منفتح ومنشغل بالمستقبل، وان الفجوة بينهما هي التي جعلتهما جبلين لا يلتقيان. وللتوضيح بسخرية، فان تحشيدهم للشباب في مسيرات للطم والنواح يعدونه انجازا كبيرا وأهم، عندهم، من توفير فرص عمل لهم!

ومنذ عام 2008 كتبنا عبر الصحف وقلنا عبر الفضائيات ان قادة العملية السياسية العراقية لن يستطيعوا أن يتحرروا فكريا من معتقدات ثبت خطؤها، ولن يستطيعوا ان يجدوا حلّا او مخرجا لما هم فيه، بل انهم سيعرّضون ملايين الناس الى مزيد من الأذى، وقد حصل ما كنّا حذرنا منه في تظاهرة تموز 2018.. وزادوها بشاعة وقبحا وعارا بتظاهرات الفاتح من تشرين الاول 2019 في سابقة ما حصلت في تاريخ العراق السياسي.. ناجم في احد اسبابه عن وجود خصومة بين الحاكم العراقي وعلماء النفس والاجتماع، ولأنه اعتاد على ان يحيط نفسه باشخاص يقولون له ما يحب ان يسمعه!

ويبقى التساؤل: الى اين نحن ماضون؟

والجواب تؤكده حقيقة سيكولوجية، ان الحاكم الذي يسقط اعتباريا وأخلاقيا في عيون شعبه يتحول الى مستبد يفهم ان قمع التظاهرات هو الوسيلة الوحيدة لبقائه في السلطة. ولقد اثبتت الأقوال والأفعال ان اكذب وأفسد وأقبح من في العراق هم قادة كتل وأحزاب الاسلام السياسي. ولكم فيما رأيتم قبيل انتخابات 10 تشرين/ اكتوبر 2021 ما يخجل.. ان تطبع السلطة بطبائعها حكاما كانوا ادانوها في من سبقهم.

ومن مسؤوليتنا العلمية والوطنية فإننا كتبنا الآتي في حينه:

بهدف أن يكون سلوك التظاهر لدينا حضاريا، وضمانا لتأمين حقوق المتظاهرين، ودفعا لفتنة كارثية، فإننا نتقدم بمقترح يتلخص بخطوتين:

الأولى:

تشكيل قيادة محلية في كل محافظة من الأشخاص الذين لهم دور فاعل ومثابر في التظاهرات، ولجنة رأي من اكاديميين ومثقفين تقدم المشورة العلمية.

الثانية:

تشكيل قيادة مركزية موحدة في بغداد من الذين ليست لهم انتماءات حزبية تمثل القيادات المحلية للمحافظات، تقوم بالآتي:

- التفاوض مع الحكومة بخصوص تنفيذ مطالب المتظاهرين على وفق استراتيجية تتضمن مراحل تنفيذ عملية على اسس علمية يحددها ذوو الاختصاص.. وبسقوف زمنية محددة.

- التزام جماهير المتظاهرين بما تقرره القيادة المركزية الموحدة من تعليمات وتوجيهات عبر وسائل تواصل محكمة.

- تسمية متحدث واحد ومتحدثة واحدة يخول لهما التحدث عن طريق وسائل الإعلام.

- تداول الرأي بشأن لقاء بممثلي السفارتين الامريكية والبريطانية بنقل الصورة الصحيحة لتظاهرات العراقيين ومطالبهم المشروعة والانحياز الموضوعي لحق الشعوب في العيش بكرامة، لاسيما العراقيين الذين يعيشون في وطن يمتلك كل مقومات الرفاهية لأهلهْ.

- التداول في تشكيل حكومة (طوارئ، ظل..) من اصحاب الخبرة والكفاءة والنزاهة تحسبا لأي طارئ.

واللافت بمفارقة مدهشة، ان كل التظاهرات حدثت في المدن الشيعية ضد حكومة رئيس وزرائها واغلبيتها شيعة، فيما اهالي المحافظات الغربية واقليم كردستان.. يراقبون. والمدهش اكثر أن المشهد نفسه تكرر في حدث (2019).. ليقين مؤمنين به أن ابتعادهم عنها أسلم لهم وللوطن.

والمشكلة في الحكومة العراقية انها لا تعترف بقسوة المعاناة التي يعيشها العراقيون مع ان العالم يشخّصها بوضوح؛ اذ يرى عميد مركز الدراسات الاستراتيجية والخبير في شأن التظاهرات السلمية واللاسلمية للدول الشرق اوسطية الدكتور (جيني هاريسون) بأن العراق هو ''البلد الوحيد الذي يواجه ازمات خانقة ومستعصية''، وانه ''يعاني هجمة غير مسبوقة من الظلم والفساد والارهاب، وأحزاب متصارعة ودستور ضعيف وغياب ملامح الدولة الرصينة مع اضمحلال أغلب الضمانات''.. وان ''المواطن العراقي الذي تنفس الصعداء بزوال أصدقاء الرئيس واتباعه، فوجئ بأتباع جدد جلّهم منتفعين يمارسون الترهيب ويستولون على المال العام دون حساب''.

والحقيقة الموجعة، ان السلطة لم تحقق اي انجاز مفيد للناس ولا اي اعمار للوطن على مدى ثمانية عشر عاما، وان احزاب السلطة عدّت العراق ملكا خالصا لها، فانشغلت بان فتحت ابواب خزائنها لنهب ثرواته في حال يشبه جهنم، يقولون لها هل امتلأت؟ فتقول هل من مزيد!.. لتؤكد حقيقة اخرى اثبتت الأحداث صحتها هي ان الحاكم الذي يسقط اعتباريا وأخلاقيا في عيون شعبه فانه يتحول الى مستبد، يفهم ان قمع التظاهر هو الوسيلة الوحيدة لبقائه في السلطة، وجزع العراقيين ونقمتهم على أحزاب الاسلام السياسي يؤكده هتافهم في تظاهراتهم (ما نريد حاكم ملتحي.. نريد حاكم يستحي).

مؤشرات عن تظاهرات تشرين الأول 2019

ما حصل في الفاتح من اكتوبر/ تشرين اول 2019 يعد الأجرأ والأخطر وغير المتوقع في تاريخ العراق السياسي، للخصائص الآتية:

• ان الغالبية المطلقة من المتظاهرين هم أشبال وشباب ولدوا ونشأوا في ثلاث حروب خارجية كارثية: الحرب العراقية الايرانية، وحرب الكويت وحرب امريكا، وحربين داخلية واحدة طائفية (2006 - 2008) واخرى ضد داعش، وحصار لثلاثة عشر عاما، وانتقالهم فجأة في (2003 و2004) الى نقيضها حيث الحرية والانفتاح على العالم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ومعايشتهم لما فعله الفيسبوك في الربيع العربي الذي كان له الدور البارز في اسقاط حكام عرب طغاة.. نكبوا بعدها بخيبات وقسوة فقر وبطالة.. جعلت داخلهم السيكولوجي اشبه بقدر ضغط على نار يغلي بالتناقضات.. لا بد له أن ينفجر.. فانفجر!

• إن التظاهرات حصلت في المحافظات الوسطى والجنوبية من العراق ذات الأغلبية الشيعية.

• فاجأ حجم التظاهرات وزخمها وغضبها وحقد جماهيرها، قادة احزاب السلطة والحكومة وشعروا بخوف حقيقي، وانهم أهينوا اعتباريا.

• كانت المطالب المعلنة للمتظاهرين: توفير فرص عمل للشباب وحملة الشهادات العليا، وتأمين الخدمات وتحسين الوضع الاقتصادي، فيما كانت في حقيقتها السيكولوجية تعبيرا عن انتقام استهدف أحزاب الاسلام السياسي الشيعي تحديدا، عبروا عنه بإحراقهم لمقرات هذه الأحزاب.

• استخدمت الحكومة قواتها الأمنية بأصنافها المتعددة القوة المفرطة بما فيها الرصاص الحي.

• سقوط (110) شهداء وأكثر من ستة آلاف جريح بحسب الاحصاءات الرسمية، في سابقة لم تحصل في تاريخ العراق، فيما اعلنت لاحقا اللجنة الوزارية المكلفة بالتحقيق ان عدد القتلى 157 بواقع 149 مدنيا وثمانية عسكريين.. تبعهم في 25 تشرين/ اكتوبر تسعون شهيدا، وأكثر من الف جريح!

• فاجأت التظاهرات محللين سياسيين ومثقفين اشاعوا ثقافة التيئيس، كانوا على يقين بان الاحباط قد اوصل العراقيين الى حالة العجز التام.

---

* اكاديمي ـ مؤسس ورئيس الجمعية النفسية العراقية.

الثقافة - المعرفة - السلطة

ياسين النصير

فرزت الحياة الاجتماعية والتنظيمية ثلاثة حقول كبيرة، وحددت الإطار التي يمكن لـ : الثقافة - المعرفة - السلطة، أن تتصاهر فيها، وهذا الإطار هو العقلانية، وبدون أن تكون العقلانية طريقا لذلك سنجد ان هذه الحقول سيشتغل كل واحد منها بمعزل عن الآخر، وبما أن كل حقل من هذه الحقول له هويته، قواعده، قوانينه، أسسه، وتشعباته، سيكون من المفيد أن نركنها إلى مبدأ عقلي تجريبي قادر على تجديد نفسه وإعادة صياغة الحقول بما يتماشى والتطورات الاجتماعية والثقافية. إذ لا يمكن تصور حقل الثقافة أو المعرفة أو السلطة مثلًا إلّا مقترنًا بمنهجية اجتماعية قادرة على تبادل الخبرات فيما بينها، وقائمة على العلم والتجربة والفهم الذاتي أي ثمة بنية منظمة تجعل الحقول الثلاثة في تصاهر جدلي تخضع لـ "قواعد والقوانين والمعايير". التي تفرضها العقلانية كإطار يوّحد مجال العمل بين الحقول الثلاثة.

يعرف بوردو الحقول بأنها" فضاءات مشكّلة من المواقع (أو المراكز) التي تتوقف خاصيتها على المكان الذي تشغله في هذه الفضاءات، والتي يمكن تحليلها في استقلال عن مميزات شاغليها (التي تحددها جزئيًا)، هناك قوانين عامة للحقول" وهناك قوانين خاصة بكل حقل تحدد مجاله وتضبط اشتغالاته.

وللوهلة الأولى تبدو أنها حقول مستقرة على مفاهيم وإجراءات يمكن توصيفها بدقة، خاصة في المجتمعات الغربية، وهذا ما يجعلها تؤسس قاعدة بيانات يمكن العودة إليها. إلا أنَّ النقد لا يقف عند هذه الحقول الثلاثة كما لو كانت متجردة من العوامل التي أسستها والتي لحقتها. وأول توصيف يمكنه أن يدلنّا على أهمية العلاقة بين الثقافة والمعرفة والسلطة، هو أنها تنتج معرفة متشابكة كما يؤكد ليفي شتراوس تبعًا للظروف الموضوعية التي تمر بها البلدان ومن بينها المكونات الجغرافية والثقافية والسياسية والقومية. فما خضعت إليه ايطاليا وفرنسا، والمانيا، وانجلترا، ودول أوروبية أخرى بعد الثورة الفرنسية

1789، جاء نتيجة التغييرات الجذرية التي احدثتها حركة النهضة أولا ابتداء من القرن الرابع عشر والخامس عشر وصولا إلى الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر،، فأسست لذلك أرضية لتطور أوروبا على شتى المستويات بما فيها الفلسفة والعلوم والثقافة، الأمر الذي أنشأ قواعد وقوانين ونظم مختلفة للثقافة وللمعرفية وللسلطة، عمقتها الثورة الفرنسية حيث أسهمت في تجديد حقول الثقافة والمعرفة والسلطة ونقلت المثقف والثقافة من الصفة إلى الاسم، وكان ذلك لأول مرة في التاريخ حينما اصبح المثقف بهوية ثقافية محدد وليس بهوية الطبقة التي ينتمي إليها.

إن ما نعنيه بالثقافة في محيطنا الشرق أوسطي، هو أنَّ الأحداث والمتغيرات التي حدثت في هذه المنطقة على الرغم من أنَّها مسؤولة عن تحديد المفاهيم والقواعد للثقافة والمعرفة والسلطة، إلا أنَّ مسارات البناء الاجتماعي اللاحقة لم تتطور بما يوازي ما حدث. نحن الآن نعيش وضعًا مضطربًا، نتيجة بقاء معارفنا محددة ومقيدة بما أنتجته العقلية الدينية منذ أربعة عشر قرنًا، والسبب هو أنَّنا لم نراجع مقومات هذه البنى التي تتحكم بنا ، ولم نتوجه إليها نقديًا، ولم نحرك ما يدعي البعض أنَّها ثوابت صيانية تمسك تفكيرنا، في حين ان العالم الغربي وحتى الأسيوي والأمريكي قد أحدث تغييرات جذرية في بنى الثقافة والمعرفة والسلطة القديمة، بعد كل مرحلة حروب مر بها، عندها تغيرت طرائق التفكير، وأساليب العيش والنظم السياسية وتنظيم الاقتصاد ومن بينها تنظيم الثقافة والمعرفة والسلطة. وما شهدته هذه البلدان من تأثير الحروب على بنيتها ومكوناتها، جعلها تركن إلى العقلانية، وتترك الطروحات الدينية واللاهوتية جانبا معتمدة على الأثر الكبير الذي أحدثته الثورة الفرنسية في بنية المجتمعات. ومنذ عصر النهضة والدول الأوروبية تنزع عن جلدها وإنسانها أثوابه الفلسفية والعملية القديمة، وتستبدلها بما يجعلها متحركة في التاريخ. وإذ بدأت بعزل الدين عن الدولة، واعتمدت بنية المجتمع المدني، لم تقف عند هذا الحد، فما يزال عصر النهضة يولد عصورًا جديدة، كعصر التنوير، وعصر العولمة، وعصر الحداثة، وعصر ما بعد الحداثة، وها هم يدخلوننا العصر المرقمن.

إذًا ما هي حدود الثقافة، حدود المعرفة، حدود السلطة التي نتحدث عنها؟ بالتأكيد لن تكون هذه الحقول معزولة عن العلاقات مع ما يناظرها في البلدان المتقدمة. إذًا كيف يكون التعامل بين المثقف في منطقة الشرق الأوسط؟ وكيف تكون مسارات الثقافة، المعرفة، السلطة في مجتمعاتنا؟ هذه الأسئلة وغيرها لا نملك من داخل بنية مجتمعاتنا أجوبة واضحة عنها، لأنها أسئلة تتعلق بتحريك هذه الحقول وليس بتجميدها أو الحد من تأثيرها. إذًن نحن أمام اشكالية التحديد الواضح للمفاهيم في مجتمعاتنا، كي نجيب عن أسئلة فيما إذا كانت هذه الحقول حقول مولدة يمكن الاعتماد عليها لبنية مجتمع شرق أوسطي حديث، أم أنها

بنيت وفق تصور ديني ولغوي ومعرفي وسلطوي قديم، وما زالت على ثوابتها لم تتغير.

إذا ما الطرق والوسائل التي تعيننا على جعل هذه الحقول مؤثرة في بنية مجتمعاتنا؟ هل نستعير لها مفاهيم من الثقافة الغربية، كي نصف بها ما تعانيه ثقافتنا ومعرفتنا وسلطتنا؟، أم أننا نعود كلّما أمكن ذلك إلى جذور هذه الحقول؛ أي إلى الثقافة واللغة العربية، وإلى الدين والفلسفة كأساس للمعرفة، وإلى الحاكمية وقواعدها كأساس للسلطة؟

ما المفهوم؟

يعني المفهوم فلسفيًا "المطابقة بين المعنى (الفكرة) والوجود (الحضور)، مطابقة تشبه المطابقة بين الجسد والروح."

في ضوء ذلك يصبح مفهوم الثقافة، مفهومًا واقعيًا متحققًا، أي أن الأفكار الثقافية ستجد لها حضورًا في المجتمع بحيث تبعث الحياة من خلال الممارسات الاجتماعية، فالتحقق المادي للثقافة شرط وجوب مجتمع يعي ذاته، ستكون الثقافة مصدرًا من مصادر هذا الوعي، ومفهومًا اجتماعيًا يطور منظومات المجتمع التي تحدد هوية ذلك المجتمع. ومن هنا تلعب الثقافة في المجتمع دورًا بنائيًا، بعد ذلك لا يمكن فصل ثقافة أي مجتمع عن مكوناته، فالعام الاجتماعي سيطبع الخاص الثقافي بطابعة التكويني، كما تطبع الثقافة المجتمع بخصوصياتها، أي أنَّ للخاص دورًا في بنيَّة المجتمع، هذا التضايف بين مفهوم الثقافة ومفهوم المجتمع، به حاجة إلى سلطة معرفية قانونية ومؤسساتية، تديم العلاقة بينهما، وتشذب النواقص، وترمم الخلل، كي تمهد لبنية جدلية أعمق بين الثقافة والمجتمع واعني تكوين المعرفة، وسنجد عبر الممارسات الثقافية أن للثقافة دورا ابعد من تنظيم هوية المجتمع يمكن إيجازه بالنقاط الاتية :

1- تسهم العلاقة بين الثقافة والمجتمع في تحديد هوية وفلسفة الدولة.

2- تسعى العلاقة بين الثقافة والمجتمع إلى تحديد نُظم الحداثة التي ينشدها المجتمع.

3- إعادة بنية المكونات القديمة للثقافة المحلية وصيرورتها منسجمة وطبيعة الحداثة الاجتماعية كالمكون الأنثروبولوجي والميثولوجي كي تكون جزءا من الهوية الوطنية.

4- تؤسس الثقافة وعياً مزدوجاً: وعي التراث أو القدامة، ووعي المعاصرة أو الحداثة، وهذا يعني أنَّ الثقافة كمؤسسة للمعرفة، مُحَدِّدَةً لهوية ذات الدولة، لا تلغي التاريخ العام لها، إنما تقويها عبر العلاقة مع الثقافات الأخرى، وفي هذا يمكن القول: أنَّ بنية أية معرفة مؤسساتية للدولة بتداخل فيه الخاص المحلي بالعام العالمي.. فالثقافة تيار يجري كالنسغ في البنية الاجتماعية، فيغذيها كي تصبح مفهومًا لسلطة تمتلكها ذاتها الجماعية، أي سلطة المعرفة، ويتحقق ذلك بطريقة تحديدها لحقول اشتغالها.

إذا فهمنا أن الثقافة ممارسة اجتماعيه، قادنا حقل اشتغالها إلى شبكة واسعة من العلاقات، ومن هنا تنوعت وتعددت التعريفات لها، وتشابكت مهماتها مع حقول معرفية أخرى ومع حقول وقواعد وقوانين مؤسسات السلطة. وأبسط تعريف للسلطة من أنها مؤسسة للحكم، تعتمد الكلمة، والمدينة، والقانون، أي نظم الحرية وعلامات ضبط الحياة اليومية، والقانون ومجالات تنظيم العلاقة بين السكن والعمل والاتصالات، والعلاقات المالية، وتنظيم الدخل ومسالك أخر.

سنجد أنفسنا أمام تعاريف كثيرة للثقافة بلغت حسب تصنيف اليونسكو 160 تعريفا، وهذا بحد ذاته يشكل اشكالية من ثلاث شعب:

الإشكالية الأولى: أن الثقافة تجد نفسها في انفتاح دائم على متغيرات المجتمعات والفلسفات والتجارب فضلاً عن ميادين الإبداع المختلفة، ومن هنا لا تستقر على تعريف محدد.

الإشكالية الثانية: أن الثقافة الغربية عانت مثلما عانت الثقافة العربية من عدم وضوح المرجعات لها، هل هو المرجع اللغوي، أم المرجع الديني، أم المرجع العملي الاجتماعي، وسنبين دور هذه المراجع في تحديد الهوية الثقافية للمجتمعات.

الإشكالية الثالثة: مرت المجتمعات الغربية بتطورات فلسفية مختلفة، كل تطور يطرح مفهومًا للثقافة مختلفًا عن مفاهيم مرحلة أخرى، ووجدت جامعة كمبرج في موسوعتها أن: هذه التطورات انعكست إيجابًا على تطور مفهوم الثقافة ككل كما سنرى أيضًا.

لنقرأ بعض مفاهيم الثقافة ربما تلقي الضوء على تعقيداتها. ونبدأ بموسوعة كمبرج حيث نقرأ فيها:

ما الثقافة؟

"تدل " الثقافة" في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية على الفطنة والذكاء، أي على ملكات الإدراك والتمييز والحكم التي ينفصل بها الإنسان، وهو كائن طبيعي بالإصالة، عن عناصر الكون الطبيعي".

الثقافة إذًا حقل تقويم، عندما تكون الثقافة فطنة، وذكاء وإدراك وتمييز وحكم، يعني انها حقل يقوّم ما هو معوج في المجتمع، بمعنى أدق تصنع الثقافة ممارسة تقويمية للمجتمعات، فتعدل من مساراتها المعوجة والمخطوءة. وتصوب الخلل وتضع الحلول.

أما المثقف، في هذا المعنى المحدد للثقافة، فهو ميدان "الصناعة والإبداع والابتكار والخلق والاكتساب والتهذيب والتطوير والتحسين...الخ. ومن ذلك قول العرب" ثقّفَ الرمح إذا هذبّها مقومًا ما بها من الاعوجاج قد يكون هذا الاعوجاج فطريًا طبيعيًا، أو يكون خللا اجتماعيا وسياسيًا، فالمثقِّف هو من يُقَوِّم ذلك الاعوجاج الطبيعي والصناعي بألة، سميت قديمًا: ثقافً، وتسمى حديثًا الكتابة والكلام.

يقول الشاعر العربي

إذا عضّ الثقاف بها اشمأزت تشجُ قفا المثقِّف والجبينا

بمعنى تكون الاشياء الطبيعية معوجة في الأصل.'' فتقومها وتعدلها وتضبطها الثقافة. ولكن ما هو الجذر اللغوي لكلمة ثقافة؟ ففي قواميسنا وكتب مصادرنا الأساسية تخلو من كلمة ثقافة، في ثقافتنا العربية يلتقي الدنيوي والمقدس، لم تكن كلمة ثقافة معروفة بمعناها المعاصر، كانت كلمات مثل'' دين، عقيدة، مذهب، أدب، علم، صناعة، فن، حكمة، معرفة، عرفان هي الشائعة ''ذلك أن لفظ ثقافة، ومثقف، ومثقفين، إنما هي ألفاظ من بين ألفاظ جديدة عديدة، ظهرت في الخطاب المغربي العربي الإسلامي المعاصر إثر ''مثاقفتنا للآخر'' لتكون مرادفًا في العربية لكلمة Culture وIntellectuals. علمًا أنَّ هذه الكلمات الانجليزية والفرنسية مستحدثة هي الأخرى في الثقافة الغربية فهي نتاج الحداثة الأوروبية وظهرت كلمة ثقافة أول الأمر في اللغة الفرنسية. في القرن السادس عشر. ويشير هذا المعنى إلى حقلين دلاليين متميزين هما :حقل الفلاحة والانتاج الفلاحي وثمرات ذلك الإنتاج ''فهي مشتقة من أصل لاتيني قديم هو (Cultura) التي تعني فلاحة الأرض'' من جهة وحقل العبادة الدينية (Culte) وطقوسها وقواعدها من جهة أخرى. أي ثمة بعدين للثقافة الدنيوي والقدسي''. وهما بعدان موجودان في الثقافة العربية الإسلامية ايضًا، هذا يعني أنَّ جذر الثقافة جذر ميثولوجي تشترك الشعوب جميعها في إنتاجه. ''تفسيري الخاص'' عندها أصبحت الثقافة كلمة '' واسعة الانتشار عندما استعارها إنسانيو عصر النهضة من حقل الفلاحة واستخدموها ابتداء من القرن السادس عشر، على أغلب الآراء مجازيًا للدلالة على ''ثقافة الفكر'' أي على فعل تنمية قدرات الفكر والعقل والروح'' ثم راجت في القرن الثامن عشر، عبارات مثل: ''ثقافة العلوم'' و''ثقافة الآداب'' و''ثقافة الفنون'' الذي اصبحت فيه رمزا لثقافة الأنوار. ولكن لا ترد كلمة ثقافة إلا متبوعة بخبر. ولم ترد منفردة الّا في نهاية القرن الثامن عشر - قاموس لالاند ''. الناس استعاضوا عنها بكلمات اخرى مثل: تربية وانوار وتعليم وتهذيب وآداب وفنون وحضارة انها حركة ارتقاء من الحضارة الى المدنية.

فالثقافة تعني ''دراسة العلاقات القائمة بين العناصر المكونة لطريقة حياة بأكملها''. وتعني'' السيرورة العامة للتطور الفكري، والروحي، والجمالي''، و''انتاج وأشكال ممارسة النشاط الفكري، وتحديداً النشاط الفني''. و''الثقافة بوصفها طريقة في الحياة'' ريموند وليامز

وتعني الثقافة أيضًا ''ذلك المستوى الذي تُطور فيه الفئات الاجتماعية نماذج مميزة للحياة، وتقدم شكلاً معّبرًا عن خبراتها الحياتية الاجتماعية والمادية'' ستيوارت هول وتوني جيفرسون.

والثقافة ''تدرس الأبعاد الضمنيَّة للنصوص الأدبية في التاريخ'' دوليمور

وسينفيلد. والثقافة تعني ان ”الرجال والنساء يصنعون تاريخهم الخاص ولكن ليس في ظروف اختيارهم“ ماركس. وتعني أيضًا ”نمط الإنتاج بوصفه مركزًا حقيقيا للتشكّيل الاجتماعي وتكوين الخطاب“ انتوني ايستهوب.

حاول كلكهوهن وكروبر- غي روشيه 1876 - 1960منذ أربعة عقود من الزمن احصاء التعريفات التي وضعها العلماء والفلاسفة والمفكرين للثقافة في كتاب خصصاه لهذا الغرض ، فوصلا إلى حوالي 160 تعريفًا، غير أنَّ أقرب الحدود التي وضعت للثقافة إلى الدقة والشمول، هو التعريف الذي وضعه عالم الاجتماع غي روشيه عندما ذهب إلى القول :“ أن الثقافة منظومة رمزية للتواصل بين أفراد الجماعة الاِجتماعية، كيفما كان حجمها، مثلها في ذلك، مثل أحد مكوناتها وهو اللّغة، وأنَّها أيضًا منظومة للانتساب والانتماء إلى هُويات تعمل الثقافة على إنتاجها والمحافظة عليها وتكريسّها، إنَّها القالب الذي ينصهر فيه أفراد الجماعة انصهارًا، كسبهم سمات وخصائص مشتركة في التفكير والإحساس والفعل، المتشكّلة إلى هذا الحد أو ذاك، والتي تصلح لأن تكوِّن من الأشخاص الذين يتعلمونَّها ويشتركون فيها جماعة خاصّة ومتميّزة“.

وخصائص تعريف غي روشيه تتمثل بما يلي:

• النسّقيَّة، نسقية الثقافة كونها بنية، أو منظومة قيمية رمزية تتضمن المعرفة والأفكار وأنماط التعبير وقواعد الافعال والسلوكات ومن ثم العلاقة التي يقيمها الافراد المنتسبون.

• التَشكَّل، حيث يشير إلى أن الثقافة - بما هي كيفيات مشتركة للتفكير والاحساس والفعل- تضعف وتقوى في مدونات وقواعد الحكم والسلوك والفعل وهكذا تشكّل الثقافة بمؤسساتها وقواعدها، الوجود الإنساني.

• التشارك، هو مشاركة الجماعة بأنَّهم يحسون أنَّهم يشتركون في إنتاج التفاعل بين الأفراد. فالثقافة تنبع من سجل الوقائع الاِعتباطية لأنها ظاهرة جماعية تتكون من اجتماع الأفراد في إطار أنماط اعتمادهم المتبادل وأشكال تقسيم للعمل الاِجتماعي.

• والاكتساب، يعني أنَّ الثقافة تكتسب دومًا بالتربية والتعليم والتنشئة الاِجتماعية.

ما المثقف؟

يكتسب المثقف دلالته من الـ ”ثقافة“، والثقافة لا يمكن القبض على دلالتها إلّا في علاقاتها بالطبيعة والحضارة والمدنية والممارسة والأنوار والتقدم والزمن والتاريخ. وهذه المفاهيم تدخل في مفهوم الحداثة، ولها تاريخ يتشكل مع تاريخ الحداثة، ومع تشكل تاريخ الكون الاجتماعي الحديث“. إذن، ”فكل مفهوم هو علاقة، ولكل مفهوم تكوُّن وتاريخ“.

هذه عينة من التعريفات العامة للثقافة

ومع كل هذه التعريفات بقيت الثقافة صفة وليست اسمًا. ولنا أن نعدد ما شاء من الصفات الثقافية، الثقافة الوطنية،

الثقافة الاشتراكية، الثقافة البدائية، الثقافة العلمية، الثقافة الأدبية، كل هذه الصفات والنعوت يعكس ضعف دورها، وقلة الاهتمام بها والسبب يعود إلى جملة عوامل نذكر منها:

1- ان المثقفين ليسوا طبقة ولا هم فئة متجانسة ضمن طبقة معينة، إنما هم شرائح موجودة في كل الطبقات الاجتماعية، ففي الطبقة البرجوازية مثقفون، وفي الطبقة العمالية مثقفون وفي الطبقة الرأسمالية مثقفون وهكذا تتعدد شرائح المثقفين بتعدد شرائح الطبقات الاجتماعية. لذلك لا يمكن توصيفهم بأية الصفات الطبقية.

2- ما يحدد العلاقة بين شرائح المثقفين هو الموقف من قضايا الإنسان، حقوق الإنسان، العدل، الاستبداد، العنف، البيئة،..الخ، عندئذ نجد مجموعة من شرائح المثقفين تلتقي على هدف معين وتبني في ضوئه موقفا يسجل باسمهم.

3- ثمة تقارب واضح بين فئات المثقفين عندما تكون مصالحهم مشتركة أو متقاربة، فمثلا نجد بين مثقفي البرجوازية ومثقفي الطبقة العاملة تقارب، ونجد بين مثقفي الرأسمالية ومثقفي الارستقراطية والأسر الرأسمالية تقارب، ونجد تقاربا بين النساء والطبقات الاجتماعية الأخرة تبعا للمشروع النسوي أو البيئي.

4- بالنسبة لمجتمعنا، كانت شرائح المثقفين هي شرائح الثقافة الوطنية، وعمادها الطبقي هي البرجوازية الصغيرة والوطنية والطبقة العمالية والفلاحية، وليس عندنا شرائح متميزة للمثقفين الرأسماليين او الارستقراطيين، وهذه تعود إلى طبيعة وتركيب المجتمع العراقي.

دور الثقافة والمعرفة التقنية

نعني بالمعرفة العلوم الإنسانية، والعلوم الإنسانية تعني التنظيم العقلاني للموارد الثقافية، وتنظيمها في مجالات يمكن استثمارها. ومن هنا ركز عصر النهضة ومن ثم الثورة الفرنسية واخيرًا التنوير على أن تكون المعرفة سلطة. لأنها بنت أسسها على مجموعة من الممارسات الفاعلة، منها: التقنية، واعتماد العقل التجريبي للانتصار على الخرافة، ومن ثم سيطرة العقل على الطبيعة، وجعلها خالية من أفعال السحر. وبفعل سلطة التقنية المعرفية، تكون المعرفة غير ملزمة بأية حدود، فهي لا " تعرف حدودًا لا في استعباد الخليقة، ولا في المسايرة تجاه أسياد هذا العالم. وتستخدم المعرفة كل أغراض الاقتصاد البرجوازي في المصنع، في أرض المعركة، في المدينة، في العمل، في البيت، في العلاقات، من أجل ترسيخ مبدأ التعامل معرفيا مع الحياة. ومع ذلك لا تكون المعرفة متاحة للجميع، فهي دائما "في أمرة الذين يقومون بشيء ما، أيًا كانت أصولهم لأن التقنية تتمتع بشيء من الديمقراطية تتوازى مع النظام الاقتصادي الذي تتطور معه. إن التقنية أساس هذا العلم، أو المعرفة".

من هنا، وفي ضوء ما يحدث في العالم يعاني مفهومنا للمعرفة من قصور نظري وتطبيقي، فالمعرفة لدينا، في أفضل

وجوهها هي المزاوجة بين الموروث الديني الماضوي والتقنية الغربية الحديثة، لإنتاج مجتمع توفيقي لا ينتمي كليًا للماضي حتى تتضح صورته، ولا للحاضر حتى يلتحق بالركب الحضاري. فمعرفة مثل هذه تبقى مشلولية ومتحجرة في بنية عقل عربي اسلامي متخلف، غير قادر على رسم أية سياسة لحداثة المجتمعات العربية. ومن هنا فالتوفيقية لمثل هذه المعرفة هي جزء أساسي، إن لم نقل العمودي الفقري للسياسات القائمة على البعد القومي والديني والفئوي، وبخير الطائفي والمحاصصاتي، لتكوين الفكر القومي والديني، هذا المنحى من الممارسات السياسية يشعر إن هو فقد القومية فقد الدين، وإن فقد الدين فقد القومية واللغة، فكيف إذا كان الفكر الديني يتخلى عن قوميته ويلتحق بقومية أخرى؟. سنجد المعرفة ستتأرجح بين أنظمة متخلفة، تُرمم مؤسساتها كلما أصابها خلل في بنيتها بمشروعات ترقيعية، تتصل بالخدمات الهامشية وليس ببنية الدولة، ولا بلفلسفتها. كما لا تتبنى علمًا وثقافةً ومعرفةً قائمةً على تصورات الحداثة. هذا المشكل استمر معنا منذ بداية نشوء دول الشرق الأوسط بعد معاهدة سايكس بيكو، وتعمق إلى حدّ المأساة بعد حزيمة حزيران عام 1967، ثم ترسخ بحدوث الثورة الإسلامية في إيران عام 1979.. لينصب موضوع المعرفة في منطقة الشرق الأوسط ومن بينها الدول العربية كله على اعتماد ثقافة التخلف أساسًا لبنية التقنية العلمية في مجتمعاتنا. ومن يقرأ العقود الثلاثة بعد أحداث حزيران عام 1967 سيجد أن سبب هزيمة حزيران ليس ضعف السلاح ولا الجيوش العربية، إنَّما في المنظومة المعرفية التي اقتيدت بها هذه المنطقة، إلى الهزيمة، وفي مقدمتها هوية الأنظمة السياسية وطبيعة تفكيرها التنموي والثقافي، مما سهل على أميركا أن تجد الذرائع – وهي كثيرة- لأن تبدأ بمشروع الشرق الأوسط الجديد، مبتدئة باحتلال بغداد عام 2003 ومن ثم تنصيب القوى الاسلامية كقوة معرفية دينية وقومية على قدرات العراق، ثم ما اصاب المنطقة من تشرذم أ كمحصلة معكوسة للربيع العربي،'' إن المجتمع العربي ما زال يتعامل مع واقع مستجد؛ ينتمي إلى أزمنة حديثة بأدوات ووسائل تنتمي إلى أبنية ثقافية قديمة، وهذا ما يؤول بالفعل الاجتماعي العربي إلى أن ينتهي إلى نتائج غير التي يخطط إليها ويرنو'' فجمود الأبنية العربية الثقافية والمعرفية يقود دولنا إلى اعتماد خطاب ثقافي متخلف وغير قادر على تأسيس رؤية معرفية تنسجم وحجم المشكلات الاجتماعية التي نعانيها. وخلص عدد من الباحثين كما يشخّصهم الدكتور سهيل الحبيب، من بينهم: عبد الله العروي، محمد اركون، محمد عابد الجابري، خليل احمد خليل، وأدونيس، إلى أن ''أن الثقافة هي المحدد لتخلف المجتمعات العربية وتقدمها، الأساس الحاسم في اكتساب الجماعات البشرية القدرة على الفعل الاجتماعي المثمر وكما يرى الجابري ، فإذا كانت التنمية هي '' العلم حين يصبح

ثقافة " فإنَّ التخلف سيكون هو" العلم حين ينفصل عن الثقافة"أو هو" ثقافة حين لا يؤسسها علم". أن النهضة العربية المزعومة "أعادت للماضي" كما يقول غرامشي ، وليس للمستقبل، لأن المعرفة نأت عن العلم واتجهت صوب المقولات الدينية الماضوية التي وجدت أساسًا لاصلاح البشر من الشرور الاجتماعية والكونية، اي بناء السلم الداخلي للإنسان، وليس لبناء مجتمعات حديثة." وهكذا "فإن الثورات المسماة على التوالي (عربية) ثم (اشتراكية) ثم (اسلامية) قد فشلت كلها بطريقة دراماتيكية (مفجعة)، لأنها تفتقر إلى نمط في الفعل التاريخي مبني على عقل تحليلي ونقدي وعلمي متحرر- كما في أوروبا- من المسلمات الدوغمائية.."

المنفعة، وتقسيم الأعمال هي المفاهيم الأساسية التي تجعلنا نقطع مع الرؤية السحرية المثالية للسلوكات البشرية بما فيها السلوكات المثقفين. "كان الفعل الثقافي يتموقع في نقطة خارج الكون الاجتماعي تمكنه من السمو عن الانخراط العملي المحموم في لُعَبْ ذلك الكون المختلف ، سموًا يستحيل من دون تأسيس مراقبة موضوعية لما يجري في ذلك الكون من وقائع ومسارات، وانتاج معرفة موضوعية بصدده. إنها الرؤية السكولائية الى العالم التي لا توهمنا فقط بأن مفاهيم العلماء والمفكرين توجد مبدأ ممارسات الناس (بدلًا من اعتبار تطبعات الناس هي المبدأ الواقعي لممارساتهم) بل توهمنا بالإضافة إلى ذلك، بأن العلماء والمفكرين يكونون جماعة خارج المجتمع، وخارج التاريخ، جماعة تطفو فوق تيارات المجتمع، وتتسامى عن الانخراط في منظورات ونزعات جماعته وفئاته وطبقاته. إنها أسطورة المثقفين الذين يطفون فوق المجتمع من دون مربط أو مرسى، تلك التي روّجتها سيسيولوجيا كارل مانهايم، التي اعتبرها بورديو نوعًا من السيسيولوجيا العفوية التي ينتجها المثقفون تلقائيًا من ذواتهم. وفي كل الأحوال لا يبدو العمل الثقافي من هذه الزاوية عملًا كغيره من الأعمال التي يضطر الإنسان إليها قصد الضمان إعادة إنتاج ذاته اجتماعيًا في الزمان والمكان، عملًا يسري عليه ما يسري على الأعمال البشريَّة كافة والأخرى التي ترتبط بها سلبًا وإيجابًا في إطار شكل تاريخي معين من أشكال تقسيم العمل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، من بين ما يسري عليه في إطار ذلك، اتسامه بقدر ما من النفعية التي تأخذ أحيانًا كثيرة ، مظهرًا خداعًا، مظهرًا لا نفعيًا. ومن واجب السيسيولوجيا أن تنزع الأقنعة عن كل السلوكات البشرية".

الروائي فلاح رحيم: القرد هد حيلي

ناجح المعموري

لغة فلاح رحيم بسيطة، محملة بحساسية الشعر وتمركز مجازاته ومهارتها الممنوحة منه لها وتوترها المفاجئ بالعامية التي تبدو عابرة، لكنها في عمق الحدث السردي. لغة ليس من سهل الوصول اليها. لكنها تحتاج متلقياً لديه خبرة بالتشكلات الثقافية ومرايا العقل الذي حاز عليه فلاح، عقل تلاوينه معارف وافكار وقيم وخبرات متراكمة، صاغت ذاكرة خاصة له مميزة بما تثيره من اندهاشات. والاضافات الى عمق ما يتمتع به، لا أحد يجاوره بتنوع اهتماماته.

ما يكتبه فلاح غير بريء، متوتر بذاكرات غنية والنموذج يتضح في روايته المجيدة ''القنافذ في يوم ساخن'' أحد أفضل الاعمال الروائية العربية والتي اخترقت الوسط الثقافي هادئة.

لغة فلاح ترى، تضيء، تقود لما يريده منها فتعطي مساحات هائلة عبر تعيينات صاغها العقل من افكار وقيم الحياة الاجتماعية. ومن الصعب الامساك بها لان حقائق اللغة ليست محددة، بل تستولد ما تريد استجابة لنسقها الذي صاغه فلاح في سردياته، واحيانا تفلت من

القارئ كمكون بسيط، وهي عكس ذلك، معقدة، مفتوحة على تأويلات وابتكارات لرموز هو خالقها. ونموذج الكلام الذي قالته ام سليم: ''القرد هد حيلي'' افضل الطاقات المتسربة والقوية من لحظة مرتبكة، مشوشة وخائفة، لكنها قالت ما يتمناه الشرفاء في ظرف معقد وازمة موت وغياب واحباط وتعطل الاناث اللاتي تحولن الى نظام مهدم يفضي نحو حياة عرجاء متع السرديات يقظة لا تتعطل وانا واثق بأن المحترس اثناء قراءتها، تفوت عليه الكثير من المعاني، لان تعاقبات التعاضد الذي يعرفه فلاح، وسيلة انقاذ واقتحام ومشاكسة يعرف العقل التوصل اليها بالهدوء والمرونة وينجح بالتسديد وتحوز قدرة تبقى وتمنح

سياقات ابتكار الحفريات في الماضي، والذاكرة، واستحضار كل الذين تعرف عليهم ومنحنا متعة التشارك معه بالتعرف عليهم.

الكلام المعتاد عليه تداولاً يومياً، آلية المألوف الذي تأهل جيداً، مطلقاً ومتعارفاً على ما قاله هايدجر بابتكار مهارات العقل الفلسفي وهو يتحدث عن الشاعر تراكل وما التقطه غادر امير منه وكرس مفاهيم عن الكلام، لكن فلاح صاحب خبرات ولديه مختبر خاص للكلام والذي يعوض به ما لم تصل لغته له، ويتحقق تدفق المعاني وكأن الكلام شبكات رمزية، تنفتح لكل ما هو جميل. لان فيوض الرموز بالمعاني تمكنات ليس سهلاً التقاطها.

قال جوناثان كولار: تمتلك المقاربات عادة مأخذ التسليم واستجلاء ما تعرفه بصورة ضمنية، فمن اجل وضع المصطلحات الجديدة موضع التطبيق او القيام بالعمليات الجديدة علينا أولاً ان نعيد التفكير في الممارسات المألوفة.

فلاح مقتدر على التفريق بين اللغة والكلام وبين الدال والمدلول وبين العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية، وحاول استشراف امكانية تطبيقها على مختلف الظواهر غير اللغوية ومعروف بأن الفرق حاضر بين اللغة والكلام، تنوع الوحدات السردية يحتاج نوعاً من الضبط والسيطرة لان تعددها، وحصول تباين فني مثير للدهشة، يضعف الامساك بالوحدات، وفقدان الرابط الداخلي الدقيق، لان شفرات الحكي ورواية متسعة، صعبة، واحتمالات الفقدان امر وارد، لكن العديد من الوحدات السردية ذات فعل بنائي ـ مفاجأة قرد لم يعتد على المكان الذي انتقل اليه قبل يومين. لم تنخذل ام سليم وهي ترى القرد في بيته، بل استطاعت معاينته، ووجدت فيه شكلاً بشرياً واضحاً للغاية، لكن فلاح رحيم وتدوير السحري، والدنو من النكتة يومئ لنا بأن الفلسفة هي التي اسست لهذا النوع في مواجهة الواقع والحياة العامة، انه أحد الرموز الناشطة، القوية.

اتخذ فلاح حاضراً في مرايا وقائع واحداث الحرب ولم يكن أكثر منه تمثيلاً للدلالة على قائد الحرب الذي أفجع ام سليم بموت كريم، وما ترك من اثار فجائعية وتراجيدية ستظل بذاكرة التاريخ.

قالت ام سليم: تعبانة، القرد هد حيلي لم يكن القرد خاص بالجيران، بل هو ملكية للعراقيين، لكنه ملاحق لهم، ومطارد في كل وقت، وطاقة خرافية للكلام اليومي وفياض بالمخزون فيه. وما قالته ام سليم مختصر للمكبوتات في ذاكرات الناس، ومن خلال معاينتي للمفردات العامية، وجدت بأن فلاح رحيم بارع باختيارها. فاللغة كما قال كولار هي النسق، اللغوي، وما يتعلمه المرء عندما يتعلم لغة ما. اما الكلام فهو العبارات المنظومة او المكتوبة التي تند عن الحصر، في لغة ما.

يبدل ما لديه من عناية وخبرة ومهارات تكرست بالتداول اليومي لها وما قالته ام سليم حول القرد غادر ما يعنيه حيوانياً وتخندق وسط رمزية الخزان الاتصالي. كان ما قالته قوياً كالطرقة المفاجئة،

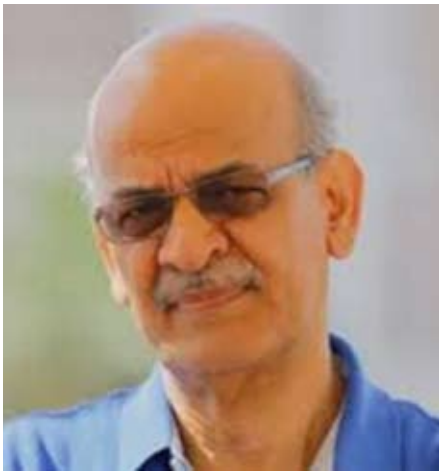

خلخل الثاوي في الذاكرة الموجوعة والمفجوعة، وقدم ارفع ما تداوله العقل الشعبي، كاشفاً عن مهاراته وقدراته في انتخاب خطاب يصعد مقاوماً للنظام اليومي. مفجر للصامت ووسيلة تخفيف ومساعدة لمقاومة السلطة، الجماعات ليست راضية بكل ما يحصل من دمار وفجائع واحتمالات احتلال العراق. ''القرد هد حيلي'' خطاب رمزي وسري اقتدر على اختزال الثاوي وتحريك الحفريات ونبش الاثار، وكأن ما ارادته ام سليم لبث خطاب لا يمثلها فقط ــ لأنها واجهت القرد الذي اقتحم البيت ــ بل يعني الشعب كله القردة لا تهاب حرمة الاخر وحريته، ومن السهل التسلل الى اوطان وكأنها مباحة، ولا حول لها ولا قوة.

امكانات النظام ومؤسساته روضت الجسد وعجنته للاستجابة لكل ما يراد منه هذا ما عملته الاجهزة الرسمية لتعطيل الاشكال التنظيمية الموجودة بنسبة ما لدى الجماعات. وجعل من البيوت مشرعة،

تفاجئها الطرقات القوية في اوقات محددة للمداهمة والغزو وتقرير الجيران والاعلان لحظة زيارة بيت المطلوب كنوع من المراقبة للمكان والفضاء واقلاق الكائن او الفاعل المحتمل وسط رمزيته. لكن ام سليم لدغها القرد وطمرت تحت الارض وأرغمها للاستسلام الكلي والمبايعة لقرد مثير بشكله. وظهرت نيتها علنا وعاهدت ارادته.

قال دافيد لويروتون في سيكولوجية الجسد: في هذا السياق تستدعي الحقل السياسي الذي يسعى جاهداً الى تنظيم الانماط الجسدية حسب غاياته التقنية ترهيبه للأجساد وسياسة الجزء بدلاً من المصادر من دون وساطة الدولة ومؤسساتها للهيمنة على الطبقات الاجتماعية، أنتج الانتظام الذي انتشر

في الساحة الاجتماعية مفهوم المراقبة الاجتماعية التي كانت تستند فقط على اجهزة معينة.

سرديات فلاح رحيم كلها مكتظة بالمفاهيم والافكار والجدل المعرفي، بحيث تسيد الفلسفة ـ مثلاً ـ في رواية (القنافذ في يوم ساخن) ـ يلجأ لكل ذلك ليحصن شخوصه ويسلحها بما تقوى به للتباين والاختلاف، فالسلطة ليست امتيازاً منفرداً يأخذه من اراد اداة، بل نظام علائقي يعرض قواعد التصرف، لذا يجب ان نتقبل ان السلطة تمارس ولا تمتلك وانها ليست ذلك الامتياز المكتسب او المحفوظ لطبقة حاكمة بقدر ما هي مجهود ومنتوج مجموع وأفقها الاستراتيجية .

قدم فلاح توصيفاً مختزلاً للغاية وكأنه وظف اليومي المشفر للوقوف بوجه السلطة. وعودة للرواية سنجد المفردات والجمل السردية اليومية/ المنتقاة من افواه العامة ذات قوة خطابية، لكل الجماعات الاجتماعية تمارس ارادتها بما هو ممكن: ''القرد هد حيلي'' اقوى واشجع ما ذهبت اليه ام سليم لمفارقة خطاب وافعال القرد ليس في الحرب فقط، بل في المدارس والمستشفيات وداخل الجيش وورش العمل. مراقبات فوكو في تاريخ الجنسانية التي اهتمت بقواعد التحكم والهيمنة، هدفها انتاج الطاعة عند الفاعلين وذلك من خلال مجهوداتها المتناسقة هم دائم ودقيق لتنظيم الجسد.

ـ تعبانه/ القرد هد حيلي.

ضاعف القرد مرضها وعطل حركتها، لأنه فاجأها باقتحام البيت، قرد لم تر مثيلاً له، اقرب شبها للإنسان المتوحش، كارثة ام سليم فعالة، معقدة ولا يمكنها ان تنجح هي ومن معها بالبيت من نسيان موت كريم وما لحق بهم من خزي وعار بعدما منحه حزب القتلة صفة عضو في حزب البعث. هنا يتضح الخطاب الموجه لتشويه الفرد والجماعة، ولم تكتف السلطة بما حصل للعوائل من كوارث. مؤسسات السلطة تريد تحقيق اقوى توصيف لمن يدفع بجسده الى خنادق النار للعقل الذي اهتم به فلاح كثيراً، وهو يخوض المواجهة مع السلطة ولعبها على الجسد، حتى اقترب للإشارة الى ان اهم ما يميز العقل هو التكون الثقافي وبروزه جليا عن طريق الدور الذي يؤديه العقل عبر العلاقات التي يتبناها الكائن والتي تضيء تنوعات الممارسات العقلية وبرز ما يظهر فيها من حكمة، ولان فلاح رحيم عارف بالعلاقة العميقة والواضحة بين العقل وقوة الاستثمار، والتمظهر عبر مستويات العقل وتبدياته بالإحساس، والحكمة، والذاتية، هذه التي اشرنا لها من المصطلحات. يتم التعرف عليها وبالفهم. وهذه لن تظل ثابتة بل خاضعة للتغيير.

ان الالم هو ما شعرت به ام سليم. وهو احد مصطلحات ذكرناها وقد شكلت ثقافة الام... فالعقل كامن وظاهر، متكتم عليه ومكشوف، لان السلوك والتصرفات كلها وما يتكون لاحقاً هي مرايا تضيء مرويات الالم، ليس الفردي بل العام. وللألم حضور استثنائي، وصفته عراقية، وذهب المبدع الكبير فلاح رحيم لتوصيف الايقونولجية/الصورة/ والنص وهذا واضح لمن اطلع على روايات فلاح

الاربع، ومن لم يستكمل الاطلاع عليها لن يتمكن من استكمال قراءة فاحصة، كاشفة، تتميز بحفريات، ولا ابالغ اذا قلت بأن فلاح رحيم عقل ثقافي متميز وعقل معرفي، وظف كل عناصره وخصائصه على شخوصه التي ابتدأت برواية (القنافذ في يوم ساخن) وحتى الرواية الرابعة (الشر الاخير في الصندوق) ولا بد لي من اشارة سريعة لكنها ذات طمغة وهي ان الشخوص لها كينونة ممتدة وسيرورة متصاعدة، ومن هنا تأسيس خلايا الملحمة المتدرجة والتغذية العقلية والعاطفية، وهيمنة العقل لا تعني تجاهل القلب والعواطف العالية والمتسامية والتي التقطنا منها/ هدى، وبيانكا. والمدهش ان القلب لا يغفل تجاور العقل واياه لذا ابتدأ القلب حواراً مع الماضي، والانا لا تتعطل، بل لها حركة هادئة وذات سمات فاعلة والفعالية منتج ثقافي للعقل. وأكثر ما يثير العقل الفاحص لسرديات فلاح هو شبكات الرمز الظاهرة والمعروفة والاخرى الثاوية والمسكوت عنها، تلك الرموز المانحة للمعنى قبل ممنوحات الشعر وتأكيداً على ذلك، عودة لعتبة جديدة على ما قالته ام سليم:

ـ تعبانه / القرد هد حيلي.

تسلل العقل المتميز ثقافياً ليستنبت رمزاً متسامياً بدلالته التي تومئ لقادة الحرب وسادة الملاحقة التي ذهبت الام بهم للأوساخ وقذرات البيت المعروفة دلالته ايضاً "لم يكن نبضها قد انتظم بعد عندما قفزت من مكانها كالملدوغة. اين ورقة الاستدعاء؟ انتهت الى ان الورقة قد سقطت من يدها بينما هي تعالج مشكلة القرد. استغرق منها البحث وقتاً زاد من اعبائها حتى وجدت القصاصة مرمية بين قناني المنظفات تحت السلم، لا يمكن لاحد ان يصدق وهو يرى ضآلتها وقلة كلماتها انها كانت كافية بنسف بيت من اساسه/ الرواية ص177.

الاشارة الخاطفة لقصاصة الورق الصغيرة وكلماتها القليلة ادرك العقل عبر مكوناته كوجود في العالم، تكفي لتدمير بيت، بمعنى وطن والتكوين الثقافي الراشح تعبيراً عن العقل الثقافي والمعرفي لمبدع كبير لا تلوذ، بل تظهر لكن بشفافية وذكاء للإعلان ومثل هذا الذكاء مقترن بالرسائل المعني بها فلاح رحيم وما تفضي به من خطاب يشتغل بما اراده فلاح، واشار الى ان الكلمات في الرسالة، لا تقلل من سعة وتأثير خطاب المؤسسة الانية، بل تقول بأن المؤسسة نجحت بتكوين خطاب، او خطابات هيمنت واخضعت الجميع ولا ضرورة لثرثرة الرسائل الخاصة بالإبلاغ، فمهما بلغ حجم الرسائل المستدعية، يفهم الكائن المطلوب منه الاسراع للحضور معاً لالتقاط اشكالات ومشاكل العقل والجسد. ولم يغفل فلاح بما توفر لديه ومنذ وقت مبكر من افكار ومفاهيم ومعارف غذته طاقته بالسرد، وهذا ما اتضح في مروية ام سليم والقرد وقصاصة الورقة، تحولت بيد فلاح ورجاحة عقله كنوع من المهارة الذاتية التي عليها اجماع مهاري وبلاغة متسامية. وما قاله هايدجر حول الكلمة التي تتكلم والكلام الفعال في تجربة الشاعر تراكل وما اضاف له غادمير تكلم الكلام، موظفاً مشهورات هايدجر

واكثرها التماعاً في الشعر السرد والفنون وهي: اللغة بيت الوجود، الكلام بيت السرد، وحضن الشعر. من هنا يكون فيض التعالي والتسامي في حفريات الكلام وما يشف عن رسائل مكشوفة او شفرية، وانا اؤكد على المشفر من الكلام وهذا ما ابتكره فلاح بقليل من السرد المتهيكل حول قصاصة الورقة. والقرد هد حيلي. اخيراً هذا جزء من فصل طويل جداً عن هذه الرواية التي اسعدتني بقراءتها الثانية، لذا ستظهر فحوصاتي معقدة بعض الشيء، لأني اعرف المبدع المخلق والمبتكر واعيش معه جدلاً وازاول حفريات مثل الذي يزاوله الحالم بكشوفاته للتاريخ القديم . هذه رواية فذة، عمقها يؤسس متعاً عند الاقتراب من العقل والقيم والمعارف باختصار التقط فلاح لغته السردية موظفاً الشعرية التي عرفها بوقت مبكر هو مبدع مؤسس، سيأتي اليوم الذي تتسع له مساحة السرد وتضيق على غيره.

يوميات الحرب والخنادق وحيازة الانثى الصورة الخندق، هذا ما قاله كريم الى علياء. هذه الرسالة قنبلة لن يعطلها السلم اذا تحقق ولن تتمكن مؤسسات تجاهل ما نبع منها من معرفة ودعوة لحياة تتسيد فيها المرأة، حتى بعد الفجيعة، لان علاقتها مع الحياة قائمة وكما قال رولان بارت: الصور تكشف التكون الكوني للممارسات الانسانية في الحياة اليومية في جميع بلاد العالم، وتبيان الولادة والموت والعمل والمعرفة، واللعب تفرض على الدوام انماط السلوك ذاتها.

ان التكرار الذي اشرت له قبلاً هو تعريف للديمومة واستمرار الكينونة والابقاء على الانطولوجيا وكلما يمتد القارئ مع رواية فلاح رحيم يقتنع بأنه منتج الاساطير الاكثر حضوراً وقوة من اساطير رولان بارت "القرد هد حيلي" اكثر الغرائبيات تثير الاندهاش وتحتفظ بها الذاكرة، وتعبر حيوياً من خزان الارشيف الذي لا يفارقه التاريخ ولا يتجاوز تنوعات الارشيف بالغ الاهمية. في كشوفاته للعرق والعاشية يلوذ فلاح عبر سردياته نحو اللامعقول والغرائبية بالعلاقات التي شكلها النظام او الانظمة الاجتماعية، لكنه لا يفارقها فتتحول اللامعقوليات والغرائبية الى اساطير، اطلق عليها انا اساطير فلاح رحيم، وممكن جداً ان يقرأ هذه الاسطورة لمجال في سردياته حتى تتمكن من معاينة طاقة الابتكار التي تنحرف معتمدة على اللغة/ الكلام وتلوذ بالأسطورة النص الاعظم والذي يقوده الماضي نحو بدئية وايقونولوجية وصور ونصوص.

الاستاذ فلاح سارد المفاجآت ومخلق اللامعقول وملتقط الاستحالة كي تكون الممكن الذي لا يقهر ويكشف عن ثقافة العقل الحاضر في السرد وبعده يحمل ريح التخليق والمعروف واللامعروف. فلاح أكثر ذكاء من الشعراء، لأنه نجح بكتابة سيرة وتاريخ ابناء جيله، بينما ذهب الشعراء للمديح والتوسل بالصوت لتمجيد السلطة وقسوتها حتى يستمر الدم بالتدفق والدموع بالانهمار وكأنها نازلة من السماء الصاحية. مثل سرية الصندوق المختزن لرسالة كريم واحتفاظ علياء بها، يفقد الصندوق ما يفصح عنه

من خلال مقولة نيتشه وبندورا الروائي المبدع المهووس بالذهاب نحو النور حتى في ظلمة الليل، لأنه عارف بالذي سيبتكره المخلق من محكيات تحضر فيها الانثى وتدوخ تماماً لأنها لا تفارق ما كان في البدئية مثل علاقة سليم وهدى او ايقونولوجية الصورة / النص الذي تكرر في روايات فلاح رحيم وهو أكبر ايقونولوجية متسامية فنياً وسياسياً وهو نصب الحرية، هي بداية خارجة من الحرب لها تاريخ طويل جداً. لكن هذه الرمزية ليست صامتة، بل كلامها تنوع المعنى والذهاب نحو الحقيقة التي يروم لها السرد واستعادة محكيات الاناث وكما قال جوناثان كولار: الاشياء المدفونة تحت المعاني المصنعة. وهي التي يستخدمها البشر، من خلال الادراك، والشعور. والاستخدامات المختلفة في خلع المعنى على كل شيء. فان عمل الروائي يكون ذا طابع تطهيري بمعنى ما. فهو يبقي الاشياء من فائض المعنى الذي يخلعه البشر دونما انقطاع.

سرديات رحيم مشحونة بالضائع في الحياة العامة وسط الحرب والكوارث، حتى يتمكن من التوصل للحلم. فللسرد احلام هي البث للجماعات وتقويتها كي يتحول المحكي الى مخيال وعند التحقق تتسامى الشعرية في المرويات ولابد وهذا ما أدركه فلاح رحيم حيث كان دائماً يختل وراء اللغة/الكلام ويقول ما هو مطلوب بآلية مختلفة، السرد وحده من بين الآداب والفنون مكتف بقدراته لتطويع الكلام واعلان الحافز الذي يجعل من اللحظة حدود الانطولوجيا ويقاوم الذي كان عليه ان يكون.

انه يعد الوجه من كل مناطق الجسد الاكثر تكثيفاً للقيم العالية، حيث سيتبلور فيه الاحساس بالهوية وعبره ينشأ التعرف على الاخر وتترسخ مزايا الاغراء، وتمييز الجنس. ولذلك فإن أي تشوه في الوجه، يكدّر حياة الانسان، وأحياناً يحرمه من هويته، ويجعله يعيش مأساة وهناك تقاليد تجعل من الوجه نفسه طريقاً لروحانيته ونبل أصالته. والقيمة التي هي اجتماعية وفردية في الآن نفسه، والتي تميز الوجه عن باقي الجسد وأهميته في ابراز الهوية نابعة من الاحساس بأن الشخص كله هنا، أي في الوجه، والفرق اللامتناهي للوجوه هو بالنسبة الى الفرد موضوع تساؤل مهم ودائم: المرايا ، البورتريهات، الصور الفوتوغرافية ... الخ.

ضغطت الحرب كثيراً على العائلة العراقية وانكمشت العلاقات التواصلية والتبادل بمناسبة تنوعات المناسبات التي قزمتها الحرب، لذا فإن الفواجع والكوارث والتغييب المفاجئ المعبر عن نظام حركة مؤسساتي المسؤولة على مراقبة النظام العام. لذا كان معروفاً بأن شبكات الرصد والمراقبة هي ذات نوع يكرس كل ما لديه لممارسة السلطة التي قال عنها فوكو: هي ليست اعتباراً منفرداً يأخذه من أراد كأية أداة، بل نظام علائقي يفرض قواعد التصرف. لذا يجب ان نتقبل ان السلطة تمارس ولا تمتلك، وإنها ليست ذلك الامتياز المكتسب أو المحفوظ لطبقة حاكمة.

الجسد هو رمز المجتمع، وأن الجسد

الانساني يعيد انتاج كل السلطات، والمخاطر التي ننسبها الى البنية الاجتماعية، ولو على مستوى ضعيف. فالجسد يصور الاجتماعي استعارياً مثلما يفعل الاجتماعي تجاهه، حيث تتجلى كل الرهانات الاجتماعية والثقافية داخل نطاق الجسد رمزياً.

الوجه خصوصاً للأنثى مثل المرآة يعكس دقائق حالتها الاجتماعية/النفسانية، كل ما في اعماقها يطفر نحو جسدها ويبدأ بالبث، شفرات ليس صعباً تفسيرات وانعكاسات اليومي لا يمكن التستر عليه، لأنها نتاج المحيط الاجتماعي ضمن جماعته الواسعة/الطبقة. وقال دفيد لوبروتون: ان الخصائص المعنوية والبدنية التي يتمتع بها كل من الرجل والمرأة ليست مرتبطة بأوصاف جسدية بقدر ما هي مرتبطة بالدلالات الاجتماعية التي تمنحها من خلال المعايير التي تقتضيها السلوكيات.

وجه علياء تبدى عليه تراكم ما حصل في كل الحرب على الرغم من وجود ما يشبه الاحتفاء بختان طفليها، لتقنع نفسها بأنهما دخلا منطقة عبور نحو ما تحلم به مستقبلاً.

عاد علي بنظره على محسن وارتسمت على وجهه ابتسامة انعكست في وجه عمر حين واصل محسن دعاباته بإصرار خبير في مخاطبة الأطفال. حين جاءت علياء لتحيتهما. كانت مسربلة بثياب الحداد السود وإن أبدى وجهها بقايا حيوية ترسبت من حفل الامس وصخبه. بدت الحيوية في حركتها وملامحها أمراً طارئاً على وجودها الساكن الغارق في فتور البيت وصمته / الرواية / ص146.

• **الشعر الاخير في الصندوق / رواية: فلاح رحيم . دار الرافدين – بيروت / بغداد 2021**

"خلو" * فن التعبئة المضادة للقبح

صباح محسن جاسم *

يستمتع الكاتب في حالة من القلق الإيجابي، رغبته في الجزئي والكلي من السرد بغاية الاستكشاف، لفهم حجم الوجود. بل الغور في غيهب الموت ليستنطق فعل الحياة المشعشعة بالنشاط. ساردٌ أشبهه بصياد ماهر يرمي بشبكته فيسحبها اليه لامّاً أصواته بتميمة كفه واصابعه الخمسة.

يقدم مادته الروائية باسلوب السارد المحوري- اللولبي المستعين بنماذج لغوية سردية متعددة تجاوزت الخمسة أصوات بمستويات مختلفة، فهي ليست بوليفية من جانب ولا فردانية من جانب آخر، يتسيّد فيها البطل الجماعي ويصبح الواقع بداخلها أمرًا معقدًا للغاية، ولعل تمكّن الفنان من إظهار كل ما هو ملحمي وغنائي وتراجيدي وفلسفي في محاكاة ساخرة قد انعكس غالبا عن واقع معاش تتداخل احداثه متجاوزة بما في ذلك أنماط ما وراء الخيال.

خصص المؤلّف عشرة فصول بلا عناوين يبدو أن لها علاقة في الترميز (خلو) – عنوان روايته بمعناه الأولي القاموسي - أَمْسَى الْمَكَانُ خِلْواً مِنْ سَاكِنِيهِ: فَارِغاً (قاموس المعاني) - وبدلالتين الأولى بنائية فيزيائية على لسان (أبو الهدى) – أحمد رؤوف - موثّق احداث الرواية، بدلالة الفراغ الذي تركه الناس المنهزمين المنكفئين داخل بيوتهم.

كما تكشف اللوحة التشكيلية للفنان وسام مناحي – بتشكيل كف لوجه يحفُّ به وجهان خاويان من معالمهما الإنسانية بدلالة مغايرة تماما لخلو المكان من الناس.

المعنى الأخلاقي ينبّه إلى – غياب الغيرة،

" الأَنَفة من الحياد في موقف لا يحتمل الحياد". وبغيابها ".. لن يتشكل لدى الفرد وعيٌ ثوري،" تراكمي، "حتى يصير في نهاية الأمر وعياً جَمْعيّاً بضرورة التغيير الجذري".

موضوعياً من دون أن يسمّي الكاتب جغرافية المكان يعطي تأويلاً للمتلقي فلا يغيب عن ذهنه الفترة التي كتبت فيها أحداث الرواية وقد تشظّت سرديتها لتكشف خضم ما خلّفه الاحتلال الامريكي للعراق وما تمخض أثره من مآسٍ وتدخلات دول انتهزت فرصتها للتمدد العنصري التاريخي المنقوع بالوحشية والفساد والتطرف الديني. ولن نقوّل المؤلف إلى هذا بل هو مجرد استنتاج ربما يدركه من عايش معاناة شعب كالعراق بل وشعوب عربية اخرى منذ سنوات عجاف.

المتن:

يعرض - السارد المحوري - عدة مشاهد يبدأها بمشهد مقتل الشخصية الرئيسة " حاتم الدّيو" – الذي يتخلّق ثانية فلا يبدو أنه اصيب اصابة قاتلة بعد أن أسعفَ من قبل محبيه في المشفى القريب من المقهى ومنذها استحق لقب – الدّيو – تيمنا بشجاعته. ***

نعلم من السارد المحوري أنه التقى الشخص حاتم الدّيو، جندي مديد القامة بشارب كث، متسربل بلباسه الخاكي، بعد خروجه من سجنه إثر مهمة نفذها بسرية تتعلق بالثأر من جريمة اخلاقية ارتكبها أحد القادة الحزبيين لنظام سابق، ومن مجريات الحديث يعلمنا عن قدرة حاتم الدّيو على " استحضار المستقبل"!، فهو " يرى خبايا الزمن القادم.. انما لا يرى التفاصيل"، على هذه القدرة السحرية يؤسس الكاتب سيناريو حكاية يستنطق احداثها القريبة من معايشته لها بأغلب اسبابها ومعطياتها. فالرواية على الرغم من تبئيرها للهيجان الكبير بغاية التغيير، تتوفر على حكايات موازية تُظهر المتلقي إلى تخيل مساراتها السردية المختلفة بمتعة شيّقة.

يستحضر عتبة روايته قناعة يدعوها بـ " اللايقين" بتقديم أولي عما حدّثه به حاتم الدّيو، السارد الأول- الذي لا يشكك برواية سقط على وثيقتها أبو الهدى – الصوت الثاني والمهيمن على النص وما سيرد في الوثيقة التي هو بصددها والمدوّن فيها احداث حكاية حاتم الدّيو ومواقفه الشجاعة.

يليه من بعض ثقاته - نشمية أم الخبز- الصوت الثالث، فتنقل رؤيتها عن الثوار المرابطين في ساحة الهيجان الكبير بل ومشاركتها الفاعلة فيه حين ابتنت تنورا طينيّاً هناك ومن مجريات شهادتها انها رأت تنامي اجنحة للشهداء من الشبّان المعتصمين من ثم تتسلسل احداث الرواية عبر ساردين يتوسعون بتراتبية (ناقل الخبر) الصوت الرابع من ثم يتقلصون في حضرة السُمّاع ما أن تلتئم الأحداث في سارد من وسط شبيبة الهيجان الثوري وساحة الاعتصام (ضرغام) - الصوت الخامس - يفوق بقية الساردين وعيا وثقافة بل يبز السارد الرئيس- المؤلف- وما توفر التاريخ على شهادته.

يبقى – الصوت الجبار – يراوح في ظهوره واختفائه مرات عديدة، على أنه صوت مَن لا صوت له عدا فعله الجبار بتوجيه جنوده الكونيين للنيل من المتخاذلين واستخفافه الأشياء بسحبها عالياً الى بطون السديم الرخو فوق الأرض الحرام.

يعتمد الكاتب على متتاليته السردية عبر

مراحل، ابتداءً بحادث اعدام -حاتم الدّيو- من ثم الانتقال الى الفعل المبرمج وصولا إلى البطولة الجماعية.

يتجلى الجانب السردي بارتباك القارئ أثر معجزة ربانية فلا تبين حقيقة اعدام - حاتم الديو- شأن من تخاذل في تنفيذ أمر السلطة وتلكأ في تنفيذ الأوامر العسكرية في القتال ضد العدو.

تعتمد " الحكاية" تقديم أحداثها " الواقعية" عبر شخصيتين رئيسيتين تمثلان جنديين لجيشيّ حكومتين عدوّتين لبعضهما، عددان لمدفعين قصيري المدى يتراشقان قذائفهما على الأرض حتى يتآكل الجيشان فلا يبقى منهما سوى عدد المدفع وآمره، وفي لحظة من التجلّي يريان نفسيهما في السماء يرقبان ما يجري على الأرض ويتبادلان النظرات بصمت لا شأن لهما بالحرب. وأن جرى بينهما الكلام صعُب على حاتم الدّيو تلفّظ اسم عدوه فاستحى من نفسه أن يدعوه بعدوّي والكلام غذاء وممالحة فقرر أن يسميه أخوي. بهذا المعنى الإنساني تغيّر واقع العداء بينهما إلى صداقة سماوية، فالشعوب متصالحة أصلاً بطبيعة ابنائها. وهذه الأخيرة تأكدت حين تم أسر الدّيو لدى الإستخبارات العسكرية المعادية وكيف جن جنون شعب الجانب المعادي حتى جاءوا ليحرقوا المكان ويطلقوا سراحه!

المشهد يذكّر إلى حد ما بقصيدة الشاعر الانجليزي - ويلفريد أوين - (لقاء غريب) عام 1919 والتي نشرت بعد مقتله في الحرب العالمية الأولى، على أن المشهد هنا في (خلو) يمتدّ حيث يمسي الأعداء على الأرض أصدقاءً في السماء.

تتوالى المشاهد عبر مرقاب الجنديين الصديقين بعد تجلّي روحيهما إلى السماء فيما يتابعان مجريات ما يدور على الأرض فيبتئر المخيال احداثا يتولاها شخص -حاتم الدّيو- حين يعتزم انجاز مهمته الخاصة ثأراً لكرامته بحكم ما يمور في دمه من عنصر الغيرة على عِرضِه وبمجرد ما ينتبه إلى نقص في استكانة الشاي التي يقدمها له عامل المقهى.

حاتم الذي تشيؤهُ غيرتُه حتى يُشك في شبيهه - الشيخ ابن محلتنا - يقود " الهيجان الكبير" بما يعكس حاضرَ ما يجري من - ثورة تشرين العراق - لاستعادة وطن أحالته طاحونة الرأسمال العالمي إلى حطام عبر كائنات كبيرة متشحة بالسواد بمساعدة متخاذلين عملاء يعملون على نهب الشركات حتى مصافي البترول يفككونها لتُهرّب معداتها، فيما يتواصل نهب مقوّمات اقتصاد البلاد عبر قناة عملاقة اجترحتها مخيّلة الكاتب لشفط كل ما يقع في متناولها.

المظاهرات لا تملك سوى سلاح "الغيرة" المتغلغلة في اجساد المتظاهرين داخل ساحة الهيجان الكبير وتضامنهم حتى تنفر من رائحتهم المخلوقات الكونية التي تشرع بفتك المتخاذلين اللائذين ببيوتهم، ولتبرز عبارة "الغيرة" عبر فصول الرواية، بما يفيد من أن ثقافة - الهيجان الكبير قد شكلتها كلمة واحدة فحسب كعنصر محرّك للتغيير، ولعل سحرها امتدّ الى تراب سوح التظاهرات مشكّلاً درعاً واقياً من افتراس أقزام المخلوقات الكونية للمتظاهرين.

ويستمرئ الكاتب علاقات التضامن الكفاحي والأخوي بين المتظاهرين، فيمنح للكهولة دورها وبالمثل للنساء وتنامي وعيهن ومفاضلتهن على الرجال سيما الشخصية –

نشمية ام الخُبز- وكذا الحال بالنسبة للشبيبة وذوي الاعاقة وحتى دَور الطفل وتعاطفه في تقبيل جُرح المصابين البسيط والذي سرعان ما يتماثل إلى الشفاء. فيما يتقدم صوت من الشبيبة (ضرغام) ليواصل سرد ما يجري في سوح الاعتصام ويبزّ السارد المحوري في التعبير عن المفهوم الكفاحي التضامني لدى المتظاهرين بوصفه شاهد عيان ومشارك في الأحداث مما يستحق كل الاهتمام.

اللغة

لغة مترابطة ومتناسقة تعتني باستقلالية الشخوص بموضوعية لا تحمل الشك بتدخل من الروائي ، تجمع بين الشعرية ولغة التداول اليومي حيث يهيمن الكاتب في توجيه بقية عناصر السرد انسجاما مع بنية التواصل فهو تعبيري نابه وساخرٌ في الوقت ذاته يمنح لغة السرد شكلها الأدبي المميز. وقد حرص على تلوينه للّهجة المتلاقحة بين ما هو أعجمي ومحلي عربي في تعابير الجندي من الجهة المعادية. فاللغة هوية المتكلم.

وعن طريق تقانة لغوية ضمّنها الكاتب عنصر الخطاب السياسي والعبث بمخيلة القارئ في تصبّره وبالتالي تذوقه لجمالية السرد، تجلّى هذا في تعبير الجندي " هاتم موسيقى هِلو.. شُرْب ليس شُرْب.. فقط موسيقى ونساوين هِلو." كما لا يفوت القارئ دفق لغة المناجاة المتسمة بالسردية كما في مناجاة (الجندي العدو) إلى الخالق في عتاب وجداني " يا إلهي ألم تستطع أن تؤخر خلقي إلى موعد آخر بعد أن يزول سلطان هذه الحكومة.." ومثل ذلك ص291 حين يتكوَّر حاتم الدّيو على صاحبه القتيل مثل تكوَّر أُمٍّ على وليدها، ".. أخبرني سبحانك ماذا تريد بالضبط من هذه القسوة؟!! "، معانٍ مُدافة بما هو فلسفي، لغةٌ تدعو إلى التفكير والتأمّل.

حتى لغة الأناشيد التي يأتي السارد المحوري على ذكرها ".. يؤلفها شبّان الهيجان الكبير ويلحنونها بأنفسهم ..... توقظ النيام من غفوتهم المستدامة". ص92

في محاورة طريفة بين (الجندي العدو) والشخصية حاتم الدّيو، نطالع لغةً خاصة بالعيون " الجندي العدو.. يبتسم وعيناه تتكلمان". كذلك المخلوقات الكونية المأمورة لا تتعدى لغتها الـ" زغاريد".

وبحسب السارد نلمح لغةَ تميزهِ سواء من البيئة التي يعيشها او مستوى الثقافة والفهم. فلهجة " نشمية أم الخبز" – " يُمّه يالمعلم شفت شلون يحكي شبّان الهيجان! كل كلامهم نحوي"، غيرها من رطانة ضرغام ولغة عينيّ " شَمَم" زوجة حاتم.

المستويات تتنوع بين الراوي الرئيس الأستاذ وحاتم الدّيو بشخصيتيه المتداخلتين، ما قبل الهيجان من ثم (الشيخ ابن محلتي) بعدها كقائد للتظاهرات.

نجد المفارقة حتى في طبيعة " الهلاهل" لدى نساء كل من الدولتين الجارتين! فما ينم تعبيراً عن فرح نسائنا انما مشبعٌ " بالقهر والضيم والكدر" بخلاف هلاهل نساء الجيران " أول ما تسمعها تشعر بالفرح..".

وبموازاة ما سبق فقد وظّف الكاتب حدث الجائحة (نازلة ستنزل بالبلد) توظيفا رائقاً منبهاً أن الغضب الإلهي واضحة اسبابه وجليّة معالمه.

في الوصف والسخرية والترميز

يلعب الوصف دورا كبيرا في مجريات السرد الروائي. تتجلى قدرة الكاتب في

نقل احداث سرديته بطريقة ذكية ممتعة. وفيما تتكفل إحدى الشخصيات بالوظيفة السردية، تتوقف لتسترجع بعض ما انتهت إليه الشخصية السابقة، وتستقل أحيانا أخرى بحكيها ، وصولا إلى الخاتمة وكأننا أمام سرد لولبي.

يواجهنا السارد المحوري ص 26 ''هل اشتبكت الأمور عليكم كما اشتبكت عليّ؟ الخيوط تتزالق من يدي.. الحمد لله ينتشلني الديوّ في الوقت المناسب''. مدخلٌ ذكيٌّ حقاً.

تطرق الكاتب إلى طبيعة الخوف الفطري في اشاعة حظر الاطلاع على ما تقوم به السلطات من فعاليات سريّة. فالناس تشيع الحظر ويكملون مهمة نشر الخوف بينهم. وهو ما ''يشكل غطاءً للسلطة الحاكمة''، ملاحظة غاية في الدقّة والأهمية في اسلوب التظاهرات.

يستأنف - الكاتب - سخريته اللاذعة عند مشهد صاحب البدلة الزرقاء ذو الندبة الخاصة تحت شحمة أذنه، رجل مسؤول بالدولة حريص على صَلاته لا يغفل عن المهمة التي جاء من اجلها رفقة حمايته والسيارات الفارهة، مهمة توازي قدسية (أثر السجود..) على جبينه فيما يتناول حديثه مع الشيخ ابي كريم فيجيبه بخيلاء عن مهمته - تفكيك ونقل مصفى كامل إلى الجهة الأخرى من القناة في أرض البلاد البعيدة!

فعل سرقة البلاد يتخذ منحيين: لصوص خبراء في نقل مخزون المصارف من اموال ومصوغات ذهبية ووثائق تاريخية بالتعاون مع حكومات جاء بها المحتل ولصوص آخرين عملاء يفككون معدات وآليات الشركات النفطية وسواها لتهريبها إلى الخارج. هدف الرواية هنا ليس هجاء الأشخاص وإنما النماذج في سلوكياتها وما يصدر منها من أقوال وأفعال، مفارقة تعرّي بشاعة وقبح الحكومات.

تكرار التعبير '' مثل ما يقول المثقفون'' مرارا وكما وجدناه في رواية سابقة هو بمثابة تحفيز المثقف ليقف وقفته الإيجابية دون الإكتفاء بالفرجة والتذمّر لما جرى ويجري من خراب ونهب للبلاد.

كما يرى في المدونين نوعين: متدينون كل حديثهم عن الحلال والحرام وأداء الفروض الدينية، وآخرين مدنيين ثوريين أسهبوا في تشخيص خلل المواجهة وتحدي الصعاب.

مخلوق '' الشبيب'' كائن كوني غريب لا يبزه في الاخراج من وصف سواه. مما يحفّز اقتراحنا صلاحية أن تُجَسّر الرواية سينمائيّاً لغرائبيتها وواقعيتها.

والى ما يشبه النبوءة، الناس السكارى يمسكون بكل الأمكنة. السكارى بالوعي. والي حكمة تعترضنا '' إذا أخبركم السكران شيئاً فعليكم أن تصدّقوه''. ص283

للموسيقى شأنها فهي المحرك للسلام ان لم تكن محوره، فها هنَّ النسوة في السديم الرخو يحتضنّ آلاتهن الموسيقية ويتمايلن طرباً، آلات موسيقية تقع لجان التفتيش في حيرة من كنهها.

حاتم الدّيو بوجهه المتوعد بتخطيط استغرقه جُل عمره وسهومه وعينيه وهما تتحدثان بصمت مدوٍّ فيما تتسمّران بنقطة بعيده، ما أن يصله نشيد الشبّان القريب حتى يعيد الروح لديه فيتشيّأ بشخص شبيهٍ له '' الشيخ ابن محلتي'' برمزه الثوري الذي يقود تظاهرات الهيجان، يرى تحقيق التغيير المطلوب عبر الوقوف وقفة رجل واحد بوجه الظالم.

نطالع مشهد انغمار المارّة باتربة الشارع وأوساخه، المتطايرة من تحت إطارات سيارة المسؤول الحزبي فيما تقلُّ إحدى أختيّ جمعة صاحب المقهى- .. دامعة العينين، في اشارة إلى فعل السقوط الأخلاقي الذي كان يمارسه أزلام نظام سابق، يقابله تراب ساحة الاعتصام - سمة الغيرة - الدواء لكفٍّ أذى المخلوقات الكونية - بعد تعفّر المعتكفين داخل بيوتهم بقليل مما جلبته بعض النسوة وحثّهم لنصرة شبّان الانتفاضة.

جدليّة الكاتب تبرز في السياق حين يتساءل على لسان حاتم الدّيو بشأن بعث المخلوقات الكونية من جنود وحتى يُوجِد الحل لما يصف ".. لماذا لا يتدخّل، إذن، سبحانه فيكفَّ عنا، نحن مخلوقاته الضعيفة، شرور هذا البلاء؟ "، من ثم يعود ليجيب " لأننا خانعون مرتضون بظلم الظالمين وسفالة السفلة من حكامنا" فلا نستحق الخلاص.. لا يخفى لهذه الرواية من دلالات فلسفية جديرة بالبحث.

في وصف " نشمية أم الخبز" لشبّان الانتفاضة كأنهم ملائكة ينزلون من السماء"، فيما "يظهر الشبّان من شقوق الأرض". ثمة صورة وصفية بديعة للعجينة التي تخبزها " عجين مليان خطوط دم " من نثار نزف جراح المعتصمين، "الخبز يطلع مخطّط بالأسود.." وكذا حين تدلي بشهادتها عن المصابين في الهيجان وقنبلة الغاز التي تطقطق بدخانها من رأس المتظاهر ".. بدن الشاب يبقى ينوّر وهو يرفس على الأرض.. الطقطقات تنفجر بوجهي.. الدخان يعمي العيون.. والنور يشع من كل بدنه".

السخرية فن يساعد على تخليص الرواية القائمة على الغموض من التلقي السطحي، كالسخرية من ادوات الحرب، " حدثت معركة مدافع ابتدأت عند صلاة الفجر وانتهت عند صلاة العشاء.. ".

ولأن السخرية فعل لغوي غير مباشر انما تستدعي تشفيراً خطابياً واضحاً يتجلى بتقنية ذكية عبر عرض طريقة تخدير الشعوب بالدعاء الديني وفبركة قتل المتظاهرين بدعوى أن الخالق يبارك القائمين بالدعاء فيقضي على المتظاهرين استجابة لدعائهم.

" الكتلة السوداء المتلامعة ذات الرائحة الحادة الكريهة" ببروزها الوسطي تُظهر عمق الخيال في الترميز إلى تضامن الثوار وسلوكهم الجَمْعي والتفافهم حول شيخهم الذي يقف على رأسهم وقد القوا الرعب لدى القوة الأمنية.

الأحواش المفتوحة السقوف على السماء انما بنيت ليس للتهوية فحسب بل " من أجل تيسير أمر دعاء الأمهات أيضاً"، رمزية غاية في الشفافية.

تصف " نشمية" كيف يتحوّل شبّان الهيجان إلى سيارات صغيرة ذات ثلاث عجلات- في اشارة إلى ما عُرف بـ (التكتك) "تنطلق بالجريح مثل لمح البصر". من ثم تحوّل ساحة الإعتصام إلى فرْضِها لثقافةِ الهيجان الكبير والأنَفة من الحياد مما يجري من خراب للبلاد.

شهد الكاتب ظاهرة نفوق الأسماك التي تكررت في نهر مدينته فتشكك في سببها موظفاً إياها بتوصيفٍ ذكيّ محتجا على تشويه البيئة ومحاولات الاعداء في اعدام الحياة " السمك متراصٌ.. كما لو أنه سجادة تطفو على الماء" ويتساءل على لسان حاتم الدّيو " أين جلسات الخمر على جرف الشط الخارج من بساتين الجسر الجديد؟

وليس آخراً الطريقة التي أخرج بها الكاتب

في وصفه لشبّان الهيجان الكبير، فتياناً وفتيات، يصدحون بأناشيدهم العجائبية".. إذ تستجيب وتشاركهم ملائكة السماء نافخة في ابواقها " فتصطخب مدن البلد بدوي النفير.. انه لقيام الساعة، لا ريب".

الضوء ذلك المعادل الموضوعي:

يلعب الضوء دورا كبيرا وحاسماً في الحل المرتجى، لعلّ ما جاء على لسان – نشمية أم الخبز – فيما تحكي عن تفاصيل الهيجان الكبير "نور يطلع من ابدانهم" اشارة وترميز لتنامي الوعي، " الواحد منهم كأنه كتلة نور تركض بالشارع"، " لا تسألوني.." والكلام لحاتم الدّيو " لأن بصدر كل واحد منكم الآن دُرّة كبيرة تشعشع، ضواها يعمي العين.."، وليتمثل هذا الضوء الساطع خاتمة الرواية بـ "ضوء وهّاج" ينبثق من أكتاف طابور الفداء من الشبّان والكهول والنساء.. المنطرحة والمتكدسة داخل القناة.

الشبّان أسود ساحات الاعتصام يتعالى زئيرهم، يندفعون باتجاه مدخل القناة.. يلقون بانفسهم في فيض الوهج.." وهج ليس كأي وهج بل تتصاعد حدته "فهو أسدٌ غضنفر يغلق بالكامل مع الثائرين مدخل القناة! ضوءٌ معبّرٌ عن ثيمة الوعي.

و" نشمية" خاتمة الرواية لا تبالي بالعمى ان هي واجهت وهج الضوء.. الوهج الذي "يُعمي بصرَ كل مَنْ يتجرأ فينظر نحوه.." " خليني أعمى يُمّه.. خلّيني أعمى".

المرأة – الضمير – منهل ومدرسة الغيرة:

لم يفت الكاتب الكشف عن قدسية مشاركة المرأة في الذات الإنسانية للرجل في ساحة الاعتصام بحيث لم يكن لاحد من الشباب المشارك في التظاهر أن يفكّر، مجرد تفكير، " بأن هذه المرأة التي تقف إلى جانبه موئلٌ لغرائزيته"، – في إشارة واضحة لما افتراه أحد مدعيّ السياسة من إساءة يطعن بها شرف النسوة المشاركات في سوح التظاهر التشرينية -.

خبز " نشمية " خاص يُشبِع بل ويشفي ايضا، كما تشارك هي وزميلة لها ولتحذو بهما بقية النسوة، يحملنَ أكياساً صغيرة ومكانس يجمعن تراب ساحة الاعتصام ثم يدورن على بيوت الناس يحفزن فيهم الغيرة للخروج إلى ساحة الاشتباكات لنصرة الشبّان.

(شَمَم) زوج حاتم الدّيو مستأمنة على زقها لأبنائها فيتامين - الغيرة- زقّاً حتى اذا ما حلّ زوجها في السماء.

خاتمة:

رواية تدعونا إلى التأمل فيما نقرأ كي لا تضيع جمالية المعنى الكامن في النص.

في رؤية حاتم الدّيو لمستقبل مدينة العدو، نتابع مدينة يتلاشى فيها ".. أي أثر للحكوميين المعممين ذوي اللحى والخواتم موشومي الجباه فلا يراهم اطلاقا في الاماكن التي تجتاحها موجات النمل السكران".

انجاز أدبي ومن النمط المحفّز للانتباه.. فهل نجح الروائي كما عرفه قراؤه في اعماله الستة عشر السابقة بمثل منجزه هذا؟ فلنتأمل دقة إخراجه لخاتمة الرواية وتلك الاحتفائية الكرنفالية من صخب الاناشيد والموسيقى والرقص والتي تذكّر بكرنفالات بابل القديمة في الطريق إلى معبد ننماخ.

رواية تعرّي مساع دولية لسحق مجتمع

بكل ما يتوفر لديها من الوسائل، وتتساءل: هل من موقف شجاع يدين كل هذه الفوضى المفتعلة من قبل تغوّل سدنة الحروب والارادات التي تطمح للامتداد والاستحواذ على المال السياسي على حساب شعب لا علاقة له بموضوع انتقام دولة الميليشيات؟

وأقل ما يُقال هنا ان (خلو) علامة بارزة في مسيرة السرد العربي الحديث ممتلكة لمكانتها حاضرا ومستقبلا لما شخّصته بدقة بسعيها المتجدد بعيدا عن نظم كلاسيكية ثابتة وهذا ما يميزها في مهمة الوعي والانتباه.

والى مسار الفيصل الفاصل على استحقاقها يبقى أن نتضامن في القول:

نحن الذين أنهينا الحرب بالغناء والرقص والموسيقى.. نحن من نستحق أن نعيشها كلها بحب وأمنٍ و سلام..

*** ناقد ومترجم عراقي**

**** اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق - بغداد 2021.**

***** الدّيو: مخلوق أو شخص خرافي يأتي ذكره في القصص المخيفة.. ورد في التراث الشعبي وعادة ما يمثل القوة.**

في اعدادنا المقبلة

- فن الرواية: تقنية لحياة عناصرها / اسماعيل ابراهيم عبد
- علامة تجارية / قصة: سلام حربه
- المذبحة/ قصة بليك سانز/ ترجمة: احمد الضحية
- مسألة ثقافية/ ياسين طه حافظ
- هرتا مولر: كنت اعلم ما اريد/ لسوزانا فورد . ترجمة : د. ماهر حوني
- محمد خضير في مثابات شاخصة بعالم السرد والرواية/ شكيب كاظم
- بوق اسرافيل/ د. جبار صبري
- عزيز نيسين/ منصير اوادم .. ترجمة عادل حبه

... وتؤكد (الثقافة الجديدة) اعتذارها عن نشر اية مادة يتبين انها نشرت من قبل ورقيا او الكترونيا. راجين من الكتاب الافاضل العلم بان ما يكتب يخصص لمجلتنا تحديدا.

النساء والحروب

سحر الشامي

شخوص المسرحية:
سميرة: امرأة متوسطة العمر
أميرة: امرأة شابة
كريم: رجل متوسط العمر
ماريا: امرأة متوسطة العمر
جندي (1)
جندي (2)

المشهد الأول:

(المكان: غرفة نوم تحوي سريرا وخزانة ومرآة، تدخل سميرة ترتدي السواد, تجلس أمام المرآة وتبكي)
سميرة: آه يا زوجي، كيف أحتمل رحيلك!؟ طرقات كفك على الباب أميزها من بين الجميع، منذ الآن حُرم علي سماعها. صوتك وأنت تترنم بحروف إسمي : سميرة، سمرمر، سميرتي .. فقدته إلى الأبد..
(تقوم سميرة وتفتح الخزانة وتخرج البوم صور ثم تجلس لتتصفحه)
- لقد أفنيت عمرك في حروب شتى، ورغم ذلك كنت أنتظرك وأمل اللقاء في داخلي يقين لا شك فيه، فلم يخب ظني يوما بعودتك، اليوم فقط وضع القدر حدا لتلك اللهفة وأمر أن تذوي وتنطفئ إلى الأبد.
(تمعن النظر في احدى الصور) لا أدري في أي معركة التقطت هذه الصورة؟ (تأخذ صورة أخرى وتتمعن فيها) ولا هذه (تأخذ صورة أخرى وتتمعن فيها) ولا هذه (يتكرر الفعل عدة مرات وبسرعة) ولا هذه، ولا هذه، ولا هذه.. كل الصور تظهر فيها ببدلة الحرب، حتى ليلة زفافنا ! لا تغيير يبدو سوى خطوط الزمن التي غزت وجهك وشعرك. (تبكي ثم تغلق الألبوم)
- يالي من منحوسة، ففي اللحظة التي كنت فيها أنتظر خبر التقاعد؛ لتمضية ما بقي من عمرك بيننا، حضر الموت بأهون سبب ليعلن أن لا ملتقى.
(تضع سميرة الألبوم في الخزانة وتخرج صندوقاً، فتجلس وتفتحه)
هذا الصندوق أجمل ما بقي من ذكراك، فهنا كتبت أروع رسائل العشق والهيام، منذ فترة خطبتنا, ورغم مرور أكثر من عشرين عاما عدت إلى عهدك من الكتابة, فكنت أجد كل صباح

رسالة قصيرة تعبر فيها عن عشقك لي.
(متضرعة) اللهم اغفر ذنوبه جميعا ، واجعل مأواه الجنة.
(تفتح احدى الرسائل وتقرأ):
حبيبتي سميرة... أنت عشقي الأزلي الذي لا ينتهي.
(تبكي ثم تفتح رسالة أخرى وتقرأ):
حبيبتي سميرة... أنت روحي التي بين جنبي .
(تبكي، ثم تفتح رسالة أخرى وتقرأ):
حبيبتي أميرة... أنت عشقي الأزلي الذي لا ينتهي.. (تبكي .فجأة تشعر بالصدمة وتصرخ):
ماذاااا!؟ أميرة !؟ ومن تكون أميرة؟ أعتقد أن هناك خطأ ما، ربما عنى بذلك ابنتنا أميرة، نعم، فهو يفضلها على جميع أولادنا.
سأفتح رسالة أخرى, فلا أعتقد أنه أخطأ مرتين.
(تفتح رسالة أخرى, وتقرأ وهي تبكي):
حبيبتي أميرة، أنت روحي التي بين جنبي، متى أعود إلى أحضانك؟
(ترفع سميرة رأسها وتجحظ عيناها، وتزم شفتيها وتقوم بفتح جميع الرسائل وتقرأ بداية كل رسالة بصوت عال) :
حبيبتي سميرة.. حبيبتي سميرة ... حبيبتي سميرة ... حبيبتي أ أ أ أميرة، أنت الحياة, والحياة أنت.
(تمسك رأسها بيديها وتهرع الغرفة جيئة وذهابا)
مستحيل، لا أصدق، ولكن كيف؟ ومتى؟ ومتى؟ وكيف؟
(صمت) نعم، نعم تذكرت، لقد قلّت إجازاته في السنين الأخيرة، وكان يعتذر عن ذلك بكتابة رسالة قصيرة, و وضعها في الصندوق، فأقرأ أنا الغبية وأسامح على الفور.
(صمت... ثم تجحظ عيناها)
الآن عرفت لماذا رسائل العشق هذه كان يكتبها لي بعد كل إجازة قصيرة؟, كان.. كان يأتي يومين أو ثلاثة ثم يرتدي بزته العسكرية مصرحاً أن معركة دموية قائمة ولابد من حضوره.
(صمت ثم تصرخ):
أيها الخائن! لن تنال الرحمة وأنا أحترق؛ الآن، لن أغفر لك أبدا, ولن أستغفر الله عن ذنوبك مطلقا، ولتكن الجحيم مأواك (حائرة ثم تتضرع):
يا إلهي لا أستطيع الانتظار حتى يأتي يوم الحساب، أتوسل إليك أن تطفئ النار التي في صدري، واجمعني به ساعة واحدة .. واحدة فقط لأحاسبه أنا بنفسي حسابا عسيراً على خيانته، وسوف لن أتنازل عن محاسبتك له بعد ذلك طبعا.
(تدور حول الغرفة ثم تقف وهي ترفع ذراعيها بالتوسل)
أرجوك يا إلهي، امنحني هذه الكرامة ساعة واحدة، أرجوك يا إلهي، أرجوك أشفق علي أتوسل إليك.
(تختفي سميرة فجأة)

المشهد الثاني:

(المكان: سرداب شبه مظلم، يظهر كريم وهو ملتف بالكفن وممدد على صبة تراب... فجأة تظهر أميرة ترتدي ثوبا أسودا وهي ترتعد من الخوف)
أميرة: يا له من مكان مرعب، هل يعقل أني يوماً ما سأوارى الثرى هكذا؟ لا، لا زلت شابة على هذا الفكرة المقيتة.
(تقترب من جثة كريم، ترفع الكفن عن جزء من رأسه, تبتسم) أها! شعر أبيض كثيف! ما أسعدني برؤيته. (تداعب خصلات شعره) حرمتني طويلا من هذا المنظر، وقمت بصبغ شعرك عدة مرات، وأنت تعلم سبب رغبتي بالزواج منك, (متأملة) فقد أحببت فيك الأب الذي فقدته قبل ولادتي.
آه، ها أنا الآن أستمتع بمنظر شعرك الأبيض مجدداً. (تداعب شعره بأصابعها ، ثم تتغير ملامح وجهها فجأة وتقف غاضبة)
- كيف تجرؤ على الكذب، وتخبرني أنك رجل أرمل؟ ألا تعلم أن ذلك يدعى خيانة؟
(فجأة تظهر سميرة غير مبالية لكل ما حولها ماعدا أميرة، فتتفاجأ كل منهما بوجود الأخرى).
سميرة: من أنت؟
أميرة: قولي من أنت أولا؟
سميرة: (تشير نحو الجثة) أنا زوجة هذا الخائن المسجى هناك.
أميرة: (تشير نحو الجثة) وأنا أيضا زوجة السافل المسجى هنا .
سميرة: أميرة!؟
أميرة: سميرة!؟
سميرة: وتعرفين اسمي أيضا؟
أميرة: أجيبيني، كيف عرفت اسمي أنا؟
سميرة: من رسائل العشق الكاذب التي كان يبعثها زوجك السافل.
أميرة: وأنا أيضا، قرأت اسمك في احدى رسائله الملفقة، فغضبت وتوسلت الله أن أجتمع بهذا الخائن ساعة واحدة، فاستجاب لي الرب أسرع منك. هههههه..
سميرة: تضحكين على خيبتك، سوف أريك ما سأفعل بك أولاً (نحو الجثة) وأنت انتظرني قليلا، فلن تفلت من عقابي.
(تركض سميرة وتحاول ضرب أميرة، ولكن الأخيرة تدور حول الجثة، وتحدث مناورة بينهما، ثم تصعد أميرة وتقفز على الجثة لعبور الجهة الأخرى وتتبعها سميرة وتفعل الشيء نفسه، فتقفز وتعبر إلى الجهة الأخرى، ويتكرر الفعل عدة مرات حتى تشعران بالتعب, حينها تقوم سميرة برمي الحجارة على أميرة، فتقوم الأخيرة بنفس الفعل، ويتكرر ذلك عدة مرات، حتى تسقط حجارة لتضرب رأس الجثة, فينهض كريم، وينظر إلى المرأتين مذهولا)
كريم: من!؟ منكر ونكير!؟
سميرة: (بحزم) بل الأسوأ، سميرة وأميرة... جئت عن خمسة وعشرين عاماً من الخيانة.

كريم: أي خيانة؟
سميرة: (مباشرة) كيف سولت نفسك الزواج بأخرى دون علمي؟
كريم: وماذا ستفعلين لو علمت ذلك؟
سميرة: (تحرك يديها) أقطعك إربا إربا.
كريم: (يدير ظهره) وهذا ما منعني عن اعلامك بالأمر.
أميرة: (تقف أمامه) وأنا، كيف تخفي عني أمر زوجتك، وتخبرني أنك أرمل؟
كريم: وماذا كنت ستفعلين إن علمت ذلك؟
أميرة: (بانفعال) سأسلخ جلدك كما فعلت مع الضفادع التي طبختها لضيفك الأصفر.
كريم: (يبتلع ريقه) ولأجل ذلك لم أخبرك.
(أميرة تلطم خديها وتجوب المكان وهي تبكي بهستيريا)
كريم: (متلهفا)هل تبكين لفراقي؟
أميرة: بل أبكي على نفسي كلما تذكرت كيف كنت أقوم بسلخ تلك الضفادع المسكينة (تصرخ) أمر مقزز حقا.
(تقترب سميرة وهي تحرك يدها ساخرة)
سميرة: هل هذه التي خنتني من أجلها؟
كريم: (ينظر إليها شزرا) كفاك.
سميرة: هل هانت عليك خمسة وعشرين عاما، بحلوها ومرها؟ (تدور حوله) كيف سولت نفسك هذا الفعل الجارح؟ أجبني. (صمت ثم فجأة) ألم تكن جنديا أكلت الحروب عليك وشربت؟ متى قمت بهذا الفعل يا ملعون؟
كريم: (مبتسما) هل تصدقي أن الحروب هي نفسها من قذف بهذه المرأة الجميلة إلي؟
(تشعر سميرة بالغيرة، فتتناول حجرا وتضربه)
سميرة: أجب عن سؤالي وأخبرني، كيف حدث ذلك؟
كريم: في أحد الأيام وبينما كنت ضمن فصيل مسلح لتمشيط أحد الجيوب، سمعنا صوتا (متأملا) كأنه موسيقى (سميرة تنظر إليه شزراً، فيرجع إلى نفسه) أقصد صوت استغاثة، فأسرعنا نحو الصوت، واقتحمنا منزلا كبيرا، يتحصن فيه مجموعة من الأعداء... وبعد قتال توج بالنصر وجدتها مقيدة.
(يظهر كريم مرتديا بزة عسكرية ويحمل سلاحا، فيما يكون صوت أميرة يعلو مستنجدا، فيذهب ناحية الصوت, تظهر أميرة مقيدة)
أميرة: (باستغراب) من أنت أيها الشيخ الجليل؟
كريم: أنا ورفاقي جئنا لتحريرك، بعد أن شق صوتك الموسيقي طبلة أذني.
أميرة: (بتوسل) إذن، هيا أطلق يدي، فمنذ الأمس وأنا على هذه الحال.
(يقوم كريم بفك القيود)
كريم: ولماذا قيدوك؟
أميرة: فرضوا علي الزواج بثلاثة أمراء في يوم واحد! (تبكي)

كريم: (مذهولاً) ماذا!؟
أميرة: أخبرتهم أني لست بهيمة وإن لي قلبا واحدا لا يمكن أن يسع ثلاثة رجال مرة واحدة.
(تبكي)
كريم: وماذا كان ردهم؟
أميرة: (بحزن) الحال الذي رأيتني عليه.
سميرة: (تهمس بأذنيه) تحررها لا أن تتزوجها أيها الرؤوف العطوف.
كريم: لم أقصد الزواج بها، ولكني وجدتها تلتف حولي رغم أني مسن.
(يدور حول المكان متأملا)
كانت تداعب شعري وتقول: يا لجمال شعرك الأبيض!، يا لجمال وجهك المجعد!، يا لجمال لحيتك البيضاء!، يالجمال ...
سميرة: (تقاطعه شامتة) يا لجمال مكوثك هنا.
كريم: (بحزم) هل تتشمتين بي؟
(تقف سميرة على مسافة من كريم)
سميرة: (بحزم) لن أذرف دمعة واحدة لأجلك بعد الآن .
(تقف أميرة على مسافة من كريم وتضع يديها على خصرها)
أميرة: وأنا أيضا، لن أبكي أبدا أبدا.
سميرة: (تتقدم خطوة) ولو كان في الشباب بقية لتزوجت.
أميرة: (تتقدم خطوة) أما أنا فلن أتوانى عن القبول بأول رجل يتقدم لخطبتي "ما زلت شابة تفيضين حيوية " هكذا أخبرتني ماما.
سميرة: (تتقدم خطوة) وقد قمت بقص شعري وها أنا أندم الآن بشدة.
أميرة: (تتقدم خطوة) لن أدفن خصلات شعري معك، بل سوف أبقيها لزوجي المستقبلي.
سميرة: (تتقدم خطوة) سأغير اسم ابنتي أميرة، فهو حتما سيذكرني بخيانتك.
أميرة: (تتقدم خطوة) سأغير اسم ابنتي سميرة، وسأطلق عليها اسما يلائم عصرها.
(يشعر كريم بالصدمة ثم يخطو حزينا وهو يلف الكفن حوله بكلتا يديه)
كريم: (متوسلا) هكذا تنسى كل منكما كم ضحيت لأجلها؟
سميرة وأميرة: (بصوت واحد) نعم.
كريم: هكذا تسقط كفة الميزان التي حملت الخير لكل منكما سنينا عديدة؟
سميرة وأميرة: (بصوت واحد) نعم.
كريم: (نحو سميرة) خمسة وعشرون عاما يا سميرة ؟
سميرة: (تدير ظهرها) شكرا كورونا حيث جعلت لها حداً لا مدداً.
كريم: (نحو أميرة) ثلاث سنوات يا أميرة؟
أميرة: (تدير ظهرها وبدها على أذنها) ماذا؟ ماذا سمعت؟ ثلاث ساعات؟
(يتجه كريم نحو سميرة ويقف أمامها مستعطفا)
كريم: (نحو سميرة) استحلفك بابنتنا أميرة أن تغفري لي.

سميرة: (تدير ظهرها) هيهات ثم هيهات.
(يتجه كريم نحو أميرة ويقف أمامها مستعطفا)
كريم: أستحلفك بابنتنا سميرة أن تغفري لي.
أميرة: (تدير ظهرها) لن ثم لن يكون.
(يشعر كريم بالحزن ويعود ليجلس على صبة التراب، تتقدم سميرة ببطء وتدور حول الزوج).
سميرة: لقد علمت بهذا الأمر الساعة، فتبدل حزني إلى غضب ودموعي الى شرر وأنيني إلى حقد, لم أصدق وأنا أقرأ كلمات العشق نفسها التي كتبت لي تكتب لامرأة أخرى.
كيف سمح لك ضميرك بعمل كهذا، وأنا التي كنت أظن أني رفيقة دربك، وأم أولادك الذين شقيت من أجل تربيتهم ونشأتهم حتى صاروا شبابا متعلمين ومتفوقين، يشار إليهم بالبنان.
هل هانت عليك كل تلك التضحيات لأفاجأ بعدها أنك متزوج من طفلة كهذه؟ (تشير إليها باحتقار)
أميرة: (بحنق) أنا طفلة أيتها العجوز؟
سميرة: (بغضب) أنا عجوز أيتها البلهاء الحمقاء؟
أميرة: أنا بلهاء حمقاء أيتها العجوز الشمطاء؟
سميرة: أنا عجوز شمطاء يا غبية؟
أميرة: أنا غبية أيتها المجعدة المعقدة؟
سميرة: أنا مجعدة معقدة يا مستغلة الرجال, يا حادة السجال؟
أميرة: أنا!؟ يا مستبدة بأقوالك يا متسلطة بأفعالك.
سميرة: (بغضب) أنا!؟ يا من ليس لك أمان، طويلة اللسان وقليلة الاحسان.
أميرة: كيف عرفت أني قليلة احسان؟
سميرة: من بشرة يديك الناعمتين كأنهما نسيج من حرير.
أميرة: (تبعد يديها) فقأ الله عينيك.
(تتردد أميرة قليلا ثم تتقدم ببطء يلفها الحزن)
أميرة: تظنين أن هاتين اليدين الحريريتين هما دليل على سعادة مزمنة؟
سأقول لك كلا، أنت واهمة، فقد حفرت هاتان اليدان في الصخر, وأنا أتجرع مرارة السبي بكل ألوانه، كنت مسلوبة الإرادة, والقرار ليس لي إلا ضرب هاتين اليدين بالجدار أسفا على نفسي، حتى تورمتا وانتفختا، كانتا تصرحان بآلامي المكبوتة كل ليلة.
(تبكي ثم تقترب من كريم) حتى حضر هذا الشيخ، (يبتسم كريم) فأنقذني من ذلك المستنقع، فعدت كما أنا (تدور حول نفسها مرحة ثم تقف فجأة)
سميرة: (تتنهد ساخرة) ها أنت تحررت أفضل تحرير.
أميرة: هذا ليس كل شيء، فهاتان اليدان مرتا بأبشع تجربة.
سميرة: أي تجربة؟
أميرة: (تشير نحو كريم) إنها تجربة بشعة وكان سببها هذا الشيخ نفسه (كريم يطنب بشدة)

أميرة: نعم، حدث ذلك عندما جاء يوما، وأحضر معه ضيفا من بلاد الصين، ثم صمم على أن يتناول العشاء في بيتنا، فوافق الرجل ولكنه طلب زوج ضفادع محشوة بالجنادب! فكنت أقوم بهذا العمل وأنا أبكي، وأبكي، وأبكي (تبكي) أي امرأة تحتمل كل هذا!؟ (تبكي)
(تقترب سميرة نحو الزوج)
سميرة: سوف لن أبكي عليك بعد اليوم وسأخلع عني ثوب الحداد كلما سنحت لي الفرصة.
(فجأة تظهر ماريا تدور حول المكان وتتفحصه حتى ترى كريم)
ماريا: (مندهشة) كريموفيتش! هل أنت متزوج!؟
الزوج: (مع نفسه) ويلي، ماذا أقول؟ (نحو ماريا) هل تظنين ذلك؟
ماريا: (بحماس) ''عار عليك إن فعلت عظيم''.
(سميرة وأميرة تدوران حول ماريا ويتأملان مظهرها الغريب)
أميرة (بإستغراب) ولكن من تكون هذه؟
سميرة: (بسخرية) أي حرب رمت بهذه المخلوقة إليك !؟
الزوج: (مترددا) إنها أسيرة حرب؟
سميرة: (تصرخ) أية حرب؟
الزوج: (ينأى بنفسه) حرب أهلية؟
سميرة: وماذا يهمني إن كانت أهلية أم كونية، سمّها لي؟
الزوج: (يغطي رأسه بالكفن) حرب البوسنة والهرسك!
سميرة وأميرة: (بصوت واحد) ماذا!؟
(تتقدم أميرة وهي تفكر، ثم تجحظ عيناها)
أميرة: (تصرخ) حدثت هذه الحرب قبل ولادتي بعشر سنين.. (صمت ثم تصرخ) هذا يعني أنك متزوج بها منذ أكثر من ثلاثين عاما!
سميرة: (تصرخ) ماذا!!؟
(تدور سميرة حول نفسها وهي تضرب رأسها بيديها، ثم تسقط مغشيا عليها، يهرع إليها الجميع محاولين إيفاقها).
الزوج: (يصرخ) أفيقي يا سميرة .
أميرة: مسكينة كانت تظن أنها الزوجة الأولى هههههه ..هههههه.. هههههه...
(فجأة تختفي أميرة، كريم ينظر حوله باحثا عنها. تستفيق سميرة وتنظر نحوه).
سميرة: (بوهن) وهل خلفت لك أولادا؟
الزوج: هووو، وأصبحوا الآن آباء.
(يغشى على سميرة مرة أخرى، ويحاول إيفاقها، فتستفيق)
سميرة: (تقف) سوف لن أغفر لك أبدا.
(يتوجه كريم نحو ماريا ويتأمل وجهها وهي تبتسم وتتمايل)
الزوج: وجدتها وحيدة، مشردة، بلا مأوى، فقد مات جميع أفراد أسرتها بسبب تلك الحرب، واستولى الجنود على بيتها ..

(يظهر الزوج ببزته العسكرية، وتظهر ماريا أمامه، بملابس رثة وهي محاطة بجنديين).
الزوج: (بغضب) إلى أين تأخذان زوجتي؟
جندي (1): (مستغربا) هل حقا أنها زوجتك؟
كريم: اسألها إن كنت لا تصدق.
جندي (2): هل حقا ما يقول هذا الرجل؟
ماريا: (مترددة قليلا) أعتقد إنه صادق!
جندي (1): تعتقدين!؟
الزوج: (متلافيا الأمر) إن كان لا بد من غنيمة فخذاني أسيراً بدلا عنها.
(يتشاور الجنديان في ما بينهما)
جندي (1): ليكن.
(يطلق الجنديان سراح ماريا ويقيدان كريم ويسيران به إلى الخارج)
كريم: لم أمكث طويلا في الأسر وسرعان ما أطلقوا سراحي، فرجعت إليها ووجدتها بحالة رثة. لم تسمح غيرتي بتركها وحيدة، ثم إن جمالها الأخاذ أطاح بعقلي مرة واحدة.
سميرة: (تشير إليه بإصبعها) ثق إن هذا هو السبب الوحيد.
كريم: أرجوك يا سميرة إغفري لي ذنبي، ليغفر الله لي، فأنا، فأنا أشعر أن كل الحروب التي خضتها طوال حياتي لن تشفع لي أمام الألم الذي سببته لكم جميعا.
سميرة: (تصرخ) إستغفر الله من هذا الطلب حالاً.
كريم: ألا يكفي أني أحمل وزر أميرة إلى يوم الحساب.
سميرة: (تتلفت) وأين أميرة؟
(تفتش سميرة عن أميرة وتدور في أرجاء السرداب باحثة عنها)
كريم: لقد عادت إلى عالمها قبل أن تسامحني.. يالي من رجل شقي.
سوف أقضي في جهنم..
(تهرع ماريا إلى كريم وتقف أمامه)
ماريا :(بحزم) كريموفيتش، هل أنت متزوج؟
(يلعبان لعبة ضرب الكفين بالكفين)
كريم: (مبتسما) إن قلت كلا، ماذا ستقولين؟
ماريا : بخ بخ لك!
كريم: وإن قلت نعم. ماذا ستقولين؟
ماريا :(بحزم) تباً تباً لك!
(يتوقفان عن اللعب وتضربه بشدة)
كريم: (مستعطفا) سامحيني يا ماريا، وأزيلي عن كاهلي ثقل العذاب القادم.
ماريا: وماذا أقول؟
كريم: إستغفري الله عن ذنبي. قوليها ليلا ونهارا ومراراً وتكراراً ...
ماريا: (متضرعة) أستغفر الله عن ذنبي، أستغفر الله عن ذنبي، أستغفر الله...

كريم: (مقاطعا) بل عن ذنبي أنا، كريموفيتش زوجك!
(يقوم الزوج بتعليم ماريا كيف ترفع يديها بالدعاء)
الزوج: نعم هكذا، والآن سأعد من واحد إلى ثلاثة : واحد، إثنان ،..
(تختفي ماريا فجأة قبل إكمال العد. كريم وسميرة يجولان بأنظارهما باحثان عنها)
الزوج: (نحو سميرة) يالي من بائس، أنظري لقد رحلتا من دون أن تغفرا لي.
(يقترب من سميرة مترددا)
تخيلي، نعم تخيلي كيف سأواجه الرب بكل هذه الذنوب؟ ألا يكفي أني ولدت وفي فمي ملعقة من بارود! فضاع شبابي بين رحى معارك ليس لها نهاية. حتى أمسيت كهلا لا نفع يرجى منه، فوضعوا نهاية لي كما يضع الفارس نهاية لفرسه إن اعتليت.
سميرة: (مشفقة) يكفي، لقد قطعت نياط قلبي.
كريم: (مع نفسه) طيبة قلبك هي أكثر شيء جعلني أنجذب لغيرك. (نحو سميرة) هل ستسامحيني يا سميرة؟
(سميرة تجوب المكان جيئة وذهابا)
سميرة: (مشفقة) لا ..
(تختفي سميرة)

المشهد الثالث:

(المكان/ كما في المشهد الأول. تظهر سميرة وهي تخفي وجهها براحتي كفيها)
سميرة: عليك، لا عليك يا زوجي، سأسامحك واستغفر الله لجميع ذنوبك..
(تفتح سميرة عينيها وتفاجأ بوجودها داخل غرفتها، فتجول بنظراتها في جميع أرجاء الغرفة، ثم تجلس على ركبتيها)
سميرة: اللهم اغفر لزوجي ذنبه.
(تقوم سميرة وتجلس على الكرسي أمام المرآة وتفتح المذياع)
صوت المذيع: هذا وقد أصيبت زوجتان بوباء كوفيد 19- إحداهما تدعى أميرة والأخرى ماريا بعد زيارة قبر زوجهما، ويذكر أنهما الآن في الحجر الصحي لتلقي العلاج ..
سميرة: (بارتياح) بخ بخ لي من امرأة محظوظة.
صوت المذيع: فيما أكدت الفحوصات التي أجريت على الزوجة الثالثة؛ وتدعى لميس وهي فلسطينية الأصل، أنها سالبة!
سميرة: (تضرب خديها) ياويلي، ياويلي، ياويلي ...
(تترنح سميرة من هول الصدمة وتسقط مغشيا عليها. موسيقى)

*** كاتبة مسرحية عراقية من ذي قار ، لها عدة اصدارات وحصلت على العديد من الجوائز**

أيها الناس ...
أنا أكتبُ، برأس مجنونٍ حتى أستطيع أن أستوعبَ ما يحدث.. فخُذوني على عقلي!

د.محمد سيف/ باريس - خاص

في نصوص علي عبد النبي المسرحية هناك غموض والتباس ينشأ من اصطدام وارتدام حواراتها الواقعية بحالاتها الفنتازية غير المعقولة؛ غموض والتباس يشكلان حدثا مسرحيا ومفارقة درامية بحد ذاتها، يجعلان من الصراع نفسه موضع تساؤل وعلامة استفهام تثير شهية الترقب والتشويق. بمعنى أن وجودهما معاً يشكل (الحوار الواقعي والحالة الفنتازية غير المعقولة)، ثيمة تقنية نصية، تشتغل في جوهرها على مفارقة ثنائية، لا تخلو من التناقض الهارموني، الذي يصعب تصوره، ولكننا نتقبله، في نهاية المطاف كواقع متخيل غير عادي، ومختلف، لأنه يزجنا مباشرة، فيما نعاني منه، ونعيشه بشكل يومي، ولكن غير ملموس. ونتساءل بدورنا هل من سوء حظنا أن هذه المفارقات الدرامية تحتوي على صور لما عاناه وعاشه العراقيون منذ سنوات طويلة؟ وهل أن من سوء حظنا أيضا أن تكون هذه النصوص مرآة فظيعة لما حدث في شوارع وأزقة مدننا التي هجرها الفرح؟ صور يصعب تحملها، فاحشة في دقتها اللاواعية يعمل على التقاطها الزيدي في نصوصه. ثم لماذا يقرر الزيدي فقط القيام بها وبتصويرها الآن على وجه التحديد؟ هل لأنه بات يدرك أكثر من أي وقت مضى كيف يعالج هذا الكم الهائل من الألم أمام أعيننا التي لاتزال مفتوحة على بريق العنف؟ ثم هل نحن نعلم حقا بما يدور بخلده عندما يعالجها، من خلال مواجهة ما لا يمكن إصلاحه في المسرح؟ كل ما يمكن أدراكه في هذه اللحظة التي نقرأ فيها بعض نصوصه وليس كلها، أنه، في الوقت الحالي، يبدو أكثر انسانية في تواجده هنا، أي في المسرح، وعلى خشباته كل ليلية، وهذا يعني بشكل من الأشكال أن يكون حاضراً وحياً أمام وقبل فعل الموت وتهديداته المستمرة.

• هل المسرح يعبر عن الواقع؟

هذا السؤال ضروري .. ربما لأن المواقف والشخصيات، في نصوص هذا المؤلف كثيرة ومتنوعة، وتكاد أن تكون خادعة ومخدوعة وغير معقولة، ونوع مُشفر ومُصطنع لأنها وبكل بساطة تنتمي إلى المسرح، الذي يستند في جوهره، كما نعلم، إلى وهم الحقيقة، الذي يجعلنا نتخذ من الخيال واقعاً، ويُنظم ذلك، في الكثير من الأحيان واقعيا من خلال الديكورات، ولعب الممثلين الذين يجسدون بالجسم والروح شخصياتهم وما إلى ذلك، ولكن هذا في الغالب يمكن أن يتحقق من خلال الإخراج، وليس النص، ونحن إزاء نصوص وليس عروض! ولكن المسرح حتى لو يلعب ويمثل بطريقة ملموسة وحساسة، فهو ليس استنساخ محاكي للواقع، إلى جانب ذلك، ما هي الفائدة من وراء ذلك إذ كان على هذه الشاكلة فقط؟ لكن هذا لا يعني أنه لا يعبر عنه. ويبدو ان نصوص الزيدي لا تريد التخلي عن المسرح كلغة وتقنية، ولا تريد حصر نفسها بلغة الأدب التي أراد أرسطو أن يلخص المسرح عن طريقها، لهذا تلجأ نصوص الزيدي إلى بث صور، ومرايا مشوهة، ومكبرة، ترمز للواقع من خلال العديد من المواقف والشخصيات المستوحاة من ذاكرتنا الجمعية، التي نكتشف من خلالها أخطائنا وربما تخيلاتنا السرية، فالكتابة بالنسبة له مسرح أولا وقبل كل شيء، مسرحٌ يكشف عن المظالم واختلالات المجتمع، ولهذا السبب ربما انه يُسقط علينا الواقع المشوه عمداً ولكن بطريقة مجازية على الرغم من أن تربيتنا الدينية والأخلاقية التي ترفضها أو ترى فيها نوع من التعدي. وهذا

ما نلاحظه، على سبيل المثال وليس الحصر، في عقدة نص " كيف تُصبح شريفاً في خمسة أيام"، الذي يحضر فيه الرب، ويخوض حوارا وجدلا مع شخصية "صالح" حول الايمان والمؤمن ورغبة هذا الأخير، في أن يصبح "سمساراً" ولو لفترة قصيرة، لأنه تعب من الفضيلة، وإلى أخره من الحالات التي تثيرها المنولوجات الطويلة، سواء مع الله، أو الشيطان الذي يرسله الرب نفسه، لكي يجعل "صالح" يغير رأيه ويعود إلى إيمانه وتقواه. وهذا المنطق بحد ذاتها مفارقة درامية ومجازية تجعل حتى من الشيطان الذي، مثلما هو متعارف عليه في تقاليدنا الدينية والاجتماعية مصدرا للوساوس والغواية وارتكاب الخطيئة والمعصية، أكثر فضيلة وشرفا وطاعةً للرب، من الانسان نفسه. بلا شك، وفي أغلب الأحيان، تكون تجاوزات المسرح، إن صح التعبير، بمثابة انعكاس أو تفكير نقدي أو فلسفي في الواقع، فمن خلال عرضه لأحلام الانسان وتمنياته

المفلسة بطريقة مشوهة أو تصويرها، فإنه يشكك فيها، ويستجوبها، ويعكسها في الوقت الذي يفكر فيها.

اننا امام نصوص لا تنتمي إلى المسرح الكلاسيكي المقنن بكل أنواع القواعد التي تبعده عن الواقع، مثل وحدة النغمة أو النبرة في حين أن الواقع المسرحي الذي يقترحه الزيدي يمزج في أغلب الأحيان، بين الكوميديا والمأساوية، ووحدة الزمن، التي لم يلتزم بها تماما، وإلا كيف يمكن ان نتصور أن كل احداث وتغييرات'' كيف تُصبح شريفاً في خمسة أيام'' أو ''يا رب'' أو ''واقع خرافي'' وما إلى ذلك، يمكن ان تتم في غضون ساعة أو ساعة ونصف (وهي فترة القراءة أو العرض)؟ اما وحدة المكان فيها، فهي اتفاقية عملية يلجأ إليها وهي مصطنعة تماما في معظم نصوصه، ومستوحاة من الواقع المتخيل الذي أساس في داخلها أحداثه. فنصوصه الزيدي تفرض على القارئ أو المتفرج خيالا يتجاوز حتى حدود ما هو غير مرئي، بمعناه المقدس أو التابو كسلطة مهيمنة على اللاشعور البشري. من خلال هذه المعادلة الشائكة والمعقدة يحاول أن يؤسس لحياة مسرحية متوترة، مضطربة، ومقلقة، في آن واحد، بين لا معقولية الواقع المعاش وعملية تخيله تمثيلياً؛ معادلة ليس من السهل اختراقها، وتصويرها، وتجسيدها دون وعي ومعرفة مسبقة في كيفية القبض عليها أدائياً وحتى فكريا وليس جماليا فقط. حيث تصبح الصورة المنعكسة في الواقع التمثيلي، مفارقة درامية لا تكتفي بتعديها ومأساويتها وإنما تجعل من الممكن فهم التباس وغموض المواقف الحساسة بشكل خاص من خلال تجاوز الإفراط أو تكثيف الواقع الكلامي للشخصيات نفسها التي غالباً ما تتعثر بها؛ مفارقة درامية لا تخلو من الغرابة واللعب اللذان يعرضان بشكل ضمني رؤية مفبركة، اصطناعية، إن صح التعبير، لأحداث أو مواقف لا تكف عن طرق أبواب، وفتح نوافذ، وجرارات من الذاكرة الموجوعة، تحفر بعمق في دهاليز ما هو مسكوت عنه، لا يرتضيه الواقع التقليدي المليء بالجروح والقيح، لأنها تصبو لتعديل ومساءلة مجالات الفكر والتفكير الراكدان. وكل ذلك يمر، وبشكل مفيد، عبر قنوات الخطب التي لا تمتنع عن النظر إلى الحقائق الاجتماعية والسياسية والثقافية عن قرب أو بشكل محاذي.

عديدة هي النصوص التي كتبها الزيدي تمارس هذا النوع من المسرحة، سواء في بناءها أو شخوصها أو مناخاتها غير المعقولة لكي تعمق بالتالي البحث في الجوانب التي نحرص على إهمالها وتركها لمصير مجهول حتى لا نصطدم بها ربما أو نخاف سبر أغوارها حتى الآن. ففي نص ''مطر صيف''، يتطرق الزيدي علي إلى موضوع تحول وتغير المجتمع العراقي بعد عام 2003، وموضوع الانتظار، والتناسخ، الذي بموجبه أُحتل البلد وأُغرق في فوضى عارمة لا تقوم لها قائمة، تحت يافطة حلم الديمقراطية المستوردة، وفي نص ''يا رب'' يتعرض لما هو مقدس، عن طريق نص لم يكتف بالشكوى والتضرع إلى الله، وإنما بمطالبته بشكل مباشر بإيجاد حل لهذا الجحيم الذي انعكس بشكل وحشي وغير محتمل، هذه المرة على أرض السواد (العراق)، وذلك من خلال رفض المقدس الوسيط الذي تمثل في النص بشخصية النبي

(موسى) وتصوير عجزه أمام ما جاءت تحمله شخصية الأم التي خولتها نسوة البلاد لتمثيل أوجاعهن:

الأم: من أرسلك؟

موسى: الله تعالى!

الأم: الله؟ وتتفاوض معي؟ ولكنني لم أطلب نبياً.. أريد الله – فقط – أن يسمع طلبات الأمهات، وأنا مخولةٌ منهن.. هذا كلّ شيء.

نلاحظ أن المؤلف في حوار دائم مع الله كمسلم وليس كمؤلف فقط، نعم كانسان أغلقت جميع الأبواب في وجهه، ولم يعد يعرف إلى أين يتجه، فيختار الطريق الأصعب والاقرب: الأصعب لأنه غير متأكد من أن مطالبه سيستجاب إليها، لاسيما أنه يوجهها لقوة إلهية، لا يمكن الاتصال بها بشكل مباشر، فتصبح كلماته قريبة من التجديف غير المقصود، ولكنه مضطر لذلك، لأن الوجع كبير والعوز قاتل ومهين، والاقرب لأنه من دون وسيط، يقوم بابتزازه ومساومته على كرامته، وهذا ما نلتمسه من خلال شخصية "صالح"، في نص " كيف تُصبح شريفاً في خمسة أيام"، الذي يكتب عريضة يطلب فيها مواجهة الرب، لأن الأمور قد تجاوزت حدها. (فالأمراض والجوع والمجهول يحاصرهم، ولكن الشكر لله). ومع ذلك، وعكس جميع التوقعات، يخرج له الرب كضوء، على عكس ما حدث للام في نص "يا رب"، عندما أرسل لها الله النبي "موسى" لمقابلاتها. وبعد حوار غاية في الواقعية واللامعقول، يخبره الرب، بأن الرحمة تعني أن أكون شديد العقاب! (...) لا رحمة عندي أيها المخلوق، انتهت، تلاشت، ولم أعد رحماناً رحيماً على هذا الوطن الغارق ببحار من دماء العباد بحجة الله أكبر (...). وهنا يلقي المؤلف بالكرة على المواطن الذي قبل بالصمت، كغطاء يلتحف به ويحمي نفسه من الشرور، وما رفض الرب لتقديم المساعدة، إلا نوع من الحث على الثورة والتمرد، بدلا من الخنوع والاستسلام. ولكن اللعبة المسرحية التي طورها المؤلف فيما بعد في نصه هذا، تقلب الأمور رأساً على عقب، وتحولها إلى نوع من الهذيان المسرحي الذي لا يمكن تصديقه إلا في المسرح، ربما لأن هذا الأخير القادر الوحيد على جعله واقعا معاشاً، من خلال عصاه السحرية، رغم لا معقوليته، وصعوبة إذا لم اقل استحالت تقديمه، على الأقل في الوطن العربي، والدليل أنه قد طبع هذا النص خارجه، لأنه ربما يعكس وجها من الوجوه الحقيقية له، ولهذا أدعو القارئ والباحث لقراءته، لأنه مرآة عاكسة للقبح البشري وانخداعه بنفسه، ولأنه أيضاً نص يناقش جدليا، ومن خلال لغة درامية عالية وجريئة، مخاوفنا وغوايتنا الدفينة، ويشكك في قدراتنا العقلية. أما مونودراما أطفائيثيوس، فيحاكي الزيدي فيها الجحيم الذي استمر اشتعاله في العراق، لا سيما أن جرس هاتف مركز إطفاء الحرائق لا يتوقف ولا لحظة عن زف الاخبار المليئة بالشؤوم والويلات، ومن يحاول إطفائها، يتهم بالجنون والكفر، والزندقة حتى من أقرب الناس إليه بما فيهم زوجته، وذلك من خلال تصوير رجل إطفاء يصنع في سطح بيته سلماً خشبياً عمودياً لكي يصعد إلى السماء لإطفاء جهنم الحمراء التي سلطت ألسنة نيرانها على بلده، مثلما فعل النبي نوح في سفر التكوين عندما صنع مركبا لكي ينقذ البشرية من

الطوفان، الذي هو في أفضل أحواله هنا، أي في نص علي عبد النبي الزيدي، يمثل شرّ الانسان، وغضب الآلهة/السلطة عليه. إن الزيدي يدعونا إلى عدم الاستغراب من بذاءة الموت والحياة في نصوصه، من خلال جملة يذكرها هو نفسه في مقدمة نص ابن الخايبة(1)، إذ يقول: (لا تستغربوا.. فالواقع الذي أعيش فيه، أكثر بذاءة من لغتي..)، أو تنبيهه الهام في مقدمة نص بابُ الحوائج: أعيش في حياة أكثر رعباً من أفكاري!

إن المفارقة التي تشتمل عليها نصوص الزيدي تكمن في، كما ذكرنا أعلاه، في الكلام الواقعي، والحالات الغريبة والملتبسة التي يضع فيها شخصياته، دون اللجوء مثلا إلى لغة الالغاز، أو الاستعارات المقعرة، لأنه ربما لا يريد أن يزيد الغموض غموضا، ويجعل الالتباس أكثرّ تعقيداً، وربما أيضاً، لأنه يرى ما يحدث في بلده، وما ينعكس في رأسه من أفكار، هو واقع لا يمكن التنكر إليه وتصويره، أو استنطاقه في لغة محابية أو أخرى غريبة عنه، لأن المسرحية أو النص المسرحي يفترض أن يكون أولا وقبل كل شيء شاغل حديث، ومنجم للذاكرة التي تخزن كل ما هو حزين، والحزن مثلما يقول القاص العراقي الكبير محمد خضير، غبار الروح، ولا يمكن التخلص منه، أو تصفية الحساب معه، دون استحضاره والاحتدام معه. وقد اختار علي عبد النبي الزيدي، فضحة، وشر غسيله الوسخ على الحبل، على مرأى ومسمع الجميع، من خلال لغة تكاد لا تعرف الحدود، ولا تُعير المحرم والمحظور، أي اعتبار، لأن الجرح عميق، وغائر في الجسد العراقي وأطيافه المتعددة والمتنوعة، ولا يمكن السكوت عنه، ولهذا فضل الزيدي فضحه، وتعريته، وتجريد وجه العالم القبيح من الاقنعة التي يختبئ خلفها أو تحتها. وإلا ماذا سيكون مصير المسرح إن لم يكن كذلك؟ أو كيف يمكن لمثل هذا المسرح أن يضع نفسه، كخيال، فيما يتعلق بالهنا والآن؟، وفيما يتعلق بالحقيقة الحية؟ إن هذين التساؤلين اللذين نوردهما هنا حول أهمية ووجود مسرح يرتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث الراهنة يسمحان لنا التأكيد على خصوصية تناول الزيدي لما هو راهن من دون لف أو دوران، في محاولة منه للتواصل من خلال الخيال مع ما وئد عن قصد، سواء في الحاضر أو الماضي، ومشاركته إياه مع القارئ أو المتفرج بالوجع نفسه الذي يعاني منه هو نفسه، لا سيما أنه يقول في التبرير الذي دونه في مقدمة نصوص " ما بعد الالهيات": (أيها الناس.. أنا أكتبُ، برأس مجنونٍ حتى أستطيع أن أستوعبَ ما يحدث.. فخذونيَ على عقلي! ووفقاً لذلك، فهو لا يشك في إمكانية أداء المسرح وعرض هذه المواضيع العنيفة للغاية، بل على العكس، يتخذ منها احداثاً واقعية، لا تخلو من الخرافة والغرابة، كما في نص "واقع خرافي" مثلاً، حيث يصبح الموت فيه أكثر حياة من الحياة نفسها، وحدثاً استثنائياً، وغير عادي، لا تطغى قسوته على الأموات فحسب وإنما على الجلادين أنفسهم الذين لا يسعون حتى إلى تبريره أو إدانته.

(1) ابن الخايبة، في اللهجة العراقية وتعني بالغة العربية الفصيحة "ابن الخائبة".

*** باحث ومخرج مسرحي ، يقيم في باريس حالياً**

كارلوس غصن في الرحلة الأخيرة

عدنان حسين أحمد/ لندن - خاص

ينطوي الفيلم الوثائقي "كارلوس غصن: الرحلة الأخيرة" للمخرج البريطاني نِيك غرين على كثير من الإثارة والتشويق وكأنّ المُخرج قد تعمّد أن يجمع بين الاستقصاء والنَفَس البوليسي ليقدّم لنا في خاتمة المطاف قصة يروي عن طريقها أشهر عملية هروب جريئة قد لا تخطر ببال الكثيرين حيث تمّ شحن المدير التنفيذي لاتحاد رينو - نيسان بصندوق كبير لآلة موسيقية ثمينة في طائرة خاصة، وتهريبه من مطار أوساكا الياباني إلى إستانبول ومنها إلى بيروت التي ليس لديها اتفاقية لتسليم المجرمين مع اليابان.

لا نريد الخوض في التفاصيل الدقيقة لقصة نجاح كارلوس غصن لأنها طويلة جدًا. فقد ولد كارلوس في البرازيل سنة 1954م، ونشأ وترعرع في بيروت، ثم واصل دراسة الهندسة في كلية الفنون التطبيقية في باريس، ثم عمل مع شركة ميشيلان الفرنسية للإطارات المطاطية قبل أن ينتقل إلى أمريكا ويحقق نجاحًا ملحوظًا في عمله. لم يستغرق صعود نجمه الكثير من الوقت ليصبح المدير التنفيذي لاتحاد شركتي رينو - نيسان حيث كان يتقاضى مبلغ مليون يورو من شركة رينو، وعشرة ملايين يورو من شركة نيسان التي يعمل فيها أكثر نصف مليون عامل وموظف، ويدرّ هذا الاتحاد أكثر من 200 مليار دولار سنويًا.

دخل كارلوس اليابان 600 مرة بين عامي 1999 و 2018. وفي آخر زيارة له في 19 نوفمبر تم اعتقاله في المطار من قِبل الادعاء الياباني وأخذوه من هناك إلى سجن كوسوغي في طوكيو الذي يضم قرابة 2000 سجين يعيشون في ظروف نفسية قاسية جدًا. حين تولى كارلوس منصب الرئيس التنفيذي لشركة نيسان للسيارات كانت على وشك الانهيار لكنه استطاع خلال سنة واحدة فقط القضاء على مجمل ديونها البالغة قرابة 20 مليار دولار وبدأت تدرّ أرباحًا وفيرة لكنه خفّض بالمقابل 21000 وظيفة وهو أمر لم يحدث في المجتمع الياباني من قبل حتى عدّه البعض تخريبًا متعمدًا للاقتصاد الياباني. كانت زوجته الثانية كارول تردّد بين آونة وأخرى بأن السعادة لا تدوم، وكانت تشعر بأنّ شيئًا سيئًا سوف يحدث وقد صدقت هواجسها حين أصبح كارلوس رهينة لدى القضاء الياباني، فمحاكمات من هذا النوع الذي يتعلّق بسوء الإدارة المالية قد تمتد

لخمس سنوات، أمّا العقوبة فقد تبلغ 15 سنة، وهذا يعني أنه سيموت في السجن أو يصل إلى أرذل العمر وهو الذي تعوّد على إقامة الحفلات في قصر فرساي متخيلاً نفسه لويس الرابع عشر وزوجته "كارول" هي ماري إنطوانيت. حين أمضى كارلوس 50 يومًا في السجن خسر من وزنه 15 كغم وأفرج عنه بكفالة قدرها 9 مليون دولار لكنهم وضعوه تحت الإقامة الجبرية، وأعادوه مجددًا إلى السجن بغية استجوابه وانتزاع الاعترافات منه. أخرج بكفالة ثانية بعد أن أمضى 107 أيام مليئة بالقسوة التي لم يعهدها رجل ثري وميسور مثل كارلوس. عندها فكر جديًا برسم خطة محكمة للهرب رغم الصعوبات الكثيرة التي يواجهها فهو رجل مشهور، يلتقي بتوني بلير، وماكرون، وبوتين وتطارده وسائل الإعلام في كل بلد يحلّ فيه، لذلك اختار شخصيتين أمريكيتين وهما مايكل تايلور وابنه بيتر، وأسند لهما دور عازفَين موسيقيَين ينظّمان حفلاً موسيقيًا ويغادران في اليوم الثاني. وحينما وصلا إلى الفندق أجريا له بعض البروفات للاستلقاء داخل الصندوق الكبير الذي أحدثا فيه ثقوبًا صغيرة من الأسفل كي تتيح له التنفس بشكل جيد وتوجّها نحو مطار أوساكا الذي قَدِما منه وطلبا من شرطة المطار عدم تعريض الصندوق لأشعة ليزر خشية على آلة التشلّو الموسيقية الثمينة من تشويه دوزنتها فمرّا بسلام من دون إثارة أية شكوك. ثم شُحن الصندوق إلى حجرة الحقائب وكان عليه أن يتنظر نصف ساعة حتى يحين موعد إقلاع الطائرة في تمام الساعة 11 ليلاً. وما إن تحركت عجلات الطائرة حتى شعر بالحرية والخلاص من محنة التحقيق التي قد تُبقيه نحو عشرين عامًا في أعتى السجون اليابانية. وصلت الطائرة إلى إستانبول ومنها إلى بيروت. وحينما عقد فيها مؤتمره الصحفي أصيب المحامون الذين تبنّوا قضيته بالصدمة والذهول لكن كارول وحدها لم تسقط في الدهشة لأنها تعرف أن زوجها العبقري بارع في حلّ المعضلات التي يقع فيها.

يقظة وبعض حلم

د. ناظم علاوي

تحت وطأة الكسل، وانسحاق العمر بين الكتابة والكتب والركض على الرزق، وبعد هذا العمر الطويل ومروره على أفكار لم تذبل، ولن تتساقط، هذا هو بالضبط كل ما التقطه وهو جالس في مقهى (الكرم) لأبي إيلاف في حي الجامعة، تلك التي خضب على أرضها شبابه واستحالت أزقتها وشوارعها وعيا كوّن من خلاله أعماله القصصية والروائية خلال سنوات عمره الطويلة، والذي لا يستطيع أن يدنيه الآن كمبتدئ أو خال من التجارب، وهو الماشي على أرصفة مدينته الرائعة!

الآن فقط قرر أن يستريح، لهذا تراه يعود إلى حيث بدايته مع صديق صباه منذ أن عرف لذّة اكتشاف الأشياء لأول مرة، وتحسس زفير صبره.

الآن وهو جالس في المقهى برفقة صديقه الذي يقرأ في جريدة "للحب طعم الاحتراق" فجأة علا صوته ثم رمى بالجريدة جانبا:

- لا أدري كيف يكتب هؤلاء الأدباء؟! وعن ماذا يتحدثون؟

وفتح فاهُ بابتسامة، أردت أن أجيبه وأنا الأعزل إلا من جدار الرجولة والتعارف والشهادات والأفكار السائبة ضد كل ما هو خطأ أو نغمة نشاز والـ.... لكن شبحا يلّفه السواد لامرأة قد أنهكها العمر

والانتظار، ظهرت أمامي كومضة لنقطة بيضاء، لا أدري من أين قدمت؟ ولم أنتبه من أين حضرت؟ تتوكأ على عصا مبرمجة مع آلامها وأحزانها وصبرها، أراها تتقدم تجاهي.

مثل دهشة وقفت أمامي، وذهبت مسرعة بعد أن رمت ورقة أمامي على الطاولة، تحمل نبض صبرها، ومضت تسرع بخطاها المثقلة، لم تتفوه بأية كلمة، مضت وهي تجرجر معها وخلفها أكواما من الاعوام داخل ضلوعها الصغيرة!

اتجهت بنظري إلى صديقي مستفهما والدهشة تبخّر وقار عمري وعينيّ، التفتّ بعدها ناحية المرأة، لكنها مثل دخان ظهر واختفى، عندها حدّقت ملياً في هذه الورقة، والتي بدت لي متهرّئة وقديمة، والاصفرار مثل مرض قد انتشر وأكل جزءا كبيرا من بياضها وتآكلت طياتها، قلت لصديقي اللائذ بصمت وسكون

ومستغرب مثلي مما جرى، وأنا أنظر لأشبع فضولي من هذه الورقة، وقبل أن أمدّ يدي إليها:

- لا بد أن هذه الورقة قد كتبت منذ زمن بعيد!

لم يتفوه صديقي بأية كلمة وظلَّ غارقا في دهشته، حاولت فتحها بعناية خشية أن تتمزق وأفقد مفتاحا للغزٍ أحاول أن أفهمه، وتلح روحي مستنجدةً بعيوني أن تقرأ أسطر هذه الورقة.

فما أن انبسطت الورقة أمام عيني بوميضها الممزوج بالاصفرار ولون القلم حتى جذبتني كلمة – حبيبي – في أعلى الورقة، نظرت إلى الاتجاه الذي ذهبت منه المرأة لكنني لم أر سوى آثار لروح معذبة، وطيور على الأشجار كانت تتراقص، بعدها نظرت إلى صديقي الذي ما زال مأخوذا بالدهشة والصمت والترقب.. عدت إلى الورقة لأقرأ:

= مهجة قلبي وروحي... يا أملي في الحياة، وضاعت بقية كلمات السطر في طيات الورقة المتآكلة لقدمها، قفزت إلى السطر الذي يليه:

= أنت لا تعرفني ولن تعرفني... لأنك لا تريد أن تعرفني... أتدري لماذا؟ وضاعت بقية الكلمات وأكملت ما أستطيع أن أقرأه:

= أنت تسكن حيَّنا، وكنتَ تجلس دائما قبالة دارنا وخاصة في ليالي الصيف، وضاعت بقية الكلمات.

= أراك ولا تراني... أحس بك... ولا تشعر بوجودي، كان الكتاب الذي بين يديك يشغلك عن كل شيء، كنتُ دائما ما أتساءل: ترى ماذا بين أسطر الورق لتجعله.. وضاعت بقية الكلمات.

= أكثر من مرة حاولت أن أكلمك! لكن حيائي، وكبريائي، وخوفي من الأهل منعنني... كنت أخرج ليلا وأنت جالس وعيناك غائصتان بين دفتي الكتاب لأرش الماء وأنظف عتبة الدار علّك تراني وتشعر، وضاعت بقية الكلمات.

التفتّ إلى صديقي ملغوما بالدهشة والتعجب ومتسائلا علّي أجد عنده إجابة تروي فضولي:

- منذ متى كتبت هذه الورقة؟ إنها مهترئة وقديمة، تكاد أن تتمزق! لم تنبس شفتاه بأية كلمة، فيما عيناه تحاولان الفهم!

عدّت مجددا إلى الورقة لأقرأ وأستوضح سرا بدأ يضغط على روحي ويؤنبها، ولتذري عنها أطناناً من الاستفهامات والتساؤلات!

= من أجلك لم أوافق على أيّ رجل تقدم لخطبتي... كنتَ أملي وحياتي، فقد أحببتُك، نعم أحببتُك منذ أول مرة رأيتك فيها، ودائما ما كنت أمنّي نفسي، وأرى أحلاماً بأنك ستطرق باب دارنا لتتقدم وتطلب يدي للزواج، أو أن تلمس يدي لنرش الماء سوية على باب الدار، وضاعت بقية الكلمات.

= خلقتُ لك، وخلقتَ لي، هكذا أمنّي نفسي وأواسيها، كنتَ في النوم أنيسي، وفي الظلام بطلي الذي يطرد وحشتي، أتذكرها جيدا، ولم تَغِب عن بالي أبداً، تلك الليلة (الحزيرانية) عندما تجهَّمت السماء وتلبدت بالغيوم، فتساقط المطر سريعا مدرارا، نهضت من مكانك لتحتمي تحت مظلة دارنا، حينها كنت أقف على

عتبة الدار، نظرت أليّ وابتسمت ودوى صوتك يهز داخلي، ليلامس شغاف قلبي، أحسستُ بأني أكادُ أجن، وكادَ أن يغمى عليّ من الفرح عندما قلت: "مساء الخير، عذرا، لم يحدث أن أمطرت في مثل هذا الوقت"، ابتسمت، وركضت مسرعا إلى داركم، ودعتني بنظرة وابتسامة عندها شعرت بأن الليل أصبح غير الليل، وأن الحياة أصبح لها طعم آخر، عندها بدأت أرسم أحلاماً وأتصوّر حياتنا المقبلة الهانئة السعيدة، ودعوت الله أن تمطر ليلة أخرى.. وضاعت بقية الكلمات.

قلت لصديقي الغارق في ذهول وهدوء، والاستغراب منقوش على وجهي بصوت حائر:

- هذه المرأة تحبني، الآن تذكرّتها، إنها جارتي في حيّنا القديم، رباه ماذا فعلنا بها أنا والزمن؟

لكنه حاول أن يجد لنفسه تبريرا وهو المندس في نزواته حدّ أذنيه، والمتزحلق الكبير في طقوس لهاث لياليه الحمر، إنه يرتطم الآن بحفنة وهم تحتمي تحت نيران عمره، والمرشوش بحجارة تكاد تمزق مهابة وعيه الأنيق، ليدرك الحدّ الفاصل بين اليقين المعاش – خلال سنوات عمره الطويل – وهو يرزمه ليلقيه في البُعدِ البعيد/ أقصد الأمنيات التي تسربت من حياتي _ وبين حقيقة تستنطق مستقبلاً وئد قبل أن يولد - عاد من شرود فكره ليرجع مرة أخرى إلى الورقة:

= بعدها تغّير حالك فما أن تراني حتى تبادرني السلام، وتترك كتابك وتبقى تنظر إليَّ، فكنت أعيش على هذا، وأشعر أني أملك الدنيا، وضاعت بقية الكلمات.

= كم من عريس تقدم لخطبتي، كنت أرفض، وأقول: متى ستحضر لخطبتي؟ بدأ العمر يأكلني، والكلّ يتساءل لماذا ترفض.. ما السبب؟ إن العمر يمضي كالقطار لا ينتظر أحداً هل أقول، وضاعت بقية الكلمات.

= اختفيت فجأة، ولم أعد أراك، أخرج كل ليلة أنتظر وأراقب الطريق، لكنك لا تأتي، ومضى الوقت، وتآكل شبابي، وأجدبت حياتي، ولاك الزمان نظاراتي، ولفَّني كابوس ثقيل، وغادرني ربيع عمري وأنت لم تأتِ، كان الأجدر أن أفهم لكني.. وضاعت بقية الكلمات.

لهذا قررت أن أنتقم منك، يا أجمل وأعذب إنسان رأيته في حياتي، يا أملي الذي لم يتحقق! بأن أجعلك تؤنب نفسك، وضاعت بقية الكلمات.

هنا بدأ يقتنص تخطيطا لحياة بدت له مثل امتدادات صحاري الجزيرة شمال الموصل، وإنها بدت مترهلة لسعادة مشوهة، وهو الذي انغرس في حياة ظنَّها مُترفة، ليزفر وهو يتمم:

- الخسارة الكبيرة في حياتك أنك لا تعرف ما الذي تريده خلال عمرك، وأنك تفرط بالأشياء الثمينة لتعود بعد ذلك نادما على الذي فات، لكن العمر مثل القطار يمضي ومن المستحيل أن يعود إلى محطة غادرها! .عندها تحسس روحه مثل نقطة ما زالت ملتصقة بتلك الأيام، أيام صباه، لهذا تراه يعود إلى حياة الصبا، وأيام تسكُّعه في شوارع محلته القديمة مع رفاقه، لكن الآن كلهم ذهبوا، ولم يعد يراهم، حتى مقهى (الكرم) تغيرت، والركن الذي يجلس فيه

بصحبة رفاقه قد ذوى... دائماً ما كان (أبو إيلاف صاحب المقهى) يحجزه لهم، ويسّميه ركن الأدباء والمثقفين، أما الآن فهو يرى فتياناً انحشروا فيه مثل نغمة نشاز يلعبون النرد ودخان الأراجيل يشوه المكان، وتتعالى قهقهاتهم، شعر بالمكان يبكي هذا الخواء/ الضياع... وفي خضم شروده تحسس بأن رفاقه ما زالوا جالسين (واستكانات) الشاي فارغة أمامهم – القاص علي حيدر (الجميل المحيّا والأنيق) يُسمع يعرب السالم وناظم علاوي آخر قصة كتبها، فيما انشغل الشاعر محمد بدر الدين البدري (آخر العظماء) كما يحلو له أن يلقّب نفسه بقدح الشاي الممتلئ بالسكر بعد أن شرب زجاجة كاملة من شراب (التوسيرام) وتقاسم الزجاجة الاخرى مع الجميل القاص ليث غانم وبجواره الشاعر (سليط اللسان)، حاتم حسام الدين يقرأ لبشار عبدالله ونزار عبدالستار إحدى قصائده الحديثة، فيما انزوى وحيدا في ركن المقهى كعادته الشاعر كرم الأعرجي والسيجارة لا تفارق شفتيه، وبالقرب منه الشاعر عمر حماد هلال يسّطر على ورقة أبياتا لقصيدة هلالية، والمنفضة متكدسة بأعقاب السجائر... ودمعة تترقرق من عيني وليد الصراف وهو يشدو بأبيات من قصيدة للشاعر المرحوم محمد البياتي صديق صباه أمام هيثم غانم وصالح عيسى، وتلك المناقشات تخترق جماجمهم للمرواتي عمار أحمد وهو يلعب بأنامله على آلة العود الأثيرة إلى نفسه، ما الذي فعلته؟ وماذا جنيت؟ بعدها تقاطرت من عينيه دمعات دوت في ذاته:

- لماذا أشعر بأني غريب عن كل شيء زفر/آه / لعنة الله على الأيام، بل علينا عندما نبكي بحرقة أيامنا التي انفلتت من بين أيدينا بإرادتنا، ومن دون وعي منا، أطرق برهة، ثم عاد إلى الورقة ليفاجأ بأن الأسطر الأخيرة قد كتبت حديثاً، باستعجال قرأ:

= لم أكلَّ أو أملَّ أبدا من أنك ستكون نصفي الجميل حتى ولو حصل ذلك في أحلامي فقط، لهذا بقيت أبحث عنك ولم أيأس أو يصبني الملل، واستمريت أسال عنك كل من أعرفه أو لا أعرفه، وأخيراً وبعد جهد كبير وعمر تسرّب مني عرفت مكان وجودك، حزمت حقائبي لأحضر إليك... لكني لم أصدق حين قيل لي: إنك الآن في حيّنا، في مقهاك المعتاد، لهذا قررت أن أعطيك هذه الورقة!

وأنا لم أزل أرش الماء على باب الدار...!

محاولة لتطويق الكائن اللامرئي

آلاء الخيرو *

كان ذلك الصباح كثير الغيوم، وكانت هي المرة الأولى التي أعوم فيها بمشاعر الحزن منذ وفاة أبي العام الماضي ولم يمر على أسرتنا وقت طويل حتى لحقته الخالة، فقد بات الموت ضيفاً على أسرتنا، وبذلك صرنا نتشاطر الم الفراق أنا وأمي وبتنا متناصفين بالحزن.

الغريب أنني أتذكر يوم وفاة خالتي أكثر من وفاة أبي. ربما لأنني رأيت الموت في هذا اليوم متجسداً في شخص أحبه مستلقياً على الفراش وقد طبعت على جبينها البارد قبلةً مبللةً بالدموع. بينما مات أبي بعيداً عني في الغربة.

أضحت الحياة بعد رحيل والدي ، خالتي بالنسبة لي مكللة بفكرة الموت تلك الحقيقة التي لا يمكن الفرار منها.

أتذكر خالتي، وهي تحتضر في تلك الليلة التي سبقت وفاتها جيداً فقد بذلت جهوداً كبيرة للبقاء ولكن هذا هو القدر.. وقد رتب يوم الرحيل.

خرجت من منزل الخالة ولم يشعر بي أحد، الكل مشغول بأمور العزاء، وأحس أني أعدو خطواتي لأركب الباص الذي كان مسرعاً، وأنزلق على الطريق السريع وسمعنا ضوضاء لحادث مروري صعب كأنه نحيب نفسه الذي كنت قد سمعته يوم أمس حينما كان في بيتنا طقوس عزاء الخالة.

وكان التوقف عند الشارع الرئيسي.. أراقب الأشخاص خفية ..واحداً تلو الآخر، والكل خائف من ذلك القاتل اللامرئي الفيروس أشعر أني الوحيدة غير الخائفة من ذلك الموت.

عندما أبحث عن سبب لهذا التصرف أرجح بأنه عندما يرى المرء الموت مرة فإنَّ بريقه يختفي في المرة التي تليها.

عددنا خمسة، لا أرى السائق، لأنني اخترت مكاناً في أقصى مؤخرة السيارة كلمة واحدة من كل واحد بلهجته تكفي لكشف انتمائهم. يبدأ الكلام رجل جنوبي يحمي أنفه وفمه بلفاع من الصوف: هل تعرف مكاناً يبيعون فيه الكمامات؟ يجيب السائق بحنق: وكيف لي أن أعرف ذلك.

آسف، ولكن لا يمكن العثور على الكمامات في الوقت الحاضر، حاول أن تصنع واحدة في البيت، ثمة فيديوهات كثيرة يمكنها أن تساعدك في هذا الشأن، ثم

علينا أن نبدع، أن نتدبر أمورنا، إنَّه الوقت المناسب لذلك، تبادرني السيدة التي تتكلم بلطف.. ألا تراني مصيبة... لا يساورني الشك في أنها واحدة من أولئك اللاتي يقرأن بشغف روايات أجاثا كريستي ملكة الحبكات البوليسية.

أعرج بنظري على الشمالي أيضاً: حيث تبادره السيدة نفسها بالسؤال ؟ كيف حالك يا أخي، أنتم في مدنكم أثناء المطر تبيعون المظلات، وأحسبكم الآن تبيعون الكمامات، أليس كذلك؟ الشمالي لا يرد، ولكنه يبتسم بوداعة. هؤلاء غالباً لا يتحدثون، وعادة لا تعلم ما إذا كان الكردي يتكلم، أو حتى يفهم العربية أم لا. أتراجع إلى مكاني في الخلف وأفكر: لو كان بإمكاني الاختيار، لسافرت في الحال إلى إحدى المناطق السياحية، لأبحث عن عزلة تناسب بؤس هذه الأيام، غير أنه، لسبب غريب، يخطر ببالي قول الشاعر ييتس:"كل شيء يتغير...ويتساقط الواحد منا تلو الآخر". وكثيراً ماكنت أقرأ لهذا الشاعر، وفي كل مرة أختبر من خلال كلماته جلادتي.

كان هناك أيضاً رجل متغطرس بعض الشيء ، يبدأ حديثه مع شخص يظهر من ملابسه الرثة إنَّه عامل بناء، وكان يتكلم بجواله عن حرية الرأي وحقوقه المسلوبة ، فبادره بالحديث قائلاً بتلك النغمة المعهودة لرأسمالي عتيق: ها قد وجدتم الخبز، تعملون وتلبسون جيداً، وعذراً لوقاحتي، تنعمون بالحرية أيضاً، تلك التي لم تتذوقوها في حياتكم.

فأجيبه بصوت عال قاطعاً قراءتي للرواية : ليس من ثمة أكبر من هكذا وقاحة، مجرد صفاقة تأنس لها نفسي لما تتكرمون به من نصائح ثمينة لشريحة من المجتمع تكاد تكون الأهم فيه. كان يضحك من كل قلبه: يضيف بخبث : وتعلمتم لهجة المحاججة أيضاً.

يتوقف السائق، وأنزل وأتجه مباشرة نحو السوبر ماركت، ساعات ويبدأ الحجر الصحي، خطوة عملية لتطويق هذا الكائن اللامرئي، ولا أدري من يطوق الآخر في هذه الحالة، هو أم نحن؟ في الطريق، تشد انتباهي شجرة كأنها جسم محدب فأتوقف والتقط صورة لها، وكأنني بهذا أودع العالم. أو كأنَّ فكرة الفقد أصبحت تسيطر على مشاهداتي، فقد تغيرت حتى مشاهداتي اليومية بعد فقدان والدي.

تتوالى غمزات الشمس من خلف أشجار الكالبتوز العالية، ثمَّ إطلالة خاطفة قبل أن تحجبها خيوط الظلام بشكل كامل، يتنبه شاب ويتقدم إلى الأمام قليلاً، يقيس مسافة التباعد، ويرجع خطوة إلى الوراء يحملق فيه الرجل الذي يليه، يهز رأسه ويرسل إلي نظرة ذات مغزى، أحدق بدوري في الشاب، لا أعرف، أشعر أني تائه في هذا العالم والآخرون معي نعبر الشارع كلنا وعلى مبدأ التباعد ، ونصل جميعاً إلى تبادل نظرات لا نعرف كنهها. حتى أن أحدهم يوشك أن يتكلم معي، ولكنه يكتشف أن المسافة لا تساعده، فيحول نظره نحو الحارس الأمني على باب المول البعض منهم يشعر بضيق عندما "يأمرهم" بالدخول: "تفضلوا..لا تدخلوا بدون كمامة". فهو أمر في النهاية. ألا يكفي كورونا ليأتي رجل أمن حاد الطباع يأمرنا؟

أشعر ببرودة المكان، اختلف الجو هنا عن الخارج، اسمع صوت سيدة في المقدمة،

تبحث عمن يعاضدها. أبتسم لها بقوة، لعلها بادلتني الابتسامة، فقد تحرك قناعها الواقي قليلاً وتقلص فكاها ثم صدرت عنها آهات طويلة، خطوة أخرى، أكملت شرائي بسرعة حيث أني لم أكن احتاج شيئاً واصلاً لا أعرف لماذا دخلت ذلك المول فباتت آلامي تأخذني إلى حيث لا أعرف ، خطوة ونخرج من المول وتصعد الحرارة. خطوتان، وها أنا أمام الجحيم الكبير الذي يسمى صيف مدينة الأحلام بغداد، نمشي بوقار، الواحد خلف الآخر، ونحافظ بدقة على المسافة التي حددها المرسوم الوزاري: متر واحد.

وصلت إلى بيت جدي، في اليوم الأول انتابني حنين جارف إلى تناول فطور الصباح بجانب المدفأة، كما كنا نفعل في زمن يبدو لي الآن بعيداً . الخبز الطازج بالسمسم والجبن والزيتون والبقدونس تملأ نكهتهما أرجاء الدار. وأنقطع عن شريط الذكريات بوصولي إلى المكتبة التي طالما اقتنيت منها كل الكتب التي أحب، ثمَّ تلاشى ذلك الحنين مع وصول ذكريات الماضي إلى ذهني وقد جاءتني كزائر يبدو غريباً وتقاسيمه كلها حزينة، أجول بنظراتي إلى الكتب ، تأريخ الأهل والأجداد وهم يحملون أسماء كتب وعناوين ومؤلفات فذة بأيديهم ويقرأون ويدورون تائهين بين الجدران، لا أسمع أحاديثهم، أشعر وكأنها موجودة في ذهني منذ أمد بعيد وتلك الأغاني العاطفية التي كانوا يسمعونها آهات وتأوهات مطربي ذلك الزمن.

ثمَّ فجأة شيء ما في عقلي الباطني، أخذ يذكرني بالمساحات التي كنت أكتفي بها طيلة المدة السابقة. والأدهى من ذلك بدأت أراها حالاً وهي تتقلص أمام عيني: هنا لا.. هناك لا.. الشرفة باردة، الحمام ليس مكاناً للمطالعة، فأعود بذاكرتي إلى الزاوية نفسها والتي كنت أشغلها بضع ساعات في اليوم، وأستغرب كيف كنت معتاداً على ذلك الحيز الصغير، ولا أذكر بأنني اشتكيت منه أبداً.

لقد فكرت أن أستغني حتى عن تلك الأمور الصغيرة التي كانت تمنحني بعض السعادة، مثل إصلاح رف الخزانة، سقي النباتات، ترتيب مظهري الخارجي، وتنظيف رمل الباب. إنما الأمور تتغير بسرعة، هذا ما كنت أحس به، والان أشعر أن السعادة ابعد ماتكون عني، فالفقد يهاجم حصوني. ولكن أرجع وأقول :

يمكننا دائماً أن نكون سعداء، حتى في اللحظات الحرجة، يكفي أن ننسى قليلاً، ولنفترض بأننا لا تستطيع أن ننسى آلام موت الأعزاء، الوباء وآلام الناس في بلدنا فمن الطبيعي أن يشعر المرء بآلام الآخرين، ولكن على شرط أن لا يجعل من ذلك مناحة تملأ القلوب بالغم وتجعل سهوب النفس أرضاً قاحلة. ها نحن، ها هي السماء تطفح بالنجوم، وبعد قليل، في الساعة التاسعة، مع الجميع ستعود أمي من مجلس عزاء الخالة، ثم نتابع الأخبار وسنخلد إلى النوم. كل ما هنالك، هو عندما يهاجمني شعور الشوق لمن فقدت أغالب شوقي بالرضا ، وابدأ حياتي وتملأني أحزاني بيوم جديد لأتعلم كيف أنظم برنامجي اليومي، بلا تهويمات وأفكار لا أعرف بعد ذلك كيف التخلص منها.

*** قاصة ومترجمة وناقدة تشكيلية**

نصوص

نصوص كردية من كريم دەشتى
ترجمة الأديب الراحل: د . سعدي المالح

تنشر لأول مرة

كريم دَشتي، شاعر كردي من جيل الثمانينيات، ولد في عام 1955 في أربيل وتخرج في كلية القانون بجامعة بغداد في أواخر السبعينيات. اغترف من منابع الأدبين العربي والفارسي، وعبرهما انتهل من الآداب العالمية التجارب الشعرية والأدبية المختلفة. وترجم عن الفارسية إلى الكردية «الإغواء الأخير للمسيح» لكازانتزاكي و«الجذور» لهيلي و«الرحلة إلى الشرق» لهيرمان هسة وغيرها من الروايات. له أربع مجموعات شعرية بالكردية: الأرض والصقر» و« الضباب الأبيض للروح» و« كتاب الماء .. كتاب الناي» وأخيرا« الكتاب المقدس للعشاق» الذي نترجم منه هذه القصائد.

حقيبة

1

أحلم دائما بحقيبةِ سفرٍ
وبسفرٍ بعيدٍ ... بعيد جداً

2

أريد أن أري البحرَ
أن اذهبَ إلي تبت وأزور دلايلاما
أن أسافر إلي وسط كشمير وأستلقى علي ظهرى
أن أري ملامح دانتى فى متحف ميلانو
يقال إنه ما يزال ينتظر عودة بياتريس

3

البندقية تعجّ بالتجار
لكنى أعرف فقط تاجرا واحدا
التاجر الذى وضعه شكسبير إلي الأبد
فى حقيبة الفكر

4

الحقيبة التى أريد مليئة بالكتب
عندما أفتح هذه الكتب
يغدو قعر تلك الحقيبة بحراً
لن ينتهى أبداً

5

الحقيبة الأولي التى رأيت
كانت حقيبةً عثمانيةً
فى يد رجلٍ طويلِ القامة
كان يجوبُ الأزقة
يختن أولاد مدينتى
والآن كلما رأيت حقيبةً
أشمّ رائحة السبرتو

6

أتذكر عندما التحقت بالمدرسة للمرة الأولي
صنعت لى أمى حقيبة من الخِرَقِ
عندما كنت أعلقها من رقبتها تشبه حبل مشنقة
من ذلك اليوم وحتي الآن
كلما رأيت فيلما
تنصب فيه مشنقة
أتذكر حقيبة الخرق تلك

7

مرات كثيرة أتمدد تحت سماء مليئة بالنجوم
أفكر بأن أمتلك حقيبةً كبيرة
بحجم الأمل والتمنى والرجاء
أضع فيها الأسلحة والحروب والمظالم كلها
وأرميها فى البحر مثل شبكة

8

رأيت بائع عطور يبيع بضاعته فى المدينة
ذات يوم مر بعتبة بيت
حينما فتح حقيبته
فاحت منها رائحة زكية
كان فيها قنينة عطر تضوع رائحتها فى الأرجاء
واليوم عندما أزور تلك العتبة
أشم رائحة ذلك العطر

9

الحقيبة الأولي التى حملت
كانت تلك التى سافرت بها بالقطار إلي بغداد
أول كتاب وضعت فى حقيبة
كان كتاب «إسماعيل نامة»

10

فى وسط قيصرية أربيل
رأيت شخصين يتقاتلان
يضربان بعضهما البعض بحقيبة

11

الحرب الأولي كانت علي حقيبة السلطة
الحرب الثانية كانت علي حقيبة المال

الحرب الثالثة كانت علي حساب
حقيبة أولاد المدرسة

12
كان المعلم يقول دائما
إذا وجدتم شيئا ليس لكم أعطوه لصاحبه
لكنى عثرت علي حقيبة فيها ربع دينار
اشتريت به ثلاث لُعَبٍ وقلما وصمّونا عسكريا

13
كان حمه المعتوه رجلاً نورانياً ابيض الشعر
عندما يصل متجر الحديد والفافون فى المدينة
يقف ويمعن النظر
لكن عندما يبلغ متجر بائع الحقائب
يلتفت إلي الوراء ويدمدم مع نفسه

مثل مياه رقراقة صافية

1
قلب العشاق شفاف مثل الزجاج
عندما ينكسر لا يلتحم من جديد

2
لكى أتحرر
يجب أن أرمى بهذا القلب
لكنك أنت فى قلبى!

3
أنا وأنت نشبه كثيرا ندفة الثلج
عندما نهطل نكون فى حلة بيضاء
وعندما نذوب نتحول إلي ماء
وعندما نصير ماء
ننتظر أن تلفحنا أشعة الشمس
لنرجع إلي قلب السماء المتوقد

4
أنت واضحة كالشمس
ما أن اقترب منك احترق
وما أن ابتعد اختنق
وبين الاحتراق والاختناق
قولى لى ماذا أفعل؟

5
أنت شمس ساطعة الضوء
وأنا عين ضعيفة

6
نذهب أنا وأنت إلي مزرعة الأوراق
وعندما نسقط
ندخل رويدا رويدا فى الأرض
حتي نصل القمر الفضى
وعندما يلفنا التراب والغبار
ننتظر الرياح أن تأخذنا إلي السماء

7

تعالى نذهب إلي حيث نشاء
عندما نكون معا
يصبح الكون فسيحا
عندما نفترق
يصبح بحجم جوزة

8

حينما تشتعلينَ فى أوردة دمى
مثل نارٍ متوهجة
أذوبُ مثل نُدفة ثلجٍ
وعندما تنطفئينَ
أشتعلُ مثل النار

9

كثيرا ما أري صراخى
كيف يرجع إلي صدرى
تقطر منه أحجارك الثمينة
تذهب إلي تلك الطرق
التى تخفينا

10

أنت تغمزين بعين واحدة
تتغير صورتك مائة مرة
أنت واحدة بألف صورة
ذات يوم أصابُ بالجنون
بين كلِّ هذه الصور

11

أنا وأنت رفيقان مختلفان
عندما تكونين فى علو السماء
أكون فى عمق الأرض
عندما تتبوئين مكاناً عالياً
أبدا بالنزول
أنا وأنت رفيقان من المحال أن يلتقيا

12

الفرقُ بينى وبينُكِ
مثل الفرقِ بين النهر والبحر
أنتِ تكبُرين بى
وأنا أضيعُ فيك

13

أنا وأنت مثل الملاك والشيطان
من دون أحدنا الآخر لا نعيش

14

جسدك مثل ضباب خفيف
من بعيد جدا
أري قلبك من بين أضلعك وشراييناك
إن قلبَك مثلَ روحى
مثخن من ألف مكان

15

اخترق صدي حبنا
الأزقة والبيوت
ونحن لم نلتقِ بعدُ

16

أنا وأنت مسكتا خنجرين
سُحِبا علي شخص واحد
أنا وأنت قطرتا دم مسكوبتان
أصبحتا قطرة واحدة

17

أنت صديقة الأيام الصعبة
ولكى أسوح بك علي أجنحتى
أحتاج إلي عمر طويل
أطول من مائة

18

الذى يعرفنا أنا وأنت
يعرف معني النار
والذى يفهم معني النار
يعرفنا أنا وأنت

19

أنا وأنت مثل الحلم
فى الليالى يختلط بعضه بالبعض

20

أيها الله لماذا قلبى رقيق هكذا
كأنه قطرة ندي متجمدة
وأنتِ أحيانا مثل البرق
تضيئين فى وسط كيانى
فأذوب قليلا قليلاً

21

أنا وأنت غيمة صيف بيضاء
نحترق متحسرين للمطر

22

أنا وأنت أفقان متوازيان
من الصعب مرة أخري
أن يحتضن بعضنا الآخر.

23

إذا أفِلْتِ مرة عنى
أبدأ فى الأصباح
بالشروق لك
من المرابع البعيدة

24

قصة حبى وحبك
تشبه المحال
كلما أشعلك تنطفئين
كلما أبتعد عنك تشتعلين

25

أنت تنئين عنى
حتي يكاد شبحك لا يري
وأنا أقترب منك
حتي يكاد شبحى لا يري

26

رأيتك فى حلم طفولى
كأننى أراه الآن
لكن عندما أراك الآن
يسقط فكرى مثل ورقة
كأنه تبن فى مهب ريح قوية

27

خبأتُ سرَّكِ فى قلبى
حتي لا يُفضح
كنت أعتقد أنه يحجب عنك الضوء
أو يغوّش صورتك الشفافة
أو يخبط المياه الصافية فى نهرك
أو يكسر جوهرة روحك

28

أنا وأنت منذ أن خُلقنا
نقرأ كتابا
صفحته الأولي حب وأشواق
صفحته الأخيرة جرح واحتراق

29

محتميا بقمر محطم الآن
أحسست مثل ريشة جناح الطاووس
تساقَطَتْ حديثا
أو مثل قطرة دم
هربَتْ من جبين غزالة

إننى أتدحرج من علو شاهق
باتجاه السفوح

30

أنت قضية معقدة
أمسَكُكِ تستسلمين
أطلقُ سراحَكِ تلتصقين بروحى

31

أنت صامتة إلي درجة
أحس فيها أن العالم كله
ساكن وميت

32

رأيتك كنت عشبة خضراء
تميلين مع الريح
والآن فوق القبور
ترقصين الرقصة الأبدية

33

كلانا أسير فخ واحدة
أنا فخك
وأنت فخى

34

لقد شربنا جرعة ماء واحدة
لكننا ذرفنا بحرا من الدموع

35

حبى وحبك مثل الريحان
كلما جف أكثر
ضوّع رائحة أزكي

36

مهما تكونى بعيدة
يا قطرة المطر
ما أن استيقظ فجرا
تسقطين من السماء
وتحطين فى الذاكرة

37

عاجلا أم آجلا سأنتهى
لهذا من دون قيد أرفع صوتى
أخط علي الورق
ما يأتى علي لسانى
فقط كلمة واحدة أحتفظ بها لنفسى
أبوح بها مع حشرجة الروح

ذكريات صغيرة

تحت زرقة السماء
وأحيانا علي جناح غيمة بيضاء
تجول فى الكوخ وتحت سقف بيتنا
تجد مكانا لها علي دفاتر الأطفال والرحلات
المكسورة
تجلس علي تخوت البيت
علي المخدات والدكّات
تدخل حقائبنا
تشرب الحليب معنا
تزور الصف البارد للمدرسة
وفى الليالى
تعد النجوم معنا

*** الاديب التقدمي الراحل : د. سعدي المالح ، قاص ومترجم ، له عدة مؤلفات .**
ترجم عدداً من الكتب عن الروسية . تولى منصب مدير عام دار الثقافة السريانية في كردستان.

مختارات من شعر الهايكو

جواد وادي

1
شجرةُ الأكاسيا هادئةٌ
هبةُ ريحٍ وتسقطْ
لا يعرفُ كيفَ ذهبَ هناكْ

2
البردُ قارصٌ
اليمامةُ تهيمُ عشقاً
ماتَ حبيبُها من العمرْ

3
ما أحلي أن تشاركنيْ النبيذَ
شفتاها مطبقتانِ
طقطقةُ الكؤوسِ عاليةْ

4
حبٌ يوقظُ اليافعينَ
تكبرُ الرغباتُ
يخضّرُ عشبُ الربيعْ

5
لبغدادَ أربعةُ أحرف
ماذا لو أضفنَّا حرفاً خامساً
لتساقطَ الخيرُ هناكْ

6
عادةً ما يعلوْ الصراخُ
أسمعهُ من بعيدٍ
الضياءُ تلاشي تماماً

7
تستعدُّ المرأةُ للصيفِ القادمْ
جسدُها ينضحُ شبقاً
فتحنا لها نوافذَ جديدةْ

8
ما أغربَ أنْ تداريْ سكيراً
نسيّ أسمَهْ
كيفَ نقودُهُ لدارهْ؟

9
زهرةُ اللوتسْ
تنامُ هادئةً الليلةَ
تبحثُ عن موتٍ رحيمْ

10
يا لهُ من يوم حزينْ
كلّما حركتّ الريحُ الأشجارَ
يزدادُ كمداً

11

كيفَ للحساسين أن تغرّدَ
والعيونُ البغيضةُ
تترصدُهَا

12

الخفافيشُ تترقبُنيْ
كمْ أنا خائفٌ الآنَ
الغضبُ يزدادُ نحويْ

13

غرابُ يزدادُ سواداً
يكرهُ اللونَ الأبيضَ
الطيورُ تهيمُ فى البحيرةْ

14

لمْ يصلْ ساعيْ البريدِ بعدُ
قلبُها يخفقُ
ها هوَ يتراءي الآنْ

15

كمْ عشقتُ هذا القميصَ
لهذا
بقيتُ عارياً

16

أكرهُ أزيزَ سريريْ
الليلةَ سأنامُ عميقاً
أنا وحديْ

17

الشمسُ لم تشرقْ بعدُ
صمتٌ يعمُ المكانْ
ظلامٌ علي الرابيةْ

18

يا لهُ من صليبٍ ثقيلْ
أدمي ظهرَهُ
يسوعُ تحملَهُ صابراً

19

كلّما أفاقَ فجراً
سمعَ صوتَ فيروزْ
المذياعُ لا ينامْ

20

زقوراتٌ غطّاها الغبارُ
لا أحدَ يقرأْ
الحبُ هنا ميتْ

21

البابليونَ
لا يعرفونَ البكاءْ
لماذا كلُّ هذا الحزنْ

22

السومريونَ
يرِثُونَ الشتاءاتِ من أسلافِهِمْ
بوابةُ عشتارَ مشرعةٌ

23

الطيورُ في وكناتِها
لا تخافُ
لعلعةَ الرصاصْ

24

اللونُ الفضيُّ
أدمنَ معاشرةَ النجوم
من أينَ نأتيْ بالصبرْ؟

25

قفازانِ بلونينْ
لا أصابعَ فيهُما
الدماءُ تجفُّ

26

جلجامشْ
لا يصادقُ الفراشاتِ
كمْ من العذاري ينتظرْ؟

27

كلُ الألوانِ تليقُ بها
ما عدا
لونُ السناجبْ

28

الصهيلُ
يتعالي هذه الأيامْ
من قتلَ الأفراسْ؟

29

ما أكثرَ شراهةَ النملِ
ملعقةُ سكّرْ
لا تكفي لهذهِ الأسرابْ

30

كلُّ هذه الأرغفةِ
والبطونُ خاويةٌ
ثمةَ من يحترفِ النفاقْ

31

الخيولُ
تدّكُ بحوافرِها
هذا العشبَ اليابسَ

32

صفاءُ الماءِ
لا يعكسُ صورتَهُ
إنهُ رجلٌ نشازْ

33

يا لهُ من رجلٍ نباتيْ
لا تحرّكْ غريزتَهُ
رائحةُ الشواءْ

34

الجدرانُ مثلما السديمْ
لا أحدَ يراها
أدارَ ظهرَهُ وسقطَ في الحفرةِ

35

البوصلةُ
تتحركُ كثيراً
لأيِّ مدارٍ تتجهْ؟

36

نباحُ الكلابِ
لا تتقصدُ المشاءَ
لماذا كلُ هذا الضجيجْ؟

37

دورانُ العجلةِ
يعيقُ الرؤيا
حذارِ من الانزلاقْ

38

نزلتُ من برجيْ العاجيْ
ولم أجدْ
منْ يصفعُنيْ بالكلامْ

39

نشارةُ الخشبِ
تتناثرُ
منْ يجمعُ سبيبَ الجيادْ؟

40

كمْ من ضياءٍ مرّ
وهذا الحوذيُّ في ذاتِ المكانْ
أما من خلاصٍ لهُ؟

41

أه أيتُها النعامةُ
كمْ سلبوكِ حقكِ
في التخفيْ عن البشرْ

42

اللونُ الأسودُ
أدمنَ معاشرةَ الحزنِ
لا سبيلَ للفرحْ

قراءة في كتاب «الدولة العقيمة» لحسن الجنابي

د. معتز عناد غزوان

في كتابه الموسوم (الدولة العقيمة - تجربتي في حكومة حيدر العبادي) كتب الوزير والسفير د. حسن الجنابي كتابه التوثيقي المهم عن تجربته الحكومية كوزير للموارد المائية، والكشف عن مكامن الضعف في الأداء الحكومي بوصفه وزيرا لإحدى الوزارات السيادية. جاء سرد هذا الكتاب متسلسلاً في احداثه التي جعلها الكاتب نسقاً حكائياً ينمو من الاسفل ويتسع نموه نحو الاعلى في اشارة واضحة في تشكل الاحداث وتعاظمها وتحولاتها السياسية والاجتماعية والبيئة والاقتصادية وغيرها. قدم هذا الكتاب د. عقيل عباس الذي دعا الى ضرورة الاطلاع على تجربة الوزير الجنابي في هذه الفترة المهمة من تاريخ العراق.

جال الجنابي في فضاء واسع ملامساً لحياة الانسان العراقي الذي بات يعيش حياة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة كما يقال.... الكتاب يعد توثيقاً مهماً لفترة حرجة وصعبة لاسيما ان الوزير الجنابي هو وزير اصلاح جاءت به الارادة الشعبية التي طالبت الحكومة بإجراء اصلاحات سياسية مهمة ابان احداث عام 2016م. وهذا ما اكده الكاتب في قوله ان كتابه هذا ليس بالمذكرات السياسية التي اعتاد العديد من السياسيين ان يدونوا فيها ذكرياتهم الخاصة والعامة، بل عده بمثابة وثيقة تسرد فيها الاحداث وتحلل المواقف وتوثق مكانياً وزمانياً تحتفظ بها الذاكرة العراقية. لقد وثق الجنابي تلك الاحداث بشكل ميداني وبتجربة ذاتية اتسمت بالموضوعية في العرض والطرح، اذ وضع مقاربة نفسية للشخصيات المختلفة في هذا الكتاب وكان موضوعياً في تحليلها، بعيداً عن المحاباة والإطراءات وغيرها من المبالغات التي اعتاد عليها الكثير من الكتاب والمؤلفين. اذ أكد الجنابي انه يكن لرئيس الحكومة كل الاحترام والتقدير لما كان يتمتع به من خصال شخصية محببة وبساطة، وقد كانت مرحلة حكمه من مراحل الحكم المهمة في تاريخ العراق ما بعد 2003م. وقد اشار أيضاً الى ان الوزراء المستقلين في هذه الحكومة لم تكن لهم حظوة مع رئيسهم بالمقارنة مع الوزراء المتحزبين، فقد كان

هؤلاء الوزراء والكاتب احدهم بعيدين عن اية استشارة تخص حقائبهم، ولم يتجاوز الوقت المخصص لهم للنقاش الا لدقائق معدودة.

ان الاحتجاجات الجماهيرية في عام 2016م قد شهدت اقتحام مبنى مجلس النواب العراقي في المنطقة الخضراء المحصنة، وأجبرت رئيس الحكومة على إدخال العناصر المستقلة في حكومته للإيحاء بأنها تغادر المحاصصة والانتماءات العرقية والاثنية وغيرها.

اشار الكاتب الى ان السيد رئيس الوزراء قد قدم اسماء المرشحين الجدد في الظرف المغلق الذي سلمه الى رئيس مجلس النواب والذي تضمن (14) مرشحا اصلاحيا للوزارات الجديدة باستثناء وزارتي الدفاع والداخلية، مشيراً الى أن رئيس الوزراء كان حيادياً بصورة لافتة إزاء الأسماء المرشحة في اشارة واضحة الى انه لم يكن جاداً في بناء نظام حكومي وسياسي جديد، بل انه خول رئيس مجلس النواب طرح اسماء المرشحين علناً امام النواب والتصويت عليهم بدلاً من التمسك بالقائمة التي قدمها هو.

تطرق الكتاب الى جوانب عدة اختزلت العديد من المحطات والاحداث المختلفة التي كانت ولا تزال جزءا من حياة الشعب العراقي ومعاناته من مصاعب وازمات وتحولات شتى، عندما بدأ الوزير حسن الجنابي العمل فيها مسؤولاً عن الملف المائي الشائك في العراق، فقد واجه ازمات مختلفة كانت من بينها سعيه الحثيث لانعاش الاهوار واغمارها والسعي للحفاظ على بيئتها المتميزة، فهي مسطحات مائية تتميز بالعراقة واحد مظاهر حضارة وادي الرافدين العظيمة وقد وجدت مشاهدها الطبيعية في الاختام الاسطوانية السومرية والاكدية، إذ شغلت المنطقة الخصبة المهمة ما بين نهري دجلة والفرات، فبيت القصب رمز الالهة عشتار الهة الخصب والعطاء في العراق القديم، وبيت القصب هو رمز الاله تموز (ديموزي) اله الخصب والعطاء ايضا.

تطرق الكاتب الى الاهوار وتاريخها وتحولاتها البيئية والتاريخية، وقد سبق له أن ترجم كتاباً مهماً عن الاهوار للكاتب الشهير (غافن يونغ) والموسوم (العودة الى الاهوار) والذي طبع بطبعات عدة. لقد كان اهتمام الكاتب بالأهوار اهتماما كبيراً، اذ سعى قبيل استيزاره بسنوات عدة الى اغمار الاهوار وتطويرها واقامة مشاريع

من شأنها الاسهام في تطور بيئتها واعادتها الى سابق عهدها، بل تحويلها الى اماكن سياحية، وقد أسس لذلك مركز انعاش الاهوار التابع لوزارة الموارد المائية، وفي إشارته الى مميزاتها عن المسطحات المائية في دول اخرى يقول: ان «قدرة الاهوار على البقاء تأتي من مرونتها في استعادة طبيعتها بعد اي انكماش او عارض تتسبب به احوال طبيعية او غير طبيعية، كالجفاف او الشحة المائية المؤقتة، ينبع ذلك من شدة تماسك حلقات الحياة المترابطة القادرة على انتاج شروط الاستمرار والتخادم الطبيعي بين البيئة، اي العناصر غير الحية، وبين الاحياء التي تعتاش عليها، وهذه توفر بالنتيجة شروط البقاء الانساني الذي تدرب عبر السنين على العيش بصورة وئام مع محيطه المائي تسمح ببقاء تلك التوازنات الطبيعية لذلك فان الكثير من الاحياء التي تعيش في نظام ايكولوجي صحي وقائم بذاته تمثل نموذجاً للعمليات الايكولوجية والبيولوجية الهامة، تكون مهددة بالانقراض بفعل تغير شروط البقاء والاستمرار».

تعرض الكاتب ايضا الى قضية التجفيف الذي شهدته الأهوار، وتسبب في نزوح سكانها الى اماكن اخرى، وقد ادى التجفيف الى انتهاء الحياة البيئية والايكولوجية ونفوق الحيوانات البرية كالجاموس والخنازير فضلاً عن الطيور والاسماك. وهنا يشير الكاتب الى انه وعلى الرغم من الصعوبات التقنية والمادية والاقتصادية التي كانت تواجه الحكومة بعد عام 2003 آنذاك فقد كان اهتمامها واضحاً واصبحت سياسة الإنعاش السياسة الرسمية للحكومة.

بدأ عمل الوزير حسن الجنابي بوصفه المسؤول الاول عن الملف المائي في الحكومة، على ضرورة العمل على ادراج الاهوار على لائحة التراث العالمي بجهود جبارة ووطنية حقيقية، على الرغم من اعتراض بعض دول الجوار في هذا الامر، غير ان الكاتب أسهم كثيراً في تذليل الصعوبات والمضي بمشروع ادراج الاهوار ضمن لائحة التراث العالمي في السابع عشر من تموز عام 2016م.

وفي حديثه عن ازمة شحة المياه التي ادت الى تدني مستويات المياه في الانهار وتأثر الاهوار ومن ثم تدهور الوضع في مدينة البصرة بعد تمدد اللسان الملحي الممتد من البحر باتجاه المدينة من خلال شط العرب وبسبب شحة المياه، وهنا بدأت معاناة كبيرة تتطلب من الوزير ان يتخذ قرارات مهمة بشأنها لمواجهتها واعادة الامور الى طبيعتها، وعلى الرغم من جهوده الحثيثة في توفير المياه العذبة الى البصرة التي شهدت غضباً جماهيرياً ضد الحكومة لا بسبب الشحة فحسب، بل بسبب تدهور الخدمات وباقي مستلزمات الحياة اليومية فيها.

وفي هذا الشأن يستخدم الكاتب مصطلح (الدولة العقيمة) قائلاً قدمت احاطة عن الوضع المائي لمجلس الوزراء في الحادي والعشرين من كانون الاول عام 2017م، مستشهداً بحالة الخطورة في سد دربندخان والقرار التركي بملء سد اليسو، فاقترح رئيس الوزراء تشكيل لجنة لمواجهة الشحة بدلاً من تخويل وزارة الموارد المائية بالصلاحيات المطلوبة، وهذا هو

ديدن الدولة العقيمة، اذ يلجأ المسؤولون الى تشكيل لجان غالباً ما ينتهي عملها بتقديم تقرير يركن جانباً. اما الحكومات الطبيعية فتتبع السياقات المعتادة التي تحترم الاختصاصات في معالجة الازمات. وهذا ما ادى الى ازدياد الوضع سوءا ولاسيما في محافظة البصرة وقد احرجت الحكومة بفعل الهيجان الشعبي فيها من الشحة والماء غير الصالح للشرب وتمدد اللسان الملحي، فضلاً عن تلوث المياه. كما تطرق الكاتب ايضا الى سبب مهم من اسباب شحة المياه في العراق ومنها قيام الوزير بمكافحة نبتة (زهرة النيل) الغريبة عن البيئة العراقية وهي من أسوأ انواع الادغال المائية ضرراً على التنوع الاحيائي والبيئة المائية، والتي دخلت في ثمانينيات القرن الماضي الى المياه العراقية وشكلت نوعاً من الخطر الكبير في البيئة المائية، وقد تمت مكافحتها واجراء عمليات تنظيف واسعة طالت كافة الانهار والجداول والمسطحات المائية للقضاء عليها وبنجاح.

يختصر المؤلف زمن تجربة طويلة في العمل المائي ليأتي الحديث عن سد الموصل الجدلي والذي اثار العديد من الشائعات والمبالغات والمغالطات في اثارة خوف المواطن العراقي من انهياره وهو عبء جديد على كاهله. اذ يتطرق الكاتب من خلال تجربته حول سد الموصل الذي وصفه بانه تصميم رائع وقد صمم بعامل امان ليتحمل الفيضان باحتمالية حدوث واحد لكل عشرة آلاف وهذا احتمال نادر الحدوث، ويمنح أماناً مريحاً للمشتغلين، وكانت تجرى فيه عمليات التحشية بصورة مستمرة من اجل الحفاظ على ديمومة عمله من خلال وصف الكاتب بوجود نفق خاص بالتحشية وصفه بالتصميم العبقري. واستغرق الكاتب في حديثه عن تجربته الشخصية في العمل بهذا السد وديمومته منذ ان كان مستشارا لوزير الموارد المائية حتى استيزاره وتوقيع العقد مع الشركة الايطالية التي كانت تجرى معها العديد من المفاوضات حول العقد لينتهي الامر الى توقيعه والمباشرة بأعمال الصيانة والتحشية للسد، وقد اثارت تلك الاجراءات العديد من المصادمات مع الحكومة في بعض النقاط، بيد ان التقدم الذي حصل في تنفيذ مشروع التحشية وتأهيل السد كان ملموساً على الرغم من بعض الاختلافات التعاقدية والمالية والى درجة اقل فنية بحسب رأي الكاتب. كما وضع الكاتب تفاصيل مهنية وتقنية مهمة في هذا الميدان من الجدير الاطلاع على تفاصيلها وجهود الوزير الشخصية في ديمومة العمل في هذا السد المهم في خزينه الاستراتيجي للمياه في اوقات الشحة.

وفي خاتمة الكتاب تحدث الكاتب عن تلك التحولات السياسية المهمة التي شهدها العراق بعد تولي الحكومة الجديدة برئاسة السيد عادل عبد المهدي حيث التحق الكاتب في تلك الفترة سفيراً فوق العادة للعراق في الجمهورية التركية ليمارس عمله الجديد كسفير لدولة تعد المصدر الرئيس لمنابع نهري دجلة والفرات، فلم يكن اختيار عبد المهدي للجنابي اختيارا عشوائياً انما كان اختياراً قصدياً لأجل متابعة الوضع المائي بشكل اساسي مع الجارة تركيا، بيد ان الامر قد ازداد سوءا في داخل العراق

بعد الاحداث التي تلت الاول من تشرين الاول عام 2019م وسخط الشعب تجاه وعود الحكومات العراقية وتحولاتها التي ادت الى استقالة الحكومة بعد ما يقارب العام. كما وضع الكاتب الدكتور حسن الجنابي ملاحق عدة في نهاية فصوله السردية التوثيقية للأحداث وضح فيها العديد من المشروعات التي كان من المؤمل تنفيذها ومنها تفاصيل لمشروع انشاء السدة القاطعة على شط العرب في محافظة البصرة وبكل تفاصيلها وخرائط مشروعها، فضلاً عن التوصيات التي صدرت عن المؤتمر الدولي العلمي الاول حول سد الموصل في المدة ما بين 19- 20 من آذار/ مارس عام 2017م وبرعاية رئيس الجمهورية آنذاك، من اجل تعزيز وسلامة سد الموصل ومنها:

1- دعوة الحكومة العراقية الى تقديم المزيد من الدعم لوزارة الموارد المائية لتحسين سلامة السد وجعله تحت المراقبة الدائمة.

2- التأكيد على ضرورة توفير التخصيصات المالية اللازمة لإكمال دراسات انشاء سد بادوش كإجراء لدرء الخطر.

3- تأكيد تعزيز الشراكة الثلاثية بين الجانب العراقي والامريكي والايطالي في ادامة الاعمال والتعاون المشترك لتأمين سلامة سد الموصل.

ثم انتهى الكتاب بملحق للصور التي بلغت (66) صورة تناولت نشاطات مختلفة للمؤلف في مختلف المحافل الوطنية والدولية حول السياسة المائية العراقية.

انها جهود ثقافية كبيرة قام بها الكاتب في فترة استيزاره هي الاهتمام بالنصب والتماثيل العراقية المرتبطة بشكل ما بالمياه والحفاظ على مظاهر الثقافة والمدنية العراقية الاصيلة اذ قام بإعمار وصيانة تمثال الشاعر السياب الذي شيد على ضفاف شط العرب بمحافظة البصرة وتكليف النحات الكبير نداء كاظم الذي قام بنحت التمثال منذ اكثر من ثلاثة عقود مضت، وقامت الوزارة بدعمه وتوفير المستلزمات كافة لإعادة صيانة التمثال وظهوره بحلته الجديدة وبالفعل انجز هذا العمل الكبير وتم افتتاحه للزائرين وسط احتفال كبير.

نشر هذا الكتاب ضمن منشورات مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون، وبلغت صفحاته (368) صفحة.

(أفعى أم القرابين):
وجها الافعى.. هل يتحكمان بمصير الناس؟

طلال سالم الحديثي*

رواية (أفعى أم القرابين) للدكتور ممدوح يوسف الجاسم، تمثل صورة وبانورامية حيّةً لعالمنا، الذي نعيش فيه، في القرن الحادي والعشرين، وفي ظل الثورة الصناعية الرابعة وتطبيقات الذكاء الاصطناعي، من أجل نشر العدل والسعادة على كوكب الأرض ومن أجل التقدم والديموقراطية.

وقد اختيرت لبناء خيمة الرواية ثلاثُ شخصيات رئيسية عَمَدية وشخصياتٌ فرعية شِدْحية متممة، في زمان ومكان افتراضيينِ ومنفتحين.

وما يلفت الإنتباه أن هذه الشخصيات الفاعلة في الرواية، قد شملت عالم الإنسان والحيوان والجماد، وشكلت أساسا واقعيا ثلاثي الأثافي جعلها أكثر موضوعية وجذبا وجمالا، وماكانت عبقرية كل من الأفعى لورين والروبوت الامبراطور نونو العظيم، والأميرة ألكسندرين، إلا لتتفاعل بأسلوب رائع وخلاب، فيما بينها ومع الشخصيات الثانوية، لتقدم وحدة للتداول تضاهي تداول الأيام والعملة والروح بين الناس.

ولعل ما ورد في التراث العربي والعالمي، من صفات وأنماط وديدن حياة، أنيطت بالأفعى الطبيعية بشكل عام، وهي الصورة التي أريد لها أن تُرسَم في الرواية ممثلة بشخصية الأفعى لورين، التي عمقت الصورة الحقيقية للأفعى، وحببتها للقاريء الذي كثيراً ما كان يخافها ويتشاءم حتى من ذكرها.

إن الأفعى دائمة الشباب والحيوية، فهي تبدل جلدها باستمرار، وكأنها العنقاء التي تجدد حياتها

ولغوياً الحية من الحياة، كما يقول المرحوم د. خليل الموسى.

والشيطان حين تمثّل لأمنا حواء، تجسد لها بصورة أفعى.

وفي التراث العالمي نجد حضورا للأفعى عندما يتعلق الأمر بالخير أو الشر أو الاثنين معاً، وفي مجال الطب والصيدلة، معروفة الأفعى بكأسها

وعصاها التي تلتف حولها، وهذا الشعار المعروف لدى الإغريق القدماء بإله الطب أسكليبيوس والعصا السحرية التي واكبت النبي موسى في الكتب الإبراهيمية.

إلى جانب رهبة الإنسان من الافعى، فقد رافق ذلك الإعجاب بجمالها ورشاقتها وخفتها، فهي تنساب على سطح الارض، ويمكنها السباحة والطيران بفضل عضلاتها الخمسة عشر ألفا وفقراتها الأربعمائة، فضلا عن قدرتها على التكاثر بالإباضة والولادة معا.

ثم إن عيشها الرغيد وسُباتها السعيد في قلب الأرض يجعلها تستلهم الحياة والحكمة والخصب والقوة من أمنا الأرض.

إن إعجاب الإنسان الشديد بالأفعى، حدا به أن يقدسها ويؤلهها، وهذا ما نراه لدى الكمبوديين والمصريين الفينيقيين وغيرهم، كما أن الهنود الحمر قدسوا الأفعى ذات الأجراس، والبوذيون قدسوا الكوبرا، والبابليون قدسوها أيضا.

ووضعت الحية كشعار للصينيين والمصريين وملوكهم، وعُثر على تماثيل للأفعى من البرونز والحجر في جبل كنعان في فلسطين.

ويعتقد بعض الناس أن تقديس الأفعى قديم جدا ويعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، عندما كان النجم المعروف باسم ألفا دراكونيس، أي الحية الأولى يُعدُّ الكوكب الذي يتحكم في مصائر الناس.

ومن العجيب والغريب أن صورة الأفعى يستغلها عقلنا الباطل في إرسالِ رسائل تكشف عن حقائق علمية وفكِّ طلاسمها، كما حصل مع عالم الكيمياء العضوية الألماني فريدريك أوغست كيكوله الذي رأى في منامه أفعى سوداء تعض ذنبها، فتنبّهَ إلى أنها تشير إلى صيغة البنزين الحَلَقية التي شغلت باله زمنا طويلا. وهنا فإن الشيء بالشيء يذكر، ويبدو لي أن عبارة يونغ : انبثق من الحلم..

يمكن أن تستخدم هنا، لأنه كما تقول أناييس نن مؤلفة كتاب (رواية المستقبل) أن نعود للتعريف الأصلي للكلمة التي نستخدمها كثيراً دون أية مبالاة، إن تعريف الحلم هو الأفكار والصور التي توجد في الذهن ولا تخضع للعقل.

إن الرواية فن والفن جاد في قصده على مر الأجيال، لاسيما في عصرنا، لما له من أثر مباشر في نبض الحياة، وبلوغ جوهر الوجود في عمقه وشدته.

وليس من نافلة القول أن نشير إلى أن الابداع العلمي الذي حصل خلال السنوات الأخيرة وتمخض عن ولادة الذكاء الإصطناعي قد شكل قفزة نوعية في حياتنا، والروبوت الإمبراطور نونو العظيم هو نموذج حي لهذا الطموح الهائل، والإضافة النوعية، والرافعة القوية لتقدم الإنسان.

إن القراءة الحقيقية لبطولة الإمبراطور نونو العظيم هي في الواقع تنبؤ واعد جدا لاستبدال الإنسان الآدمي، بالروبوت الشقيق في العقل، الذي سيخفف الكثير من العقبات والصعوبات التي كنا نعتبرها من المستحيلات.

ثم إن شخصية الفتاة الطموحة والنقية الصافية ألكسندرين وقدرتها على التحول إلى جسر لنقل اللوجستيات مابين الانسان

والحيوان والجماد، أصبح حقيقة وواقعاً من خلال رواية أفعى أم القرابين، التي رسمت شارعا جديدا لنمطٍ حياتيّ مستقبلي، يقضي على عيوب منظومتنا المجتمعية الحالية وينقلنا إلى عالم خال من الاستغلال والاحتكار والجشع، إنه عالم السعادة والكمال، الخالي من الظلم والبؤس والكذب والفجور.

إن الحياة لا يكتمل نورها وبهاؤها، إلا بوضع الأمور في نصابها، وجعل أدواتها لا تقف عائقا في مجراها. وكل عثرة في الحياة تعود إلى ما يشبه الورم السرطاني الذي يستدعي الاستئصال، وإلا فسيكون واحدا من أبواب الموت الرئيسية الثلاثة، من دماغ وقلب ورئتين، الموجودة لدى الفرد والمجتمعات على حد سواء.

ولقد أوضحت لنا رواية أم القرابين الصلة العضوية والمنطقية بين كوكبنا والعوالم الأخر ى التي تبعد عنا آلاف السنوات الضوئية من خلال الرحلة التي قام بها والد فيصل سعيد المهاجر من الأرض وإليها، بل والأعقد من ذلك أنها، أي الرواية قد غاصت في نفوسنا وأظهرت الوشاية والكذب والزيف التي تعاني منها نفوسنا المريضة، وهذا ظهر من خلال الدور الذي لعبه الروبوت المشاكس.

• ورواية أفعى أم القرابين، زودتنا ليس فقط بمجهر يرينا حالنا البائسة والتعيسة والمريضة، التي تعشق المراءات والذل، وإنما منحتنا نفحات علمية صريحة، وفضحت عوراتنا من خلال مدينة الحشاشين التي تجسدت في مُدننا وقرانا وبيوتنا.

• وهناك مجرّات كونية وذرات كيميائية أشارت إليها الرواية لا يمكن استبصارها إلا من خلال مطالعة شاملة ومركّزة للرواية، ونلحظ من خلالها كيف جمعت الرواية أيضا مابين الثنويات الجدلية، وفي طليعتها الحظ أو الصدفة من جهة وبين الضرورة من جهة أخرى، كما تجلى ذلك في ربح فيصل للملايين، واحرازه المعرفة والمنصب، وهذا ما أصابته والدته الأفعى لورين، وزوجه ألكسندرين، وشقيقتاه، مريم وسارة... إنها الصدفة التي هي لعبة القدر، وقوله الفصل، عندما يعزُّ الخروج من عنق الزجاجة.

• وكما للقمر وجهان مضيء ومظلم، كذلك كان للرواية وجهان مضيء باسمٌ، ومظلمٌ كئيب.

• بقي أن أقول: أجمِلْ بالسرد والبلاغة المُحكمين، الواردين في الرواية من قبل مؤلف مفكر حاول إلى جانب رزانة الرواية ونبلها وفروسيتها أن يُلبسها أجمل الحلي والحلل الأدبية من بيان أدبي ساحر، وبديع تحسيني يبعث العجب، ومعاني معبرة وأخاذة ذات تأثير وإقناع.

*** باحث عراقي يعنى بالتراث الشعبي ، يقيم حالياً في تركيا.**

الشاعر الذي تنبأ بهيمنة الحاسوب ريتشارد بروتيغان:

ترجمة: سوران محمد

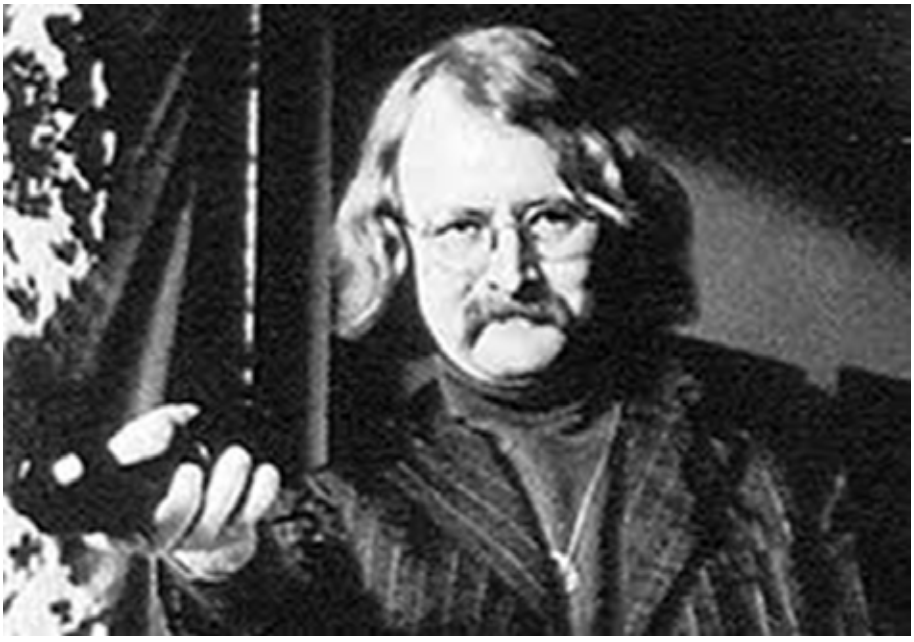

كل ما راقبتها آلات محبة أناقة
أود ان فكر وكلما كان عاجلا كان أفضل!)
فى مرج سبرانى
حيث الثدييات وأجهزة الحاسوب
تعيشان معا بشكل متبادل
تبرمج الوئام

كماء نقى
يلمس سماء صافية
أود أن أفكر
(الآن، رجاء)
فى غابة سبرانية
مليئة بالصنوبر والإلكترونيات

حيث تمشى الغزلان بسلام
متجاوزا الكمبيوتر
كما لو كانت زهورا
تغزل أزهارا.
أود أن أفكر
(يجب أن يكون !)
فى علم البيئة السبرانى
حيث نتحرر من أعمالنا
وننضم إلي الطبيعة،
نعود إلي ثديتنا
الأخوة والأخوات،
وكل مراقب
بآلات محبة أناقة

*** دلالات النص:**

كتب بروتيغان هذه القصيدة والمجموعة التي تحمل الاسم نفسه بين 17 و 26 يناير 1967، عندما كان شاعرا مقيما في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في باسادينا. تصف القصيدة المدينة الفاضلة التكنولوجية التي يعمل فيها البشر والتكنولوجيا معًا من أجل الصالح العام. يكتب عن "الثدييات وأجهزة الكمبيوتر تعيش معًا في انسجام برمجي متبادل"، حيث تعمل التكنولوجيا كقائم على الرعاية العامة، بينما "نتحرر من عملنا ونعود إلى الطبيعة". يختلف النقاد حول ما إذا كان هكذا في الواقع يعد الامر شيئا جديا أم انها سخرية ولا تمت بصلة الى الجد.

يعد معظم النقاد القصيدة كثقافة مضادة، وتبنيا مجتمعيا للرؤى التكنولوجية لحقبة الحرب الباردة. قال ناشر بروتيغان (كلود هايوارد) إنه "لفت انتباهي بإشاراته السحرية للآلات الحميدة التي تحافظ على النظام ... [والتي] تتناسب تماما مع تفاؤلنا بشأن وعد الكمبيوتر". إنها طفولية جدا وبريئة جدا، غير ان هذه التنبؤات لاحقا وفي عصرنا الرقمي صارت جزءا من حياتنا اليومية، أي - تدخل الحاسوب في ادارة الامور-

وقد فسره آخرون على أنه نقد ساخر لليوتوبيا الممكّنة تقنيًا التي تدعي أنها تتوق إليها. وفقًا لكارلوس سيليجو من جامعة ستانفورد هناك مفارقة في القصيدة "دقيقة ومعقدة مثل استعاراته المختلطة"، والتي يقول سيليجو إنها "تقوم دائمًا على ثلاثة أشياء على الأقل - وغالبًا ما تكون أربعة أو خمسة أو ستة أشياء في وقت واحد". لاحظ روبرت ج. جرانجوير كيف أنه من غير المعتاد أن يأخذ الشعراء الأمريكيون نظرة إيجابية لعلاقتنا بالتكنولوجيا، ولكن إذا نظرنا إليها على أنها من المفارقات، فإنها "تنضم إلى التيار الرئيسي للشعر الأمريكي المضاد للتكنولوجيا".

*** من هو الشاعر والروائي ريتشارد غاري بروتيغان؟**

* ولد الشاعر في عام 1935 في مدينة تاكوما، واشنطن، الولايات المتحدة.. بدأ مشواره الادبي في أواسط الخمسينيات للقرن الماضي، كان متأثرا بكتّاب كالـ: جاك كيروك، تشارلز بوكوفسكي، إرنست همينغوي، كارلوس وليم كارلوس. له

العديد من المؤلفات مابين الشعر والقصة والرواية، من أهم رواياته (صيد سمك سلمون المرقط في أمريكا) 1967.

وقد تميز بأسلوبه الخاص والنادر في الكتابة، حيث كان يمتزج بين الفكاهة والجد لرسم واقعا خياليا أو بالاحري كي ينسى بهذه الطريقة مآسي حياته الشخصية و ينتقد من خلالها الواقع الاليم في نفس الوقت.

كان للبؤس والحرمان والتهميش حضور دائم في حياته و داخل نتاجاته الادبية، ففي عام 1956 على سبيل المثال قام بكسر زجاجة شباك لمركز للشرطة كي يسجنونه حيث سيكون بوسعه الحصول على الاكل الكافي في السجن، لكنه سرعان ما خاب ظنه عندما تم تحويله الي المستشفى النفسي لتلقي علاج الشيزوفرينيا والبارانوي – العلاج بالصدمات الكهربائية آنذاك-

انتهى مشواره الادبي عندما انتحر في بولنيسا، كاليفورنيا في 16 سبتمبر 1984 عن عمر ناهز ٤٩ عاما..

* أما بالنسبة لأسلوب كتابة قصائده فهي وليدة اللحظة، حيث تمتاز أكثر القصائد بالقصر والاختصار، لكن يستعمل مضامينها الساخرة كوسيلة للتعامل مع مجريات الامور و ما يدور في محيط الشاعر، خاصة أثناء تداوله مواضيع حساسة ومهمة، فهو لم يكن يأخذ في الحسبان أية قيود تمنعه من كتابة ما يشاء، لذا نراه احيانا يقفز على المعنى و يعبر عما في داخله بشكل اعتباطي ..

صحيح اننا كقراء لم نتعود على هذا الاسلوب، لكنه عالميا يحظى بشعبية واسعة من بين القراء -خاصة من الجيل الصاعد، وله سمعة لا نظير لها مقارنة بكتاب جيله بسبب أسلوبه المتميز في الكتابة، في حين يعد بعض النقاد اعماله بالشطحات ويرونه انه لا يلتزم في نصوصه بأية قيود أدبية ولغوية ويستعمل مصطلحات غريبة وصورا عجيبة نوعا ما..

ولم أجد وصفا أدق لأسلوبه في الكتابة غير الذي كتب عنه في جريدة الحياة ذات مرة: (أن قصائد بروتيغان هي من بين النصوص الأكثر ابتكاراً في الأدب الأميركي الحديث، سواء بالدعابة المسيَّرة داخلها أو باستعاراتها الغريبة أو بالتلاعب الفريد في صياغتها. ولا عجب في ذلك، فبروتيغان كان يعتبر الشعر أرضية مثالية لإعادة ابتكار الذات. وهذا ما يفسّر الأشكال المتنوّعة التي تحضر فيها هذه النصوص: قصائد هايكو عرجاء، سونيتات مخرَّبة عمداً، عناوين صحف، إعلانات ذات فائدة عامة، أفكار تتداعى بطريقة آلية، نشرات جوية سورّيالية، شذرات سير ذاتية، مزامير، أوراق نعي، شتائم، قصائد تقتصر على عنوانها أو يتجاوز هذا الأخير بحجمه نصّها، من دون أن ننسى التجليات على طريقة جايمس جويس أو النكات الماركسية أو اليوميات المقطّعة).